التَّعلِيق
عَلَىٰ
تَفسِيرِ السَّعدِي

تأليف الشيخ العلامة: عبد الرحمن بن ناصر السعدي
- رحمه الله -

لفضيلة الشيخ:
سُلَيمَانُ بن سَلِيم اللهِ الرُّحيلي

قام بتفريغه:
مجموعة الأخوات التطوعية

فهرس السور

سورة النبأ...1

سورة النازعات...40

سورة عبس...73

سورة التكوير..94

سورة الانفطار..111

سورة المطففين..122

سورة الانشقاق..150

سورة البروج..176

سورة الطارق..196

سورة الأعلى..211

سورة الغاشية..227

سورة الفجر..245

سورة البلد..269

سورة الشمس..287

سورة الليل..299

سورة الضحى..313

سورة الشرح..323

سورة التين.......................................335
سورة العلق.......................................344
سورة القدر.......................................353
سورة البينة.......................................362
سورة الزلزلة.......................................379
سورة العاديات.......................................387
سورة القارعة.......................................397
سورة التكاثر.......................................403
سورة العصر.......................................408
سورة الهمزة.......................................414
سورة الفيل.......................................419
سورة قريش.......................................422
سورة الماعون.......................................425
سورة الكوثر.......................................431
سورة الكافرون.......................................435
سورة النصر.......................................439
سورة المسد.......................................443
سورة الإخلاص.......................................447
سورة الفلق.......................................451
سورة الناس.......................................457

إنَّ الْحَمْدَ لِلهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلاَ هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١]

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهُدى هُدى مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وسلم، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ

ثمّ يا معاشر الفُضلاء إنّ شهر رمضان شهر القرآن أُنزل فيه القرآن ﴿شَهرُ رَمَضانَ الَّذي أُنزِلَ فيهِ القُرآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿إِنّا أَنزَلناهُ في لَيلَةِ القَدرِ﴾ [القدر: ١]، وفيه يُدارس القرآن؛ فكان جبريل عليه السّلام يدارس النبي صلّى الله عليه وسلّم القرآن في رمضان.

وإنّ من أعلى أنواع قراءة القرآن أن يقرأ المسلم القرآن بتدبرٍ وفهمٍ للمعاني، وقد جاء عن أمنا عائشة رضي الله عنها: (أنّها كانت في رمضان إذا صلّت الفجر تقرأ القرآن حتى تطلع الشمس فإذا طلعت نامت)، رضي الله عنها وأرضاها.

ونحن في أيام شهر رمضان بعد الفجر نعقد هذا الدرس نقرأ آيات الله عزّ وجل ونعرف معانيها حيث نشرح ونفسر الجزء الأخير من القرآن من خلال كتاب تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للإمام المفسر الأصولي الفقيه المتفنن عبد الرحمن بن ناصر سعدي السعدي رحمه الله عزّ وجل وسائر علماء المسلمين.

وسنسير في الشرح والتفسير إن شاء الله بأن نقرأ مقطعًا من السورة ثمّ نشرحه ونفسره إجمالًا، ثمّ نعود إلى تفسيره التفصيلي حيث نقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله عزّ

وجل ونُبينه ونزيد عليه، وإذا ختمنا السورة فإنّا نقف وقفاتٍ مع الفوائد العلمية والآثار الإيمانية للسورة فنبدأ بسورة النبأ فيتفضل الابن نور الدين يقرأ لنا من هذه السورة.

سورة النبأ

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

بسم الله الرحمن الرحيم .

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ (٣) كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٥) أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾ [النبأ: ١-١٦].

يقول الله عزّوجل: عن أي شيءٍ يتساءل مشركوا قريش؛ حيث يسأل بعضهم بعضًا، أو يسألون رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين سؤال استكبارٍ وإنكار.

﴿يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾: الخبر الكبير ذي الشأن الخطير وهو القرآن وما فيه من أخبار الغيب؛ لا سيما ما يكون بعد الموت من البعث والجزاء والحساب.

﴿الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾: في أقوالهم وفي أحوالهم، أمّا في أقوالهم فإنّهم مضطربون اضطرابًا عظيمًا؛ فمنهم من يقول هو قول ساحر، ومنهم من يقول هو قول كاهن، ومنهم من يقول أخذه محمدٌ صلّى الله عليه وسلّم من الأعاجم من أهل العبرانية أو أهل السيريانية، واضطرابهم يدل على بطلان أصل قولهم، ومختلفون فيه في أحوالهم فمنهم مكذبٌ به وبما فيه من الأخبار عن يوم البعث والفصل؛ ومعاندٌ ومستكبرٌ ومصرٌ حتى يموت على ذلك، ومنهم من سيؤمن به ويؤمن برسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وهكذا كان الحال فمنهم من كذب بالقرآن ابتداءً وبما فيه من الأخبار، وبرسالة النبي صلّى الله عليه وسلّم وأصرَّ واستكبر حتى مات على ذلك، ومنهم من استنار فؤاده وقلبه فعلم أنّه الحق فصدق به وآمن.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: ردعٌ لهم وزجر وإبطالٌ لأقوالهم، سيعلمون حقيقة هذا النبأ العظيم؛ يوم يرون ذلك عيانًا فيعلمون العلم الذي لا يمكن إنكاره لا جحودًا ظاهرًا ولا جحودًا باطنًا؛ بل هو علم اليقين الذي تستسلم له النفوس.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾: تأكيدٌ معنوي للجملة السابقة، وهذا خبرٌ تضمن التهديد والوعيد فإنّهم إذا علموا ذلك فإنّه واقعٌ بهم لا محالة؛ فما توعدهم الله عزّوجل به من الجزاء والعذاب في الجحيم سيقع بهم لا محالة؛ فهذا خبرٌ تضمن التهديد والوعيد.

ثمّ بيّن الله عزّوجل بعض الآيات الدالة على صدق محمدٍ صلّى الله عليه وسلّم وعلى وجوب الإيمان بالقرآن وبما فيه من الأخبار، والدالة على وجوده سبحانه وتعالى، والدالة على أنّه هو الرب الذي خلق ودبر سبحانه وتعالى وأحكم، والدالة على أنّه هو القوي المتين الذي على كل شيءٍ قدير سبحانه وتعالى، وهي آياتٌ كونية يراها كل أحد، وهي موصلةٌ إلى العلم بتلكُم الحقائق.

﴿أَلَمْ نَجعَلِ الأَرضَ مِهادًا﴾: ألم نصير الأرض مهادًا لهم: ممهدة كالمهد للطفل يرتاح فيه فهي ممهدةٌ لهم بأوديتها وبصفتها وببسطها، فهي كالفراش لهم ليست صلبةً كلها، وليست رخوةً لا ينتفعون بها؛ وإنّما منها ما هو صلبٌ يحبس لهم الماء ويبنون عليه، ومنها ما هو رخوٌ قليلًا بحيث يحرثونّه ويزرعونّه وتنبت فيه الزروع، وهكذا الأرض مهدت لهم.

﴿وَالجِبالَ أَوتادًا﴾: فجعلنا الجبال كالأوتاد للأرض حتى لا تميد بهم، ولا تميل بهم، ولا تضطرب بهم؛ بل هي ثابتةٌ مستقرة.

وهذه الجبال للأرض كالأوتاد للخيمة، والمعلوم أنّ الوتد يكون أكثره في داخل الأرض وما يخرج منه إنّما هو ما ينفع خروجه، وكذلك الجبال فقد أثبت العلماء أن أكثرها وأوسعها إنّما هو في داخل الأرض.

﴿وَخَلَقناكُم أَزواجًا﴾: أي: خلقناكم يا بني آدم أزوجًا من ذكرٍ وأنثى، وأزواجًا في صفاتكم فلستم على صفةٍ واحدةٍ في جميع أموركم؛ بل لو تأملتم في أنفسكم لوجدتم الآيات العظام فإنّ ما يحتاجه بنوا آدم على وجه السوية يستوي فيه بنوا آدم فالأنوف في مكانٍ واحد، والعيون في مكانٍ واحد، والأفواه في مكانٍ واحد، والروؤس في مكانٍ واحد، والأيدي

في مكانٍ واحد، والأرجل في مكانٍ واحد، وما يحتاج بنوا آدم فيه إلى الإختلاف كانوا فيه أزواجًا في صفاتهم فمنهم الطويل ومنهم القصير، ومنهم النحيف ومنهم البدين، ومنهم الغني ومنهم الفقير، وخلق لكم أزواجًا كذلك تنتفعون بها.

﴿**وَجَعَلنا نَومَكُم سُباتًا**﴾: فجعلنا لكم نومًا يغشاكم فترتاحون به، وجعله لكم راحةً من الأشغال ومن تعب الأبدان لا تستطيعون إيجاده بأنفسكم ولو بذلتم ما بذلتم، وإنّما الله أنعم عليكم به فهو من النّعم العظمى.

﴿**وَخَلَقناكُم أَزواجًا**﴾: يغشاكم ويغشى الأرض حتى يغطّيها ثمّ يزداد شيئًا فشيئا فتشتد ظلمته كلّما أوغلتم في اللّيل -فسبحان الله- يأتي الظّلام فيطرد النّور الذي كان، ويغشاكم ويغشى أرضكم، من الذي جعله كذلك؟ هو الله سبحانه وتعالى، لا تجد قطعةً فيها نورًا وقطعةً فيها ظلمة في نفس المكان؛ بل يغشى اللّيل المكان حتى يكون كاللّباس، واللّيل يستركم ويستر عوراتكم كاللّباس، ثمّ إذا جاء النهار طُويت الظلمة وذهبت وحل النّور -فسبحان الله- أين ذهبت ظلمة اللّيل في النّهار، وأين ذهب نور النّهار في اللّيل؟ إنّها آيةٌ من أعجب الآيات وأعظمها تدل على مدبّرٍ موجود سبحانه وتعالى.

﴿**وَجَعَلنَا النَّهارَ مَعاشًا**﴾: أي: جعلنا النّهار وقت معاشكم وطلبكم ما تعيشون به، وجعلنا لكم في النّهار ما يعينكم على ذلك وييسّر لكم ذلك.

﴿**وَبَنَينا فَوقَكُم سَبعًا شِدادًا**﴾: وسقَّفنا فوقكم سبعًا وهي السّماوات السّبع شدادًا قويةً، لا ترى فيها اعوجاجًا، ولا ترى فيها تشققًا، ولا ترى فيها ميلًا؛ بل هي سقفٌ فوقكم وتنتفعون به، وجعل الله لكم فيها منافع عظيمة منها ما ذكره الله عزّوجل بعدها.

﴿**وَجَعَلنا سِراجًا وَهّاجًا**﴾: الشّمس في السّماء، وفيها صفتان نافعتان غاية النفع لبني آدم: أنّها سراج ففيها الضوء الذي ينتفع به بنوا آدم في النّهار، وأنّها وهّاجةٌ أي متلألئةٌ حارّة؛ ففيها الحرارة وفيها الدفء الذي فيه من المنافع لبني آدم ما لا يقدُر قدره إلا الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك إنضاج الثمار وقتل الضّارِ وغيرُ ذلك من الفوائد العظيمة للشمس.

﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾: أنزلنا لكم من المعصرات وهي السّحب التي تحلّبت بالماء فامتلأت ماءً ولّما ينزل الماء منها؛ فبأمر الله ينزل منها الماء ولو شاء لصرفها بدون أن

تنزل قطرةٌ واحدةٌ منها، وأراكم شيئًا من ذلك فإنّكم ترون السحاب قد اسودَّ، وترجون نزول المطر، فإذا بالرياح تهبُّ بأمر الله وتفرِّقُ تلك السّحب ولا تنزل منها قطرةٌ واحدة ولكن الله بكرمه ورحمته بكم يُنزل من تلكم السحب ماءً ثجاجًا؛ ماءً منصبًّا من فوقٍ إلى أسفل متتابعا فتنتفعون به وبنزوله، ولو انصبَّ عليكم مرّةً واحدة لأضرّكم وأضرَّ زروعكم، لو أنّ السحب أفرغت ما فيها دفعةً واحدة على الأرض لتضرر النّاس ضررًا عظيما وتضررت دوابهم وتضررت زروعهم، ولكن الله عزّوجل جعل المطر منصبًّا متتابعا لا ينزل دفعةً واحدة، ولا ينزل قطرةً قطرة، وإنّما ينزل منصبًّا متتابعا، وهذه آيةٌ عظمى.

﴿**لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا**﴾: لنخرج لكم به قوتكم وقوت دوابّكم؛ فنخرج لكم حبًّا هو قوتكم الذي تقتاتون به، ونباتًا هو الأعشاب التي تأكلها الدواب.

﴿**وَجَنَّاتٍ**﴾: أي: بساتين ذات أشجار، ﴿**أَلْفَافًا**﴾: أي: ملتفةً متقاربةً متشابكة الأغصان، ومع ذلك تجد أنّها مختلفة الثمار.

وكل هذه الآيات الكونية والحسية دالةٌ على وجود الله سبحانه وتعالى: فإنّها لا يمكن أن تكون خالقةً لأنفسها؛ فإنّها مُوجَدةٌ محدثة ولا يمكن أن تكون قد وُجدت صدفة بهذا الإحكام والإتقان فلابد لها من خالقٍ، وبالسّبر والتقسيم لا يمكن أن يكون الخالق لها بهذا الإبداع والإحكام إلا الله سبحانه وتعالى، وهي كما قلنا دالةٌ على أنّ ربنا سبحانه وتعالى القوي المتين؛ الرب المدبر الذي هو على كل شيء قدير.

فما أعظم هذه الآيات وما أعظم دلالاتها على المقصود، فإنّها دالةٌ على العلم، ولذلك لا ينكر منكرٌ وجود الله ولا ربوبيته ولا استحقاقه للألوهية إلا وهو منكرٌ ذلك على سبيل الاستكبار والجحود الظاهر، وإلا فإنّه لا يستطيع أن يدفع عن نفسه هذه الحقائق:

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

وكان حق هؤلاء المشركين أن يعلموا وهم في الدنيا وجود الله وربوبية الله وألوهية الله، وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وصدق ما جاء في القرآن، ولكن الله عزّوجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل الظالمين بعدله سبحانه وتعالى.

قال الإمام عبد الرحمن السعدي رحمه الله تعالى رحمةً واسعة ورضي عنه وعن شيخنا وعن السامعين:

أي: عن أي شيءٍ يتساءل المكذبون بآيات الله.

﴿عَمَّ﴾: أصلها: عن ما، ثمّ أدغمت النون في الميم وحذفت الألف "ألف- ما" للدلالة على الإستفهام فصارت عم، ومعناها : عن أي شيء، وهذا سؤالٌ موجهٌ إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وإلى المؤمنين به تبعًا له، وهو سؤال تعجيبٍ من حال أولئك المشركين؛ حيث يتساءلون عما لا ينبغي أن يُتساءل عنه؛ بل ينبغي أن يؤمَن به وأن يُعتقد اعتقادًا جازمًا، فهذا سؤال تعجيبٍ من حالهم.

﴿عَمَّ يَتَساءَلونَ﴾؛ أي: يتساءل مشركوا قريش، ويلحق بهم كل من كان مثلهم إلى يوم القيامة ممن ينكروا هذه الحقائق العظيمة فإنّه داخلٌ في هذه الآيات وما فيها من الأخبار والوعيد والتهديد.

قال: ثمّ بيّن ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والإستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب؛ ولكن المكذبون بلقاء ربهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢) الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾

قال بعض أهل العلم: المعنى ﴿عَمَّ يَتَساءَلونَ﴾؛ يتساءلون ﴿عَنِ النَّبَإِ العَظيمِ﴾.

وقال بعض أهل العلم: المعنى ﴿عَمَّ يَتَساءَلونَ﴾؛ أعن النبإ العظيم؟

والنبأ هو الخبر، وقال بعض أهل العلم: النبأ هو الخبر العظيم فلا يقال لشيء نبأ إلاّ إذا كان عظيمًا.

وقال بعض أهل العلم: النبأ هو الذي يقع في المستقبل الخبر عن أمرٍ يقع في المستقبل.

وما هو هذا النبأ؟ قال بعض أهل العلم: هو القرآن، وقال بعض أهل العلم: هو البعث وما بعده من جزاءٍ وحساب، وقال بعض أهل العلم: هو نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم، والذي يظهر والله أعلم أنّ هذا من باب اختلاف التنوع لا من باب اختلاف التضاد فكلها داخلةٌ في النبإ العظيم وإنّها والله لنبأ عظيم؛ نبوة محمد صلّى الله عليه وسلّم والقرآن وما فيه من أخبار ولا سيما أخبار الغيب وما يكون بعد الموت.

قال رحمه الله: ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ (٤) ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانو به يكذبون حين يدعون إلى نار جهنم دعا ويقال لهم هذه النّار التي كنتم بها تكذبون.

(كلّا)، كَلّا: كلمة فصلٍ وزجرٍ وردعٍ وتكذيبٍ لدعواهم. كلمة فصل يفصل بها ما بعدها عما قبلها، وزجر عن القول، وردعٍ عنه، وتكذيبٍ لدعواهم؛ تكذيبٍ لدعواهم أنّهم لا يعلمون ، يقول: نحن لا نعلم ما تقول فإنّهم يعلمون الحقيقة وقد جاءتهم الآيات؛ الآيات المتلوة والآيات الكونية والآيات النفسية، فهذا تكذيبٌ لهم في قولهم إنّهم لا يعلمون، وتكذيبٌ لهم في تقولاتهم وتخرصاتهم عن النبي صلّى الله عليه وسلّم وعن القرآن.

﴿**كَلّا سَيَعلَمونَ**﴾؛ وأُكد الخبر بالسين سيعلمون علم اليقين وذلك عندما يموتون وهم لا ينكرون الموت؛ فسيعلمون ما يكون وراء الموت علم اليقين ولن ينفعهم ذلك العلم سوى أن يكون حسرةً عليهم فيتمنى أحدهم أن يعود ليُؤمن، وهيهات هيهات.

﴿**ثُمَّ كَلّا سَيَعلَمونَ**﴾؛ هنا إشكال من حيث اللغة أنّ الجملة الثانية لا تصلح أن تكون مؤكدةً للجملة الأولى لغةً؛ لأنّ التوكيد اللغوي لا يجوز أن يُدخل بين الجملتين حرف العطف وهنا أدخل حرف العطف ﴿كَلّا سَيَعلَمونَ﴾؛ لو كانت توكيدًا لغوي تكون الآية ﴿كَلّا سَيَعلَمونَ كَلّا سَيَعلَمونَ﴾؛ لكن أدخل حرف العطف هنا، **فقال بعض أهل العلم:** هذا توكيدٌ معنوي وليس لغويًا؛ وثمّ جيء بها لمزيد التأكيد، وهذا أسلوبٌ مستعمل تقول لابنك: سأضربك ثمّ سأضربك، فتأُكد بحرف العطف ثمّ وبالجملة.

وقال بعض أهل العلم: بل وجود حرف العطف هنا دالٌ على أنّ الجملة الثانية غير الجملة الأولى كيف؟ قالوا قول الله عزّ وجل: ﴿كَلّا سَيَعلَمونَ﴾؛ أي: هؤلاء المتسائلون المشركون المنكرون سيعلمون، وهذا وعيدٌ لهم.

﴿**ثُمَّ كَلّا سَيَعلَمونَ**﴾؛ أي: أنّ المؤمنين سيعلمون أيضًا؛ علمًا على علم حيث سبق علمهم النافع في الدنيا، وسيعلمون علم اليقين ويكون لهم ما وعدهم ربهم من المفاز والنعيم المقيم.

فهذه فائدة ثمّ هنا البيان أنّ الجملة الثانية غير الجملة الأولى؛ فالجملة الأولى في حق المكذبين والجملة الثانية في حق المؤمنين.

قال رحمه الله:

ثمّ ذكر النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل، فقال:

هي نعم دالة على وجود الله وعلى أنّ الله هو الرب المدبر، وأنّه العليم الحكيم وأنّه على كل شيء قدير؛ لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى وبالتالي هي دالةٌ على صدق رسل الله؛ الذين يرسلهم الله ويخبرون العباد عن الله عزّ وجل.

ثمّ ذكر تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾؛ أي: أمّا أنعمنا علكم بنعم جليلة فجعلنا لكم الأرض مهادًا أي: ممهدةً مذللة لكم ولمصالحكم من الحروث والمساكن والسبل.

أي: جعلنا الأرض لكم فراشًا وممهدةً، وكل ما فيها صالحٌ لمعاشكم من أودية، ومن أنواع التربة، ومن صفات الأرض كلها لمنافعكم، ولو تدبرتم لأيقنتم وعلمتم أنّ الله عزّوجل هو الرب وهو المستحق للألوهية لو لم تروا إلا هذه الآية وهي آية الأرض كيف أنّ الله مهدها لكم وسخرها لكم لكفاكم ذلك دلالةً على صدق محمد صلّى الله عليه وسلَّم.

﴿وَالجِبالَ أَوتادًا﴾: تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد.

تميد: يعني تميل حتى لا تضطرب فلا تكون مستقرة فلا تستطيعون العيش عليها، وإذا أردت أن تعرف هذا فانظر إلى حال النّاس وقت الزلزال، وهو وقتٌ يسير تضطرب فيه الأرض بأمر الله عزّوجل، وهو آية تدلك على عظم نِعم الله عزّوجل عليك في الأرض بأن جعل الجبال أوتاد للأرض حتى تستقر ولا تضطرب ولا تميل بك، ومهما حُملت من أثقال فإنّها لا تميد ولا تميل، ولا تنخفض وترتفع ولا تضطرب.

﴿وَخَلَقناكُم أَزواجًا﴾: أي: ذكورًا وإناثًا من جنسٍ واحد ليسكن كل منهما إلى الآخر فتتكون المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان بلذة المنكح.

هذا من جهة الأزواج في بني آدم، وهذه من آيات الله العظيمة أن جعل منّا الذكر والأنثى، ونحن جميعًا نخرج من الأرحام، ونُخلق من ماء الرجل وبويضة المرأة ومع ذلك تأتي هذه أنثى ويأتي ذاك ذكر، وجعل لهذا من الصفات ما يناسبه ولهذا من الصفات ما يناسبه، وجعل عند هذا ما يحتاجه هذا وجعل عند هذا ما يحتاجه هذا، وجعل بينهما مودةً ورحمة، وجعل لهما في النكاح لذةً ومنفعة؛ فجعل الشهوة في الفطرة وهذبّها بما يليق بمقام الإنسان؛ فجعلها لا تكون إلا بطريقٍ يليق بمقام الإنسان؛ فلم يجعل التزاوج في بني آدم كما بين الحيوانات وتلك نعمةٌ عظمى من الله عزّوجل على بني آدم، وأشرت إلى أنّه

يدخل في الأزواج أيضًا الاختلاف في الصفات، وهذا نافعٌ لبني آدم بحيث يخدم بعضهم بعضًا.

وأيضًا أنّ الله جعل لبني آدم من المخلوقات أزواجًا ليتم انتفاعهم بها.

﴿وَجَعَلنا نَومَكُم سُباتًا﴾؛ أي: راحةً لكم وقطعًا لأشغالكم التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم.

﴿وَجَعَلنا نَومَكُم سُباتًا﴾؛ قال بعض أهل العلم: سُباتًا أي: من السكون تسكنون فيه، وهذا يؤدي إلى الراحة.

وقال بعض أهل العلم: سباتًا من التمدد، وذلك أنّ الإنسان إذا نام يتمدد فيرتاح وترتاح أعضائه بهذا التمدد، ولذلك يدرك الإنسان أنّ مده لأعضائه يريحه؛ ولذلك تجد الإنسان إذا تعب يمد أعضائه هذا جزء من راحة النوم، قال بعض أهل العلم: سباتًا أي: من التمدد.

وقال بعض أهل العلم: سباتًا من القطع أي: أنّه يقطعكم عن أشغالكم التي لو استمرت لأتعبتكم، فينقطع هذا بالنوم فيقوم الإنسان نشيطًا، قال بعض أهل العلم: النوم يقطع الإنسان عما يضره ومن ذلك تعب البدن، ومن ذلك تعب الفكر؛ الإنسان قد تنزل به مصيبة فيفكر كثيرًا ويتعب، يأتي النوم يهجم عليه فيرتاح، وكل هذه الثلاثة تدل على أنّ في النوم راحة أعني السكون والتمدد والقطع؛ تدل على أنَّ في النوم راحةً.

قال رحمه الله:

فجعل الله الليل والنوم يغشى النّاس لتسكن حركاتهم الضارة وتحصل راحتهم النافعة.

طبعًا بيّنا: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾؛ أي: أنّه يغشاكم ويغشى الأرض، وسبحان الله لو كنت في الطائرة وقت بداية الليل ترى كيف أنّ الظلام يغشى الأرض كأنّه سحاب.

والنوم لباس لكم أي: يستركم؛ يغشاكم ويستركم، ولذلك هو وقت الراحة ووقت التخفف من الثياب ونحو ذلك.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾؛ كما قلنا جعلنا النهار وقت المعاش، فوقت معاشكم هو في النهار ويسرنا لكم ذلك.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾؛ أي: سبع سموات في غاية القوة والصلابة والشدة قد أمسكها الله بقدرته وجعلها سقفًا للأرض؛ فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس.

﴿وَبَنَيْنَا﴾؛ هنا بيّن ابن جرير أنّ معنى ﴿وَبَنَيْنَا﴾؛ أي: جعلناها سقفًا، قال: لأنّ العرب تقول للسقف البناء؛ تقول لسقف البيت البناء؛ فخاطبهم بما يعرفون.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ﴾؛ أي: سقفنا ما فوقكم وجعلناه سقفا، وهي هذه السموات السبع الشديدة الصلبة التي لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا ولا فطورًا ولا عُمدًا، بنيت بغير عمد نراها. بعض أهل العلم قال: أنّها بُنيت بغير عمدٍ أصلًا، وبعض أهل العلم قال: أنّها بُنيت بغير عمدٍ نراها، وقد يكون لها لكن لا نرى ذلك، وعلى كل حال فهي آية عجيبة في غاية الإعجاز.

قال: ولهذا ذكر من منافعها الشمس فقال: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾؛ نبه بالسراج على النعمة بنورها الذي صار ضرورةً للخلق، وبالوهاج وهي حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع.

كما قلنا صيرنا الشمس ﴿**سِرَاجًا**﴾ أي: منيرًا، ﴿**وَهَّاجًا**﴾ أي: متلألأ حارًا فيه الدفئ وفيه المنافع العظمى لأهل الأرض .

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾: أي: السحاب، ﴿مَاءً ثَجَّاجًا﴾: أي: كثيرًا جدًا.

﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ**﴾: **بعض أهل العلم قال**: المعصرات هي: الرياح لأنّها هي التي تعصر السحاب بأمر الله.

وبعض أهل العلم قال: المعصرات هي: السحب التي امتلأت ماءً فاستحلبت؛ يعني مثل ثدي المرأة إذا امتلأ لبنًا فاستحلب ولمّا يخرج يعني بمجرد أن يطلبه الصبي ينساب فهي ليست مجرد السُحُبْ، المعصرات هي السحب التي امتلأت ماءً فَاسْتَحْلَبَتْ ولمّا يَنزلْ ماءُها.

وقال بعض أهل العلم: المعصرات هي السّماء لأنّه جاء ﴿وَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ [المؤمنون: ١٨].

وَرجَّحَ كثيرٌ من المفسرين أنّها السحب لأنّها هي التي ينزل منها الماء حقيقةً، والله قال: ﴿وَأَنزَلنا مِنَ﴾؛ ما قال: وأنزلنا بالمعصرات، لو قال: وأنزلنا بالمعصرات لكان المراد الرياح، لكن قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ﴾: فيحتمل السّماء ويحتمل السحب، والسّماء إذا أطلقت في هذا المقام فالحقيقة المراد بها السحب التي في السّماء.

﴿**مَآءً ثَجَّاجا**﴾: قال شيخنا: أي: كثيرًا جدًا، وهذا قاله بعض المفسرين؛ لكن في الحقيقة لا يشهد له شاهد في اللغة العرب أن الثَّجَاجْ يطلق على الكثير وإنّما الثجاج هو المنصب المتتابع، فهو يتصف بهاتين الصفتين أنّه يُصبُ صبًا وأنّه يتتابع، وكما قلنا هذه آيةٌ عظيمة فإنّ المطر لا ينزل دفعةً واحدةً على الأرض، ولا ينزل قطرةً قطرة بحيث لا يُنْتَفَعُ به، وإنّما ينصب صبًا متتابعًا فيندفعُ ضرره ويتحققُ نفعه فلا إله إلا الله ما أحكمَ الله وما أرحمَ الله سبحانه وتعالى.

لنخرج به حبًا من بُرٍ وشعيرٍ وذُرةٍ و أرزٍ وغير ذلك مما يأكله الآدميون، ونباتًا يشمل سائر النبات الذي جعله الله قوتًا لمواشيهم.

فتكفل الله لبني آدم بأرزاقهم وأرزاق دوابهم فيخرج بالمطر ما يقتاتون به وما تقتاتُ به دَوَابُهُمْ هذا الحب والنبات.

وأشار بعض أهل العلم إلى أنّ الحبَّ هو القُوتُ والنبات هي الثِّمار التي يستمتع بها بنُوا آدم؛ الحب مثل الأرز والشعير قوت يقتات به الإنسان وتحصل به قوته، والنبات الذي عليه أكثر المفسرين أنه العشب وما يشابهه مما تأكله الدواب.

أشار بعض أهل العلم إشارة إلى أنّ النبات هو الثمار التي يستمتع بها ابن آدم مثل الفواكه؛ يأكل الإنسان الموز ويأكل البرتقال هذه فيها زيادة على القوت ويستمتع الإنسان بها.

﴿وَجَنّاتٍ أَلفافًا﴾: أي: بساتين ملتفةً فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

الجنّة هي البستان، **وأشار بعض أهل العلم** إلى أنّه البستان المحاطُ يسمى جَنة.

وقال بعض أهل العلم: بل هو كل بستانٍ وإنّما المحاط هو الحديقة كما سيأتينا إن شاء الله، لا يسمى البستان حديقةً إلاَّ إذا كان مُحاطا بحيث يختص به صاحبُه، ولذلك أهل الجنّة لهم حدائق لأنّها محاطة يختص بها صاحبها؛ ما يشاركه غيره فيها كما سيأتي إن شاء الله. فالجنّات هي البساتين مطلقًا التي فيها الأشجار الملتّفة الكثيرة المتقاربة المتشابهة المتشابكة، ومع ذلك ففيها ثمارٌ مختلفة في البستان الواحد، وهي تسقى بماءٍ واحد؛ بل الجنس الواحد يتنوع يُغرس النخل فهذا يأتي بلحه أحمر وهذا أصفر، هذا بطعمٍ وهذا بطعمٍ وهكذا؛ تسقى الأشجار بماء واحد، ومع ذلك تتنوع الثمار، وتختلف في أشكالها وفي طعومها وغير ذلك، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا بتدبير الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله:

فالذي أنعم عليكم بهذه النّعم الجليلة التي لا يقدر قدرها ولا يُحصى عددها؛ كيف تكفرون به وتكذبون ما أخبركم به من البعث والنشور، أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتجحدونها.

فهذه نعمٌ دالةٌ لكم، والعاقل يعلم أنّه ليس له أن يستعمل نعم المنعم في معصيته، وكل عاقلٍ يدرك يقينًا أنه لا يُنعم بهذه النّعم إلا الله، وهذا يدل على أنه سبحانه يستحق الألوهية، وأنّه الذي يجب أن يُعبد، وأنّ هذه النّعم ينبغي على العبد أن يستعملها في طاعة الله وأن لا يستعملها في معاصي الله سبحانه وتعالى.

-تفسير المقطع الثاني من السورة-

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبأ: ١٧-٢٠]

لما ذكر الله عزوجل الآيات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، وعلى أنه القوي المتين الذي على كل شيء قدير، وهي آيات دالة على أنه سبحانه وتعالى قد خلق الحياة الدنيا ودبّرها وأحكمها

كان ذلك دليلا على أن الله عزوجل قادر على أن ينشئ الحياة الأخرى كما أنشأ الحياة الأولى ولذلك قال الله عزوجل ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ وأكد ذلك بإِنَّ ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ الذي يفصل فيه الله عزوجل بين الحق والباطل، وبين أهل الإيمان وأهل الكفران، وبين الأشقياء والسعداء.

إن ذلكم اليوم كان ميقاتا، له وقت معلوم، لا يتقدم عنه ولا يتأخر ولا يعلمه إلا الله عز وجل، ومتى يكون هذا اليوم، يكون يوم ينفخ صاحب الصور الملك، وهو عند العلماء إسرافيل، وقد حكى بعض العلماء الإجماع على ذلك.

ولم يأتِ مصرحا باسمه في النصوص، وإنما الذي جاء في الحديث أنه صاحب الصور لكن المشهور عند العلماء أنه هو إسرافيل عليه السلام ينفخ في الصور، والصور قرن يشبه البوق، وصاحب الصور قد التقم الصور ينتظر أن يؤمر بالنفخ، وهو قائم ينظر ناحية العرش، يخشى أن يؤمر بالنفخ قبل أن يرتد إليه طرفه، فهو مستعد للنفخ في الصور، وينفخ في الصور نفختين عند أكثر أهل العلم، ينفخ نفخة بأمر الله، إذا شاء الله عز وجل أن يميت الخلائق.

يأمره بالنفخ فينفخ في الصور نفخةً تصعق لها المخلوقات، وتموت المخلوقات إلا من شاء الله سبحانه وتعالى، ثم يمكث الناس في قبورهم أربعين ولم يأتِ تحديدها، هل هي أربعون سنة أو أربعون شهرًا أو أربعون يوما، ثم إذا شاء الله عز وجل أمر سحابًا فأمطرت فينبت الناس في قبورهم من عَجْبِ أذنابهم، فيأمر الله صاحب الصور أن ينفخ النفخة الثانية، فينفخ نفخة فيخرج الناس من قبورهم إلى المحشر، وهذه النفخة -أعني الثانية- هي المرادة هنا: ﴿**يَومَ يُنفَخُ فِي الصّورِ**﴾ نفخة البعث، ﴿**فَتَأتونَ أَفواجًا**﴾ تأتون جماعات، جماعات، لا تأتون دفعة واحدة، بل تأتي كل جماعة مع إمامها، وكل أمة مع نبيها.

﴿**وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَت أَبوابًا**﴾: فتتشقق السماء في ذلك اليوم لما فيه من أهوال، فتكون تلك الشقوق والصدوع في السماء كالأبواب والطرق تنزل منها الملائكة، وتشقق السماء بالغمام وهو السحاب الأبيض البارد، فينزل ربنا سبحانه وتعالى مع الغمام والملائكة ليفصل بين الخلائق في ذلك اليوم.

﴿**وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَت سَرابًا**﴾: تلكم الجبال الشامخة ذات الأحجار الصلبة يدكها الله عز وجل دكةً واحدة، فتكون كالصوف المنفوش، ثم تصبح كالهباء؛ أي تصبح أشياء دقيقة تحملها الرياح.

وإذا أردت أن تعرف ما هو الهباء فافتح النافذة إذا خرجت الشمس، سترى أشياء دقيقة

تتطاير لا تستطيع أن تقبضها بيدك هذا هو **الهباء**، فتصبح الجبال هباءً؛ أشياء دقيقة تحملها الرياح فيراها الرائي من بعيد يحسبها جامدة، وهي تمر مر السحاب مع الرياح لأنها أصبحت هباء فتكون لا شيء كالسراب، السراب في الحقيقة ليس شيئا، يراه الإنسان من بعيد فيظنه ماء. حتى إذا اقترب منه لم يجده شيئا، وهكذا يكون حال الجبال تكون كلا شيء تحملها الرياح ففي ذلك اليوم المهوول يكون يوم الفصل الذي ذكره الله عز وجل.

ونقرأ ما ذكره الشيخ السعدي ونعلق عليه

قال رحمه الله تعالى: ذكر الله تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ميقاتا للخلق.

في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ وسمي يوم الفصل؛ بهذا لأنه يُفصل فيه بين الحق والباطل وبين أهل الإيمان وأهل الكفران، وبين أصحاب الحقوق حتى الدواب، يفصل بينها في الحقوق في ذلك اليوم، ويفصل فيه الشقي عن السعيد، فتبيض وجوه وتسود وجوه.

﴿**مِيقَاتًا**﴾: قال بعض أهل العلم: معنى ميقاتا؛ أي أنه مؤقت بوقت لا يتقدم ولا يتأخر ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وقال بعض أهل العلم: معناها أنه ميقات للجزاء والحساب، فهو وقت الجزاء والحساب.

وقال بعض أهل العلم: معنى (مِيقَاتًا)؛ أنه الوقت الفاصل الذي تنتهي إليه الدنيا وتبدأ به الآخرة فهو كالحد الفاصل.

فمعنى (مِيقَاتًا)؛ أنه وقت فاصل تنتهي إليه الدنيا، وتبدأ به الآخرة، وكل هذا من اختلاف التنوع كله داخل في معنى الكلمة وهذا من إعجاز القرآن أن الكلمة الواحدة تحمل معاني متعددة .

قال: وأن الله جعله ميقاتا للخلق يُنفخ في الصور فيأتون أفواجا.

في قول الله عز وجل ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾: أي ينفخ الملك في الصور بأمر الله، النفخة الثانية وهي نفخة البعث.

قال: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له المولود.

﴿فَتَأتونَ أفواجًا﴾ أفواجا كما قلنا يا إخوة: جماعات، جماعات، لا يأتون دفعة واحدة، فإنهم يخرجون من قبورهم التى انتثرت في الأرض وتخرج كل جماعة تأتي مع إمامها وكل أمة لها نبي تأتي مع نبيها فيأتون جماعات جماعات.

قال: ويجري فيه من الزعازع والقلاقل ما يشيب له المولود وتنزعج له القلوب فتسير الجمال حتى تكون كالهباء المبثوث وتنشق السماء حتى تكون أبوابا.

كما قال الله عز وجل: ﴿وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَت أَبوابًا﴾ هنا قال بعض المفسرين: هي أبواب على وجه الحقيقة، ترى في السماء، وهي طرق ومسالك الملائكة التي تنزل منها.

وقال بعض المفسرين: بل هي الصدوع والشقوق التي تكون في السماء فيراها الناظر من بعيد كأنها أبواب تَنَزَّلُ منها الملائكة، ولا شك أن السماء ستتشقق شيئا فشيئا، وتتشقق أيضا بالغمام كما قلنا، وينزل ربنا سبحانه وتعالى ليفصل بين الخلائق.

قال: ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا يجور وتوقد نار جهنم ..

﴿وَسُيِّرَتِ الجِبالُ فَكانَت سَرابًا﴾: كما قلنا معنى (سُيِّرَتِ): أنها تُسَيّر بالريح بعد أن تصبح هباءً، تحملها الرياح فتسيرها الرياح في ذلك اليوم وتكون كالسراب لا شيء ولا وجود لها، لأنها قد دكت، وبست حتى صارت هباءً.

ثم نقرأ المقطع الثالث في هذه السورة.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾ [النبأ: ٢١-٣٠]

لما تقدم أنّ الله عزوجل يفصل بين الخلائق في ذلك اليوم، ويفصل بين الأشقياء والسعداء، بدأ الله عزوجل ببيان حال الأشقياء؛ لأنّ الحديث معهم من أول السورة ﴿عَمَّ يَتَساءَلونَ﴾ فكان الحديث عنهم؛ عن أولئك الأشقياء، فبدأ الله عزوجل ببيان حالهم في الآخرة.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَت مِرصادًا﴾: إنّ النّار التي هي عذاب الله عزوجل كانت مرصادا، تترصد لأهلها، وترقب أهلها، ولابد أن يَرِدَها الناس جميعا فيمرون عليها، فمارٌّ على الصراط ناجٍ، وساقطٌ مكردسٌ فيها هالك -والعياذ بالله-

﴿لِلطّاغينَ مَآبًا﴾: للمتجاوزين حدود الله في الدنيا مرجعاً ومنزلاً ومصيراً.

﴿لابِثينَ فيها أَحقابًا﴾: ماكثين فيها دهورًا، دهرًا بعد دهر، أمّا الكفار فإنهم يمكثون فيها دهورا لا انقطاع لها، ولا انتهاء لها، كلما مرّ دهرٌ، جاء دهرٌ، بلا انقطاعٍ بينهما ولا انتهاء لها، وأمّا العُصاة المُوحدون الذين يدخلون النار بذنوبهم فإنهم يمكثون في النار دهرا، وقليل النار طويل؛ لشدة عذابها، فيلبث فيها عُصاة المُوحدين أزمنةً متفاوتة، ولكن مهما قلّ مكثهم فإنه كالدهرالطويل لشدة عذابها.

﴿لا يَذوقونَ فيها بَردًا وَلا شَرابًا﴾: لا يذوقون برداً طيباً يُبرد جلودهم من الظاهر، ولا شرابا طيبا يُبرد أجوافهم، بل هم في عذابٍ في ظاهر أبدانهم وفي داخل أجوافهم.

﴿إِلّا حَميمًا﴾: وهو الماء الذي اشتد حره وبلغ الغاية في الغليان، إذا قرّب من الجلد أسقطه، وإذا شُرِبَ قطّع ما يمر به من الحلوق والأجواف والأمعاء.

﴿وَغَسّاقًا﴾: سائلاً باردا شديد البرودة، بلغ الزمهرير؛ إذا قرّب من الجلود شققها، وإذا أُدخِل إلى الأجواف قطعها، فلا يذوقون إلا ما يعذبهم ويزيدهم عذابا.

﴿جَزاءً﴾: جزاءً لأعمالهم، وفاقا موافقا لها لا ظلم فيه ولا زيادة فيه، بل السيئة بمثلها وهذا العذاب موافقٌ لأعمالهم ومطابقٌ لأعمالهم.

ومن أعمالهم التي يستحقون بها هذا العذاب: أنهم كانوا لا يعتقدون بالبعث، ولا يعتقدون بالحساب والجزاء، ولا باليوم الآخر وهذا قادهم إلى ترك العمل لذلك اليوم، وكذبوا بآيات

الله تكذيبا، وهذا يدل على العناد والإصرار والاستمرار فإنهم كلما جاءتهم آية كذبوا بها استكبارا عن الحق وإباءً لقبوله.

﴿**وَكُلَّ شَيءٍ أَحصَينَاهُ كِتابًا**﴾: الإحصاء هو: العد، وقد تضمن معنى الكتابة، فكل شيء أحصيناه إحصاءً وكتبناه كتابا، أحصيناه على عامليه، وكتبناه كتابا قبل أن يعملوه، وكتابا بعد أن عملوه، أما الكتاب قبل أن يعملوه فهو ما في اللوح المحفوظ، فإن أعمال بني آدم كلها مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأما بعد أن عملوه فهو كتابة الملائكة لأعمالهم لا يضيع منها شيء فكل شيء محصى في ذلك الكتاب.

﴿**فَذُوقُوا**﴾: يخاطَب الكفار بخاطبين من أشد ما يكون عليهم.

أما الخطاب الأول: فإنّه يؤتى بالموت على هيئة كبش فيذبح، ويقال يا أهل النار خلود فلا موت؛ وهذا يتضمن الموتتين الموتة الصغرى وهي النوم فلا نوم لهم في النار يرتاحون به، والموتة العظمى بخروج الروح فهم خالدون في النار لا يفتر عنهم العذاب وهذا في شأن الكفار المنكرين.

وأما الخطاب الثاني: فإنه يقال لهم (ذُوقُوا) ما الشأن، (فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا) يزاد عليهم العذاب، فإن أهل النار والعياذ بالله لا يألفون العذاب فيخف عنهم ولا يخفف عنهم العذاب، بل ينوع عليهم العذاب أنواعا وأزواجا وأشكالا، وتبدّل جلودهم فلا يخف عليهم العذاب بالمكث في النار، بل في كل لحظاتهم في النار كأنهم قد دخلوها أول مرة فيقال لهم: ﴿فذوقوا فَلَن نَزيدَكُم إلّا عَذابًا﴾ فييَأسون من الموت، وييأسون من الخروج، وييأسون من إلف العذاب، وييأسون من تخفيف العذاب، ولذلك قال جمع من السلف وروي مرفوعا: أنه ما نزل بأهل النار من الكفار أشد من هذه الآية ﴿فذوقوا فَلَن نَزيدَكُم إلّا عَذابًا﴾.

ونقرأ ما ذكره الشيخ ونعلق عليه .

قال رحمه الله: وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدها للطاغين، وجعلها مثوى لهم ومآبًا.

﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ**﴾: جنهم اسم من أسماء النار، وقد قال بعض أهل العلم: إنّها سميت جهنم لبعد قعرها فهي بعيدة القعر فسميت جهنم.

وقال بعض أهل العلم: هذا من المعرّب في القرآن، والمعرّب في القرآن هو الذي يكون أصله أعجميًّا ثم يستعمل عند العرب أو يستعمل في القرآن فيصبح معرّبًا فقال بعض أهل العلم: إن هذا الاسم من المعرّب في القرآن.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَت مِرصادًا﴾

قال بعض أهل العلم: (مِرْصَادًا) أنها مترصدة أهلها.

وقال بعض المفسرين: (مِرْصَادًا) أي أنها مكانٌ لحبس المجرمين، المرصاد: هو الحبس، فهي مكان لحبس المجرمين.

وقال بعض المفسرين: (مِرْصَادًا) أي ممرًّا وطريقًا لابد أن يُمرّعليه فمن الناس من يمرعلى الصراط فينجو، ويمر المؤمنون على قدر أعمالهم، ومن الناس من تخطفه الكلاليب فيكردس في النار والعياذ بالله.

﴿لِلطّاغينَ﴾: الطاغي يا إخوة هو: المتجاوز الحد، يقال: طغى أي تجاوز الحد، فيقال للشخص إنك قد طغوت أو طغيت في الظلم، فتجاوزتَ، لم تظلم فقط، بل تجاوزت الحدود، والمقصود بالطاغين هنا: من تجاوزوا حدود الله، فلله حدود من عظّمها ووقف عندها كان من المفلحين، ومن تجاوزها كان من الطَّاغين.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾﴾: المآب هو المرجع والمصير والمنزل، وهذا وعيد لكل طاغٍ، أما من طغى بالكفر: فإن مآله يقينًا إلى النار، وقد يتمتع بالدنيا شيئًا، لكن مصيره ومآله ومآبه إلى النار، وأما من طغى وتجاوز الحد من الموحدين فهو متوعد والعياذ بالله بأن يكون من أهل النار، هذا معنى للطَّاغين مآبا.

قال رحمه الله: وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة، والحِقْب على ما قاله كثير من المفسرين ثمانون سنة.

الأحقاب: جمع حُقُب، والحُقُب هو الدهر الطويل، والحُقْب بإسكان القاف قيل ثمانون سنة، وقيل سبعون سنة، وقيل ثلاثون سنة وقيل أكثر من ذلك، والمقصود أنهم يمكثون في النار إن كانوا كفّارًا أزمنةً متتابعةً لا انقطاع لها ولا انتهاء، وإن كانوا من الموحدين فإنهم يمكثون فيها أزمنة ويتفاوتون في ذلك ولكن قليل النار طويل، إذا كانت الغمسة في النار

تنسي صاحبها نعيم الدنيا، فكيف بدخول النار والعياذ بالله، وإذا كان أقل الناس عذابًا رجلًا في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه، هو في ضحضاح من النار، وفي أخمص قدميه جمرتان، من هاتين الجمرتين، يغلي دماغه فكيف بمن يدخل النار والعياذ بالله لا شك أن قليل النار، زمن طويل عياذًا بالله من عذاب، الله نعوذ بالله من جهنم .

وقال بعض أهل العلم: معنى أحقابًا، ﴿لابِثِينَ فيها أَحقابًا﴾، أنهم يجدد لهم العذاب كل زمن، ولا مانع من المعنيين، فهم لابثون في جهنم أحقابًا دهورًا بعد دهور لا انقطاع لها ولا انتهاء إن كانوا كفارًا، ويجدد لهم العذاب في كل دهر من هذه الدهور، فلا يألفون العذاب والعياذ بالله وإنما يجدد لهم.

قال رحمه الله : والحقب على ما قاله كثير من المفسرين ثمانون سنة، وهم إذا وردوها ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

أي: لا يجدون فيها بردًا نافعًا يبرد جلودهم من الظاهر، ولا شرابًا طيبًا يبرد أجوافهم من الداخل هذا معنى كلام الشيخ، وقال بعض المفسرين: ﴿**لا يَذوقونَ فيها بَردًا**﴾ أي لا يذوقون فيها نومًا يرتاحون فيه من العذاب، والاستثناء هنا ﴿**إِلّا حَميمًا وَغَسّاقًا**﴾ قال بعض أهل العلم: هو منقطع، استثناء منقطع، لأنّ المستثنى هنا ليس من جنس ما طلبوه، هم يطلبون بردًا وشرابًا فيعطون ما لم يطلبوه.

وقال بعض أهل العلم: الاستثناء هنا متصلٌ وفيه لفٌ ونشرٌ غير مرتب ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾، حميمًا هنا مستثنى من الشراب، والشراب في الآية الأولى كان الثاني، وفي الآية التي فيها الاستثناء: المستثنى منه هو الأول ولذلك هذا غير مرتب، والغساق مستثنى من البرد، يعني لا يذوقون بردًا إلا غساقًا، فهذا استثناء متصل على هذا القول وفيه لف ونشر غير مرتب.

قال رحمه الله: ﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾ أي: ماء حارا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم، ﴿وَغَسَّاقًا﴾ وهو: صديد أهل النار الذي هو في غاية النتن وكراهة المذاق.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾: قال الشيخ: هو الماء الحار أي الذي اشتد حره و بلغ الغاية في الغليان، ولذلك إذا قربوه من وجوههم شواها وتساقطت جلودهم، وإذا أدخلوه أي أفواههم قطع أمعائهم وأجوافهم.

وقال بعض أهل العلم: الحميم هو دموع أهل النار تجتمع في أخاديد، فيشتد حرها من شدة حر النار، فإذا عطش أهل النار شربوا منها فيجتمع فيها أمران: أنها دموع وأنها شديدة الحرارة، ولا مانع من الأمرين فلا شك أنهم يُسقون ماء حميما، ولا مانع من أنهم أيضا يشربون من دموعهم التي تملأ الأخاديد وقد اشتد حرها.

﴿وَغَسَّاقًا﴾: قال الشيخ هو صديد أهل النار، الصديد الذي يخرج من جروح أهل النار ويسيل ولا شك أنه مُنتن، شديد النتانة وهو من غسق الجرح أي سال بالصديد.

وقال بعض أهل العلم: إن الغسّاق هو الزمهرير الذي اشتد برده والمقصود أنه شراب قد اشتد برده، وجمع بعض المفسرين بين الأمرين فقال: الغسّاق صديد أهل النار وقد أَنْتَنَ وأصبح زمهريرا، أصبح شديد البرودة، فيشربونه فتشقق جلودهم إذا قربوه منها ويقطع ويشقق أجوافهم لشدة برودته مع ما فيه من كونه صديدا، وكونه مُنتنا فمادته قبيحة ورائحته قبيحة وأثره قبيح، فمادته صديد الجروح، ورائحته مُنتنة وأثره أنه أصبح شديد البرودة يؤثر في الجلود الظاهرة وفي الأجواف الباطنة.

قال رحمه الله تعالى: و إنما استحقوا هذه العقوبات الشنيعة جزاءً لهم وفاقا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها لم يظلمهم اللّه و لكن ظلموا أنفسهم.

فكان الجزاء موافقا للعمل ليس فيه ظُلمٌ.

ولهذا ذكر أعمالهم، التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للآخرة.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾: قال بعض أهل العلم: -كما قال الشيخ- إنهم كانوا لا يعتقدون بالبعث والجزاء والحساب وهذا قادهم إلى إهمال الأعمال.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أنهم كانوا لا يرجون الثواب يوم القيامة، طبعا يا إخوة لأنهم يُنكرون البعث فما كانوا يرجون ثوابًا، ولماذا قال بعض المفسرين هذا؟ لأن الرجاء هو انتظار النّافع، فلما قال الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ قالوا: إنهم كانوا لا يرجون ثوابًا لأن الثواب هو النافع، وقال بعض المفسرين: معنى الآية؛ إنهم كانوا لا يخافون الحساب، يا إخوة المعروف أن الرجاء هو انتظار النافع فكيف يفسر قول الله عز وجل ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بأنهم لا يخافون الحساب؟ والخوف ليس انتظار النافع، وإنما الخوف الخوف من المؤلم الضار، قال العلماء: الرجاء إذا أُثْبِتَ فهو انتظار النافع إذا أثبت، وإذا نفي انعكس معناه فعندما قال الله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ لا يرجون: نفي الرجاء فأصبح بمعنى الخوف من المؤلم الضار، فكانوا لا يخافون حسابا.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: كذبوا بها تكذيبا واضحا صريحا، وجاءتهم البينات فعاندوها.

وهذه الآية تدل على استمرار تكذيبهم و﴿**كِذّابًا**﴾ معناها تكذيبا، فهم لم يكذبوا مرةً واحدة، وإنما كلما جاءتهم آية كذبوا بها، فكِذّابًا: يدل على وقوع التكذيب المستمر منهم.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه في اللوح المحفوظ، فلا يحسب المجرمون أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو يُنْسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً

إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

وانتبه هنا فالشيخ هنا يشير إلى ما ذكرناه أنّ أعمالهم مكتوبة في كتابين، مكتوبة في كتاب قبل أن يعملوها، بل قبل أن يخلقوا وذلك في اللوح المحفوظ، ومكتوبة في كتاب عند عملهم لها، تكتبها الملائكة في ذلك الكتاب الذي يوضع يوم القيامة، ويؤتى كل إنسان يوم القيامة كتابه، فمن الناس من يعطى كتابه بيمينه، ومن الناس من يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره، فيجتمع عليه الأمران يعطى كتابه بشماله من وراء ظهره ويجد في كتابه ما عمل محضرا لا يغيب منه شيء.

﴿فَذُوقُوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم ﴿فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فكل وقت وحين يزداد عذابهم، وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها.

﴿فَذوقوا﴾ أصل الذوق يا إخوة، هو الطعام والشراب، ثم يطلق توسعا على كل ما يُحَس، كل ما يكون بالحواس، فيقال للكفار المكذبين في النار، ذوقوا ألوان العذاب بجميع حواسكم، وحتى العذاب المعنوي في النار، يكون كالمحسوس، فيُذاق، فكل العذاب في النار والعياذ بالله يذوقه أهل النار بحواسهم.

﴿فَلَن نَزيدَكُم إِلّا عَذابًا﴾ فلن يخفف عنكم العذاب، ولن ينقطع عنكم العذاب لحظة، وإنما أنتم في زيادة العذاب يعني في تجدده وتنوعه، وأن جلودكم كلما نضجت، بُدلت، فلا يخفف عنكم العذاب، ولا إلفة لكم للعذاب، وهذا يجعل عذابهم قائما دائما، والعياذ بالله.

-تفسير المقطع الأخير من السورة-

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ ۖ

فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: ٣١-٤٠].

تقدم معنا أنّ النّاس في يوم الفصل، منهم شقيٌّ ومنهم سعيد، وأنّ ربنا سبحانه وتعالى بدأ ببيان حال الأشقياء الطاغين؛ لأنّ الحديث من أول السورة عنهم ومعهم، فبدأ الله عزّوجل ببيان حالهم.

ثمّ بيّن الله عزّوجل حال السّعداء في ذلك اليوم؛ فأخبر سبحانه أنّ للمتقين الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله حاجزًا ووقاية، حيث آمنوا بالله ربًا فاتقوه، وآمنوا بأنّ هناك يومًا يرجعون فيه إلى الله سبحانه وتعالى فاتقوه، وآمنوا بعذاب الله سبحانه وتعالى فاتقوه بفعل الواجبات ما استطاعوا وترك المحرمات والإكثار من المستحبات والتنزه عن المكروهات مع التوبة وملازمة الاستغفار، فجعلوا بذلك بينهم وبين عذاب الله وقاية.

أخبر الله عزّوجل أنّ لهم الفوز العظيم الكبير الكريم، وذلك بحصول أعلى المرغوبات، واندفاع أكبر المكروهات؛ بدخولهم الجنّة وبسلامتهم من عذاب ربهم سبحانه وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

والجنّة مكان الفوز العظيم، فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب البشر، وفيها رضوانٌ من الله لا سخط بعده ورضوانٌ من الله أكبر، وفيها الزيادة العظمى والنّعمة الكبرى بالنظر إلى وجه الكريم سبحانه وتعالى، فكانت تقواهم سببًا لنيلهم هذا المفَاز العظيم بفضل الله عزّوجل.

ولهم في هذا المكان، في مكانِ الفوز بساتين كثيرةٌ جامعةٌ لأشجارٍ كثيرة طيبة الثمار لا مقطوعةٍ في وقتٍ ولا ممنوعة؛ بل هي قريبةٌ دانية، وتلكم البساتين مسوّرةٌ لأصحابها ومحاطةٌ، بحيث يختص بها أصحابها لا يشاركهم غيرهم فيها، ولهم كروم العنب، وقد خُصت الأعناب مع أنّها من البساتين، لشرف العنب وعظيم اللّذة بالكروم، فالتمتع بكروم العنب أعظم، وثمار العنب أطيب وأكرم.

وقال بعض أهل العلم: بل خُصت الأعناب لأنّ لهم زيادةً على تلك البساتين هي كروم العنب؛ فلأصحاب الجنّة بساتين محوّطة وأحدقت بها الحيطان، ولهم فوق هذا كروم العنب يتمتعون بها ويتنزهون فيها؛ فهي لهم متنزه.

ولهم في هذا المفاز أزواجٌ مطهرةٌ حسان، فيهن من الجمال ما لا يمكن وصفه، ومن الحسن ما لا يدرك إلا بالنظر إليه والتمتع به، فلهم زوجاتٌ كواعب قد نهدت أفدائهن واشتدت واستدارت، فليست مائلةً متدلية، وذلك لشبابهن ونضارتهن وجمالهن، ومع ذلك فهن أترابٌ في سنٍّ متقاربة أو سنٍّ واحدة، جميع النساء في الجنّة في سن الثلاثة والثلاثين، سواءً من كن من نساء الدنيا المؤمنات اللاتي يدخلن الجنّة؛ فإنّهن جميعًا يصرن في هذا السن، ولذلك قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: ((لا يدخل الجنّة عجوز)).

وكذلك الحور العين، التي خلقهن الله عزّ وجل للرِّجال في الجنّة كلهن في سنٍّ متقاربة أو سنٍّ واحدة، في هذا السنِّ الذي هو في غاية النضارة والشباب.

ومع هذه المتعة وهذا النّعيم، فإنّ لهم شرابًا طيبًا مباركًا باردًا صافيًا، لهم شرابٌ من خمرٍ لذةٍ للشاربين، وماءٍ عذبٍ غير متغير باردٍ سائغ، ولبنٍ رائق الطعم، وعسلٍ مصفى، ولهم كؤوسٌ من الشراب ممتلئةٌ مترعةٌ صافية، وهذه الكؤوس من كل هذا الشراب الذي ذكرناه.

وقال بعض أهل العلم: بل هي من الخمرِ خاصة، يتمتعون بهذا الشراب ويلتذون به.

وهذه الجنّة التي هي مكان الفوز مع ما فيها من هذا النّعيم من المطعومات، والمشروبات، والزوجات الجميلات، فإنّ فيها طيب العشرة بين أهلها، ولا يطيب المكان إلا بطيب العشرة بين أهله.

فأهلها لا حقد في قلوبهم، ولا حسد في قلوبهم، بل جميعهم إخوان على سررٍ متقابلين، ومن طيب عشرتهم أنّهم لا يقولون إلا الكلام الطيب، فأهل الجنّة لا يسمعون فيها كلامًا باطلًا يؤذي أسماعهم، ولا يكذّب بعضهم بعضًا بل إذا تكلم أحدهم تكلم بالخير الطيب، وإذا سمعه إخوانه صدقوه ولم يكذبوه، وذلك النّعيم الذي أكرمهم الله عزّوجل به إنّما هو لما أسلفوه من الأعمال الصالحة في الدنيا، وهو ليس جزاءً وفاقًا كجزاء الطاغين وإنّما هو

عطاءٌ من الله بفضله؛ فهم يدخلون الجنّة برحمة الله ويجازَون في الجنّة بأعمالهم فضلًا من الله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعة مائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء.

وذلك العطاء من الله حسابٌ يكفيهم ويقنعون به وتقر به أعينهم، فلا منغص في الجنّة وإنّما يتفاضل النّاس في الجنّة في الكمال، ولا ينغص نعيم أهل الجنّة شيء، وذلكم الجزاء الذي هو عطاءٌ كافٍ لهم إنّما هو من الرب الكريم القوي المتين، الذي يُدبر السّموات والأرض وما بينهما ويربيها بالنعم، وهو سبحانه الرحمن الذي وسعت رحمته في الدنيا كل شيء، وأمّا في الأخرة فلا ينال رحمته إلا الموحدون؛ أمّا الكفار فلا نصيب لهم من الرحمة. والموحدون يوم القيامة لهم الرحمات العظمى، فيرحمهم الله عزّوجل بالرحمة التي هي صفته سبحانه وتعالى، وفوق هذا يخلق لهم رحمات يرحمهم بها، فإنّ الله عزّوجل خلق الرحمة المخلوقة وجعلها مائة جزءٍ وأنزل جزءًا منها في الدنيا فبهذا الجزء تتراحم الخلائق، وأمسك تسعةً وتسعين جزء، يرحم بها عباده الموحدين يوم القيامة؛ بل إنّها تكون يوم القيامة مائة جزءٍ لأنّ الجزء التي أُنزل في الدنيا يعودُ يوم القيامة إلى الأجزاء التسعة والتسعين فتصبح مائةً، وتلكم الرحمة كما قلنا يوم القيامة لا تكون إلا للموحدين.

وفي ذلكم الموقف العظيم في يوم الفصل لا يقدر أحدٌ على مخاطبة الله عزّوجل لا بالشفاعةِ ولا بالسؤالِ ولا بغير ذلك إلا بإذنه سبحانه وتعالى، حيث يقوم جبريل عليه السّلام على هيئته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح، ويسقط من جناحه تهاويلُ وعجائب الدر والياقوت، وتقوم معه بقية الملائكة الذين هم خلقٌ كثير لا يُحصي عددهم إلا الله سبحانه وتعالى؛ يقومون في صفوفٍ متراصة يُتمون الصف الأول فالأول، يجتمعون في ذلك اليوم العظيم المهيب صفوفًا متراصين خاشعين لله سبحانه وتعالى، وهم في ذلك المقام وبنو أدم أيضًا لا يستطيعون الكلام؛ بل تخشع الأصوات فلا يُسمع إلا الهمس ولا يتكلم أحد إلا من أذن الله له، والمقصود بالكلام هنا الشفاعة لا يتكلم أحدٌ بالشفاعة إلا من أذن الله له وقال صوابا؛ بأن أثنى على الله سبحانه وتعالى وكان قبل ذلك من القائلين بالصواب أعني -لا إله إلا الله-. فلا يشفع يوم القيامة إلا موحد ولا يُشفع يوم القيامة إلا لموحد؛ إلا الشفاعة المستثناة التي يشفعها رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو يشفع بها

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بإذن الله لعمه أبي طالب ليُخَفف عنه العذاب لا ليُخرج من النّار.

وذلك اليوم الذي هو يوم الفصل هو الكائن المتحقق يقينًا بلا شكٍ في ذلك فمن شاء منكم يا بني آدم فليتخذ في الدنيا بالعمل الصالح مرجعًا حسنًا ومنزلًا كريمًا يوم القيامة ولن يشاء أحدٌ شيئًا إلا أن يشاء الله رب العالمين.

فالمؤمن معاشر الفضلاء يتخذ لنفسه مآبًا وهذا المآب مرجعٌ إلى الله، وقد لفت بعض العلماء النظر إلى لفتةٍ عظيمة كريمة وهي أنّ المؤمن في الدنيا يُرجِع العمل الصالح إلى الله فلا يغتر بعمله ولا يمتن بعمله، وإنّما إذا عمل العمل الصّالح أرجعه إلى الله عزّوجل وقال: لولا الله ما فعلت كذا لولا الله ما صليت، لولا الله ما صمت، لولا الله ما تصدقت، لولا ما بررت بأبويَّ؛ فيزداد شكرًا ويزداد تواضعًا لله، ويزداد عبادةً لله عزّوجل؛ ثمّ يرجع بهذا العمل الصّالح إلى ربه يوم القيامة كما أرجعه إلى ربه في الدنيا فيكون له حُسن المآب عند الله سبحانه وتعالى.

ثمّ ختم الله الآيات ببيان أنّه علّمنا وأنذرنا وخوّفنا من ذلك اليوم من يوم الفصل وما فيه من الأهوال، وذلكم اليوم يومٌ قريب؛ لأنّه منتظر وكل منتظرٍ قريب، يوم ينظر المرء المؤمن ما قدمت يداه فهو يرجو رحمة الله في ذلك اليوم بسبب ما قدمه من توحيد، ويخاف من عاقبة ذنوبه فهو يوم القيامة ينظر ما قدمت يداه رجاءً وخوفا، إذا تذكر توحيده وأعماله الصالحة وسعة رحمة الله عزّوجل رجا ما عند الله، وإذا تذكر ذنوبه وإسرافه على نفسه خاف من عذاب الله، أمّا الكافر فإنّه يائسٌ من رحمة الله ولا ينتظر إلا عذاب الله، ولذلك يقول يا ليتني كنت ترابا، إذا رأى البهائم قد اقتُص لبعضها من بعض ثمّ قال الله عزّوجل لها كوني ترابًا قال: يا ليتني كنت كالبهائم أصير ترابا، الكافر في الدنيا كالأنعام بل هو أضل فإذا جاء يوم القيامة تمنى أن يكون كالبهائم ويصير ترابا، أو أنّه يتمنى أنّه لو لم يخلق أصلًا فبقي ترابًا؛ لأنّ أصل خِلقة الإنسان من التراب، فالله عزّوجل حذرنا وأنذرنا وأعلمنا ودلنا فلا يهلك على الله إلا هالك.

نعوذ بالله من سوء الحال ونسأل الله عزّوجل أن يجعلنا من السعداء في الدنيا والآخرة.

ونقرأ ما ذكره الشيخ من تفسيرٍ ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن السعدي رحمه الله رحمةً واسعة وغفر له ولشيخنا والسامعين: لمّا ذكر حال المجرمين ذكر مآل المتقين فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي: الذين اتقوا سخط ربهم بالتمسك بطاعته والانكفاف عن معصيته؛ فلهم مفازٌ ومنجى وبعدٌ عن النّار.

المفاز أصله الفوز العظيم والفوز الكبير بحصول المرغوب واندفاع المكروه، تقول: فزت إذا ظفرت بما ترغب فيه أو اندفع عنك ما تخاف منه.

فالمفاز هنا **قال بعض أهل العلم**: هو الفوز بأعظم مرغوب والسّلامة من أعظم مخوف، وذلك بالسلامة من عذاب الله وبدخول الجنّة.

وقال بعض أهل العلم: المفاز هو مكان الفوز وهو الجنّة وعلى هذا القول يكون المعنى: إنّ للمتقين جنّاتٍ، وهذا كغالب اختلاف المفسرين من باب اختلاف التنوع لا من باب اختلاف التضاد، فالمفاز هو الفوز بأعلى المرغوبات والسّلامة من أعظم المخوفات، وهو مكان الفوز وهو الجنّة.

قال: وفي ذلك المفاز لهم حدائق وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخصّ العنب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾.

حدائق: يقول العلماء هذا بدل اشتمال يعني: أنّ المفاز وهو الجنّة مشتملٌ على نعيمٍ عظيم منه هذا المذكور حدائق.

والحدائق كما قال الشيخ: هي البساتين الكبيرة الجامعة لأصناف الأشجار المثمرة، ولا يُسمى البستان حديقةً إلا إذا كان محوّطًا أي: أحدقت به الحيطان، وسبب ذلك أنّ المؤمن في الجنّة يختصّ بهذا النّعيم فيكون البستان له لا يشاركه فيه غيره.

وأعنابًا، كما قلنا المقصود بالأعناب: الكروم، كروم العنب التي يقوم فيها العنب.

قال بعض أهل العلم: الكروم في داخل الحدائق هي نوع ممّا في الحدائق وخُص لشرفه؛ لأنّ كروم العنب ممّا يشرح الصدر، وهذا يدركه الإنسان في الدنيا فإنّك إذا دخلت مكانًا فيه عرائش العنب وكروم العنب تتنّعم بهذا المنظر، ولأنّ العنب ثمرٌ طيّب، فخُصّ بهذا.

وقال بعض أهل العلم: بل هذا خبرٌ عن زيادةٍ على الحدائق فإنّهم يعطون الحدائق وزيادة، ما هي الزيادة؟ هي كروم العنب يتنزّهون فيها، يخرجون فيها للنزهة، ويتمتعون بمَرْءاها.

قال: ولهم فيها زوجاتٌ على مطالب النفوس.

﴿كَوَاعِبَ﴾: وهي النواهد اللاتي لم تتكسر ثُديهن من شبابهن وقواتهن ونضارتهن.

وأصل الكلمة: كاعب من الإستدارة يعني أنّ أثداءهن قد استدارت واشتدت فليست متهدلّة ولا صغيرة؛ بل استدارت واشتدت وذلك للشباب والنضارة.

قال: والأتراب اللاتي على سنٍ واحدٍ متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات متعاشرات.

وفي هذا متعةٌ عظيمةٌ للزوج؛ فإنّهن يكنّ متآلفات ليس بينهن غيرةٌ ولا تفاوتٌ، وهذا من النّعيم الذي ينعم الله به على الأزواج في الجنّة.

قال: وذلك السنّ الذي هنّ فيه ثلاث وثلاثون سنة أعدل ما يكون من الشباب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾: أي: مملوءةً من رحيق لذة للشاربين.

﴿وَكَأْسًا﴾

قال بعض أهل العلم: ولا يسمى الإناء كأسًا إلا إذا كان ممتلأً.

﴿دِهَاقًا﴾: يعني أنّه ممتلئٌ متابعٌ لا ينقطع صافٍ، وهل هذا من كل الشراب الذي في الجنّة أم هو خاصٌ بالخمر؟

ذهب بعض أهل العلم إلى أنّه من كل الشراب.

وذهب بعض المفسرين إلى أنّه من الخمر؛ لأنّ الكأس تسمى كأسًا إذا كانت مملوءةً خمرًا.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾: أي: كلامًا لا فائدة فيه.

لا يسمعون فيها باطلًا يؤذي الأسماع.

﴿وَلَا كِذَّابًا﴾: أي: إثمًا.

هذا ما فسر به بعض العلماء الكذّاب، قالوا: ﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا**﴾: أي: باطلًا، ﴿**وَلَا كِذَّابًا**﴾: أي: لا يسمعون إثمًا.

وقال بعض أهل العلم: لا يكذب بعضهم بعضًا فهم لا يسمعون باطلًا ولا يُكذبون في قولهم، إن سمعوا سمعوا خيرًا، وإن تكلموا تكلموا بصدقٍ وصدّقهم إخوانهم، فلا يُكذبون كلامهم ولا يشككون فيه.

﴿**لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا**﴾: الضمير يعود إلى ماذا؟ قال بعض المفسرين: يعود إلى الجنّة، أي: لا يسمعون في الجنّة باطلًا ولا يُكذب بعضهم بعضًا.

وقال بعض أهل العلم: يعود إلى مجالس شرب الخمر، فإنّهم لا يسمعون في مجالس شرب الخمر في الجنّة باطلًا ولا سبًا ولا شتمًا ولا يكذب بعضهم بعضًا، لماذا؟ لأنّ المعتاد في الدنيا أنّ مجالس شرب الخمر تكون مجالس لغو وسب وشتم، وكلامٍ فاحش، ويعتدي بعضهم

على بعض بالألسنة وبالأيدي، ولكن هذا لا يكون في الجنّة؛ لأنّ الخمر في الجنّة متعةٌ فقط منافع لا مفاسد فيها؛ الخمر في الدنيا فيها منافع للنّاس وفيها إثمٌ كبير عظيم، وإثمها أكبر من نفعها، أمّا في الآخرة فليس فيها إلا المنفعة، ليس فيها إلا اللّذة فلا تذهب العقول ولا تسبب شرًا، وهذا كما قلنا من باب اختلاف التنوع فهم لا يسمعون في الجنّة لغوًا ولا كذابًا، ومن ذلك مجالس شرب الخمر فإنّهم لا يسمعون فيها لغوًا ولا كذابًا، جعلني الله وإياكم ووالديكم ومن نحب منهم.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (٢٦)﴾؛ وإنّما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل من فضله وإحسانه.

﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾؛ أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته.

هذا معنى **جزاءً**، أي: مجازاةً على ما أسلفوا من الأعمال الصّالحة.

عَطَاءً، أي: بفضل الله لا بعملهم، وإنّما كان عملهم سببًا لنيل فضل الله فلن يدخل أحدٌ الجنّة بعمله حتى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وإنّما دخول الجنّة بفضل الله سبحانه وتعالى.

إذًا، **جزاءً** يعني مجازاةً على أعمالهم التي أسلفوها في الدنيا، **عطاءً** أي: ذلك بفضل الله فأعمالهم سببٌ لنيلهم فضل الله سبحانه وتعالى.

﴿حِسَابًا﴾

قال بعض أهل العلم: حسابًا أي: أنّ درجاته في الجنّة بحسب أعمالهم في الدنيا؛ فالنّاس يدخلون الجنّة بفضل الله ويتفاضلون فيها بحسب أعمالهم فالدخول بفضل الله والدرجات بحسب الأعمال، والأعمال يجازي الله عليها الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف والله يضاعف لمن يشاء.

﴿حِسَابًا﴾

قال بعض أهل العلم: معناه كفاية كما تقول الله حسبي أي: الله يكفيني، إذا اعتدى عليك أحد قلت حسبي الله يعني يكفيني الله شرك، فمعني حسابًا أنّه يكفيهم وتقر به أعينهم فلا يري أحدهم أنّ في نعيمه نقصًا، وإن كانت الجنّة درجات لكن الذي في الدرجة الأدون يكفيه ما أعطاه الله من النّعيم وتقر عينه به، ولا ينغص عليه نعيمه أنّه يرى غُرفًا من بعيد.

إذًا هذه مسألة جيد أن نفقهها، التفاضل في الجنّة تفاضلٌ في الكمال لا يستلزم نقصًا. مثلًا: الأنبياء يفضل بعضهم بعضًا: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾؛ لكن هذا التفاضل في الكمال لا يستلزم نقصًا في رسولٍ أبدًا، ولذلك يقول العلماء التفضيل بين الأنبياء إن استلزم نقصًا كان حرامًا، إذا قلت محمد صلّى الله عليه وسلّم أفضل من موسي عليه السّلام وأنت تريد بهذا تنقُص موسي عليه السَّلام هذا حرام، أمّا التفضيل بينهم في درجات الكمال فهذا جائز فتقول محمد صلّى الله عليه وسلّم خير الأنبياء والرسل؛ نعم والله إنّه خير الأنبياء والرسل، كذلك أهل الجنّة يتفاضلون في درجات في الكمال ولكن كل واحدٍ منهم قد أعطي ما يكفيه وتقر به عينه، وكيف لا يكون كذلك وأقل من في الجنّة له مثل الدنيا ومثلها ومثلها ومثلها، وهذا كما قلت مرارًا من باب اختلاف التنوع؛ فكل هذه المعاني صحيحة لكلمة حسابًا.

﴿رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم: ربُ السموات والأرض الذي خلقها ودبرها.

ورباها بالنّعم.

الرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء.

في الدنيا، وأمّا الآخرة فالرحمة إنّما هي للموحدين، وأمّا الكفار فليس لهم إلا العذاب والعياذ بالله.

فرباهم ورحمهم ولطف بهم حتى أدركوا ما أدركوا، ثمّ ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة وأنّ جميع الخلق كلهم ساكتون ذلك اليوم لا يتكلمون.

فلا يُسمع إلا الهمس من خوف الخليقة من الله ومن خشوعهم ورهبتهم من ربهم سبحانه وتعالى.

لا يتكلمون ولا يملكون منه خطابًا. ﴿إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾: فلا يتكلم أحدٌ إلا بهاذين الشرطين: أن يأذن الله له في الكلام وأن يكون ما تكلم به صوابًا.

وقلنا إنّ هذا الثاني أعني الكلام الثاني: ﴿**لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾: هذا في الشفاعة.
يعني في قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا**﴾ هذا في كل الكلام إلا بإذنه.
أمّا في قول الله: ﴿**لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا**﴾: هذا في الشفاعة فلا يشفع أحدٌ إلا من أذن له الله سبحانه وتعالى وقال صوابًا في شفاعته وكان قد قال الصواب بالتوحيد قبل ذلك، فكما قلنا لا يَشفَعُ إلا موحد ولا يُشفَعُ إلا لموحد، فالشفاعة ليس للكفار فيها نصيب لا يشفعون ولا يُشفَعُ فيهم إلا الشفاعة المستثناة لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

لأنّ ذلك اليوم هو الحق الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب.

ذلك اليوم هو الحق أي: المتحقق الواقع يقينًا لا شك في ذلك وليس فيه إلا الحق؛ فذلك اليوم هو الحق المتحقق الواقع يقينًا ولا يكون فيه إلا الحق والعدل أو الفضل للمؤمنين.

قال: الذي لا يروج فيه الباطل ولا ينفع فيه الكذب، وفي ذلك اليوم يقوم الروح وهو جبريل عليه السّلام الذي هو أفضل الملائكة.

اختلف العلماء في المراد بالروح هنا، **فذهب جماعةٌ من المفسرين** إلى أنّ الروح هو جبريل عليه السّلام وهو أشرف الملائكة: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾؛ قالوا: إذًا الروح هو جبريل عليه السّلام لأنّه هو الذي نزل بالقرآن وهذا أرجح الأقوال.

وقال بعض أهل العلم: الروح هو ملكٌ عظيم هو أعظم المخلوقات بعد العرش ولا أعرف دليلًا صحيحًا على هذا.

وقال بعض المفسرين: الروح هم بنوا آدم، وقال بعض المفسرين: الروح خلقٌ يشبهون بنوا آدم وليسوا منهم أي: أنّ هيئتهم كهيئة بني آدم ويأكلون ويشربون لكنّهم ليسوا من بني آدم فهم ليسوا ملائكة؛ لأنّهم يأكلون ويشربون وعلى هيئة بني آدم، وليسوا من بني آدم وإنّما خلقٌ خلقهم الله لتعظيم ذلك اليوم، ولا أعرف دليلًا على هذا وقد بحثت طويلًا عن أدلة لهذا فلم أظفر بشيء؛ لكن يذكر ذلك المفسرون.

والأرجح والأصوب هو ما اختاره الشيخ: أنّ الروح هو جبريل عليه السّلام، وذُكر وخُص هنا لشرفه فيكون المذكور هنا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ﴾؛ من باب ذكر العام بعد الخاص، وفي سورة القدر﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: 4]؛ فيكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام.

والملائكة أيضًا يقوم الجميع صفًا خاضعين لله.

يقومون صفوفًا يُتمون الصف الأول فالأول، وذلك أنّ عددهم لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ويجتمعون في ذلك اليوم، إذا علمنا أنّ البيت المعمور يدخله في كل يوم سبعون ألف ملك ثمّ لا يعودون إليه؛ علمنا أنّ عدد الملائكة لا يمكن أن يُحصى ولا يُحصيه إلا الله، وأنّهم خلقٌ كثير ومع ذلك يجتمعون في ذلك اليوم المهيب صفوفًا يتمون الصف الأول فالأول.

لا يتكلمون إلا بإذنه فلمّا رغّب ورهّب وبشر وأنذر قال: ﴿فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا﴾: أي: عَمَلًا وقدم صدقٍ يرجع إليه يوم القيامة.

قال بعض أهل العلم: ﴿مَآبًا﴾ أي: طريقًا موصلًا إلى إرضاء الله وهو العمل الصالح.
وقال بعض أهل العلم: ﴿مَآبًا﴾ أي: مرجعًا حسنًا ومنزلًا كريمًا عند لقاء الله، وهذا كما قلنا مرارًا من باب إختلاف التنوع فكلاهما مراد هنا.

﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾: لأنّه قد أزف مقبلًا وكل ما هو آتٍ فهو قريب.

وهذا معارضة لحال الكفار فإنّ الكفار يرونه بعيدًا، أي: بعيد الوقوع وأنّه لن يقع فأخبر الله أنّه قريب لأنّه منتظر، وكل منتظرٍ قريب.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: أي: هذا الذي يهمه ويفزع إليه فالينظر في هذه الدار ما قدم لدار القرار.

وهذا ﴿المَرء﴾: هنا **قال بعض أهل العلم**: هو الكافر، وقال بعض المفسرين: هو كل أحد سواء كان كافرًا أو مؤمنًا، وقال بعض المفسرين: هو المؤمن.

والحق أنّ إذا قلنا إنّ معنى ﴿**يَنظُرُ**﴾ أي: ينتظر جزاء عمله راجيًا وخائفًا فهو المؤمن؛ لأنّ الكافر يائس من رحمه الله لا ينتظر إلا عذاب الله، وهذا أظهر لأنّ الله عزّ وجل قابل بينهما ﴿**يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾

وإن قلنا معنى ﴿**يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ**﴾: أنّه يرى أعماله التي قدمها في كتابه فهو كل أحد سواءً كان كافرًا، أو مؤمنًا.

وإن قلنا معنى ﴿يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾: ينظر نظرة حسرة ويأسٍ من الرحمة فهو الكافر.

أنا ذكرت هذا لتعرفوا وجه كل قول وجه قول من قال إنّه الكافر، ووجه قول من قال إنّه المؤمن، ووجه قول من قال إنّه كل أحد، والراجح فيما يظهر لي والله أعلم أنّه المؤمن لما ذكرت.

فلينظر في هذه الدّار ما قدّم لدار القرار ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ الآيات، فإن وجد خيرًا فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم، نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشرّ كله إنّه جواد كريم.

﴿**وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا**﴾ للمفسرين فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنّ الكافر إذا رأى البهائم بعد أن يُقتص لبعضها من بعض تصيّر ترابًا يتمنى لو كان كالبهائم يقال له في ذلك الموقف كن ترابًا ولن يكون ذلك.

وقال بعض المفسرين: معناها أنّ الكافر إذ ذاك يتمنى لو بقي في قبره ترابًا؛ لأنّ الإنسان إذا دفن تأكله الأرض إلا الملائكة ويبقى عجب الذنب فقط، فالكافر يتمنى لو بقيّ ترابًا ولا شك أنّ الكافر في قبره يقول: ربي لا تقم الساعة مع أنّه يعذب في القبر، مع أنّه يعذب في قبره يقول: ربي لا تقم الساعة، فإذا كان يوم القيامة تمنى لو بقي في القبر مع أنّه والعياذ بالله كان معذبًا في قبره لكن لما يراه من شدة العذاب يوم القيامة يتمنى لو بقي في قبره.

وقال بعض المفسرين: معنى قول الكافر ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾: يا ليتني لم أخلق أصلًا، يا ليتني بقيت ترابا أصلًا؛ لأنّ أصل خلقة الإنسان أنّه من تراب.

وأقوى الأقوال هو الأول، لكن لا تضاد بينها فيمكن أنّ الكافر يتمنى كل هذا فلا تدافع بينها.

وبهذا نكون بحمد الله قد أنهينا تفسير هذه السورة -سورة النبأ-.

وهناك فوائد إيمانية وحكم علمية سنقف معها إن شاء الله عزّوجل، قبل أن ننتقل إلى السورة التالية، وبهذا تدركون أيّها الإخوة عِظم علم التفسير وتدبر كلام الله سبحانه وتعالى فإنّك بعد أن سمعت هذا التفسير لهذه السورة لو قرأتها ستجد في نفسك أمورًا كثيرةً جديدة، ولذةً لم تسبق إلى نفسك عند قراءة هذه السورة، ولذلك ممّا ينبغي أن يحرص عليه المؤمن، أن يتدبر القرآن وأن يعرف معاني كلام الله سبحانه وتعالى، أسأل الله عزّ وجل أن يعيننا على ذلك، وأن يجعلنا ممن يتدبرون كلامه.

-الفوائد العلمية، والآثار الإيمانية، لهذه السورة الكريمة-

من تلك الفوائد: أن الداعي إلى الله ينبغي أن يجمع في دعوته بين ما يدعو إلى الرجاء وما يدعو إلى الخوف من الله عز وجل، وأن يعتني في دعوته عناية كبرى باليوم الآخر، وما يتعلق به.

ومن تلك الفوائد: أنه لا خير ولا فلاح للمؤمن إلا بأن يجمع بين الرجاء والخوف، فيكون في سيره إلى الله عز وجل راجيا خائفا.

ومن تلك الفوائد: أن حقيقة الإيمان تتجلى في الإيمان بالغيب؛ ولذلك يُذكر هذا في أعلى مقامات الثناء (الذين يؤمنون بالغيب).

ومن تلك الفوائد: أن من يقيم دعوى، لابد أن يقيم عليها الأدلة التي تصدقها، وليس كل من سمع الأدلة يسلّم لها، بل قد يردها بعض الناس استكبارا وعنادا؛ كما فعل الكفار، حيث أقام الله عز وجل لهم البراهين القاطعة، والآيات الساطعة على وجوده سبحانه وتعالى، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، وعلى قدرته على البعث، لكنهم أبوا أن يوحّدوه، وأبوا أن يؤمنوا بالبعث.

ومن باب إتمام الفائدة: -وإن لم يكن من جنس ما معنا هنا- أقول: إن السامع للدعوى والأدلة، قد يردّ الدعوى وأدلتها؛ لأنه قد محّص الأدلة فلم ير فيها دليلا أو لأنه رأى أنها لا تدل على المدعى، أو أنه فهم منها غير الذي فهمه المستدل بها.

وهذه الثلاثة الأخيرة: من أسباب اختلاف العلماء وأما الأول فهو من أسباب خلاف أهل الباطل للحق وأهله.

ومن تلك الفوائد والآثار الإيمانية: أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ما في الآخرة مبني على ما في الدنيا.

غير أنه في شأن الكفار: يكون جزاءً موافقا لأعمالهم.

وأما في شأن المؤمنين: فيكون جزاءً بفضل الله، وتكون أعمالهم سببا لنيل ذلك الفضل.

ومن تلك الفوائد العظمى: أن مجالس اللغو من الشقاء الذي يليق بالمؤمن أن يجتنبها.

فمن شقاء الدنيا؛ مجالس اللغو، وأشقاها؛ مجالس الحرام، فإنها شقوة على صاحبها في الدنيا والآخرة.

ومن تلك الفوائد: أن من الشقاء أن يبتلى الإنسان بمن يكذبه، ولا يصدقه،

وأن من نعيم الدنيا: أن يتخذ المؤمن إخوة صدق، لا يسمع منهم إلا خيرا، وإذا حدثهم صدقوه.

ومن تلك الفوائد: أن اللائق بالمؤمن ألا يجلس في مجالس اللغو، وأن يكثر الصمت، ويقلّ الكلام، فإن من كثر كلامه كان عرضة لأن يُكَذَب، ولذلك من أخلاق المؤمن أن يصمت، إلا أن يرى في الكلام خيرا، فيقول خيرا فهذه من أعظم أخلاق المؤمنين: أن يطيل المؤمن الصمت، وأن يقل الكلام، ولا يتكلم إلا إذا رأى في الكلام خيرا، وتكلم بخير.

الفائدة الأخيرة: أن من علم أنه في الآخرة ينظر عملَه، فينبغي عليه أن يهذب في الدنيا عمله، كلنا على يقين أن كل واحد سينظر عمله في الآخرة، فينبغي على المؤمن أن يهذب عمله في الدنيا، وأن ينظر في عمله في الدنيا، فإن رأى أن هذا العمل يسرُّه إذا لقي الله عز وجل، أكثر منه، وثبت عليه، وإن هذا العمل لا يسره إذا لقي الله عز وجل، أمسك عنه، وإذا كان قد مضى شيء منه، تاب إلى الله عز وجل منه وأناب إلى الله عز وجل.

سورة النازعات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾

في هذه السورة المكية بإجماع العلماء، كسائر السور المكية، يرد الله عزوجل على الكفار أصْلَ كفرهم، وأُسَّ ضلالهم الذي جعلهم يتعلقون بالدنيا حتى في آلهتهم، ولا يعملون للآخرة، ألا وهو: إنكارهم للبعث.

وافتتح الله عزوجل هذه السورة: بالقسم بالملائكة وببعض أعمالهم، وللعظيم سبحانه أن يقسم بما شاء، وليس لمن دون العظيم إلا أن يقسم بالعظيم سبحانه وتعالى.

الله عزوجل في افتتاح هذه السورة التي تعالج موضوع البعث، وتسلّي المؤمنين: أقسم بالملائكة، وببعض أعمال الملائكة التي لها تعلق بالموت، الذي هو مفتاح الآخرة، ومقدم البعث، ومن عاين الموت وأدرك حقيقته بالغرغرة، أيقن بما بعده، ولكنه إيقان لا ينفع صاحبه والعياذ بالله إن لم يكن قدم خيرا.

يقول الله عزوجل: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: أي والملائكة التي تنزع أرواح الكافرين نزعا شديدا، وتجذبها جذبا شديدا، وذلك أن الملائكة تنزع أرواح الكافرين بشدة **قولا وعملا**.

أما القول: فإن الكافر إذا كان في إدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة، تحضره الملائكة، ويقعد ملك الموت عنده، ويقال للكافر: أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث،

أخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، أخرجي إلى سخط من الله وغضب. ولايزال يقال لها هذا القول الشديد حتى تخرج.

وأما العمل: فإن الملائكة عند حضور موت الكافر، تضرب وجهه ودبره وتتفرق روح الكافر في جسده كله، حتى تكون تحت أظفاره، وفي عروقه، وفي سائر جسده، فينتزعها ملك الموت انتزاعا شديدا، كما يُنْتَزع السفود من الصوف المبلول، لابد فيه من جذب شديد، ولابد لجذبه من تقطيع، ومن قوة.

وهكذا يكون نزع روح الكافر، عياذًا بالله من سوء الحال.

﴿**وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا**﴾: والملائكة التي تجذب أرواح المؤمنين بسرعة، ورفق، ولين، **قولا وعملا.**

أما القول: فإنه يقال له: -إذا كان في إدبار من الدنيا، وإقبال على الآخرة- أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج.

وأما الفعل: فإن الملائكة التي تحضر المؤمن عند موته، تكون بيض الوجوه، ويجذب ملك الموت روح المؤمن جذبا رقيقا، لطيفا، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة مِنْ فِيِّ السقاء.

﴿**وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا**﴾: والملائكة التي تَسْبَح؛ أي تصعد إلى السماء، وتهبط من السماء، فهي كمن يسبح في الماء، يصعد على وجه الماء حينًا، وينزل إلى داخل الماء حينًا، فهي تنزل من السماء إلى الأرض، وتصعد من الأرض إلى السماء.

ومما تصعد به الملائكة: الأرواح عند قبضها، فإن المؤمن إذا قبض ملك الموت روحه، لم تدعها الملائكة في يده طرفة عين، بل تضعها في كفن من الجنة، وحنوط عظيم، طيب الرائحة من الجنة.

ثم تصعد بها إلى السماء الدنيا فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال فلان بن فلان، بأطيب أسمائه في الدنيا، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب.

فيفتح لها ويشيعها من كل سماء مقربوها.

وهكذا في السماء الثانية، حتى تبلغ السماء السابعة، ثم ترد وتعاد إلى الأرض.

وأما روح الكافر: فإنها إذا نزعها ملك الموت، لم يدعها الملائكة في يده طرفة عين، بل يأخذونها ويضعونها في مسوخ من النار والعياذ بالله، ثم يصعدون بها إلى السماء الدنيا بريحة نتنة، فيستفتح لها فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان بن فلان بأخبث أسمائه في الدنيا، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث.

فإنه لا تفتح لها أبواب السماء، ثم تطرح إلى الأرض طرحًا والعياذ بالله.

﴿**فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا**﴾: فالملائكة التي تسبق بما تؤمر به، فتسارع ولا تتوانى لحظة، بل هي سباقة إلى الامتثال، كما أنها لما بُعث محمد صلى الله عليه وسلم، صارت سباقة بالوحي إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يسترق الجن منه شيئًا، كما أنها تسبق بأرواح المؤمنين إلى السماء السابعة عند خروجها.

﴿**الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا**﴾: فالملائكة تدبر أمورًا في الكون، وأمور العباد شرعًا وفعلًا.

تدبر أمور العباد **شرعًا**: بنزولها بالوحي.

وتدبر أمور العباد **فعلًا**: كنزول المطر وغير ذلك، ولكن تدبيرها ليس استقلالًا وإنما هي تدبر أمرًا، أي تدبر بأمر الله.

فالمدبر هو الله سبحانه وتعالى، والملائكة عاملة في ذلك التدبير بأمر الله سبحانه وتعالى.

هذه أيمانٌ، جوابها مقدر، يدل عليه المذكور بعد ذلك، وتقدير الجواب: (لتبعثن ولتحاسبن).

فأقسم الله عز وجل هذه الأيمان العظيمة، على هذا الشأن العظيم، وهو البعث والحساب.

﴿**يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ**﴾: يوم تضطرب الراجفة، وهي الأرض عند النفخة الأولى في الصور، حيث يموت كل حي، إلا من شاء الله سبحانه وتعالى، فتضطرب الأرض لموت ساكنيها.

﴿**تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ**﴾ أي: التالية لها، وهي النفخة الثانية في الصور، التي يقوم الناس بها من قبورهم.

وبين النفختين أربعون، كما تقدم معنا.

قيل لأبي هريرة رضي الله عنه: يوما. فقال: أبيت. قيل: شهرا. فقال: أبيت. قيل: سنةً. فقال:

أبيت.

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن بين النفختين أربعين، ولم يحدد ويعين كُنْهَ هذه الأربعين. وهكذا المؤمن يؤمن أن بين النفختين أربعين، والله أعلم بكُنْهِ هذه الأربعين.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾: قلوب يومئذ مضطربة، كثيرة الخفقان كأنها ستزول من مكانها، من شدة خفقانها وذلك لعظيم خوفها، وشدة فزعها، حيث رأت رأي العين ما أخبرت به في الدنيا فكفرت، وعلمت أن الوعيد نازل بها، أَمِنَت في الدنيا فأخافها الله في الآخرة، ولا يجمع الله لعبد أمنين ولا خوفين.

مَن أمن الله في الدنيا، أخافه الخوف الشديد والفزع العظيم في الآخرة.

ومن خاف الله في الدنيا، أمّنه الله من الفزع الشديد في الآخرة.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾: أبصارها ذليلة، منكسرة، جزاءً وفاقا، فقد كانوا في الدنيا أهل تكبر وتجبر، فكان حالهم في الآخرة أنهم أهل ذلة وانكسار.

وهكذا المتكبرون في الدنيا يكونون في الآخرة في ذلة وانكسار فيكونون كالذر والعياذ بالله.

﴿ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾: أي أنهم كانوا يقولون في الدنيا، وهذا جواب سؤال: لماذا كان أمرهم هكذا؟ لماذا كان حالهم على هذا السوء؟

فكان الجواب: أنهم كانوا يقولون في دُنياهم ﴿أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ﴾ أي: أإنا لمردودون إلى أمرنا الأول، فنعود أحياء بعد موتنا؟ ويقولون هذا على سبيل الإنكار والتعجب مما أخبرهم به محمد صلى الله عليه وسلم، وتلاه عليهم في كتاب الله سبحانه وتعالى.

﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾: أإذا كنا عظامًا بالية، تالفة، مجوفة، فإنهم كانوا يرون ذلك في الدنيا، ويؤمنون به، ما كان الكُفّار ينكرون الموت، لأنهم كانوا يرون الموت، وما كانوا ينكرون ما يكون في القبر من جهة أكل الأرض للأجساد، فإنهم كانوا يرون أن الميت يوضع في قبره، ثم بعد فترة يرون أنه قد بلي، وبليت عظامه، ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾ باليةً، متفتتةً، مجوفةً قبل ذلك،

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: تلك إذا رجعة إلى الحياة باطلةٌ، كاذبةٌ، لا حقيقة لها، ولن تكون، فمعنى (باطلة): أي كاذبة، فاسدة، لا حقيقة لها.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: فالأمر أسهل على ربنا من الإنشاء، والإعادة أيسر من البناء والابتداء.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ﴾: أي الصيحة الثانية، النفخة الثانية في الصور.

﴿إِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: وهي النفخة الثانية، التي تكون بها الحياة، أي: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ تكون بها الكرّةُ والرجعة.

إذن لا إشكال، الصيحتان اثنتان، والنفختان اثنتان، لكن النفخة الأولى يكون بها الموت، فيموت الأحياء إلا من شاء الله، والنفخة الثانية تكون بها الحياة، وتكون بها الرجعة، فإنما هي زجرةٌ واحدة،

﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: أي: فإذا هم محشورون (بالساهرة)؛ بالأرض البيضاء المستوية، التي يُرى عليها السراب كأنه ماء.

أو ﴿فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾: أي: في النار.

إذا هم بالساهرة يرونها، لأنهم رأوا شيئا من عذابها في القبر، وإذا بعثوا أيقنوا بوجودها، وأنها مآلهم ومصيرهم، فإذا حشروا رأوا النار في أرض المحشر، فإذا نودوا ليتبع كل أصحاب آلهة، آلهتَهم، تبعوا آلهتهم فتساقطوا في النار، عياذا بالله من ذلك، أيقنوا من هذا العذاب والعياذ بالله.

هذا التفسير الموضوعي الإجمالي لهذا المقطع.

ثم نقرأ كلام الشيخ في التفسير التفصيلي ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله تعالى: هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله، وإسراعهم في تنفيذه، يُحتمل أن المقسم عليه الجزاء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.

وهذا الأظهر والله أعلم، ولأن هذا هو أغلب ما في السور المكية وهو المقصود في هذه السورة، أعني إثبات البعث، فالأظهر أن المقسم عليه هو هذا الأمر العظيم.

ويحتمل أن المقسم عليه والمقسم به متحدان وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم

أحد أركان الإيمان الستة ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه الملائكة عند الموت وقبله وبعده.

يحتمل كما ذكر بعض المفسرين: أن المقسم عليه هو الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله، موجودون، وبأعمال موكلون.

يعني يكون جواب القسم: وهؤلاء خلق موجودون، وبأعمال عظيمة موكلون.

ولكن الأول أظهر كما ذكرنا.

فقال ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾: وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة.

تنزع أرواح الكافرين بقوة وتجذبها بشدة.

قال: توقد في نزعها حتى تخرج الروح فتجازى بعملها.

والغرق: هو النزع الشديد.

والإغراق: هو المبالغة في الشيء.

وقال بعض المفسرين: ﴿غَرْقًا﴾ أي يغرق الملك أرواح الكفار.

ومعنى **يغرق**: يعيدها في أجسادهم.

سبحان الله، كيف يعيدها في أجسادهم وهو يقبضها؟ قالوا: يخيفهم حتى تتفرق أرواحهم في أجسادهم كلها.

فتكون تحت الأظفار، وفي العصب وفي العروق، وفي جميع أجزاء الجسد، ثم ينزعها. إذن يغرقها ثم ينزعها.

يغرقها: بأن يفرقها في جميع جسد الكافر، ثم يجذبها بقوة نكالا، وتعذيبا، وإهانة للكافر عند موته.

وقال بعض أهل العلم: معنى غرقا؛ أن حال الكافر عند نزع روحه، كالغريق الذي يتأخر موته ويرى نفسه، -أعني الكافر- كأنها تغرق.

الغريق الذي يتأخر موته يأتيه الموت شديدا كثيرا، لأنه يموت في كل لحظة، لكن الروح ما تزال معلقة، فيكون الكافر كحال الغريق الذي يتأخر موته في الماء ولا نجاة له، ويرى الكافر نفسه عند نزع روحه، كأنه يغرق، أي: يموت موتا شديدا بطيئا كالغريق كما قلنا.

وقال بعض المفسرين: ﴿**النَّازِعَات**﴾ هنا هي النجوم، تُنزع من أفقٍ إلى أفق؛ أي تذهب. و﴿**غَرْقاً**﴾: قالوا معناها تطلع وتغيب.

قالوت: ﴿**وَالنَّازِعَات**﴾: هي النجوم و﴿**غَرْقاً**﴾: أي تطلع وتغيب كالغريق، يظهر على سطح الماء ويغيب في داخل الماء حتى يموت، وكذلك الكواكب تظهر وتغيب، حتى يفنيها الله عز وجل، وقيل غير ذلك والأول أظهر، أعني أن ﴿**النَّازِعَات**﴾ هي الملائكة، وعلى هذا أكثر السلف أن ﴿**النَّازِعَات**﴾ هي الملائكة.

﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾: وهي الملائكة أيضا، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط.

هذا، على أن هذا متعلق بأرواح الكافرين أيضا، أي تجذبها بشدة من العروق وسائر الجسد.

أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين.

فتنشط الملائكة روح المؤمن، كما ينشط العقال من يد البعير، ويعرف أصحاب الإبل أن حل العقال من يد البعير سهل، والنشط على هذا هو الجذب بسرعة ورفق.

على القول الأول: النشط هو الجذب بشدة.

وعلى القول الثاني: وهو أظهر والله أعلم، لأن فيه زيادة معنى، أعني أن النشط متعلق بأرواح المؤمنين، يكون النشط **الجذبَ برفق وسرعة**.

أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع لأرواح الكفار.

﴿وَالسَّابِحَاتِ﴾: أي المترددات في الهواء صعودا ونزولا سبحا.

يعني كالسابح يصعد على الماء وينزل فيه. فالملائكة تنزل من الماء وتصعد إليها، ومما تصعد به كما قلنا الأرواح.

وقال بعض المفسرين: ﴿**السَّابِحَاتِ**﴾: هي الكواكب تسبح في الأفلاك.

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: 40] والأول أظهر؛ لأنه المناسب لمقصود السورة، وهو المتعلق بالبعث.

السابقات لغيرها سبقا، فتبادر لأمر الله وتسبق الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله، لئلا تسترقه.

وقال بعض المفسرين: هي الملائكة، تسبق بأرواح المؤمنين إلى السماء، إكراما لتلك الأرواح الطيبة.

وقال بعض المفسرين: السابقات: هي أرواح المؤمنين عند خروجها تسبق إلى ملك الموت عند حلول الأجل، حتى تخرج بسرعة، لأنها تبشر، وعند ذاك تحب لقاء الله، فيحب الله عز وجل لقاءها.

والأول أظهر والله أعلم؛ أي أنها **الملائكة**.

فإن قال قائل: نلحظ هنا أن الله عز وجل قال: ﴿**فَالسَّابِقَاتِ**﴾: يعني الله عز وجل قال:﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾﴾

فكان المنتظر: والسابقات سبقا.

لكن الله عز وجل قال: ﴿**فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا**﴾.

قال العلماء: لأن **الفاء** تؤدي هنا معنى **الواو** وزيادة، وهذه الزيادة؛ أن هذه مركبة على ما تقدم، فما تقدم سبب لها، وهذا يقوي القول بأن الملائكة تسبق بأرواح المؤمنين، إكراما لها، لأن الذي تقدم متعلق بإخراج الروح، فكانت **الفاء** مفيدة للقسم الذي أفادته **الواو**، ومفيدة لأن هذه والتي بعدها، أنها مسبَّبَة لما قبلها، كما يقال: قام، فذهب.

إذا قلت لك مثلا: قام وذهب. هما فعلان، قام، وذهب.

قد يكون ذهب لأي سبب، لكن إذا قلت قام فذهب، سبب ذهابه هو قيامه فيكون ما سبق يعني سببا للسبق والتدبير.

﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾: أي الملائكة الذين...

وهذا الذي عليه أكثر السلف: أن المدبرات هي الملائكة، بل حكاه بعض المفسرين إجماعا وقال: هم الملائكة قولا واحدا، وإن كان بعض المتأخرين ذكر نزاعا، لكن الأظهر والله أعلم أنه لا نزاع وأن المدبرات هي الملائكة.

أي الملائكة الذين جعلهم الله يدبرون كثيرا من أمور العالم العلوي والسفلي؛ من الأمطار، والنبات، والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات، والجنة، والنار، وغير ذلك.

ومن أعظم تدبيرها كما ذكرنا: ما يتعلق بالشرع، فإنها التي تتنزل بالوحي على الأنبياء، وتنديرها كما قال الله: **أمرًا**. تدبير أمر لا ابتداء، وإلا فالمدبر هو الله، فيأمر الملائكة بما شاء سبحانه، فتدبر بأمر الله سبحانه وتعالى.

وجواب القسم كما قلنا: مقدر يدل عليه المذكور بعده: (لتُبعثن ولتحاسبن).

طيب لماذا لم يذكر الشيخ جواب القسم؟

لأنه ذكره في أول الكلام، في مقدمة كلامه على السورة ذكر جواب القسم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة.

﴿تَرْجُفُ﴾: أي تضطرب، والراجفة هي المضطربة، وهي الأرض، وذلك عند النفخة الأولى في الصور التي تميت كل شيء، إلا من شاء الله، والرجف هنا من رجف الرعد، الرجف في أصله هو الحركة، ولكن الرجف هنا، من رجف الرعد، وهو الصوت الشديد والحركة والاضطراب، الصوت الشديد **بالنفخة**، بالنفخ في الصور، فإذا نفخ في الصور تحركت الأرض واضطربت.

فدلت كلمة ترجف على الأمرين: على الصوت الشديد وهو النفخ في الصور، وعلى حركة الأرض واضطرابها إذا نفخ في الصور.

﴿تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾: أي الرجفة في الأخرى التي تردفها وتأتي تلوها.

وهي النفخة الثانية التي يحيى بها الأموات.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾: أي منزعجة من شدة ما ترى وتسمع.

فهي كما قلنا مضطربة، شديدة الخفقان، وهذا يدركه الإنسان في الدنيا، فإن الإنسان إذا خاف يضطرب قلبه، ويخفق خفقانا شديدا، هذا في خوف الدنيا، فكيف بالفزع الشديد، والخوف الشديد يوم القيامة؟ تخفق قلوبهم وتضطرب، كأنها ستخرج من الصدور، فهي خائفة فزعة، قد اشتد خوفها وعظم فزعها. لماذا؟ لأنها أيقنت أن الوعيد واقع بها لا محالة، فلا رجاء وإنما هو الخوف، ولأنها أمنت في الدنيا فأخافها الله في الأخرة.

﴿أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾: أي ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف واستولت عليهم الحسرة.

﴿**أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**﴾: أي أبصار أصحابها، لأن الكلام على القلوب، أبصارها أي أبصار أصحابها، وأعيدت إلى القلوب لأن القلب ملك الأعضاء، والأعضاء تتبعه فسادا أو صلاحا، (ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله).

إذن أعيدت الأبصار إلى القلوب، لأن القلب ملك الأعضاء، وهو سبب صلاحها أو سبب فسادها والعياذ بالله.

﴿يَقُولُونَ﴾: أي الكفار في الدنيا على وجه التكذيب: ﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾: أي بالية فتاتا.

في بعض النسخ يقولون: -أي مُنكروا البعث في الدنيا-، استهزاءً وإنكارا للبعث، أإنا لمردودون في الحافرة؟ أي: أنُرد إلى الموت إلى الخِلقة الأولى؟

والمعنى: أي أنعود أحياء بعدما متنا؟ يُقال: رجع فلان على حافرته.

أي رجع من حيث جاء.

وقال بعض المفسرين: معنى الحافرة: العاجلة.

أي أإنا لمردودون في العاجلة، أي في الحياة.

والعاجلة سموها العاجلة: لأنها قريبة إليهم، وإلا فهم لا يؤمنون بالآخرة، يعني العاجلة ليست التي تقابل الآخرة، هم منكرون ولكن سموها العاجلة على هذا التفسير، لأنها قريبة إليهم.

وقال بعض المفسرين: ﴿**الْحَافِرَةِ**﴾: معناها المحفورة، وهي القبور.

يعني: أنعود أحياء في قبورنا بعد أن متنا ودُفنا، وأُهيل التراب علينا، نعود أحياء؟ إن ذلك رجع بعيد. هكذا يقولون والعياذ بالله مما قالوا.

وقال بعض المفسرين: ﴿**نَّخِرَةً**﴾: أي مجوفة.

ولا تنافر، بل هذا اختلاف تنوع، فإن العظام في أول أمرها إنما يذهب مخها الذي فيها، فتصبح مجوفة ثم تبلى وتفنى في القبور.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: أي استبعدوا أن يبعثهم اللّه ويعيدهم بعدما كانوا عظاما نخرة، جهلا منهم بقدرة اللّه وتجريا عليه.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾: كرة: يعني رجعة.

خاسرة: يعني كاذبة باطلة، لا حقيقة لها و لن تكون.

قال اللّه في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾.

الأمر أسهل من الابتداء، وليس بينهم وبين البعث بعد موتهم إلا النفخ في الصور، وهو قريب، وقد التقم صاحب الصور، وهو إسرافيل عند أهل العلم الصور، وينظر إلى العرش خشية أن يؤمر بالنفخ قبل أن يرتد إليه طرفه.

ولهذا قال بعض أهل العلم: أقرب الملائكة إلى العرش بعد حملته: إسرافيل.

فالأمر قريب و سهل.

فما هي إلا أن يأمر اللّه إسرافيل بالنفخ في السور النفخة الثانية، حتى يخرج أصحاب القبور من قبورهم ويأتون إلى حشرهم أفواجا كما تقدم في سورة النبأ.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾: يُنفخ في السور فإذا الخلائق كلهم بالساهرة، أي: على وجه الأرض قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

والعرب تسمي الأرض الساهرة، قالوا: لأن فيها كثيرا من البلايا، ومن أصيب بالبلاء يسهر ما ينام.

العرب جربوا، وعرفوا، ورأوا أن الدنيا كثيرة البلاء، والبلاء يسهر صاحبه. فكان السهر في الأرض كثيرا، فسموا الأرض بالساهرة.

وقال بعض المفسرين: الساهرة في اللغة العربية: هي الأرض البيضاء المستوية، يُرى علىها السراب كأنه ماء، من قول العرب عين ساهرة، أي يجري فيها الماء.

وقال بعض السلف: الساهرة :هي النار.

لأنهم لا ينامون فيها والعياذ بالله، ولا يصيبهم فيها نعاس فلا يرتاحون من العذاب، لا بنوم، ولا بنعاس نعوذ بالله من عذاب الله.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ

﴿١٩﴾فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: 15-26].

لما تقدم أن مشركي قريش كانوا ينكرون البعث، وكان هذا يتضمن تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، فكان هذا يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم، ومشركوا قريش كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه حسًّا ومعنًا، فسلى الله عز وجل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بتذكيرهم بقصة موسى عليه السلام مع فرعون.

وفي هذه القصة تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من جهتين:

أما الجهة الأولى: فهي أن هذا الأذى من المشركين لأنبيائهم وللمؤمنين بالأنبياء، سُنة ماضية وطريقة مسلوكة عند المتقدمين، فليس النبي صلى الله عليه وسلم بدعًا من الرسل، وليس المؤمنون به بدعًا من المؤمنين، بل كما كذب المشركون النبي صلى الله عليه وسلم، وأنكروا ما جاء به، وآذوه فكذلك فعل السابقون بأنبيائهم، وكما آذى المؤمنين، فكذلك آذى المشركون المتقدمون المؤمنين، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه.

وأما الوجه الثاني: فهو أن مشركي قريش وإن كفروا؛ وإن كانت لهم قوة، فإنهم ليسوا عن انتقام الله ببعيد، فقد كان من هو أطغى منهم، وأقوى منهم، وأشد جبروتا منهم، وأعظم كفرا منهم، ومع ذلك أخذه الله عز وجل بأيسر أمر بإغراقه مع قومه، وما انتقام ربنا من الظالمين ببعيد.

ومن هنا تعلم مناسبة ذكر قصة موسى عليه السلام في هذا المقام، والقرآن يأخذ بعضه ببعض، فلن تجد في القرآن انتقالا غريبا، وإنما يأخذ بعضه ببعض، فهذا مرتبط بما قبله.

فقال الله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾.

(هَلْ) هذا سؤال تحقيق، فمعنى **(هَلْ)** قد، قد أتاك وبلغك خبر موسى عليه السلام العظيم الذي فيه التسلية الكبرى.

إذ ناداه ربه بواد طوى المقدس، و**(طوى)** تعني المقدس، وهو واد مقدس، وكان مضمون

النداء: اذهب إلى فرعون رسولا فإنه قد طغى وتجاوز كل حدّ، فكان طاغيًا في جبروته، وطاغيًا في قوته وطاغيًا في أذية بني إسرائيل، وطاغيًا في كفره، حتى أنه قال ما لم يقله أحد غيره: أنا ربكم الأعلى، فاعرض عليه الإسلام بقول لين بأسلوب العرض.

هل لك إلى أن تتزكى أي: تتطهر من جميع ذنوبك وجميع قاذوراتك فليس بينك وبين هذا إلا أن تسلم، فإذا أسلمت هدمت كل ما كان قبل ذلك، فتكون كأنك ولدت طاهرا لم يعلق بك ذنب مما مضى قبل إسلامك، وأدُلَّك على ربك وأعرفك بربك فإذا عرفت الله فستخشى الله، من عرف الله حقا وصدقا، خشي الله فعلا ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: 28] فإذا دللتك على الله وعرفتك بالله، فعرفت الله، فإنك ستخشاه وتخافه ومن خاف الله اتقاه واتقى عذابه.

لكن فرعون أبى واستكبر وزاد في طغيانه، فأراه موسى عليه السلام العلامة العظمى الدالة على صدقه، وهي المعجزة فأراه الآية الأولى حيث ألقى عصاه فإذا هي حيّة عظمى كبرى تسعى، ثم أراه الآية الأخرى فأخرج يده بيضاء من غير سوء.

ولكن فرعون لم يؤمن بل أعرض عن الحق ولم يُقْبِل على الحق، وأخذ يسعى في إفساد أمر موسى عليه السلام فإن لم يستطع إفساد أمره يسعى في قتاله واستئصاله مع من آمن به.

﴿**فَحَشَرَ**﴾ جمع جنوده، وجمع سحرته وجمع الناس، جمع جنوده ليكونوا مستعدين لقتال موسى عليه السلام ومن آمن معه، وجمع سحرته ليغالبوا موسى عليه السلام وليكسر موسى عليه السلام، وجمع الناس ليروا ذلك.

ولما خشي أن يؤمن الملأ بموسى عليه السلام، لظهور علامات الصدق في قوله، وظهور المعجزات الدالة على صدقه، نادى الملأ: أنا ربكم الأعلى، فلا أعلى فوقي والعياذ بالله.

وقال بعض أهل العلم: إن فرعون كان يأمر بصنع تماثيل وأصنام ويأمرهم بعبادتها ويقول: أنا ربها،

هذه الأصنام أربابكم، وأنا رب أربابكم، فهو الرب الأعلى والأصنام دونه.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ﴾: أي عاقبه الله عز وجل عقوبة شديدة فيها عبرة.

﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ ففرعون وقومه عوقبوا عند الموت ويعاقبون بعد الموت ويعاقبون يوم الحشر.

عوقبوا عند الموت بأن أغرقوا وهم ينظرون مع جبروتهم وقوتهم وتطور آلاتهم، حتى أنهم صنعوا وبنوا الأهرامات التي لا زالت قائمة إلى اليوم، والله أعلم في أي زمن بنيت، لكن في زمن الفراعنة.

مع هذه القوة أخذهم الله بأيسر أمر، وعاقبهم وهم ينظرون حيث أغرقهم وهم ينظرون.

ويعاقبون بعد الموت بالنار يعرضون عليها غدوًا وعشيًا، وهذا عذابهم في قبورهم، تعرض عليهم النار في طرفي النهار غدوًا وعشيًا.

ويعاقبون يوم الحشر في الآخرة، بدخولهم النار خالدين مخلدين فيها، فهذا نكال الآخرة والأولى.

إن في ذلك لعبرة وعظة لمن يخشى، والاعتبار بالآيات لابد فيه من إيمان وخشية وحضور قلب، فالذكرى تنفع المؤمنين ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:10]، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37]، فغير المؤمن، مهما جاءته الآيات لا يعتبر بها ولا يتعظ بها، وإن تأثر بالآيات الواقعة، كان تأثره دنيويًا، وليس كل مؤمن يتذكر بالآيات والمواعظ، فإن من المؤمنين من تضعف خشيته لله، فيقل اعتباره واتعاظه، وقد يكون المؤمن يخشى الله لكنه غافل لا يحضر قلبه فلا ينتفع.

إذن نتعلم أن الآيات والمواعظ إنما ينتفع بها من اتصف بهذه الصفات الثلاث: الإيمان والخشية وإحضار أو حضور القلب.

ومن هنا تعلم جواب السؤال الذي يسأله كثير من الناس: لماذا يدخل الناس المساجد يوم الجمعة ويستمعون الخطب ويخرجون والغالب أنهم لا يتغيرون؟

السبب في هذا إما ضعف الخشية، وإما عدم حضور القلب، كثير من المؤمنين لا يعرفون من الخطبة إلا الحمد والدعاء، إذا شرع الخطيب فأثنى على الله، شردت قلوبهم خارج المسجد، ولا يفيقون إلا عند فراغه من الخطبة، فلا ينتفعون بالآيات والمواعظ إلا من رحم

الله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [النازعات: 26].

هذا المعنى الإجمالي الإيماني الموضوعي، ثم ننتقل إلى التفسير التفصيلي من خلال قراءة ما كتبه الشيخ عبد الرحمن.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى:

يقول الله تعالى لنبيه محمد: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

(هَلْ) هنا بمعنى قد؛ لأن السؤال سؤال تقرير وتحقيق، فالمعنى: قد بلغك خبر موسى عليه السلام، وهو خبر عظيم.

وقال بعض المفسرين: (هَلْ) هنا بمعنى **ما** النافية، ومعنى ذلك: ما أتاك حديث موسى قبل الوحي، ما بلغك حديث موسى قبل الوحي، ولكن بلغك بالوحي.

والأول أظهر، أنها من باب التحقيق بمعنى: قد.

وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه، أي: هل أتاك حديثه.

﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتن عليه بالرسالة، وابتعثه بالوحي واجتباه.

وهذا المحل هو وادي طوى، وطوى تعني المقدس. فاسمه: طوى ومعناه: الوادي المقدس.

فقال له: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.

طغى أي تجاوز الحد في الطغيان، قوةً وجبروتًا وأذىً وكفرًا، فهو قد تجاوز الحد طغيانا في كل شيء،

في قوته، في جبروته، في أذيته لبني إسرائيل، في كفره.

﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: فانهه عن طغيانه وشركه وعصيانه.

لأنك رسول إليه، وإلى قومه.

بقول لين وخطاب لطيف لعله يتذكر أو يخشى ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: هل لك في خصلة حميدة ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولوا الألباب وهي أن تزكي نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان إلى الإيمان والعمل الصالح.

أي: هل لك إلى أن تسلم، فتتزكى وتتطهر من جميع ذنوبك، فليس بينك وبين هدم جميع ذنوبك إلا أن تسلم، فإذا أسلمت هدمت ما كان قبل ذلك.

وهذا المذكور هنا، هو تفسير للقول اللين الذي أُمِر به موسى وهارون ﴿**فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا**﴾ [طه: 44]، هذا تفسيره هنا أن يكون الكلام بأسلوب العرض ﴿**هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ**﴾.

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي: أدلك عليه وأبين لك مواقع رضاه من مواقع سخطه.

وأرشدك إلى طاعته، وأعرفك به حتى تخشى.

فتخشى الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى، ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ أي: جنس الآية الكبرى فلا ينافي تعددها.

﴿**الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ**﴾، وموسى عليه السلام جاء بعدد من الآيات، فلماذا قال الله: ﴿**الْآيَةَ**﴾؟

قال بعض العلماء: أي جنس الآية، والجنس يطلق على الكثير، على العدد كله فلا إشكال في تعددها.

وقال بعض أهل العلم: المقصود أنه عرض عليه الآيات آية آية، وليس دفعة واحدة، فأولا ألقى عصاه، فإذا هي ثعبان مبين، فأراه الآية الكبرى، ثم أخرج يده من جيبه بيضاء من غير سوء، آية أخرى، فأراه الآيات آية آية.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ فكذب بالحق وعصى الأمر.

فكذب النبيَّ وعصى الله.

فكذب النبي: كذب موسى عليه السلام. وعصى الله: فلم يمتثل أمره.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته.

﴿**ثُمَّ أَدْبَرَ**﴾ أدبر يعني: أعرض عن الحق ولم يقبل عليه فكأنه أولاه دبره.

وقال بعض المفسرين: إن فرعون لما رأى عصى موسى حية تسعى عظيمة كبيرة خاف منها، وهو الجبار الذي يتجبر على الناس، ويتكبر على الناس، لما رأى الحية، لما رأى العصى حية، عظيمة، تسعى فر وأدبر خائفا منها.

معنى (**يسعى**): كما قال الشيخ يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته، أو يجتهد في إبطال أمر

موسى، أو يسعى في القضاء على موسى وقومه.

وهذا من اختلاف التنوع، كل هذا من سعي فرعون، سعى في محاربة الحق، وسعى في تدبير القضاء على موسى عليه السلام وقومه، وسعى في إبطال أمر موسى عليه السلام بجمع السحرة.

﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ فحشر جنوده أي: جمعهم.

﴿فَحَشَرَ﴾

قال بعض أهل العلم: أي جمع جنوده لقتال موسى ومن آمن معه.

وقال بعض أهل العلم: حشر أي جمع ملأه ليشاورهم في أمر موسى عليه السلام.

وقال بعض أهل العلم: حشر أي جمع السحرة من أنحاء البلاد ليغالبوا موسى عليه السلام.

وقال بعض أهل العلم: حشر أي جمع الناس وجعل لهم موعدا، ليشهدوا غلبة السحرة لموسى عليه السلام؛ لأن الناس قد تسامعوا بأمر موسى عليه السلام، فأمرهم أن يجتمعوا في يوم الزينة ضحى، حتى يروا غلبة السحرة لموسى عليه السلام.

ولا مانع من الجميع، فإنه حشر كل هؤلاء، كل هذا مدافعة للحق وتمسكا بالباطل.

﴿فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 23-24].

لما خشي أن يؤمن الملأ بموسى عليه السلام، قال لهم: ما علمت لكم إلها غيري ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾

(الْأَعْلَىٰ)

قال بعض المفسرين: أي: لا أحد فوقي، أنا الأعلى على الإطلاق والعياذ بالله.

وقال بعض المفسرين: أي أن لكم أربابا تعبدونها، وأنا رب أربابكم، فأنا الرب الأعلى الرئيس والأصنام التماثيل التي تعبدونها أرباب دوني.

﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ فأذعنوا له وأقروا بباطله حين استخفهم.

وأقروا بباطله يعني: أقروا بما يدعو إليه من الباطل، ليس أنهم أقروا أن ما عليه باطل، لا؛ أقروا بما يدعوهم إليه من الباطل فلم يؤمنوا ولم يستجيبوا، بل استجابوا لأمر فرعون.

﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: جعل الله عقوبته دليلا وزاجرا ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

كما قلنا **النكال**: هو العقوبة الشديدة التي فيها عبرة، ولذلك قال الشيخ: **(أي جعل الله عقوبته دليلا)** أي: عبرة وزاجرا ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ هي عقوبة الآخرة وعقوبة الأولى، أي: عاقبه الله في الأولى عند موته حيث أغرقه بالماء وهو ينظر، ولما أيقن الموت وغرغر قال: آمنت أنه لا إله إلا من آمن به بنو إسرائيل، فكان في هذا عقوبة له؛ لأن هذا الإيمان لا ينفعه ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ﴾ [يونس: 91]، فهذه نكال الأولى، أي النكال في الأولى، والآخرة: هي عذاب القبر والعذاب يوم القيامة.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ العقوبة على كلمته الآخرة وكلمته الأولى

يعني: عاقبناه عقوبة شديدة على كلمته الأولى وكلمته الأخرى. ما هما؟

﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: 24]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: 38]، فهاتان الكلمتان الأولى والآخرة.

وقال بعض أهل العلم: الكلمة الأولى: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ، والآخرة تكذيبه موسى وسعيه في إهلاكه.

فيكون المعنى على هذا: فأخذناه بالعقوبة الشديدة التي فيها عبرة بسبب الآخرة والأولى، بسبب كلمته الآخرة وكلمته الأولى، أو بسبب كلمته: أنا ربكم الأعلى، وبسبب تكذيبه لموسى عليه السلام وسعيه في إهلاكه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فإن من يخشى الله هو الذي ينتفع بالآيات والعبر.

يعني أن الاعتبار والعظة بالآيات، لمن يخشى من المؤمنين، بشرط أن يُحضر قلبه، فإذا كان السامع للآيات والناظر لها مؤمنا يخاف الله، وأحضر قلبه فإنه ينتفع بالآيات.

فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى وبارز الملك الأعلى، يعاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه فلو جاءته كل آية لم يؤمن بها.

-تفسير المقطع الثالث من السورة-

﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [النازعات : 27-33].

لما سلى الله عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، بذكر قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية، عاد الكلام إلى مقصود السورة، وهو إثبات البعث.

فذكر الله عز وجل شيئًا من الآيات الدالة على وجوده، وعلى ربوبيته، وعلى تدبيره، وعلى ألوهيته، وعلى قوته، وعلى أنه على كل شيء قدير، وعلى أن البعث أيسر عليه سبحانه وتعالى، فقال: ﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ**﴾ [النازعات: 27].

أأنتم أقوى وأثقل خلقًا، أم السماء التي ترونها، وهي سقف فوقكم، متسعة فيها آيات عظيمة، ومن السماء ما لا ترون، وفيه من العجائب الشيء العظيم.

وهذا يكفي العاقل ليقول: إن السماء أشد وأثقل خلقًا من خلق الناس، لكن الله عز وجل زاد الأمر بيانًا ففصل هذه الآية: ﴿**بَنَاهَا**﴾ أي: جعلها سقفًا فوقكم، والعرب تسمي السقف بناءً كما تقدم معنا في سورة النبأ، فجعلها سقفًا، وهذا السقف معلق من غير عمد ترونها، مع سعته، فإنه معلَّق من غير عمدٍ ترونها، وفي هذه الآية عبرة، فإن الإنسان ولو جمع ما جمع لا يستطيع أن يبني سقفًا صغيرًا بلا عمد، لا يستطيع ولو جمع الناس كلهم، لا يستطيع أن يبني سقفًا صغيرًا بلا عمد، فكيف بهذا السقف المتسِّع يُبنى بلا عمد؟! لا شك أنه لا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿**رَفَعَ سَمْكَهَا**﴾ أي: أعلى سقفها، ورفعها في الهواء من غير عمدٍ ترونها.

﴿**فَسَوَّاهَا**﴾ وأحكمها فلا ترى فيها فطورًا ولا شقوقًا، ولا ارتخاءً، وهذا يخالف العادة قطعًا، في السقف الصغير، فكيف بهذا السقف الكبير، الذي مهما كررت النظر إليه لن تَرَى فيه عيبًا، ولن تَرَى فيه اختلافًا، ولن تَرَى فيه ميلًا، ولن تَرَى فيه شقوقًا، وهذا لا يمكن أن يكون إلا من الله، فالله بناها وأحكمها وحفظها، مرت عليها سنون وسنون ما تغير فيها شيء.

إذن انتبهوا: بناها ورفعها وأحكم صنعها، وحفظ صنعها، فإنه لم يتغير أبدًا، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا من الله سبحانه وتعالى،وأجرى فيها آياتٍ عظيمة

﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا**﴾ أي: أظلم ليلها، كيف يأتي الظلام؟

يأتي الظلام بغيبوبة الشمس، أن تغرب الشمس، وأين الشمس؟ الشمس في السماء، نراها فوقنا، ﴿**وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا**﴾ أي: أظلم الليل بأمرٍ متعلقٍ بالسماء وهو الشمس، حيث تغيب فيُقبل الليل.

﴿**وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا**﴾ أنار نهارها وأبرز نهارها، بأي أمر؟ بالشمس، حيث تُشرق الشمس فيظهر النهار، ويعم الضوء.

ومن هنا تعرف سر إضافة الظلمة إلى السماء، والضوء إلى السماء، أي بآيةٍ عظيمة متعلقة بالسماء وهي الشمس، وبآيةٍ واحدة تعلق الضدان: الليل والنهار، كلاهما متعلقان بالشمس غروبًا لليل، وشروقًا للضوء والنهار.

﴿**وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا**﴾ أي: سوَّاها ومهَّدها وجعلها ألوانًا وأنواعًا، بما يناسب نفع الإنسان، ودبَّر فيها أو أقواتها وملأها خيرات.

وهذا يدل على أن تدبير الأرض متأخر على خلق السماء، فكان الأمر أن ربنا -سبحانه وتعالى- خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء، فخلق السماء بعد خلق الأرض في يومين، ثم قدّر فيها أقواتها في يومين، فهذه ستة أيام.

﴿**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا**﴾ وحياة الناس قائمة على هذين: الماء والطعام.

﴿**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا**﴾ ففيها عيونٌ، وإذا حفرت الآبار وجد الماء.

وأخرج منها مرعاها أي: نباتها النافع للإنسان ولدواب الإنسان، والدواب نافعة للإنسان،

فكل شيء في الأرض خلقه الله للإنسان، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأرض جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] فنفع كل ما في الأرض عائدٌ إلى الإنسان. من الذي خلق هذا؟ ودبر هذا؟ لا يمكن أن يكون إلا الله سبحانه وتعالى.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾.

﴿أَرْسَاهَا﴾ أي ثبتها وثبت بها، فالجبال ثبتها الله في الأرض وقد اكتشف العلماء أن أكثر الجبال في داخل الأرض، وثبّت بها الأرض انتهوا الجبال راسية ومُرسية، وهذه آية عظيمة، ثابتة ومثبتة، ثُبِّتت في الأرض فليست على سطح الأرض فيمكن أن تتزلزل، ومثبِّتة للأرض. كل هذا الذي تقدم في الأرض، منفعة للإنسان.

﴿مَتَاعًا﴾: أي منفعة ﴿لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ ومنفعة أنعامكم منفعة لكم، فكان الأمر كله منفعة لي بني آدم.

هذا التفسير الإجمالي الإيماني الموضوعي ثم نعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه اللَّه تعالى: يقول تعالى مبينًا دليلًا واضحًا لمنكري البعث ومستبعدي إعادة الله للأجساد ﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها البشر.

أيها البشر. **وقال بعض المفسرين**: يا مشركي قريش، ولا تدافع بين المعنيين فإن الخطاب ابتداء لمشركي قريش ويشاركهم جميع البشر فإنهم داخلون في هذا.

﴿أَأَنتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ﴾.

﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾: أي: أقوى خلقا وأثقل خلقا، أم السماء.

ذات الجرم العظيم والخلق القوي والارتفاع الباهر.

والطبقات فهي سبع سماوات.

بَنَاهَا الله.

أي: فجعلها سقفا، وكما قلنا العرب تسمي السقف بناءً فخاطبهم الله بما يعرفون.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ أي: جرمها وصورتها.

وقال بعض المفسرين: رفع سمكها: أي أعلى سقفها، فجعلها عالية بعيدة، يقال: سَمَكْتُ الشيء، أي: رفعته في الهواء.

فسواها بإحكام وإتقان يحير العقول ويذهل الألباب.

فلا شقوق فيها ولا فطور وليس فيها تفاوت ومع اتساعها رفعها سبحانه بغير عمد ترونها وتلك آية عظمى.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: أظلمه، فعمت الظلمة جميع أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض.

والغطش هو الظلمة، وأضاف الظلمة إلى السماء لأن الظلمة تكون بغروب الشمس والشمس في السماء.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ أي: أظهر فيه النور العظيم حين أتى بالشمس فانتشر الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

وليس المراد الضحى فقط، وإنما المراد النهار، وهذا من باب التعبير عن الشيء ببعضه. أي: أخرج نهارها وجعل نهارها مضيئا لأنه وقت المعاش، وجعل ليلها مظلما لأنه وقت السبات.

﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء، دحاها، أي أودع فيها منافعها.

وقال بعض المفسرين: ﴿**دَحَاهَا**﴾ أي: بسطها بما يناسب ما خلقت له، **وقال بعضهم:** دحاها أي: مهدها للأقوات وقدر فيها أقواتها.

﴿دَحَاهَا﴾ أي أودع فيها منافعها وفسر ذلك بقوله: أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها أي: ثبتها في الأرض.

﴿**أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا**﴾ أي: أخرج منها عيونا متفجرة بالماء، وجعل في بطنها ماء، يستخرجه الإنسان لينتفع به، وعلم الإنسان كيف يستخرجه من الذي علم الإنسان أن في بطن الأرض ماء؟! الله، وعلمه كيف يستخرجه، ولازلنا إلى اليوم نتعلم أشياء جديدة نستخرج بها الماء الذي نشربه.

ولولا الله ما عرفنا، ولولا الله ما وصلنا إلى ذلك الماء.

﴿**وَمَرْعَاهَا**﴾ **قال بعض أهل العلم:** المرعى هو ما ترعاه الأنعام.

وقال بعض أهل العلم: المرعى هو كل نبات، فيدخل في ذلك ما يأكله الإنسان وما تأكله الدواب، وهذا أقرب والله أعلم أن المقصود بالمرعى النبات مطلقا، سواء ما ترعاه الدواب أو ما يأكله الإنسان أو غير ذلك.

﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ أي: ثبتها بالأرض.

كما قلنا ثبتها في الأرض، وثبت الأرض بها، هذا معنى أرساها.

قال: فدحا الأرض بعد خلق السماوات كما هو نص هذه الآيات الكريمة.

أما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء .كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: 9-12]، فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار.

كما قلنا هي هكذا بالترتيب: الله عز وجل خلق الأرض في يومين، ثم استوى إلى السماء فخلقهن في يومين، ثم دبر فيها أقواتها في يومين.

فالذي خلق السماوات العظام، وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض والأبراج الكثيفة، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لابد أن يبعث الخلق المكلفين فيجازيهم بأعمالهم، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

قلنا إن هذه الآيات دالة على وجود الله وكل عاقل يوقن بآية من هذه الآيات، وليس بكل هذه الآيات أن الله عز وجل موجود، فإنه لا يمكن وجود هذه الآيات إلا من الله سبحانه وتعالى.

فلا يمكن أن توجد نفسها، ولا يمكن أن توجد صدفة، ولا يمكن لمخلوق أن يوجدها، فتعين أن موجدها هو العظيم سبحانه، وهي دالة على ربوبية الله، فهو الذي ربى خلقه بالنعم، وأمدهم بالقيم، وهي دالة على ألوهية الله، فالله هو المستحق للعبادة، وهي دالة على قوة الله، فالله هو القوي المتين، وهي دالة على أن الله على كل شيء قدير، فيجب امتثال أمره، وتصديق كلامه، وهي أيضا دالة على أن البعث أيسر عليه من هذا الخلق، فإن الإعادة أيسر من الابتداء كما هو معلوم.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾﴾ [النازعات: 34-46]

لما بين ربنا سبحانه وتعالى الآيات الدالة على وجوده سبحانه وتعالى، وعلى ربوبيته، وعلى ألوهيته، وعلى تدبيره للكون، وعلى أنه القوي المتين، وعلى أنه على كل شيء قدير، وهذه الآيات تدل على أن الله سبحانه وتعالى قادر على بعث النّاس، وعلى حسابهم، وعلى ما في اليوم الآخر وما وراءه.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**﴾ يعني إذا جاءت الدّاهية الكبرى الّتي لا أدهى منها، ولا أمرّ منها، بل هي تعم كلّ داهية، وتغلب كلّ داهية، وتعلو كلّ داهية، **وهي يوم القيامة.**

في ذلك اليوم، يتذكّر كلّ إنسان عمله في الدّنيا، من خير أو شرّ، وهو سعيه الّذي سعى به إلى ربّه سبحانه وتعالى، لا ينسى منه شيئا؛ في الدّنيا، قد يعمل العمل ثم ينساه، أمّا في الآخرة، فإنّه يتذكّر كلّ عمله ولا ينسى منه شيئا.

ثم يراه في كتاب يخرجه له ربّه سبحانه وتعالى، فهو يُحاسب نفسه، وكفى بنفسه حسيبا عليه، ويبلو عمله.

ثمّ بعد ذلك:

من النّاس من لا يُحاسَب بل يدخل الجنّة بغير حساب ولا عذاب.

ومن النّاس من يُحاسَب حسابا يسيرا، فيعرض عليه عمله عرضا مع السّتر عليه.

ومن النّاس من يُناقش عمله مناقشة، ومن نوقش الحساب عُذِّب.

ومن النّاس من يُفضح بعمله على رؤوس الخلائق.

في ذلك اليوم تُظهر النّار لكلّ ذي عينين فيراها كلّ أحد في منظر مخيف يُقطّع القلوب، حيث يُؤتى بها وهي تتلظّى، لها تغيّظ وزفير، لها سبعون زمام مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها، أي معها أربعة مليون وتسعمائة ألف ملك، الله أعلم بعظم خلقتهم، يجرّونها جرًّا، وهذا منظر يقطّع القلوب، لو أن ملأً يبلغون هذا العدد اجتمعوا في الدّنيا، وهم يُعِدّون نارا من نار الدّنيا ليُدخلوا فيها بعض النّاس لقطّع ذلك القلوب، فكيف بنار جهنّم؟ وقد أتى بها هذا العدد العظيم من الملائكة في ذلك الموقف العظيم.

فمن النّاس من يوقن أنّه واقع فيها، لا يرجو سلامة، وهم الكفّار.

ومن النّاس من يشتدّ خوفه من دخولها، وهم عصاة المؤمنين الّذين لم يتوبوا من ذنوبهم، وكلّ مؤمن يدرك وهو يراها أنّه سيمرّ عليها، ولا يدري هل يسلم منها أو يُكردس فيها.

﴿**فَأَمَّا مَن طَغَىٰ**﴾: هذا جواب قول الله عزّ وجلّ: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى**﴾، هذه الآية وما بعدها جواب لهذا، فأمّا من تجاوز الحد، ولم يلزم حدود ربّه، ولم يعظم شعائر ربه، بل كفر أو عصى ولم يغفر الله له معصيته، وآثر الحياة الدنيا فقدمها على الآخرة، ولها بها عن الآخرة فألهته الأموال عن ذكر ربه، وألهته الأولاد عن ذكر ربه، وألهته المتع عن ذكر ربه، فإن النار الشديدة الحر ،العظيمة العذاب، مأواه، ومنزله، ومقره، ومصيره الذي يصير إليه.

﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ**﴾ فعلم في دنياه أن الله يراه، وأن الله يسمعه، وأنه سيرجع إلى ربه، وأن ربه سيكلمه، فاتقى الله واتقى اليوم الذي يرجع فيه إلى الله عز وجل، فزجر نفسه عن الهوى الذي يدعوها إلى ترك الواجبات، وفعل المحرمات، فلم يطع نفسه الأمارة بالسوء، ولم يطع شياطين الجن والإنس، ولم يطع هواه، وإنما أفلح فخرج من داعية هواه، إلى طاعة مولاه، فعاش طائعا لربه، وإن زلت القدم وغلب الضعف عليه سارع بالندم، وأقلع عن الذنب، وعزم على ألا يرجع إليه، ولم يغره حلم الله عليه، باستمراره في الذنب.

﴿**فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾: فإن الجنة التي فيها النعيم المقيم، الذي لا انقطاع له، ولا

منغص له، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر، تلكم الجنة مأواه، منزله، ومقره، ومصيره الذي يرجع إليه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ يسألك الناس مؤمنهم وكافرهم، عن الساعة متى وقوعها؟ وما زمان وقوعها؟

فأما المؤمن: فيسأل عن ذلك ليستعد لها، فيُوَجه إلى ما ينفعه، وهو الاستعداد لها، ولذلك لما قال رجل: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: ماذا أعددت لها؟ كما ثبت في الصحيحين.

وأما الكافر: فيسأل متى الساعة استهزاءً بالنبي، واستبعادا لوقوعها، فيقابل سؤاله بالوعيد بأهوالها، ومافيها للكفار من الفزع الشديد.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾: في أي شيء أنت من ذكراها، إنك لا تعلم متى تكون.

فإن هذا مما استأثر الله بعلمه، فلا ينبغي لك أن تسأل متى الساعة، لأن هذا مما لا سبيل إلى علمه، فإنه لا يعلمه إلا الله.

ولا ينبغي لهم أن يسألوك فإنك لا تعلم متى الساعة.

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾: فوظيفتك أن تخوف بالساعة وما فيها، وهذه النذارة لكل أحد، لمن يخشى، ومن لا يخشى، لكن لما كان الذي ينتفع بالإنذار هو الذي يخشى، خص الله عز وجل من يخشى هنا؛ لأن إنذار من لا يخشى ضائع، فإنه لا ينتفع بالنذارة؛ أعني أنه ضائع بالنسبة له، وإلا فإن فيه إقامة الحجة عليه، وهذا سر تخصيص من يخشى هنا، أنه هو الذي ينتفع بالنذارة، وفي هذا إشارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم ينبغي أن يشتغل ببيان أهوالها، وبيان قرب قيامها، وأن الإنسان ينبغي أن يشتغل بما يجعله يخافها، فيتقي ذلك اليوم الذي يرجع فيه إلى الله، لا أن يشتغل بزمان وقوعها، كأن أولئك المستبعدين لها، المنكرين لها، يوم يرونها لم يمكثوا في دنياهم إلا جزءً من النهار، إما آخره وهو العشية؛ والعشية من بعد الظهر إلى آخر النهار، وإما ضحى؛ والضحى من ارتفاع الشمس إلى الزوال، وفي هذا إشارة إلى حقارة الدنيا، وسرعة زوالها، وقلتها فما الحياة الدنيا ومتاعها في الآخرة إلا قليل، ويا ويح، ويا خسارة من قدم القليل على الكثير، وقدم الفاني على الباقي، قدم ما لا يبقى منه شيء، بل كل ما فيه يمر، إلا ما يسعى به الإنسان من العمل، فإنه

مكتوب عليه، وملاقيه.

يا خسارة من قدم هذا الفاني الحقير، الذي لا يساوي عند الله جناح بعوضة، على الباقي الدائم، فقاده ذلك إلى الجحيم والعياذ بالله.

ثم نعود إلى التفسير التفصيلي للآيات فنقرأ ما ذكره الشيخ ونقربه ونتممه بما يزيده حسنا وبهاءً ويجعل الفهم لآيات هذه السورة فهما نافعا.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى: ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء، فقال: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾

أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة. فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، وكل محب عن حبيبه.

والطامة في لغة العرب: هي الداهية، وسمي يوم القيامة بالطامة: لأنه يطم كل شيء.

ومعنى يطم: يعم، ويعلو، ويغلب: فيوم القيامة داهية تغلب كل داهية، وتهون عندها جميع الدواهي، فهي أدهى وأمر.

وقال بعض المفسرين: الطامة الكبرى: هي الصيحة الثانية، النفخة الثانية في الصور التي يكون بها البعث كما تقدم معنا مرارا.

وقال بعض المفسرين: الطامة الكبرى: عندما يساق أهل النار إلى النار، والذي عليه الأكثر: **أن الطامة الكبرى هي يوم القيامة.**

ويتذكر الإنسان ما سعى في الدنيا من خير وشر.

كما قلنا، الإنسان يوم القيامة يتذكر جميع عمله، من خير أو شر، لا ينسى منه مثقال ذرة، إن عمل خيرا ولو قليلا تذكره، وإن عمل شرا ولو قليلا تذكره، فيبلو ما أسلف، ويحاسِب نفسه قبل أن يحاسَب، وكفى بنفسه حسيبا عليه.

ثم يرى عمله كله في كتاب، ثم يكون شأن الحساب؛ من الناس من لا يحاسب، ومن الناس من يحاسب كما سمعنا.

ويتذكر الإنسان ما سعى في الدنيا من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغمه ويحزن، لزيادة مثقال ذرة في سيئاته، ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعاه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا كانت سوى الأعمال.

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾أي جعلت في البَرَاز ظاهرة لكل أحد، قد هُيِّئَت لأهلها واستعدت لأخذه منتظرة لأمر ربها .

فيراها كل ذي عينين تتلظى، وذلك عندما يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، وهذا عدد هائل جدا، وقد ثبت هذا في صحيح مسلم.

يؤتى بها ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك، فما أفضعه من منظر وما أعظمه من أمر يُرى، يقطع القلوب.

قلنا: هذا، وما بعده جواب: ﴿**فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ**﴾ فإن الناس ينقسمون إلى فريقين.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ أي جاوز الحد بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، فصار سعيه لها ووقته مستغرق في حضوضها وشهواتها ونسي الآخرة والعمل لها.

فعَمِل للدنيا، وسعى لها، ولها بالدنيا، وترك العمل للآخرة.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾

الجحيم: هي النار التي اشتد حرها، و عظم عذابها، فهي ذات الحر الشديد و العذاب الذي لا يُطاق.

فإن الجحيم هي المأوى له: أي المقر و المسكن لمن هذه حاله.

قال العلماء: الألف و اللام بدل عن الهاء؛ يعني معنى المأوى: مأواه، الهاء في آخر الكلمة بدل عنها الألف واللام، فهي مأواه مقره وسكنه ومنزله ومصيره الذي يصير إليه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل.

﴿مَقَامَ رَبِّهِ﴾

قال بعض المفسرين: خاف أن الله عز و جل يراه، و يسمعه، فخاف من الله أن يعمل معصية، فكلما همّ بمعصية تذكر أن الله يراه، فاستحى من الله و خاف من الله، و كلما همّ أن يقول معصية، أن يقول حراما، تذكر أن الله يسمعه، مهما خَافَتَ قوله، فيزجره ذلك عن المعاصي قولا وفعلا.

وقال بعض أهل العلم: مقام ربه هنا يعني؛ القيامة وأنه سيقف بين يدي الله عز وجل، وهذا كما قدمنا مرارا من اختلاف التنوع، فلا مانع من الأمرين، راقب الله في الدنيا، فعلم أن الله يراه وأن الله يسمعه، فاستحى من الله حق الحياء، وخاف الله عز وجل، وعلم أنه سيرجع إلى الله، وسيقف بين يدي الله، وسيكلمه الله، فخاف خوفا حقق به التقوى، فأقبل على طاعة الله وانزجر عن معاصي الله.

قال: فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى النفس عن هواها الذي يصدها عن طاعة الله، وصار هواه تبعا لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصادين عن الخير.

﴿وَنَهَى النَّفْسَ﴾: أي زجر النفس، عن الهوى الذي يأمرها بخلاف أمر الله، وأخرج نفسه من داعية هواه إلى طاعة مولاه.

فإن الجنة المشتملة على كل خير و سرور و نعيم، هي المأوى لمن هذا وصفه.

المأوى كما تقدم، المقر، والمنزل، والمصير الذي يصير إليه.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي يسألك المتعنتون، المكذبون بالبعث، عن الساعة.

يعني يسألونك سؤال استهزاء، و استبعاد؛ لأنهم ينكرونها و ينكرون البعث، فيسألون سؤال استبعاد لها وسؤال استهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم.

أي يسألونك المتنعتون المكذبون بالبعث عن الساعة، متى وقوعها؟ وأيان مرساها؟

أَيَّانَ: بمعنى: **متى؟**

مُرْسَاهَا: أي وقوعها.

وقال بعض المفسرين: قيامها. **وقال بعض المفسرين**: زمانها. والمعنى متقارب.

وقال بعض العلماء: السائل: كل الناس من المؤمنين والكافرين، ولكن المؤمن يسأل ليستعد، والكافر يسأل استهزاءً واستبعادًا، كما ذكرنا في التفسير الموضوعي.

فأجابهم الله بقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ أي ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها، فليس تحت ذلك نتيجة.

ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية، ولا دنيوية، بل المصلحة في إخفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق واستأثر بعلمه.

﴿فِيمَ﴾: أصلها: **فيما**، فلما وقعت، **ما**، بعد حرف الجر في الاستفهام، حُذف ألفها للدلالة على الاستفهام.

ومعنى ﴿فِيمَ﴾: أي شيء أنت من ذكراها، فإنك لا تعرف زمن وقوعها.

قال بعض العلماء: هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يسأل متى الساعة؟

لأن المؤمنين كانوا يسألونه: متى الساعة؟

فأخبره الله عز وجل: أنه لا سبيل له إلى علمها، ولا لأحد من الناس، ولا لأحد من الخلق، فإن الله استأثر بعلمها.

وقال بعض أهل العلم: هذا خطاب في ظاهره للنبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود به أولئك الكفار، على سَنَنِ: إياكِ أعني، واسمعي يا جارة؛ فالخطاب في الظاهر للنبي صلى الله عليه وسلم، والمقصود به أولئك الكفار.

وقال بعض أهل العلم: معنى الآية: أنت لا تعلم زمان وقوعها، فلماذا يسألونك عن زمان وقوعها وأنت لا تعلمه؟ هذا تقريع لهم في سؤالهم هذا.

فقال: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ أي إليه ينتهي علمها.

أي: علم وقتها، فلا يعلم وقتها إلا الله سبحانه وتعالى.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الاعراف: 187].

﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ أي: إنما نذارتك نفعها لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يدي الله، فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها، والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها فلا يبالى به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على التكذيب والعناد، وإذا وصل إلى هذه الحال كان الإجابة عنه عبثا، ينزه أحكم الحاكمين عنه.

يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم منذر الجميع، لكن الذي ينتفع بالنذارة إنما هو الذي يخشى، أما الذي لا يخشى فإنه لا ينتفع، فلا يُشتغل به، وإنما يُتَهَدد ويُتَوعَد بما فيها من الأهوال، ولهذا خُص من يخشى، هنا.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾: أي كأن أولئك الكفار يوم يرون القيامة، لم يمكثوا في الدنيا، **وقال بعض المفسرين:** لم يمكثوا في قبورهم إلا ساعةً من نهار.

﴿إِلَّا عَشِيَّةً﴾: والعشية كما قلنا من بعد الظهر إلى الليل.

﴿أَوْ ضُحَاهَا﴾: أي ضحى العشية، هاء هنا ترجع إلى العشية.

والضحى: من ارتفاع الشمس إلى زوالها.

وبهذا يتم تفسير هذه السورة، وأما الفوائد العلمية، والآثار الإيمانية من هذه السورة، وقد قلت لكم سابقا: إنا نقصد بالفوائد العلمية والآثار الإيمانية؛ الأمور الكلية التي دلت عليها أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، وقررها العلماء في مواطن كثيرة، وتدل عليها السورة التي نفسرها.

والفوائد العلمية، والآثار الإيمانية لسورة النازعات، هي، هي، الفوائد العلمية والآثار الإيمانية لسورة النبأ؛ فإن موضوع السورتين واحد، ونزيد على ما تقدم ثلاث فوائد كلية.

أما الفائدة الأولى: فهي أن في قصص السابقين، وفي أخبار السلف الماضين، تسلية للمؤمن ورفعا لهمته.

فإذا عرف الإنسان قصص الماضين فإن هذا يسليه، إذا عشت في بلد يغلب عليه الضلال،

وقد يكثر عليه الكفر وأنت على السنة، و يؤذيك الناس بأقوالهم: متشدد، متنطع، وهابي، معقد..

إذا قرأت قصص الماضين، وأخبار السلف، سلّاك ذلك وكان لك فيه عبر،ة وصبرك ذلك.

كما أن في ذلك رفعا لهمة المؤمن، ولذلك ينبغي على الإنسان أن يعتني بالقصص الصحيح للأمم الماضية، وللسلف السابقين، فإن في هذا فائدة عظمى، وبهذا تعرف سر كثرة القصص في القرآن.

والفائدة الثانية: أن المؤمن إذا أراد أن ينتفع بالعلم، وينتفع بالمواعظ، وبالآيات، فعليه بأمرين:

الأول: أن ينمي خوف الله في قلبه، وأن ينمي ويزيد خشية الله في قلبه.

والأمر الثاني: أن يجاهد نفسه عن الغفلة، بأن يجاهد نفسه على إحضار قلبه، والشيطان لما علم أن المؤمنين تنفعهم الذكرى، حرص على أن لا يستمعوا للذكرى.

فإن غلبه المؤمنون وحضروا، شاغلهم ليخرجوا؛ يأتي المؤمن يوم الجمعة إلى الصلاة، ويحضر، ولكن الشيطان ينومه، يأتي قبل الصلاة وهو من أنشط العباد، وإذا صعد الخطيب بدأ ينام، وإذا انتهت الصلاة وإذا به من أنشط الناس.

أو يُخْرِجُ قلبه؛ يأتي طالب العلم إلى الدروس فيشغله الشيطان بما يصرف قلبه، وقد يكون بالعلم، واليوم عند الشيطان وسيلة جديدة؛ الهواتف في أيدي الطلاب؛ إذا قال الشيخ شيئا بدأوا يفتشون في الهواتف، ويخرجون عن الدرس.

إذن؛ هذه فائدة نفيسة لكل مؤمن ولطلاب العلم خصوصا، إذا أردت أن تنتفع بالعلم وأن تنتفع بالمواعظ وأن تنتفع بالآيات فعليك بأمرين:

-أن تنمي خوف الله في قلبك.

-وأن تجاهد نفسك في إحضار قلبك.

الفائدة الثالثة: أن أعظم المعوقات عن لزوم الصراط المستقيم: هو الهوى.

فإن الهوى يدعو الإنسان إلى ترك الواجباد وفعل المحرمات، وأقبح من ذلك أنه يدعو بعض الناس إلى تقبيح الحق وتزيين الباطل.

الهوى؛ قد يدعو بعض الناس إلى تقبيح الحق، وتزيين الباطل، وقد يتسلط حتى على طالب العلم، فيكون عنده هوى في شيء، فيزين هذا الشيء، أحدهم قال: إن الغناء والموسيقى ليست حراما كلها، فلما ناصحه بعض خواصه سرا.

قال: يا أخي أنا أجلس مع أهلي وجماعتي، وتأتي الموسيقى في التلفاز، والإذاعة، وأستحي أن أقول لهم أرخوا الصوت، هذا الذي دعاه أن يقول: إن الموسيقى ليست حراما كلها.

فمن أعظم الشرور أن يتسلط الهوى على طالب العلم، يُقَلِب الأمور حتى يزين الباطل، ويقبح الحق، وهذا من أسوأ ما يكون، ولذلك ينبغي على المؤمن أن يحذر الهوى، وأن يجاهد نفسه لإخراج نفسه من داعية هواه إلى طاعة مولاه.

سورة عبس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: 1-12]

النبي صلى الله عليه وسلم كان حريصا على دعوة الناس، وعلى إيمان أشراف الناس: لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدرك أن إيمان الأشراف يقود غيرهم إلى الإيمان.

فإذا آمن أشراف القوم تبعهم غيرهم من القوم، فكان حريصا صلى الله عليه وسلم على إيمان الأشراف، فكان يوما جالسا مع بعض أشراف قريش يدعوهم إلى الإسلام، وهم معرضون، وهم متعالون، وهم متكبرون عن الحق، فجاءه رجل أعمى، والأعمى لا يبصر، ولا يدري عن حال النبي صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يناجيهم، ما كان يتحدث بصوت عال.

فخاطب النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: أرشدني، أرشدني، علمني، فقطع مناجاة النبي صلى الله عليه وسلم للأشراف، فعبس النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه؛ أي تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم كراهة لفعله.

وتولى؛ أعرض عنه بوجهه، يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم نظر إليه، وقد تغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم كراهة ما فعل، ثم أعرض عنه بوجهه، ورجع يحدث الأشراف.

ما فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم إحتقارا للأعمى؛ وإنما حرصا على إيمان أولئك الأشراف، وإكمالا لما كان قد بدأ به، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف.

أنظر كيف قال الله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، من هو؟ ما قال: عبست وتوليت. ما قال، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، بالغَيبَة، كأنه غَيْرُه، كأن الله يحدث محمدا صلى الله عليه وسلم عن غيره. ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، ما واجهه بهذا، وهذا من لطف العتاب، وهذا من أدب الخطاب وينبغي أن نتعلم من القرآن الأدب.

﴿عَبَسَ﴾: هو. ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾.

﴿أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾: لأنه جاءه الأعمى، وقطع مناجاته للأشراف.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾: عاد الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء الأمر إلى تقرير الحق، لَمَا كان هناك عتابا، جاء خطاب الغيبة ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ﴾: لما جاء الأمر إلى تقرير العلم والحق.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾: لعله يتطهر من ذنوبه، لعله يسلم فيتطهر من ذنوبه.

وقال بعض المفسرين: لعله يزكىٰ يعني: لعله أزكىٰ من هؤلاء الأشراف.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾: إذا حدثته لعله أن يتذكر، فتنفعه الذكرى.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ عنك وتكبر ،وتعالى على ما تقول، ولم يُنصت إليك، فضلًا عن أن يسألك فَأَنت له تتعرض، وتُقبل عليه، وتحدثه رجاء أن يُسلم، وما كان ذلك من النبي صلى الله عليه وسلم من أجل الدنيا، ولا احتقارًا للضعيف وحاشاه صلى الله عليه وسلم، وإنما أراد المصلحة.

والقاعدة العامة: أن المصلحة العامة مُقدمة على المصلحة الخاصة، لكن كان هنالك شيء؛ **وهي قاعدةٌ أُخرى:** وهي أن المصلحة المعلومة أولى من المصلحة المرجوة.

العامة ماذا يقولون؟ مع أن هذا المَثَل فيه ما فيه. يقولون: عصفور في اليد ولا عشرة على الشجرة، طبعًا بعض أهل العلم قالوا: هذا المَثَل ليس بصحيح على إطلاقه؛ لأن المؤمن، الحسنات له خير مما في يده، لكن في الحقيقة إذا نظرنا أن الحسنات بالنسبة للمؤمن في يده إذا عمل العمل الصالح مخلصًا لله عز وجل، فالمصلحة المعلومة مقدمة على المصلحة المرجوة، بعض أهل العلم يقول: الموهومة؛ يعني: التي ليست موجودة وإنما تُرجى، وهذه القصة دليل على هذه القاعدة: أن المصلحة المعلومة مقدمة على المصلحة المرجوة، الموهومة التي ليست موجودة، وإنما يرجوها الإنسان، ومن أجل ذلك عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم بهذا العتاب اللطيف.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾أي ليس عليك شَيْنٌ بألا يؤمن هؤلاء، فإنهم هم الذين أعرضوا، فلا يضرك كفرهم، فلماذا تشتغل بهم؟

﴿**وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ**﴾ يشتد في طلب العلم وفي طلب الخير.

﴿**وَهُوَ يَخْشَىٰ**﴾ وهو يخاف الله.

﴿**فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ**﴾ فأنت تُعرض عنه، وتشتغل بغيره.

﴿**كَلَّا**﴾ لا ينبغي لك أن تفعل هذا، فليس الخير فيما فعلت..

طبعًا النبي صلى الله عليه وسلم فعل خيرًا برجاء إيمان أولئك، ولكن الخير والكمال فيه بالإقبال على المُقبِل، لا الإعراض عنه والاشتغال بالمستغني، وهذه أيضًا قاعدة: أن المُقبل على الخير خيرٌ من أشراف الدنيا؛ طالب العلم الفقير، الغريب، الذي يأتي من بلده، وفي غربة وفقر، لكن جاء لطلب العلم خير من أغنياء الدنيا الذين لا يُقبلون على الخير، فينبغي الإقبال على هؤلاء الطُّلاب، وبذل النفس لهم، والتواضع لهم، وعدم الاشتغال بغيرهم عنهم، هذه قاعدة نأخذها من هذه القصة.

﴿**كَلَّا**﴾ هذا للردع والزجر عن هذا الفعل، فليس الخير كما فعلت.

﴿**إِنَّهَا**﴾ إن السورة والقصة ﴿**تَذْكِرَةٌ**﴾ لك ولقومك.

﴿**إِنَّهَا**﴾: أي هذه السورة أو هذه القصة، وقعت بقدر الله لتكون تذكرة لك ولقومك.

﴿**فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ**﴾ فمن شاء ذكر التنزيل والوحي فعمل به؛ يعني فمن شاء من العباد ذكر الوحي والتنزيل فتذكر وعمل،.

وقال بعض المفسرين: فمن شاء الله ذَكَرَه؛ أي ألهمه وهداه.

يعني بعض المفسرين قال: وهذا الذي عليه الأكثر، فمن شاء من العباد ذكر الوحي والتنزيل فتذكر وعمل به، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير: 29]

وقال بعض المفسرين: معنى الآية: فمن شاء الله، ذَكَرَهُ؛ أي هداه وألهمه، وليس الأمر بالشرف في الدنيا ولا الفقر والضعف.

هذا المعنى الإجمالي الإيماني الموضوع لهذا المقطع ونعود إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما ذكره الشيخ.

قال رحمة الله عليه: سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه وسلم، ويتعلم منه، وجاءه رجل من الأغنياء، وكان صلى الله

عليه وسلم حريصا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم وأصغى إلى الغني، وصدّ عن الأعمى الفقير، رجاءً لهداية ذلك الغني، وطمعا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

روى الترميذي عن أمنا عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أُنزِل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾، في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني. وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض عن الأعمى، ويقبل على الآخر). وصححه الإمام الألباني.

وقد جاء عند الطبري: أن الذين كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم هم عتبة بن ربيعة، وأبو جهل، والعباس بن عبد المطلب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يناجيهم قبل مجيء الأعمى.

وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم يناجي أمية بن خلف. وقيل غير هذا.

والشاهد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يناجي بعض وجهاء وأشراف قريش، وجاء هذا الأعمى وهو ابن أم مكتوم باتفاق الروايات وباتفاق المفسرين، وهذا كان في مكة لأن السورة مكية، ولذلك ما ذهب إليه ابن العربي المالكي في نقد كلام المفسرين غير سديد؛ لأن هذه السورة مكية وليست في المدينة، وهذه القصة وقعت في مكة وإن كان ابن أم مكتوم من أهل المدينة لكن القصة وقعت في مكة.

قال: فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عَبَسَ﴾ أي في وجهه.

﴿عَبَسَ﴾كما قلنا معناه: قبض وجهه، وتغير وجهه كراهة لفعل الأعمى.

قبض النبي صلى الله عليه وسلم وجهه وتغير وجهه كراهة لفعل الأعمى.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى.

يعني أعرض عنه ببدنه.

وقال بعض المفسرين: أعرض عنه بوجهه، والمعنى واحد؛ يعني نظر فيه وقد تغير وجهه، ثم أعرض عنه وأقبل على وجهاء قريش، أين اللطف في العتاب؟

كما قلنا أن الخطاب للغائب، ولَم يخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا الأدب لو أعملناه لتجنبنا كثيرا من المشاكل، حتى في البيت إذا أخطأت الزوجة مثلا، لو أن الزوج أخذ أسلوب العتب غير المباشر لكان في ذلك خير كثير، لأن العتب المباشر في الغالب يدعو إلى المغالبة.

إذا قلت: أنت كذا قالوا: أنت، لكن لو جاء بأسلوب غير مباشر فإنه يُقبل ويكون له تأثير، وعلى كل حال الحكمة وضع كل شيء في موضعه.

قال: ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ﴾ أي: الأعمى (﴿يَزَّكَّىٰ﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

وكما قلنا، قال بعض المفسرين: ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ يعني يتطهر من ذنوبه.

وقال بعض المفسرين: ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ يعني يسلم.

وأشار بعضهم إلى أن معنى ﴿يَزَّكَّىٰ﴾ لعله أن يكون أزكى من أولئك الأشراف.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فينتفع بتلك الذكرى، وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين.

فإقبالك على من جاء بنفسه مفتقرا لذلك مقبلا، هو الأليق الواجب، وأما تصديك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك.

فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم يتزكى، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة، أنه: لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوَهَّمة وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم، المفتقِر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

وأن طالب العلم الصادق الواحد خير من الجماعة، ليست العبرة بكثرة الناس، وإنما العبرة بالإقبال والصدق، وهذا كما تلحظون تفسير إجمالي من الشيخ.

﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ﴾ كما قلنا أظهر الإستغناء عنك، يعني اغتر بماله، وجاهه، والدنيا، فأظهر الاستغناء عنك.

﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ﴾ يعني تتعرض له وتقبل عليه.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ ليس عليك شيء لو لم يؤمن.

﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسعى: يعني يشتد في طلب الخير، حريص، فهو لم يبقى في بيته تذهب إليه، بل جاءك ولم يأتك كسولا، بل جاءك يسعى، يشتد في طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ وهو يخاف الله.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تلهَّى: يعني تُعرِضُ، وتُقبِل على غيره، وتنشغل بغيره عنه.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي حقا.

﴿كَلَّا﴾قال بعض المفسرين: معناها: حقًّا.

وقال بعض المفسرين: هي على بابها، للردع والزجر عمّا تقدم ذكره مما وقع من النبي صلى الله عليه وسلم، أي لا ينبغي أن يكون الأمر كما فعلت، فإنك وإن ابتغيت الخير وفعلت ما فيه المصلحة، فإن الأصلح هو كذا.

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي حقا إن هذه التذكرة موعظةٌ من الله يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهَا﴾: أي السورة، سورة عبس، تذكرة.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهَا﴾: أي القصة، التي وقعت تذكرة، وكل ما يقع للنبي صلى الله عليه وسلم فيه خيرٌ للأمة، لما سها النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة تعلمنا أحكام السهو، لما وقعت قصة الإفك تعلمنا كثيرا من الفوائد، ولذلك يقول العلماء: النبي صلى الله عليه وسلم من خواصه أنه يفعل المكروه ويؤجر عليه، ماذا نقول في تعريف المكروه؟ ما يُثاب تاركه ولا يُعاقب فاعله، النبي صلى الله عليه وسلم من خواصه أنه يفعل المكروه ويُثاب عليه، لماذا؟ لأنه بفعله يُعلمنا، يبين لنا الشرع.

فإذا تبين ذلك ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ أي عمل به.

فمن شاء من العباد ذكره، ما هو؟ الضمير يعود إلى ماذا؟ إلى التنزيل والوحي، فعمل به.

وقال بعض المفسرين: وهو منسوب لابن عباس رضي الله عنهما (فمن شاء الله ذكره) أي ألهمه وهداه، ولا تعارض فإنه لن يتذكر أحد حتى يشاء الله أن يتذكر، ولن يشاء أحد شيئا حتى يشاء الله سبحانه وتعالى.

-تفسير المقطع الثاني للسورة-

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾

لما ذكر ربنا سبحانه وتعالى القرآن، في قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ وقد تقدم تفسير هذه الآية، بين ربنا سبحانه وتعالى منزلة القرآن العالية، في السماء وفي الأرض.

فبين سبحانه أن القرآن ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ في كتب مكرمة عند الله عز وجل، لأن فيها كلامه، ولأن فيها العلم والحكمة والإيمان، وهي كتب مرفوعة المنزلة والقدر عند الله عز وجل وعند الملائكة وعند المؤمنين، وهي كتب منزهة عن التغيير والتبديل، وعن أن يمسها غير المطهرين.

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾: وهم الملائكة الذين هم واسطة بين الله عز وجل وبني آدم، وهم كتبة يكتبون الأسفار؛ أي الكتب التي فيها أعمال بني آدم.

﴿كِرَامٍ﴾ في خلقتهم، فخلقتهم كريمة، وفي أخلاقهم فأخلاقهم كريمة.

﴿بَرَرَةٍ﴾أي صادقون في أقوالهم، مطيعون لربهم، خيرهم كثير وفضلهم عظيم. وهذه الصحف، **قال بعض المفسرين**: هي اللوح المحفوظ حيث كتب فيه القرآن.

وقال بعض المفسرين: هي الصحف التي أنزل فيها القرآن جملة واحدة ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى أيدي الملائكة.

فالقرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وأنزل في صحف من اللوح المحفوظ في ليلة القدر جملة واحدة، وهذه الصحف في أيدي الملائكة، ويتكلم الله بالقرآن متى شاء، وَيَسمعه جبريل عليه السلام من الله، ويُسمعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل مُنَجما على

النبي صلى الله عليه وسلم، في ثلاث وعشرين سنة.

إذن لا تدافع بين كون القرآن مكتوبا، وبين كونه كلام الله سبحانه وتعالى.

وقال بعض المفسرين: هذه الصحف؛ هي كتب في أيدي الملائكة يقرؤون منها القرآن في السماء، فالملائكة يقرؤون القرآن في السماء.

وقال بعض المفسرين: بل هو المصحف في أيدي المؤمنين في الدنيا، ولا مانع من إرادة كلها، فإن الأوصاف المذكورة هنا متحققة في جميعها، فالصحف المكرمة هي هذه الأربعة التي ذكرها العلماء.

﴿**قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾ لُعِن، وعذب، وأهلك الإنسان الذي يتحدث عنه في هذه السورة، وهو الكافر المنكر للبعث.

﴿**مَا أَكْفَرَهُ**﴾ ما الذي جعله يكفر؟ مع أن الدواعي داعية إلى الإيمان، فالفطرة تدعوه إلى الإيمان، والآيات الكونية تدعوه إلى الإيمان، والآيات في خلقته، وفي طعامه، وشرابه تدعوه إلى الإيمان، والرسل جاءت بالتوحيد والإيمان.

فما الذي جعله يترك كل هذا، ليكفر بالله عز وجل بلا سبب يدعو إلى ذلك؟ فعجبا لأمره، وويحا له، ما أعظم كفره.

أفلا يتدبر هذا المتكبر المعرض عن التوحيد المستغني عما جاء به الرسول، أفلا يتدبر في أصل خلقته. من أي شيء خلقه الله عز وجل حتى ينزجر عن هذا الكبر. من نطفة، من منى يمنى، من ماء مهين خلقه، فقدره وجعله أطوارا في رحم أمه، يكون نطفة، ثم يكون علقة، ثم يكون مضغة مخلقة، وغير مخلقة، ويسويه الله عز وجل في رحم أمه، ويضع كل عضو في موضعه، سبحان الله في ذاك المكان الذي لا يصل إليه أحد، يُخلق الإنسان خلقة سوية، ويكون أطوارا.

أيمكن أن يكون قد خلق نفسه؟ لا يمكن أن يكون ذلك وقد كان عدما، أيمكن أن يكون ذلك صدفة؟ لا يمكن أن يكون ذلك صدفة على هذا النسق العجيب المضطرد. أيمكن أن يصل أحد إلى رحم أمه ليخلقه؟ لا والله.

إذن يتعين يقينا أن خالقه هو الله، فهو مخلوق ليس خالقا، ولا يمكن أن يخلقه إلا الله

سبحانه وتعالى.

﴿**ثُمَّ السَّبِيلَ**﴾ سبيل خروجه من رحم أمه، يسره له، سبحان الله هداه إليه في وقت معين، كان موجودا في رحم أمه، وكان المكان الذي يخرج منه موجودا، فلم يخرج إليه.

لكن في وقت معين يهديه الله إليه فينقلب على رأسه ليخرج من ذاك المكان، ويسّره له خلقة فركب خلقة المرأة تركيبا عجيبا ليتسع ذلك المكان الضيق لخروجه وقت خروجه.

لا يمكن أن يكون ذلك إلا من اللطيف الخبير ،الحكيم العليم سبحانه وتعالى.

ثم أحياه ما شاء أن يحييه، ثم أماته فقبض روحه، وفي الموت آية عجيبة حيث يسكن الجسد بعد نشاطه، ولا يملك الإنسان مهما علا علمه، ولا جميع الناس، أن يدفعوا الموت عنه إذا حضر؛ الطبيب الماهر الذي يعالج المرضى بأمر الله، يموت بنفس المرض.

يجتمع الأطباء الماهرون عند رأس العظيم من البشر إذا حضر الموت، لا يستطيعون له شيئا.

﴿**فَأَقْبَرَهُ**﴾ وجعله يستر بقبره، فأكرمه عن سائر المخلوقات، فلم يجعله كالحيوان يموت، فيترك يتعفن وينتفخ ويأكله الدود على وجه الأرض، بل علّم ابن آدم كيف يدفن أخاه بآية عجيبة في قصة الغراب المعروفة، فصار ابن آدم يقبر ويستر في قبره، وتلك نعمة عظمى من الله عز وجل على ابن آدم.

ثم إذا شاء سبحانه أحياه من قبره، وذلك إذا شاء أن يبعث عباده، بعث سحابا، فأمطر مطرا وماء يشبه مني الرجال، فنشأت الأجساد في القبور من عجب الذنب، ليخرج الناس من قبورهم.

﴿**كَلَّا**﴾ ليس الأمر كما يزعم الكفار ،أنه لا بعث، وليس الأمر كما يقول الكفار للمؤمنين لو كان هناك بعث لوجدنا أجدادنا أحياء.

الكفار من جهلهم كانوا يقولون: لو كان هناك بعث وإحياء بعد الموت، أين أجدادنا؟ لماذا لا نراهم أحياء الآن؟

فرد الله عليهم: كلا ليس الأمر كما تزعمون، فإن الله لما يقض ما أمر به كونا من البعث، فإن للبعث أجلا، لا يتقدم ولا يتأخر، فليس الأمر كما تقولون: لو كان هناك بعث لوجدنا

أجدادنا.

لأن البعث لجميع الموتى في وقت واحد بأجل معلوم، وأيضا ليس الأمر كما يزعم الكفار بقولهم: أنه لو كان هناك بعث، لكان لنا عند ربنا الحسنى، لأننا أهل جاه، وأهل مال، وأهل مكانة، فلو كان الأمر كما تزعمون أن هناك بعثا، فإن الحسنى لنا.

كلا ليس الأمر كما يزعمون فإن لهم عند ربهم الذلة والعذاب الأليم، لأنهم لم يفعلوا ما أمرهم الله به من التوحيد، والطاعة، والإيمان بالبعث، فكانت لهم الذلة يوم القيامة.

فلينظر الإنسان بعقله نظرة تدبر إلى طعامه، ليزداد المؤمن إيمانا ولينزجر الكافر عن كفره، لينظر جنس الإنسان إلى مأكله ومشربه كيف دبره الله سبحانه وتعالى، لا ينشئه الإنسان، وإنما ينشئه الله سبحانه وتعالى.

أنَّا أنزلنا الماء من السماء، كثيرا متتابعا نافعا فأسكناه في الأرض، فاختلط بالبذور الموجودة في الأرض، أو التي يغرسها الإنسان فينمو النبات داخل الأرض حتى تتشقق الأرض، فلم يجعلها الله صلبة، بل تتشقق فيخرج النبات.

فأنبت الله في الأرض لبني آدم أنواع الحبوب من الأرز والقمح والشعير والبر والعدس وغير ذلك من أنواع الحبوب.

﴿**وَعِنَبًا**﴾ وهو العنب المعروف.

﴿**وَقَضْبًا**﴾وهو العشب الرطب. يُقْضَب: معنى يُقْضَب: يُقطع ثم يَنبت ثم يقطع ثم ينبت.

﴿**وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا**﴾ جمع الله بين الزيتون والنخل؛ لأنهما شجرتان مباركتان، الزيتون شجرة مباركة وفيها الزيت المعروف، والنخلة شجرة مباركة.

يقول العلماء: يجمع بين النخل والزيتون البركة، وأنه لا يرمى منها شيء.

شجرة الزيتون والنخلة كل شيء فيها نافع، ما يُرمى منها شيء، كل ما فيها ينتفع به، ولذلك جمع الله بينهما.

﴿**وَحَدَائِقَ غُلْبًا**﴾ أنبت الله عز وجل أشجارا ملتفة، كبيرة، غليظة الجدوع، يحيطها الإنسان فتصبح حديقة، يبني حولها سورا فتصبح حديقة.

﴿**وَفَاكِهَةً**﴾ أي وثمرة يأكلها الإنسان.

وقال بعض أهل العلم: هي على بابها، الفاكهة المعروفة التي يتلذذ بها الإنسان، نوع من الثمار.

يعني يا إخوة بعض أهل العلم يقول: الفاكهة هي الثمرة النافعة، سواء كانت فاكهة أو ليست فاكهة، ثمرة نافعة، وبعض أهل العلم يقول الفاكهة هي الفاكهة المعروفة.

﴿**وَأَبًّا**﴾ الأب هو نبت الأرض الذي تأكله البهائم.

﴿**مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ**﴾ منفعة لكم، وتدبيرا لأمركم، ولأنعامِكم، وأنعامُكم متاع لكم، فصار الكل متاعا لكم، والذي أنعم بهذا ألا يستحق أن يعبد؟ والله الذي لا إله إلا هو، لا يستحق أن يعبد إلا الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك دلالة بينة لغير المعرض على وجود الله وربوبيته وألوهيته، وعلى أنه قادر على بعث الناس.

هذا المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني الذي إذا أدركناه تسمو نفوسنا بمعاني القرآن، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي للآيات بقراءة ما سطره الشيخ والتعليق عليه والزيادة عليه بما يتممه إن شاء الله عز وجل .

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ﴾ أي عمل به كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ثم ذكر محل هذه التذكرة وعَظَّمها ورفع قدرها فقال: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾

﴿**فِي صُحُفٍ**﴾ الصحف هي الكتب، مكرمة: أي عند الله لأن فيها كلامه، ولأن فيها العلم، والحكمة، والإيمان.

مرفوعة القدر والرتبة.

والمنزلة عند الله، وعند الملائكة، وعند المؤمنين، فهي ذات منزلة عالية عند ربنا سبحانه وتعالى وعند الملائكة في السماء، وعند المؤمنين في الأرض.

مطهرة من الآفات.

مطهرة: يعني منزهة.

مطهرة من الآفات وعن أن تنالها أيدي الشياطين، أو يسترقوها.

ومنزهة من التحريف والتغيير، ومنزهة من مسيس غير المطهرين لها.

بل هي بأيدي سفرة؛ وهم الملائكة الذين هم سفراء بين الله وبين عباده.

يعني سفرة؛ قيل من السفير وهو الواسطة، فالملائكة وسطاء ينزلون بالوحي وما يشاء الله إلى العباد.

وقيل من الأسفار؛ وهي الكتب، والملائكة تكتب الكتب التي فيها أعمال العباد، ولا مانع من الأمرين.

﴿كِرَامٍ﴾ أي كثيري الخير والبركة.

﴿كِرَامٍ﴾ أي كرام في خلقتهم كما قلنا، فخلقتهم كريمة، وكرام في أخلاقهم، ومن كرامتهم كثرة خيرهم وبركتهم، فهم عباد ليس فيهم إلا الخير ،فهذا من كرامتهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ قلوبهم وأعمالهم.

﴿بَرَرَةٍ﴾ يعني أنهم صادقون في قلوبهم وأعمالهم، هذا مراد الشيخ.

وقال بعض المفسرين: ﴿بَرَرَةٍ﴾ أي مطيعين لربهم، ولا مانع من الأمرين، فهم صادقون مطيعون، صادقون لا يكذبون أبدا، ومطيعون لا يعصون أبدا.

قال: وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل، الملائكة الكرام، الأقوياء، الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفورا، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾.

﴿قُتِلَ﴾ كما قلنا معناها لعن وعذب وأهلك.

و(أل) في الإنسان للعهد، العهد الذكري، وهو الإنسان المذكور هنا، وهو الذي يكذب بالبعث.

﴿مَا أَكْفَرَهُ﴾ قيل: ما، هنا تعجبية؛ أي ما أعظم كفره مع عظيم إحسان الله إليه، وتوفر الداعي إلى الإيمان والتوحيد، وانعدام الداعي إلى الكفر، والله إنه لأمر عجيب، الأسباب كلها تدعو الإنسان إلى التوحيد والإيمان، ولا يوجد سبب واحد يدعو الإنسان إلى الكفر، ومع ذلك يكفر الكفرة.

وقال بعض أهل العلم: ما، هنا استفهامية؛ يعني ما الذي جعله يكفر؟

والجواب: لا شيء سوى طغيانه، وإلا فلا يوجد ما يدعوه إلى الكفر.

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشرا سويا.

قَدّر خلقه فجعله أطوارا في رحم أمه، وركبه وهو في رحم أمه، ووضع كل عضو في موضعه، وهو في رحم أمه سبحانه وتعالى.

ثم قدر خلقه وسواه بشرا سويا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أي يسر له الأسباب الدينية والدنيوية وهداه السبيل وبينه وامتحنه بالأمر والنهي.

فكان إما شاكرا أو كفورا هذا أقوال أحد المفسرين.

يسر له السبيل، فبين له سبيل الغواية، وسبيل الهداية، وجعله قادرا على سلوك أحد الطريقين، فكان إما شاكرا إما كفورا، والذي عليه أكثر المفسرين: أن السبيل هنا هي طريق الخروج من الرحم، وهذا هو الأليق بالسياق، فإن السياق عن خلقته ووجوده، ثم عن موته ونشره.

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾.

﴿ **ثُمَّ أَمَاتَهُ**﴾ أي قبض روحه، فأسكن جسده، سبحان الله إن في الموت لآية؛ الإنسان يتحرك ويتكلم بروح، هذه الروح لم يستطع الأطباء والعلماء أن يصلوا إليها، مع أنهم شرّحوا جسد الإنسان، لم يصلوا لهذه الروح، ثم إذا قبضت هذه الروح سكن كل شيء، والروح من أمر الله سبحانه وتعالى.

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾ أي أكرمه بالدفن.

معنى فأقبره: صيره إلى القبر بعد الموت، وفي هذا إكرام له.

ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ أي بعثه بعد موته للجزاء.

أنشره؛ معناها أحياه. يقال: أنشره الله؛ أي أحياه، وأحياه للبعث بعد أن يُقبر وتأكله الأرض، ويبقى عجب الذَّنَب، يحييه الله مرة أخرى.

قال: فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك، وهو مع هذا لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما فرضه عليه، بل لايزال مقصرا تحت الطلب.

هذا أحد معاني قول الله عزوجل: ﴿**كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ**﴾ أن المشرك لم يمتثل ما أمره الله به من التوحيد والطاعة، وهذه الآية كما ذكرنا في التفسير لها معنيان عند أهل العلم: كلا ليس الأمر كما يزعم الكفار، أنه لا بعث وأنه لو كان هناك بعث لرأينا الأجداد، فإن الله لما يقض ما أمر به كونا من البعث، ما جاء وقت البعث.

والوجه الثاني: كلا ليس الأمر كما يزعم الكفار ،أن لهم الحسنى عند ربهم لو بعثوا، فإن لهم الإهانة والعذاب، لأنهم لم يقضوا ما أمرهم الله به من التوحيد والإيمان. إذن على الوجه الأول يكون الفاعل (ليقض) هو الله سبحانه وتعالى.

وعلى الوجه الثاني يكون الفاعل (ليقض) هو الكافر الذي لا يؤمن بالبعث.

قال رحمه الله: ثم أرشده الله إلى النظر والتفكر في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره الله له فقال: ..

هذا على وجه عند المفسرين وهو أن الإنسان هنا هو المعهود، وهو الذي ينكر البعث.

وعلى الوجه الآخر أن الإنسان هنا هو جنس الإنسان، المؤمن والكافر، كلهم يرشدون إلى النظر.

أما المؤمن فليزداد إيمانا وثباتا، وأما الكافر فليتزجر عن هذا الكفر.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ أي أنزلنا المطر على الأرض بكثرة.

متتابعا نافعا وأسكناه في الأرض.

ثم شققنا الأرض للنبات شقا.

حيث يلتقي البذر بالماء تحت الأرض، في جوف الأرض، ثم ينمو هذا النبات ويقوى على الأرض، مع ضعفه، ترى الزرعة الضعيفة تَشُقّ لها الأرض وتخرج، لو أمسكتها أنت لكسرتها أو قطعتها، مع ضعفها تنشق لها الأرض، من الذي شقها؟ هل هي قوة هذا النبات؟ لا قوة للنبات، هل هي فعل الإنسان؟ لا قدرة للإنسان، وإنما هو تدبير الرحمن سبحانه وتعالى.

فأنبتنا فيها أصنافا مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة، والأقوات الشهية.

﴿حَبًّا﴾ وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها.

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ وهو القت.

العنب معروف، والقضب هو القت؛ والقت هو الرطب من العشب، قلت لكم سمي قضبا لأنه يُقضب.

ومعنى يقضب: يقطع فينبت، ثم يقطع، وهكذا العشب يُجَز، وبعد أيام تجده قد طال، ثم يجز، ثم تجده قد طال، فهذا هو القضب.

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ وخص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

وقد سمعتم بعض الحكمة التي التمسها بعض العلماء في الجمع بين الزيتون والنخل هنا في مقام الامتنان.

﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ أي بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة.

أي بساتين محوطة.

تقدم معنا يا إخوة أن البستان لا يسمى حديقة إلا إذا كان محوطا، فهي بساتين محوطة فيها الأشجار الكثيرة الملتفة؛ فالغلب ما التف من الشجر واجتمع.

وقال بعض المفسرين: الغُلب: الطِّوال؛ أشجار طويلة.

وقال بعض المفسرين: الغُلب: الأشجار غليظة الجذوع، تكون جذوعها وسيقانها غليظة، ولا مانع من الكل، فالكل يدخل في مسمى الغلب لغةً، وهو الواقع، فتجد أشجارا طويلة، وتجد أشجار ملتفة، وتجد أشجارا جذوعها غليظة جدا، وهكذا.

﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ الفاكهة ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان وغير ذلك.

وقيل: كل ما يأكله بنو آدم من النبات، سواء كان فاكهة في العرف، أو لم يكن فاكهة.

قال: والأب ما تأكله البهائم والأنعام.

الأب: هو نبت الأرض الذي تأكله البهائم.

قال: ولهذا قال: ﴿مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وبذْل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق لأخباره.

-تفسير المقطع الأخير من السورة-

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾

لما كان ما تقدم دالا على عظيم قدرة ربنا سبحانه وتعالى، وعظيم تدبيره، رتب الله على ذلك الكلام عن يوم القيامة.

فإن الذي دبر الدنيا قادر على أن يدبر الآخرة، وقادر على البعث سبحانه وتعالى.

﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ إذا جاءت القيامة التي تَصُخُّ الأسماع؛ أي تُصِمُّ الأسماع لهولها وعظيم ما فيها، فهي الداهية التي لا أدهى منها، ولا أمر منها.

في ذلك اليوم يفر المرء من أخيه من أمه وأبيه، يهرب منه، ومن أمه وأبيه، ومن زوجته وبنيه؛ هؤلاء في الدنيا إذا نزلت بالإنسان نازلة ذهب إليهم، واستأنس بهم. أما في الآخرة عند نزول الصاخّة، فإنّه يهرب منهم لأنّه يخاف أن يطلبوا منه حسنةً واحدة، ويخاف أن يطالبوه بمظالمهم عنده، ويخاف أن يطالبوه بأن يتحمل عنهم الذنوب التي فعلوها من أجله في الدنيا. الولد قد يعصي الله في الدنيا بأمر أبيه، هذا ما يجوز ومعصية، لكن قد يعصي بأمر أبيه، مثل ما يفعل بعض الأباء: هداني الله وإياهم، يأتي الابن يعفي لحيته. يقول: احلق لحيتك. لست ابني إذا ما حلقت لحيتك، أطردك من البيت إذا ما حلقت لحيتك. بل بلغ السفه ببعض الأباء أن يقول: سأبلغ عنك إذا ما حلقت لحيتك. هناك يتذكر الأب أنّه الذي أمر ابنه بالمعصية فيخاف أن يطالبه الابن بأن يتحمل عنه هذه

المعصية، وهو متحّملها وإن كان لا يُغني عن الابن، فله نصيبه من جرمها، وللابن نصيبه من جرمها.

وقال بعض المفسرين: يفرّ منهم حتّى لا يروا هوانه، و ذلّه، وما يُفعل به في ذلك اليوم، حتّى لا يُفضح أمامهم، لأنّه يعرف معاصيه التي كان يُخبّئها عنهم في الدنيا، فيخاف أن يُفضح أمامهم. فكلّما رأهم فرّ حتّى لا يفضح بذنوبه أمامهم.

لكل امرئ منهم شأن عظيم يشغله عن غيره؛ أصلًا يوم القيامة لا يشتغل أحدًا بأحد.

ولذلك لما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يحشر الناس عرّاة، غُرْلًا، حفاة) قالت أمّنا عائشة رضي الله عنها وهي الحييّة: الرجال والنساء يا رسول الله؟ -يعني يبعثون عراة الرجال والنساء في مكان واحد؟- فقال: يا عائشة الأمر أعظم من ذلك؛ ما ينظر رجل إلى امرأة، ولا امرأة إلى رجل. لكل امرئ منهم شأن يغنيه ويشغله عن غيره. في ذلك اليوم تبيض وجوه، وتسود وجوه، فهناك وجوه مشرقة، حسنة، بهية، نضرة، ضاحكة، مسرورة، مبتسمة إذا رأت كتابها، مستبشرة بنعيم الجنة والزيادة التي في الجنة.

أو مبشرّة، تبشّرها الملائكة بالسلام والجنة، تتلاقاها الملائكة بالبشرى: بشراكم، سلام من ربكم وجنة.

فهي مستبشرة لسبق علمها بنعيم الجنة، والزيادة التي هي رؤية وجه الله في الجنة.

ومبشَّرّة؛ تبّشرها الملائكة فيزداد سرورها، وسعادتها، وتلك وجوه أهل الإيمان. وتسود وجوه؛ فوجوه في ذلك اليوم عليها غبرة.

قال بعض العلماء: غبار حقيقي؛ وهو التراب الحاصل من البهائم، عندما تكون البهائم ترابا؛ **قال بعض المفسرين**: يطير هذا التراب فيلتصق في وجوه الكفار.

وقال بعض أهل العلم: بل هي غبرة الذل، فوجوههم كاسفة، مظلمة من الذل والعياذ بالله.

تغشاها قترة؛ تغشاها ذلة، وظلمة، أولئك الذين هذه وجوههم، هم الكفرة، الذين كفروا بالله، وكفروا بنعم الله، وكفروا بالبعث، وكذبوا آيات الله، وكذبوا رسل الله، وهم الفجرة؛ والفاجر يطلق على الكذاب المفتري، يقال للكذاب المفتري: (فاجر) ويطلق على الفاسق

الذي خرج من الطاعة إلى المعصية، فيقال له: فاجر، ويطلق على المائل عن التوحيد إلى الشرك، فهو عكس الحنيف.

على هذا المعنى ما الحنيف؟ الحنيف: هو المائل عن الشرك إلى التوحيد.

ما الفاجر؟ هو المائل عن التوحيد إلى الشرك.

وكل هذه مقصودة هنا فهم كذبة مفترونون، هم فساق، وهم مائلون عن التوحيد إلى الشرك عياذا بالله من سوء الحال.

ونعود إلى التفسير التفصيلي

قال رحمة الله عليه: أي إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع.

أي تصم الأسماع؛ فالأسماع يصيبها الصمم في ذلك اليوم، لشدة هول يوم القيامة.

وقال بعض أهل العلم: معنى الصاخة: الداهية التي لا أدهى منها، فتكون الصاخة بمعنى الطامة، كما تقدم معنا فيكونان لفظان لمعنى واحد.

وقال بعض أهل العلم: الصاخة هنا هي النفخة في الصور التي تصيخ لها الأسماع فتسمعها.

أي إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

يفر المرء من أعز الناس إليه و أشفقهم عليه، من أخيه، وأمه، وأبيه، و صاحبته: أي زوجته وبنيه.

وسبب هذا الفرار كما قلنا: الخوف من أن يطلبوا منه حسنة واحدة، الذي كان في الدنيا يقدمهم على نفسه، في الآخرة يفر، يخاف أن يطلبوا منه حسنة واحدة، أو يخاف أن يطلبوا منه أن يتحمل عنهم مظلمة، لعل ميزانهم يرجح، أو يخاف أن يطالبوه بتحمل الذنوب التي تسبب بها، أو يخاف أن يفضح بذنوبه أمامهم.

و ذلك لأنه لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

الشأن: هو الأمر العظيم. ومعنى يغنيه: يشغله عن غيره.

أي قد أشغلته نفسه واهتم لفكاكها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء و أشقياء، فأما السعداء فوجوههم يومئذ مسفرة.

مسفرة: معناها مشرقة، مضيئة، حسنة، منورة، وهذا هو البياض المقصود ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: 106] هذا المقصود.

فوجوههم يومئذ مسفرة؛ أي قد ظهر فيها السرور والبهجة مما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم.

هذا سبب كونها مسفرة، سبب كونها مشرقة: هذا.

﴿ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾

﴿ضَاحِكَةٌ﴾ أي مبتسمة، مسرورة.

﴿مُسْتَبْشِرَةٌ﴾ كما قلنا أي مستبشرة بما ترجوه من النعيم المقيم في الجنة، والزيادة، ولتبشير الملائكة لها.

ووجوه الأشقياء يومئذ عليها غبرة.

غبرة كما قلت: بعض أهل العلم قالوا: غبار حقيقي، و ذكر المفسرون أنه تراب البهائم عندما تصير ترابا، يطير فيلتصق في وجوه الكفار؛ يعني الكافر إذا رأى البهيمة قد صارت ترابا يقول: يا ليتني كنت ترابا، فيطير هذا التراب فيلتصق في وجهه، إهانة له.

وقال بعض أهل العلم: الغبرة هنا هي كسوف الوجه، وظلمة الوجه من سوء الحال.

ترهقها؛ أي تغشاها قترة فهي سوداء مظلمة مدلهمة قد أيست من كل خير.

قال بعض أهل العلم: القترة: هي الغبار؛ فالغبار غبرة، وقترة، بمعنى واحد.

طبعا معروف أنه في الدنيا -وذكرنا هذا أظن في الصيام- أن القتر: هو الغبار الذي تحمله الريح إلى السماء، فيصعد إلى السماء، والغبار هو الذي يكون على وجه الأرض.

يوم القيامة، قال بعض أهل العلم: الغبرة والقترة بمعنى واحد.

وقال بعض أهل العلم: الغبرة هي الغبرة الحقيقية، والقترة هي الذلة وتغير حال الوجه، و هذا سواد وجوهها، وهذه وجوه أهل النار.

قد أيست من كل خير وعرفت شقاءَها وهلاكها، أولئك الذين بهذا الوصف هم الكفرة الفجرة؛ أي الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآياته وتجرؤوا على محارمه.

فهم كفرة، كفروا بالله، وبنعم الله، وبالبعث.

وهم فجرة، افتروا على الله، وفسقوا عن أمر الله، ومالوا عن التوحيد الذي هو الفطرة، إلى الشرك عياذا بالله من سوء الحال.

-بعض الفوائد العلمية والآثار الإيمانية لهذه السورة-

سورة عبس تشترك مع سورة النازعات، وسورة النبأ، في الفوائد العلمية والآثار الإيمانية، إذ كلها سور مكية، ومقاصد السور المكية واحدة، ونزيد على ما تقدم، بعض الفوائد العلمية والآثار الإيمانية المستفادة من سورة عبس.

ومن تلك الفوائد: أن تارك الأولى، والمخطئ غير المعاند، والمخالف غير المعاند، يخاطب بالتي هي أحسن، ويعاتَب بالتي هي ألطف، فإن ذلك أدعى إلى رجوعه إلى ما يليق به، فإذا وجدنا أحدا ترك الأولى، واشتغل بما هو دونه، أو وجدنا أحدا مخطئا لكن لا يظهر عليه العناد، أو وجدنا أحدا مخالفا للحق، لكن لا يظهر عليه العناد، فإنا نخاطبه بالتي هي أحسن، ونعاتبه بالتي هي ألطف، فنختار ألطف العبارات لإيصال المراد له.

والفائدة الثانية: أن المؤمن لا ينبغي له أن يشتغل بالصالح مع قدرته على الأصلح، فإذا كان أمام المسلم أمران، أحدهما صالح، والآخر أصلح منه، فإن الأليق بالمؤمن أن يشتغل بالأصلح، وألا يترك الصالح مع وجود الأصلح والقدرة عليه.

والفائدة الثالثة: أن المصلحة الموجودة المعلومة، مقدمة على المصلحة المرجوة الموهومة، فإذا كان عند الإنسان مصلحة موجودة معلومة، ويرجو في المستقبل مصلحة يمكن أن تقع ويمكن ألا تقع، هذا معنى الموهومة، فإن المصلحة الموجودة المعلومة مقدمة عليها.

أما إذا كانت المصلحة الغائبة معلومة، فإنها لا تقدم عليها المصلحة الموجودة، وإنما يوازن بينهما ويقدم الأصلح.

مثال ذلك: لو أن أحدنا معه مائة ريال، لو تاجر فيها لحصل ربحا، وهذه مصلحة موجودة

معلومة بغلبة الظن، لكن لو أنفقها في سبيل الله فإنه يحصل ثوابا هو خير له من التجارة، فهذه مصلحة غائبة لكنها ليست موهومة، بل معلومة متحققة، فيقدم الأعلى وهو ما عند الله سبحانه وتعالى.

والفائدة الرابعة: أن الداعي إلى الله إذا اتقى الله ما استطاع، ودعا إلى التوحيد والسنة والحق، فإنه لا يضره من خالفه، ولا يدل على فشل دعوته أن بعض الناس لم يستجيبوا له، فما عليه ألا يزكى المعرضون، وإنما الذي عليه أن يتقي الله، وأن يبذل ما يستطيع، فيدعو إلى ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، على سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، على بصيرة يدعو إلى التوحيد ويحذر من الشرك، ويدعو إلى السنة ويحذر من البدع، ويدعو إلى ما قامت عليه الأدلة، فإذا فعل ذلك فهو على صراط مستقيم، وفي دعوة ناجحة، وليس عليه أن أعرض المعرضون ولم يتزكى المعرضون.

هذه بعض الفوائد التي تدل عليها هذه السورة الكريمة، مع الفوائد الأخرى التي قدمناها واشتركت فيها سورة النبأ مع سورة النازعات.

سورة التكوير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾

هذه السورة المكية التي أجمع العلماء على أنها مكية، فيها وصف أهوال من أهوال يوم القيامة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سره أن ينظر إلى يوم القيامة، كأنه رأي عين فليقرأ (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ)، و(إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ)، و(إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ)) رواه الترمذي وصححه الألباني.

فمن أراد أن يعرف وصف يوم القيامة وأهوالها، ليتعظ ويتذكر، فليقرأ هذه السور الثلاث، أولها: سورة التكوير، ومعنى ما ورد في هذه السورة، في هذا المقطع: أنه إذا أتى أمر الله، فحصلت هذه الأمور العظيمة، فلفت الشمس، وجمعت وذهب ضوؤها، وخسف القمر، وجمع بينهما؛ أي الشمس والقمر، فألقيا في النار، زيادة في عذاب عُبَّادِهما، وذلك أن المعبودات من دون الله عز وجل يوم القيامة تكون على ثلاثة أصناف:

صنف عباد صالحون: لا يرضون بالكفر، ولا يأمرون به؛ كالأنبياء عليهم السلام، والأولياء الصالحين، فهؤلاء لهم الحسنى ولهم الجنة عند الله، وإنما العذاب لعابديهم.

وصنف لا يرضى ولا يكره: لا يرضى بالكفر، ولا يكره الكفر، كالأشجار، والأصنام والشمس، والقمر، وهذه تدخل النار مع عابديها. بل تقود عابديها إلى النار، فتسقط في النار، ويسقط أتباعها وراءها، وهذه تُدْخَل النار زيادة في تعذيب عابديها، ليس لتعذيبها وإنما لزيادة تعذيب عابديها.

والصنف الثالث: يرضى بالكفر ويرضى بأن يعبد من دون الله، وهذا يدخل النار مع عابديه تعذيبا له ولعابديه، فهذه أصناف المعبودات من دون الله يوم القيامة. والشمس

والقمر قد عبدهما أقوام من دون الله، وهي لا ترضى بالكفر ولا تكره، ليس عندها هذا الإدراك فيجمع الشمس والقمر يطفأ ضوؤهما، ويلفان ويجمعان ويقذفان في النار ويطرحان في النار.

وتناثرت النجوم من السماء فتساقطت بعد أن كانت معلقة، ودكت الجبال دكة واحدة فكانت كالعهن المنفوش، وصارت هباء تسير بها الرياح، فصارت الأرض قاعا صفصفا، وأهمل أهل الأموال أموالهم، وانشغلوا عنها من شدة الهول، فلم يلتفتوا إليها، حتى إلى أنفس الأموال وهي النوق العشار؛ والناقة العشراء: هي التي قد أتى عليها عشرة أشهر في حملها، فإن العادة أن صاحبها يحبها ويعتني بها ويدخل إليها في كل وقت، ويصلح من حالها لنفاستها عنده، لكنه في ذلك اليوم لا يلتفت إليها حتى لو رآها، فإنه مشغول بأهوال يوم القيامة.

وجمعت الوحوش في يوم الحشر فاقتص لبعضها من بعض، ثم أميتت فصارت ترابا، ومن عجيب ذلك اليوم أن الوحوش التي من عادتها أنها تنفر من الناس، وأن الناس يهربون منها، تحشر مع الناس لا تنفر منهم، ولا يهرب الناس منها، لشدة الهول الذي أشغلهم عن كل شيء سواه، وزاد ماء البحار حتى فاضت، وسال مالحها على عذبها، وصارت بحرا واحدا، ثم سجرت نارا متقدة، فتبخر ماؤها وبيست وذهب ماؤها، وجمع بين الأشكال والنظائر في ذلك اليوم، وقرن كل نظير بنظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، وجمع الفجار مع الفجار، وجمع أصحاب الميمنة معا، وجمع أصحاب المشأمة معا، وجمع السابقون معا، فكانوا أزواجا ثلاثة، وجمع الرجال في الجنة مع زوجاتهم من أهل الدنيا اللاتي دخلن الجنة ومع الحور العين.

وقامت البنات الموؤودات المدفونات أحياء في ذاك اليوم العظيم، فسألن بأي ذنب قتلن؟ وطالبن بحقوقهن من آبائهن وأمهاتهن؛ وذلك أنه كان يكثر في العرب أن المرأة إذا حملت فوضعت بنتا، حفرت لها حفرة ودفنتها فيها حية خوفا من زوجها، وكان بعض الرجال إذا وجد امرأته ولدت بنتا، ساءه ذلك، فأخذها وحفر لها حفرة فدفنها حية، ففي ذلك اليوم تقوم الموؤودة فتَسأل بأي ذنب قتلت؟ والجواب أنها بغير ذنب قتلت، وتطالب بدمها.

وقال بعض أهل العلم: إنها هي تُسأل بأي ذنب قتلت؟ تبكيتا لقاتلها، كما تقول للرجل وقد ضربه رجل أو اعتدى عليه، بأي ذنب يضربك هذا؟ وأنت تعرف أنه مظلوم، من باب تبكيت الفاعل.

فإما أن الموؤودة هي التي تَسأل وتطالب بحقها بين يدي الله عز وجل، وإما أن الموؤودة هي التي تُسأل بأي ذنب قتلت، تبكيتا لقاتلها والعياذ بالله.

وإذا نشرت صحائف الأعمال، فأخرجت للعباد كتبهم، وأوتي العباد كتبهم، فمنهم من يؤتى كتابه بيمينه، وهذا السعيد المسرور، ومنهم من يؤتي كتابه بشماله من وراء ظهره، وهذا الشقي المثبور.

ونُزعت السماء، وطواها الرحمن سبحانه وتعالى، السماء هي سقفنا، وفي ذلك اليوم تنزع السماء من مكانها، وتطوى طيا، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، فيكون الذي فوق العباد هو عرش الرحمن سبحانه وتعالى، بعد أن كان الذي فوقهم هو السماء، تطوى وتنزع من مكانها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية.

وأُوقِد على النار حتى صارت جحيما، شديدة الحرارة، عظيمة العذاب، بعيدة القعر؛ والمقصود أنه يزاد الإيقاد عليها في ذلك اليوم، وإلا فهي مخلوقة موقدة موجودة، والنار تسعر؛ ومعنى تسعر أنها يقاد عليها بعد إيقاد، وفي ذلك اليوم يزاد عليها الإيقاد، فتتغيظ على أهلها عياذا بالله من عذابها.

وقُرِبت الجنة وأُدنيت، وزُينت للمتقين، وانظر الفرق بين حال الأشقياء، وحال الأتقياء.

الأشقياء: تسعر لهم جهنم ويزاد الإيقاد عليها حتى تتغيظ.

والأتقياء: تزين لهم الجنة وتقرب لهم الجنة.

عند ذاك تعلم كل نفس ما أحضرت من عمل، من خير أو شر، فما أحضرته من خير يسرها، وما أحضرته من شر ووجدته، تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا.

هنالك يتذكر كل إنسان عمله، فلا ينسى منه شيئا، ويقرأ كتابه الذي كتبت فيه أعماله، فلا يفقد من أعماله شيئا، لا يفقد خيرا ولا شرا، ولا صغيرا ولا كبيرا، وهذا هو الشأن العظيم الذي قُدِّم بكل ما تقدم من أجله، ليتعظ المؤمن.

فأنت يا مؤمن إذا علمت أنك ملاقي عملك يوم القيامة، لا تفقد منه شيئا، وإذا رأيت الخير سرك، وإذا رأيت الشر ساءك، وتمنيت لو أن بينك وبينه أمدا بعيدا، إذا علمت ذلك، فلِمَ لا يكون شأنك في الدنيا أن تعمل ما يسرك في الآخرة، وأن تجتنب ما يسوؤك في الآخرة، فتكون مجتهدا في الصالحات، وإذا تزخرفت لك المعاصي، ذكرت نفسك أنك ستجدها يوم القيامة، وتود لو أن بينك وبينها أمدا بعيدا، فتقلع وتبتعد وتعرض عن هذه القاذورات وهذه المعاصي.

هذا التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه الآيات، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما ذكره الشيخ ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: أي إذا حصلت هذه الأمور الهائلة، تَمَيَّزَ الخلق، وعلم كل ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك أنه إذا كان يوم القيامة تكور الشمس؛ أي تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار.

فمعنى **كورت**: لفت وجمعت. مثل العمامة المكورة؛ تلف وتجمع.

وقال بعض المفسرين: معنى كورت: ذهب ضوؤها.

وقال بعض المفسرين: معنى كورت: رُمِيَ بها.

وهذا اختلاف تنوع، فإن الكل حاصل؛ فإنها يوم القيامة يذهب ضوؤها، وتلف وتجمع مع القمر، ويقذف بها ويرمى بها في النار، حيث تتقدم عابديها إلى النار، فتلقى في النار ويتبعها عابدوها.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾أي تغيرت وتناثرت من أفلاكها.

وأصل الانكدار:الانصباب، الانصباب من أعلى إلى أسفل، فمعنى انكدرت: سقطت من السماء إلى أسفل، فتتناثر وتتساقط.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي صارت كثيبا مهيلا، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباءً منبثا، وأزيلت عن أماكنها.

وتَسِيرُ إذا صارت هباءً، وقلت لكم الهباء: هو الأشياء الدقيقة.

وإذا أردت أن تعرف الهباء، فافتح النافذة في النهار، إذا ظهر ضوء الشمس ترى أشياء

كالغبار في هذا الضوء، هذا الهباء، تحمله الريح وتسير به.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي عَطَّلَ الناس يومئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها، ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يذهلهم عنها.

العشار: الأصل أنها النوق التي بلغ حملها عشرة أشهر، ثم يطلقها العرب على النوق التي معها أولادها، فيتوسعون في الإطلاق.

فيكون المراد بالعشار هنا: النوق التي بلغ حملها عشرة أشهر، والنوق التي يتبعها أولادها، فإنها غالية عند أصحابها، وأصحاب الإبل يعرفون هذا، تتعلق بها النفوس تعلقا عجيبا، حتى لا يطيق صاحبها أن يفارقها، ومع ذلك يوم القيامة لو قُدر أنه يراها، لما اشتغل بها، لأنه قد جاءه ما يشغله، وما دام ذلك كذلك، فلماذا يلهو الإنسان بالمال؟ سبحان الله، ما أحقر المال! إلا إذا استعمله الإنسان فيما يرضي الله.

المال لا يدخل معك قبرك، ولذلك يقول ابن آدم: مالي، مالي، يحرص عليه، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فذاهبٌ وتاركه للناس.

ويوم القيامة لو وجد الإنسان عظيم الأموال، لما نظر إليها، فضلا عن أن يعتني بها، فكيف يلهو الإنسان بالمال عن أمر الآخرة، لا شك أن من لها بالأموال حتى أشغلته عما يرضي الله، قد خسر خسرانا مبينا.

فنبه بالعشار وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم، على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي جمعت ليوم القيامة، ليقتص الله من بعضها لبعض، ويُريَ العباد كمال عدله، حتى إنه يقتص للشاة الدماء من الشاة القرناء، ثم يقال لها كوني ترابا.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿حُشِرَتْ﴾: ماتت.

وقال بعضهم: اختلطت: يعني اختلط بعضها ببعض، واختلطت بالناس بعد أن كانت تنفر منهم، والكل مراد، فإنها في الحشر تحشر مع الناس، وتختلط بهم ويختلط بعضها ببعض،

وتجمع يوم القيامة، ويقتص لبعضها من بعض، ثم تموت، فتصير ترابا.

فهذه الجملة ﴿حُشِرَتْ﴾، دلت على كل هذه المعاني، وهذا من إعجاز القرآن، أنه بالجملة اليسيرة تُفهم المعاني الكثيرة.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي أوقدت فصارت على عظمها نارًا تتوقد.

وقال بعض المفسرين: ﴿سُجِّرَتْ﴾ يعني فاضت، فزاد ماؤها حتى سال بعضها على بعض، وصارت بحرًا واحدًا بعد أن كانت متفرقة، واختلط المالح بالعذب، بعد أن كان بينهما برزخٌ لا يبغيان.

ثم توقد نارًا، فيتبخر ماؤها، فتيبس، وتصبح يابسةً فلا يبقى في الأرض ماء.

﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي قُرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحور العين، والكافرون بالشياطين.

والمقصود زوج الكافرون بالشياطين: أي جمع الكافرون مع الشياطين في نار جهنم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: 71]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: 73]، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: 22].

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ [الصافات: 22] يعني وأمثالهم، ونظراءهم، وليس المقصود بالأزواج هنا، الزوجات، وإنما المقصود النظراء والأمثال.

وقال بعض المفسرين: النفوس هنا هي الأرواح ﴿إِذَا النُّفُوسُ﴾ يعني إذا الأرواح، ومعنى ﴿زُوِّجَتْ﴾ أعيدت إلى الأجساد، والأول أوْلَى والله أعلم.

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر فتُسأل: بأي ذنب قتلت، ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب، ولكن هذا فيه توبيخ وتقريع لقاتلها.

كأن قائلا قال: لماذا تُسأل وهي المجني عليها، وهي المظلومة، لماذا تُسأل؟

كان الجواب: تُسأل توبيخا لقاتلها، من باب التوبيخ لهم، فيوجه السؤال لها: بأي ذنب قتلتِ؟ الجواب: يقينا بغير ذنب، فهذا توبيخ لقاتلها.

وقال بعض المفسرين: أنها هي التي تَسأل. وقد قُرِئ: وإذا الموءودة سَأَلت، أي أنها هي التي تسأل بأي ذنب قتلت، وتطالب بحقها من أمها التي دفنتها حية، أو من أبيها الذي دفنها حية.

﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر، ﴿نُشِرَتْ﴾ وفرقت على أهلها، فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره.

﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أزيلت. كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الفرقان: 25]، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: 104]، ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: 67].

فيزال هذا السقف العظيم ويطوى، ويكون الذي فوق الناس، فوق العباد، هو العرش تحمله ثمانية من الملائكة.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أي أوقد عليها فاستعرت والتهبت التهابا لم يكن لها قبل ذلك.

وليس المقصود أنها تسعر في ذلك اليوم فقط، بل هي مخلوقة موجودة مسعرة، ولكنه يزاد عليها الإيقاد في ذلك اليوم حتى يعظم التهابها، ويأكل بعضها بعضا، وتترصد لأصحابها، وتتغيظ على أصحابها.

ومعنى ﴿سُعِّرَتْ﴾ أوقد عليها مرة بعد مرة، فالنار والعياذ بالله يوقد عليها مرة بعد مرة، وفي ذلك اليوم يزاد عليها الإيقاد عياذا بالله من النار.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قربت للمتقين.

قربت وزينت للمتقين، فهي تقرب وتدنى للمتقين وتزين لهم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ أي كل نفس لإتيانها في سياق الشرط.

يعني هذا يَعُم، نفس نكرة في سياق الشرط، فتعم كل نفس، فكل نفس تعلم ما أحضرت من الأعمال.

﴿مَّا أَحْضَرَتْ﴾ أي ما حضر لديها من الأعمال التي قدمتها، كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49].

وكما قلنا يا إخوة في يوم القيامة يتذكر الإنسان كل ما عمل من خير وشر، ويقرأ في كتابه كل ما عمل من خير وشر، فلا يغادر الكتاب صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. والمقصود الوعظ والتذكير، حتى يحرص المؤمن على الإكثار من الطاعات، وترك المحرمات.

قال رحمه الله: وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائس، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم؛ ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأي عين، فليتدبر سورة (إذا الشمس كوّرت).

وأصل هذا، الحديث الصحيح عند الترمذي الذي قدمناه بين يدي الكلام عن هذه السورة.

-تفسير المقطع الأخير من السورة-

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي أن الله عزوجل يقسم بهذه المخلوقات العظيمة، وليس لله حاجة في أن يقسم، فإنه لا أصدق قيلا من الله عزوجل، ولكنه من لطفه بالعباد ورحمته بالعباد، يقسم لهم هذه الأقسام ليؤكد المقسم عليه، فيقسم الله عزوجل بالخنس الجوار الكنس؛ وهي التي تغيب أحيانا، وترى أحيانا، ويدخل في ذلك الكواكب التي تظهر وتغيب، وتصل إلى أعلى الأفق ثم ترجع.

ويدخل في ذلك الظبى وحيوانات البر، التي تظهر وتغيب، ويدخل في ذلك مثلا الدببة التي تغيب في الشتاء، وتظهر في الصيف.

الشاهد أن الله أقسم بالمخلوقات التي تغيب أحيانا وترى أحيانا.

وأقسم بالليل إذا أقبل بظلامه، فطرد الظلام النور، فامتلأت الأرض ظلاما ظلمة، كأنه لم يكن فيها نور، فسبحان الله من أين أتى هذا الظلام؟ و أين ذهب هذا النور؟ لا يمكن أن يكون إلا من الله سبحانه وتعالى.

والنهار إذا أقبل بضيائه، فطرد بضوئه الظلمة.

إنه؛ أي القرآن لقول رسول كريم، لقول جبريل عليه السلام نزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو قول جبريل عليه السلام، لأنه قاله للنبي صلى الله عليه وسلم، وسمعه منه النبي صلى الله عليه وسلم.

فالقرآن قول ربنا سبحانه وتعالى لأنه تكلم به وأسمعه جبريل، وهو قول جبريل لأن جبريل عليه السلام لما سمعه من الله، قاله لمحمد صلى الله عليه وسلم، وأسمعه محمدا صلى الله عليه وسلم، وهو قول محمد صلى الله عليه وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمعه من جبريل، قاله للمؤمنين، وأسمعه للمؤمنين.

فهو قول الله أصالة، وقول جبريل، وقول محمد صلى الله عليه وسلم، باعتبار التبليغ.

هذا الرسول الذي هو جبريل عليه السلام، ذو قوة، فلا يعجز عن أمر أمره الله به، فأعطاه الله قوة.

﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ عند الله، الله ذو العرش، الله صاحب العرش، استوى على عرشه سبحانه وتعالى.

﴿مَكِينٍ﴾ له مكانة عالية، فهو مقدم الملائكة، ورأس الملائكة عليه السلام.

﴿مُّطَاعٍ﴾ في السماء، تطيعه الملائكة إذا أمر ،لأنها تعلم أنه يأمر بأمر الله.

ومن ذلك مثلا: أنه ينادي بأهل السماء أن الله أحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، يطيعونه في أمره، لأنهم يعلمون أنه إنما يأمر بأمر الله، فهو مطاع هناك في السماء.

﴿أَمِينٍ﴾ مؤتمن عند الله وعند الملائكة وعند الرسل، هو أمين الله على وحيه، وهو مؤتمن عند الملائكة، فإذا أخبرهم عن الله صدقوه.

وهو مؤتمن عند الرسل، فإذا أتاهم بالوحي من الله صدقوه.

فهو في غاية الأمانة، ولما ذكر الله وصف الرسول من الملائكة، تكلم عن الرسول من البشر، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾

ما هذا الرجل الذي هو منكم، نشأ فيكم، عرفتم صدقه، عرفتم أمانته، عرفتم تمام عقله؛ ما هو بمجنون، ما هو بالذي يهذي كما قال بعضكم زورا وبهتانا، فإن كل من عرفه يدرك أنه ليس بمجنون، وكيف يكون مجنونا والكلام الذي يأتي به في غاية الحكمة، والمجنون إنما يهذي ويخلط؛ المجنون يتكلم يأتي بكلام أحيانا له معنى، ثم يأتيك بكلام لا معنى له، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا بالحكمة، القرآن حكمة وإعجاز،أعجزهم أن يأتوا بآية منه، والسنة حكمة وعلم، فكيف يكون مجنونا.

ولقد رأى الرسول الأرضي الرسول السماوي؛ رأى محمد صلى الله عليه وسلم، جبريل عليه السلام على هيئته، له ست مائة جناح بالأفق الأعلى، بالأفق المبين في السماء، رآه معترضا في السماء على هيئته، له ست مائة جناح.

وهذا يدل على مكانة هذا الرسول الأرضي، حيث كشف له عن هيئة هذا الرسول السماوي، وما هو صلى الله عليه وسلم على الغيب؛ الذي هو القرآن والعلم، ببخيل عليكم، يكتم عنكم العلم، لا والله، بل هو يبذل العلم، ويؤدي الأمانة، ويبلغ الرسالة لا يترك منها حرفا، فليس ببخيل عليكم بالعلم، بل مبلغ للرسالة، مؤد للأمانة، مجتهد في إيصال العلم إليكم.

وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم، ما هو بقول شيطان مبعد ملعون، فإن الشيطان لا يمكن أن يأتي بالقرآن، بل إن الشيطان لا يطيق القرآن، ولذلك إذا سمع القرآن فر.

فأين تذهبون يا أصحاب العقول، أنتم الذين تفتخرون ببلاغتكم وبعقولكم، أين تذهبون من هذا القرآن؟ أين تذهبون بعقولكم فتقولون ما لا يعقل؟ فتقولون عن محمد صلى الله عليه وسلم مجنون، وأنتم تعلمون أنه أعقلكم، وتقولون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه كاهن، وتعلمون أنه كان يبغض الكهان من نشأته، وتقولون إنه يأخذ القرآن من غيره وتسندون هذا إلى أعجمي لا يتكلم العربية، والقرآن عربي مبين.

﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ**﴾ أين تذهب عقولكم حتى قلتم ما لا يعقل.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ ذكر للجن والإنس، والنبي صلى الله عليه وسلم بعث للإنس كلهم، عربهم وعجمهم إلى يوم القيامة، وبعث إلى الجن.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ من الذي يتذكر بالقرآن؟ من شاء أن يهتدي.

فكان أهلا لأن يهتدي، وأراد أن يهتدي، ومع ذلك لن يهتدي بمجرد مشيئته، وإنما يهتدي إذا شاء الله أن يهديه، فاهتداؤه بفضل الله سبحانه وتعالى ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ أن يهتدي إلى صراط الله المستقيم.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فلولا أن الله شاء هدايتكم لما اهتديتم، فالله عز وجل يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

فمن أبى الهداية أضله الله، ومن شاء الهداية صادقا لن يخذله الله، ولذلك إذا التمست الحق فغاب عنك، ففتش في صدق قصدك، فإنه قد يكون في إرادتك شيء منع وصولك إلى الحق.

فهذا تمام تفسير السورة، وهذا التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذا المقطع، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي.

قال المصنف رحمه الله: أقسم تعالى بالخنَّس.

هنا قال الله: ﴿فَلَا﴾، بعض الناس يظن أن (**لا**) هنا نافية، و(**لا**) هنا ليست نافية، بل هي مُحقِقةٌ للقَسَم، وتتضمن معنىً لطيفًا؛ وهو أن المُقسِمَ ليس بحاجةٍ لأن يُقسم، فقوله صِدقٌ مبينٌ، ولكن هو يتفضَّل بالقَسم، إذن عندما تسمع في القسم: ﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾، ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾، (**لا**) هنا ليست للنفي، (**لا**) لتقرير القَسم. وتفيدك فائدة: أن المُقسم ليس بحاجة لأن يُقسم ولكنه يلطف بك ويرحمك، فيُقسم من أجلك، لا من أجل تصديق كلامه.

أَقسم تعالى بالخنَّس، وهي الكواكب التي تخنس؛ أي تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق.

أو أنها ترجع في سيرها، فتسير حتى تبلغ أعلى الأُفق ثم ترجع إلى مكانها.

أي تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق؛ وهي النجوم السبعة السيارة: الشمس، والقمر، والزهرة، والمشتري، والمريخ، وزحل، وعطارد، فهذه السبعة لها سيران: سيرٌ إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفُلك، وسيرٌ معاكسٌ لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها، فأقسم الله بها في حال خنوسها؛ أي: تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي: استتارها بالنهار، ويُحتمل أن المراد بها جميع الكواكب السيارة وغيرها.

وقال بعض المفسرين: هي تغيب في النهار، وتُرى في الليل.

وقال بعض المفسرين: الْخُنَّسِ، الْجَوَارِ الْكُنَّسِ؛ هي: بقر الوحش والظباء، تُرى وتغيب، فهي خنس كنس؛ خنس: تغيب بأن تلجأ إلى أماكنها، وجواري تجري، وتُرى.

وذهب إمام المفسرين ابن جرير الطبري إلى العموم: أن الله أقسم بمخلوقاتٍ تغيب وتُرى، فكل ما تنطبق عليه هذه الصفات يدخل في هذا القسم.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ أي: أقبل. وقيل: أدبر.

﴿عَسْعَسَ﴾ تأتي بمعنى: أقبل، وتأتي بمعنى: أدبر.

فقال بعض المفسرين: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾** إذا أقبل بضيائه

وقال بعض المفسرين: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾** إذا أقبل بظلامه.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ قال بعض المفسرين: إذا أدبر ظلامه.

فإذا قلنا: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾**إذا أدبر، يكون وقول الله عز وجل: **﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾** بمعنىً واحد في وقتٍ واحد، لأنه متى يتنفس الصبح؟ إذا أدبر الليل، ولذلك **ذهب بعض المفسرين إلى ترجيح:** أقبل، لأن فيه زيادة معنى.

فيكون الكلام: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾** يعني: إذا أقبل الليل بظلامه.

﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ يعني: إذا أقبل النهار بضيائه.

فهذا فيه زيادة معنى، بخلاف ما لو قلنا: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾** يعني: والليل إذا أدبر، فإنه يكون قَسمًا بإقبال النهار في الحقيقة.

أما إذا قلنا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ إذا أقبل، يكون قَسمًا بإقبال الليل، وقَسمًا بإقبال النهار؛ وهذا أَوْلى.

والنهار إذا تنفس.

والنهار: هذا تفسير وليس الآية، الشيخ فسَّر الصبح بالنهار من باب إطلاق الجزء على الكل، فالصبح جزءٌ من النهار.

والنهار إذا تنفس أي: بدت علائم الصبح، وانشق النور شيئًا فشيئًا حتى يستكمل وتطلع الشمس.

قال: وهذه آيات عظام أقسم الله عليها لقوة سند القرآن، وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: 193]

وبينَّا وجه كونه قولًا لجبريل عليه السلام؛ أن الله تكلم به فسمعه منه جبريل عليه السلام، فأسمعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فباعتبار إِسماعه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، هو قول جبريل لأنه قاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

ووصفه الله بالكريم؛ لكرم أخلاقه وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبةً عند ربه.

﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به.

فلا يعجز عن شيءٍ أُمر به.

ومن قوته أنه قَلَب ديار قوم لوطٍ بهم فأهلكهم.

﴿عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي جبريل مُقرَّبٌ عند الله، له منزلةٌ رفيعة، وخصيصةٌ من الله اختصه بها.

﴿مَكِينٍ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: جبريل مطاعٌ في الملأ الأعلى؛ لأنه من الملائكة المقربين، نافذٌ فيهم أمره، مطاعٌ رأيه.

و﴿ثَمَّ﴾ **ظرف** مكان للبعيد تعني هناك.

فالكلام معناه: مطاعٍ هناك؛ أي في السماء.

﴿ثَمَّ﴾ هنا، ليست ثُم، ﴿ثَمَّ﴾ وهي ظرف مكان للبعيد معناها: هناك؛ مطاعٌ هناك في السماء.

﴿أَمِينٍ﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أُمر به، لا يزيد ولا يُنقص، ولا يتعدى ما حُدَّ له.

وكما قلنا: هو أمينٌ عند الله، فهو أمين الله على الوحي، وهو أمينٌ عند الملائكة فتُصدقه إذا أخبر، وهو أمينٌ عند الرسل فتصدقه بما ينزل به من الوحي.

وهذا كله يدل على شرف القرآن عند الله تعالى.

فإن الذي نزل به متصفٌ بهذه الصفات.

فإنه بعث به هذا الملَك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة، والعادة أن الملوك لا تُرسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

ولمَّا ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس فقال: ﴿وَما صاحِبُكُم﴾ وهو محمد صلَّى الله عليه وسلَّم.

وقال: ﴿وَما صاحِبُكُم﴾ إشارة إلى أنَّه منهم ويعرفونه، ويعرفون أخلاقه، ويعرفون تمام عقله.

﴿وَما صاحِبُكُم﴾ وهو محمد صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿بِمَجنونٍ﴾ كما يقول أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به.

افتراءً وبهتانًا، وإلَّا فهم يدركون أنَّهم كذبة، وأنه أتم عقلًا منهم؛ يعرفون هذا عنه من نشأته، من صغره عليه الصَّلاة والسَّلام، ولكنَّهم قومٌ يفترون.

بل هو أكمل النَّاس عقلًا، وأجزلهم رأيًا، وأصدقهم لهجة.

فحاله يكذب دعواهم، وقوله يكذب دعواهم.

حاله: فإنَّ حاله معروفة بالعقل.

وقوله: فإنَّ قوله حكمةً وعلم.

ولا يمكن أن يتَّأتى هذا الحال من مجنون، ولا أن يتَّأتى هذا الكلام من مجنون.

﴿وَلَقَد رَآهُ بِالأُفُقِ المُبِينِ﴾ أي رأى محمدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم جبريل عليه السَّلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح بالبصر.

طبعًا المقصود هنا: رآه على هيئته، وإلا فالنبي صلَّى الله عليه وسلَّم رأى جبريل على غير هيئته، لكن المقصود هنا أنَّه رآه على هيئته كما خلقه الله له ست مائة جناح، رآه معترضًا في السَّماء، في الأفق الظاهر، فلم يكن هناك لَبْس في رؤيته.

﴿وَما هُوَ عَلَى الغَيبِ بِضَنِينٍ﴾ أي وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم، يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو صلَّى الله عليه وسلَّم أمين أهل السَّماء وأهل الأرض.

يعني التفسير بأنَّه غير متهم، هذا على قراءة الظاء أخت الطاء: بظنين، -الظاء بالعصا أخت الطاء- أي غير متهم.

وبضنين -بالضاد أخت الصاد- معناه أنَّه غير بخيل/ غير شحيح، وكلاهما صادقٌ عليه، صلَّى الله عليه وسلَّم، فإنَّه غير بخيلٍ في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، وتعليم الناس، وغير متهمٍ في ذلك أبدًا.

بل هو صلَّى الله عليه وسلَّم أمين أهل السَّماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيءٍ منه عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلةٍ جهلاء.

فلم يمت صلَّى الله عليه وسلَّم حتى كانوا علماء ربانيين، وأحبارًا متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والمفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم.

﴿وَما هُوَ بِقَولِ شَيطانٍ رَجِيمٍ﴾ لمَّا ذكر جلالة كتابه وفضله بذكر الرسولين الكريمين اللَّذين وصلا إلى النَّاس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفةٍ ونقصٍ ممَّا يقدح في صدقه، فقال: ﴿وَما هُوَ بِقَولِ شَيطانٍ رَجِيمٍ﴾ أي في غاية البعد عن الله وعن قربه.

الرجيم: هو الملعون المطرود، فكيف يأتي بالقرآن وهو كلام الله؟

الله طرده وأبعده، فكيف يأتي بالقرآن الذي هو كلام الله سبحانه وتعالى، هذا محال.

﴿فَأَينَ تَذهَبونَ﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم.

﴿فَأَينَ تَذهَبونَ﴾ يعني أين تذهب عقولكم حتى قلتم المحال، الذي يدرك العقلاء أنَّه لا يمكن أن يكون.

وأين عزبت عنكم أذهانكم حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق، بمنزلة الكذب الذي هو أنزل ما يكون، وأرذل وأسفل الباطل، هل هذا إلا بانقلاب الحقائق.

الأَوْلى أن يقول: هل هذا إلا من قلب الحقائق. لأن هم قلبوا الحقائق، أما الانقلاب فقد يكون صحيحا، وقد يكون غير صحيح، وهذا ليس المقصود هنا، وإنما المقصود هو القلب.

إن هو إلا ذكر للعالمين يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والرذائل والأمثال، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

أي أن الله هدى العباد، فبين لهم طريق الرشد وطريق الضلال، وأعطاهم عقولا يفهمون بها، وجعل لهم إرادة يفعلون بها، ومع ذلك فمشيئتهم تحت مشيئة الله سبحانه وتعالى.

﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارَض أو تمانَع، وفي هذه الآية وأمثالها رد على فرقتي القدرية النفاة، والقدرية المجبرة، كما تقدم مثالها.

وهذا تقدم معنا في كتاب التوحيد وفصلناه.

وبهذا نكون ختمنا تفسير هذه السورة.

أسأل الله عز وجل أن يزيدنا علما بكتابه، وأن ينفعنا به وأن يجعلنا نافعين للأمة به.

وأنتم ترون في هذه المجالس أن تدبر كتاب الله أنفع ما يكون لطالب العلم ولأهله، فأوصي نفسي وطلاب العلم: بالعناية بالتفسير الصحيح للقرآن، فإن كثيرا من طلاب العلم قد انشغلوا عن تفسير القرآن، واشتغلوا بغيره مما هو خير، لكن تفسير القرآن جامع للعلوم، وجامع للخيرات.

أنت لو فهمت القرآن فإنك تستطيع أن تعظ، وتخطب، وتدرس، وتعلم، وتفقه، فهذا فيه خير عظيم.

فالوصية لطلاب العلم أن لا يغفلوا عن هذا الجانب المهم وأن يجعلوا له جزءًا كبيرا من أوقاتهم.

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿1﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴿2﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿3﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿4﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿5﴾﴾.

هذه السورة معاشر الفضلاء سورة مكية، وهي السورة الثانية من السور الثلاث التي من قرأها كان كأنه ينظر إلى القيامة رأي العين كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي.

ومعنى ما قُرئ أنه إذا أتى أمر الله -وهو قريب قد اقترب- فانشقت السماء ورأيت فيها فطورا وشقوقا بعد أن كنت لا ترى فيها فطورا، وانتثرت الكواكب وتساقطت من أفلاكها وانطفأت أضواؤها، وتفجرت البحار بالمياه فزاد ماؤها ففاضت وسالت حتى صارت بحرا واحدا، عذبها ومالحها تختلط فتصبح ماء واحدا، وتقدم معنا أن البحار في ذلك اليوم العظيم تفيض ويزداد ماؤها ويسيل بعضها على بعض، فتختلط حتى تصير بحرا واحدا، ثم تسجر نارا، وهذا من عجائب ذلك اليوم أن الماء الذي يطفئ النار يصبح نارا مستعرة، فيتبخر ماؤها، وتيبس تلك البحار، وأثيرت القبور وقلبت فجعل أسفلها أعلاها، فاستُخرج من فيها من الموتى وقد نبتت أجسادهم فيها بسحاب يرسله الله عز وجل بماء يشبه مني الرجال يتسلل إلى جميع القبور، فتنبت الأجساد في القبور، فإذا أذن الله قلبت القبور وجعل أسفلها أعلاها، وخرج الناس من قبورهم.

هناك في ذلك الموقف العظيم تعلم كل نفس ما عملته في الدنيا، تتذكره فلا تنسى منه شيئا وتقرؤه فلا تفقد منه شيئا، فتعلم ما قدمت وما قدمت هو ما عملته بنفسها، وتعلم ما أخرت وما أخرته هو ما سنته لغيرها فاقتدى بها فيه أقوام وصاروا يعملون بمثل عمله، فمات والناس يعملون بتلك السنة ويتوارثونها، فهذا ما أخره، إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، فمن أحيا للناس سنة فاقتدى به الناس وعملوا بهذه السنة، فإنه يرى أعمالا ما عملها لكنه سنها، فكانت من عمله بفضل الله، وإن كان سن للناس بدعة أحدثها أو

استوردها أو قواها فعمل الناس بهذه البدعة ومات وهم يعملون بهذه البدعة، فإنه يجد أوزارا عظيمة في كتابه لم يعملها لكنه تسبب فيها فكانت من عمله.

وهذا يدلك يا عبد الله على خطورة القدوة، وأن الإنسان قد يكتسب أجورا عظيمة بواسطة القدوة بأن يكون قدوة خير في بيته، وقدوة خير في حيه، وقدوة خير في بلده، وقد يكتسب أوزارا عظيمة بأن يكون قدوة شر في بيته، أو قدوة شر في حيه، أو قدوة شر في بلده، وقد يكون قدوة شر في بلدان كثيرة، لاسيما في زماننا هذا الذي سهل التواصل فيه بين الناس.

وقال بعض أهل العلم: ما قدمت هو ما عملته من الفرائض، وما أخرت هو ما تركته من الفرائض، ولا مانع من إرادة الجميع.

فلا شك أن الإنسان يوم القيامة أن كل إنسان كل نفس سترى ما عملت بنفسها، أو تركت بنفسها، وما تسببت به من خير أو شر.

هذا التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذا المقطع، ونعود إلى التفسير التفصيلي، فليتفضل الابن يقرأ لنا.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: أي: إذا انشقت السماء وانفطرت وتناثرت.

السماء يوم القيامة تتشقق وترى فيها الفطور كأنها أبواب، ثم تزال وتطوى، وهذا من أهوال ذلك اليوم، حيث يتغير الكون، وتحدث أمور عظيمة هائلة تُذهب الألباب وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، نسأل الله أن نكون عند البعث من الآمنين.

أي: إذا انشقت السماء وانفطرت وتناثرت نجومها وزال جمالها.

وانطفأ ضوؤها وتساقطت من أفلاكها

وفجرت البحار فصارت بحرا واحدا.

وذلك بأن يكثر ماؤها فتفيض حتى تصبح بحرا واحدا متصلا.

وبعثرت القبور بأن أخرج ما فيها من الأموات.

البعثرة: هي القلب، يقال: بعثرة بالعين، ويقال: بحثرة بالحاء، وهي القلب وإخراج ما في الباطن، فمعنى: بعثرت قلبت وأخرج ما فيها.

وبعثرت القبور بأن أخرج ما فيها من الأموات وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال، فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسران، هنالك يعض الظالم على يديه إذا رأى ما قدمت يداه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، وهنالك يفوز المتقون المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم والنعيم المقيم والسلامة من عذاب الجحيم.

الله عز وجل يقول: ﴿**عَلِمَتْ**﴾ علما يقينيا لا شك فيه ولا نقص.

﴿**نَفْسٌ**﴾ وهذا للعموم؛ أي: كل نفس، ﴿**مَّا قَدَّمَتْ**﴾ أي: عملت.

﴿**وَأَخَّرَتْ**﴾ أي: تركت وضيعت.

وقال بعض المفسرين: ﴿**مَّا قَدَّمَتْ**﴾ يعني: ما عملته بنفسها، وما أخرت أي ما سنته لغيرها.

واختار هذا الثاني إمام المفسرين ابن جرير الطبري، والحق أن الكل مراد، فكلها مقصودة بهذه الآية.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿6﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿7﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿8﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿9﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿10﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿11﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿12﴾﴾.

أي: يا أيها الإنسان الكافر بربك المنكر للبعث: أيُّ شيء غرك بربك الكريم الذي أنعم عليك بنعم لا تعد ولا تحصى؟ فرباك بالنعم وعبدت غيره، رباك بالنعم ورددت قوله، رباك بالنعم وكذبت رسوله، وهذا غاية الغرور ومنتهاه، فإن كل شيء يدلك على ربك ومع ذلك كفرت وأعرضت.

وقال بعض المفسرين: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ**﴾ يعني: يا جنس الإنسان، ﴿**مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾ فكفرت إن كنت كافرا، وعصيت مع إيمانك إن كنت مؤمنا، ما الذي غرك وربك

سبحانه هو الذي خلقك؟ وأنت تدرك يقينا أنك لم تخلق نفسك، ولم تخلق صدفة، ولا يستطيع أحد أن يخلقك، وإنما الذي خلقك هو الله، فخلقك يدلك على ربك.

ولذلك لا ينكِر أن الله هو الذي خلق الناس إلا من انطمس عقله بالكلية، وإلا فحتى الكفار إذا سئلوا: من خلقكم؟ قالوا: الله، وهذا يدل العاقل على ربه.

﴿**فَسَوَّاكَ**﴾ وسوى خلقك وأنت في ظلمات الرحم، فجعلك على خلق سوي منتظم الأعضاء، وجعل كل عضو في موضعه.

﴿**فَعَدَلَكَ**﴾ فجعلك معتدل القامة لا تزحف كبعض الحيوانات، ولا تمشي على أربع كبعض الحيوانات، بل كرمك في صورتك وكرمك في هيأتك فكنت معتدل القامة، منتصب القامة.

﴿**فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ**﴾ إن شاء لو شاء لجعلك في صورة من أقبح الصور، لو شاء لجعلك في صورة حمار أو كلب أو خنزير، لكنه تفضل عليك وأنعم عليك وأنت في رحم أمك، فجعلك في هذه الصورة السوية البهية، وصرّفك إلى ما شاء من صور، فقد يجعلك شبيها بأبيك، وقد يجعلك شبيها بأمك، وقد يجعلك شبيها بأجدادك، وقد يجعلك شبيها بأعمامك، وقد يجعلك شبيها بأخوالك، ولذلك تجد الناس في عائلة واحدة في بيت واحد هذا يميل شبهه إلى أمه، وهذا يميل شبهه إلى أبيه، وهذا أسمر في وسط بيض مال شبهه إلى جد من أجداده، سبحانه هو الذي يصورنا في الأرحام كيف شاء سبحانه وتعالى، وجعل صور بني آدم أشكالا وألوانا، فهذا طويل وهذا قصير، وهذا آدم وهذا أسود وهذا أبيض، يصور كيف يشاء سبحانه وتعالى.

هذا السؤال العظيم: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾ **قال بعض المفسرين**: جوابه كرم الله وحلمه؛ لأن الآية أشعرت بهذا في قول الله عز وجل: ﴿**بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ**﴾ فرأيت الله عز وجل يملي لك ولا يأخذك بذنبك، فغرك ذلك حتى كفرت أو فسقت أو ظلمت، والله إنما يملي للكافر ليزداد إثما، ويملي للمؤمن لعله أن يتوب.

وقال بعض المفسرين: جواب هذا السؤال: غرك ظلمك وجهلك فكنت من أجهل الجاهلين وأظلم الظالمين.

وقال بعض المفسرين: جواب هذا السؤال غرك شيطانك الذي لم يكن له عليك سلطان، وإنما وسوس لك فاتبعته.

ولا مانع من أن يكون الجواب شاملا لكل هذا، فكل هذه أسباب الغرور، نعم والله إن العبد ليذنب، قد يكون من أهل الإسلام لكنه يذنب، فيرى الله عز وجل يملي له لا يبتليه بمرض ولا يأخذه، فيغتر ويبطر ويزداد في المعاصي، فيغتر بحلم الله وكرم الله.

ولا شك أن الجهل شجرة كل شر، فما وقع شر من الإنسان إلا وللجهل فيه نصيب، والجهل ملازم للمعصية، ولذلك **قال ابن عباس رضي الله عنهما**: ما عصى أحد إلا بجهل، الإنسان يقع في المعصية من جهة جهله ولو كان عالما، إن عصى يكون فيه نوع من الجهل، ولا شك أن الشيطان يدعو بني آدم إلى كل شر، وأعظم ما يرضيه هو الكفر، وهو يكيد لبني آدم.

نرجع إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما ذكره الشيخ.

قال رحمة الله عليه: يقول تعالى معاتبا للإنسان المقصر في حقه المتجرئ على معاصيه.

فنفهم من هنا أن الشيخ ابن سعدي رحمه الله يرى أن الإنسان هنا جنس الإنسان الذي يعصي سواء كان مسلما ويعصي، أو كان عصيانه بالكفر.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ أتهاونا منك في حقوقه؟ أم احتقارا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟ أليس هو الذي خلقك فسواك في أحسن تقويم، فعدلك وركبك تركيبا قويما معتدلا في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات؟

فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم أو تجحد إحسان المحسن؟ إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله إذ لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات، ولهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿9﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿10﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿11﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿12﴾﴾.

بعدما تقدم زجر الله عز وجل الكفار زجرا غليظا عما يقولون ويفترون من أنهم على الحق، وأنه لا حياة إلا الدنيا، وأنهم غير مبعوثين بعد موتهم.

﴿**كَلَّا**﴾ فليس الأمر كما تزعمون، وليس الأمر كما تفترون، ﴿**بَلْ**﴾ أنتم ﴿**تُكَذِّبُونَ**﴾ بيوم الحساب الذي يحاسب فيه الله عز وجل العباد، وهو حق لا شك فيه.

﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ**﴾ إن عليكم في الدنيا ملائكة يحفظون أعمالكم ويُحصونها، وهؤلاء الملائكة كرام كاتبون، فهم كرام عند الله، وكرام في أخلاقهم، وكرام في خلقتهم، ولذلك لا يظلمونكم شيئا، يكتبون الحق لا يزيدون ولا ينقصون فإنهم كرام.

وهم كاتبون يكتبون ما تقولون، ويكتبون ما تفعلون، ويكتبون ما تتركون، وهم يعلمون ما تفعلون، لا يغيب عنهم شيء من أقوالكم ولا من أفعالكم، ولا ما تسرون به ولا ما تعلنون.

أما ما تعلنونه فإنهم يعلمونه، فما تقولونه علنا يعلمونه ويسمعونه، وما تفعلونه يرونه فيكتبونه، وأما ما تسرون وما في قلوبكم فإن الله يطلعهم على ذلك، فهم يعلمون ما تخفون بإطلاع عالم السر والجهر سبحانه وتعالى لهم على ما في قلوبكم من الأعمال القلبية، ومن النيات والمقاصد، ومن الهم بالحسنة، ومن الهم بالسيئة.

وفي هذا وعيد للكفار والعصاة وتحذير من معصية الله عز وجل، وتذكير بالحياء، أنت يا عبد الله لو رأيت رجلا يمشي في الطريق لاستحيت أن تفعل المعصية، ربما تشرب الدخان فإذا رأيت رجلا ذا لحية رميت السيجارة، وربما أطبقت يدك عليها، فكيف لا تستحي من الملائكة وهي معك لا تفارقك ولا يغيب عنها عملك؟ وهم عباد مكرمون كيف لا تكرمهم؟ كيف تتلوث بالمعاصي أمامهم؟

إن هذا والله ليزجر المؤمن العاقل إذا تذكره عن الإقدام على المعاصي، فإن الملائكة الحافظين لا يفارقونه أبدا.

قال رحمه الله: وقوله ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾.

﴿**كَلَّا**﴾ **قال بعض المفسرين**: معناها حقا، حقا بل تكذبون بالدين.

وقال بعض المفسرين: معناها: ليس الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا جزاء.

وقال بعض المفسرين: ﴿**كَلَّا**﴾ زجر بعدها إضراب، ﴿**كَلَّا**﴾ زجر ﴿**بَلْ**﴾ إضراب عما يقولون إلى ما هو الحق، كلا بل أنتم تكذبون بالدين الذي هو الحق المبين.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء، وأنتم لابد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراما يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمونها، فدخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرموهم وتجلوهم.

وقال العلماء: إن الله عز وجل قال هنا: ﴿**كِرَامًا**﴾ لبيان عدم الظلم وأنهم لا يظلمون ولا يكذبون، فما في كتبكم كله صدق، ليس فيه حرف زائد، وليس فيه حرف ناقص.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿13﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿14﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿15﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿16﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿17﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿18﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿19﴾﴾.

أي: أنّ الناس يوم القيامة ينقسمون إلى: أهل نعيم وأهل جحيم.

فالأبرار الذين بَرُوا بأداء الفرائض واجتناب المعاصي فكثر خيرهم، وقل شرهم، وإذا زلت أقدامهم بادروا بالرجوع إلى ربهم، فكانوا بررة أتقياء، أولئك الأبرار في نعيم لا يخطر على قلب بشر، في نعيم دائم لا ينقطع، متجدد لا يُمل، كامل لا ينغص.

وإن الفجار الذين مالوا عن التوحيد إلى الشرك، أو خرجوا عن الطاعة إلى المعصية لفي نار بعيد قعرها، شديد حرها، عظيم عذابها، يصلونها، يعذبون بها، ويصلهم لهبها وحرها من كل مكان.

يوم الدين يوم الجزاء والحساب، وللأبرار والفجار نصيب في الدنيا مما يكون في الآخرة، فللأبرار في الدنيا نعيم في قلوبهم، وحلاوة في أنفسهم، فلهم نعيم القلوب وسرورها، وحلاوة الإيمان التي لا تدانيها حلاوة العسل وحلاوة السكر، ولهم انشراح الصدور واطمئنان القلوب بربهم، والفجار لهم في الدنيا ضيق الصدور، فهم في صدور ضيقة، وما هم عنها بغائبين، فهم إن دخلوها كفارا لن يخرجوا منها أبدا، فلن يُفقدوا منها.

وما أدراك ما يوم الدين الذي كذب به أولئك الكفار؟ والذي يكون فيه انقسام الناس إلى الفريقين: أبرار وفجار، أشقياء وسعداء، أيّ شيء يدريك يا محمد -صلى الله عليه وسلم- ما يوم الدين؟ وهذا تعظيم وتفخيم لذلك اليوم.

ثم ما أدراك ما يوم الدين هذا تأكيد معنوي؛ لأنه دخل بين الجملتين حرف العطف فليس تأكيدا لغويا، وإنما هو تأكيد معنوي، وأفادت **ثم** مزيد التأكيد.

ثم فسر ربنا ذلك الأمر العظيم في ذلك اليوم ببيان أنه يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئا، فلا تنفعها بحسنة واحدة، لا ينفع الأب ابنه ولا ينفع الابن أباه، ولا تدفع عنها بلية واحدة، ولا تسقط عنها سيئة واحدة إلا ما أذن الله به من الشفاعة.

والله في ذلك اليوم يأذن لمن يشاء ويرضى بالشفاعة، فتكون المنفعة بإذن الله سبحانه وتعالى، فالأمر كله في ذلك اليوم لله عزوجل، وتسقط الرئاسات، ويسقط الملك، ويذل المتكبرون، فالأمر كله للجبار سبحانه وتعالى، فلا جزاء في ذلك اليوم إلا من الله، ولا شفاعة إلا بإذن الله، ولا كلام لأحد إلا بإذن الله، فلا يستطيع أحد في ذلك اليوم أن يجرؤ على مخالفة أمر الله، في الدنيا كان من العباد من يفسق ويجرؤ على مخالفة أمر ربه، أما في ذلك اليوم العظيم فلا يملك أحد ولا يجرؤ أحد أن يخالف أمر الجبار سبحانه وتعالى.

فإذا علمت يا عبد الله أنك صائر إلى ذلك اليوم الذي لا تغني نفس فيه عن نفس شيئا، ولا تكون الشفاعة إلا بإذن الله لمن شاء ورضي سبحانه وتعالى، فإنه يجب عليك أن تعد لذلك اليوم عدته، وأن تحرص على أن تكون في ذلك اليوم ممن حمل خيرا، ولم يحمل ظلما، ولم يحمل وزرا، وقد خاب من حمل في ذلك اليوم ظلما.

فالواجب علينا جميعا أن نراجع أنفسنا، وأن ننظر في سيرنا إلى ربنا فإن وجدنا خيرا فلنعلم أنه بفضل الله، ولنشكر الله، ولنسأل الله القبول والثبات، وإن وجدنا شرا فلنتخلص منه اليوم قبل أن نلقاه غدا في يوم لا تملك نفس لنفس شيئا، والأمر يومئذ لله.

قال رحمه الله تعالى: المراد بالأبرار هم القائمون بحقوق الله وحقوق عباده الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

الأبرار: جمع بر، والبر هو كثير الخير المتباعد عن الشر، لا تفقده في الخير، ولا تراه في الشر، البر هو الذي لا يفقد في الخير، ولا يرى في الشر، هذا هو البر.

فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

لاشك أن الأبرار لهم الأمن التام في الدنيا والآخرة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، ففي الحياة لهم الأمن، لهم طمأنينة القلب، لهم انشراح الصدر، هم أقوياء بربهم سبحانه وتعالى، وعند الموت لهم البشرى، أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فإذا بشرت أحبت لقاء الله، أرادت الآخرة فيحب الله لقاءها، فتكمل سعادتها ونعيمها، فإذا غسلت وكفنت وحملت على الأجساد استبشرت بما أمامها وقالت لحامليها بصوت لا يسمعونه: قدموني قدموني، أسرعوا، فإذا كانت في قبرها كان لها التصديق لقولها، أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، ويوسع عليه قبره مد بصره، هذا القبر الذي يراه الناس ضيقا للبر يوسع له مد بصره، ويكون في قبره في هذه السعة، ويعرض عليه مقعده من الجنة، وإذا بعث كان من الآمنين، ثم يكون من أهل النعيم المقيم، فالخير كله في البِر.

وهذا أمرٌ يقيني لكن أكثر الناس لا يعلمون، فنسأل الله أن يرزقنا البر وأن يجعلنا من عباده الأبرار.

﴿وَإِنَّ الْفُجّارَ﴾ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فَجَرَت قلوبهم ففجرت أعمالهم.

تقدّم معنا أن **الفاجر**: يُطلق على المائل عن التوحيد إلى الشرك، وقلت لكم في هذا المعنى الفاجر يُقابل الحنيف؛ لأن الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد، والفاجر هو المائل عن التوحيد إلى الشرك، كما أن من معاني الفاجر شرعًا: الفاسق الذي خرج عن طاعة الله إلى معاصيه.

﴿لَفِي جَحِيمٍ﴾: أي عذاب أليم في الدنيا ودار البرزخ ودار القرار.

الفاجر البعيد عن الله يعيش في الدنيا في لعنة كما قال النبي ﷺ: **﴿الدُّنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلِّمًا﴾**.

يعيش الفاجر ولا سيما الكافر ضيق الصدر، فمهما حصّل من أموال ومهما كان عنده من حضارةٍ زائفة فإن صدره ضيّق، ولذلك تجد الكفار يدمنون على الخمور والمخدرات، ويدمنون على العمل حتى ينسوا ضيق صدورهم، وهيهات أن يكون، وعند الموت يُبشّر بما يسوءه، والكافر عند الموت تضرب الملائكة وجهه، وتضرب مؤخرته، يُضرب قبل خروج روحه، ويُبشّر بما يسوءه: أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث أخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغسّاق وآخر من شكله أزواج، أخرجي إلى سخط من الله وغضب، وإذا أُدخل في قبره كُذِّب في قبره أن كَذَبَ فألبسوه من النار، وأفرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويُضيّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، حتى تتداخل أضلاعه من شدّة ضيق قبره، ومع كونه في هذا الضيق الشديد والعذاب الأليم فإنه يُنادي ربِّ لا تُقِم الساعة، ربِّ لا تُقِم الساعة.

نسيت أن أذكر أنه إذا حُمل على الأكتاف يقول: يا ويلها أين تذهبون بها؟ يا ويلها أين تذهبون بها؟ يسمع صوته كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه الإنسان لصُعِق.

ثم إذا بُعث يوم القيامة كان له الفزع الشديد والخزي الكبير، ثم يكون مصيره إلى النار والعياذ بالله.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ ويُعذبون بها أشد العذاب.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ معناها: يصيبهم لهبها وحرها من جميع الجوانب.

ويُعذبون بها أشد العذاب، ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾؛ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها.

وهذا في حق الكفار، فلا يُفقدون من النار أبدا، بل هم ملازمون لها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿17﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ في هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يُحيِّرُ الأذهان.

والخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وللناس من بعده، **وقيل**: لجنس الإنسان، وفي هذا كما قلنا تعظيم لشأن ذلك اليوم العظيم.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًاۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ولو كانت قريبةً أو حبيبة وصافية، فكلٌ مُنشغِلٌ بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

قال المفسرون: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا﴾ يعني: يوم لا تغني نفس عن نفس شيئا، وشيئا هنا نكرة في سياق النفي فتَعُمُ كلّ شيءٍ ولو كان صغيرا. إلا ما أذن الله به من الشفاعة. والشفاعة يا إخوة كلها للّه. ولذلك لن ينال أحدٌ الشفاعة إلا بإرضاء الله، ويضل ضلالاً بعيدا من يطلب الشفاعة من غير الله، أو يظن أنه سيُحصل الشفاعة بالشرك بالله، والله لا يكون، وإنما الشفاعة لله سبحانه وتعالى هو الذي يأذن لمن شاء أن يشفع إكراما له، ولا يشفعُ شافعٌ إلا لمن ارتضى الله سبحانه وتعالى، والله لا يرضَى لعباده الكفر. فالذي يذهب إلى القبر ويتقرب إلى صاحب القبر يرجو شفاعته، وأن يكون وسيلة بينه وبين الله، والله إنما يقطع الصلة بينه وبين اللّه، ولن يكون له هذا المقبور شفيعا بهذا الطريق.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد ويأخذُ من المظلومِ حقه من ظالمه والله أعلم.

وبهذا نكون أتممنا تفسير هذه السورة.

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿1﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿2﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿3﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿4﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿5﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿6﴾﴾.

هذه السورة اختلف العلماء هل هي مكية أو مدنية؟ أو أن بعض آياتها مكي وبعض آياتها مدني؟ والأقرب والله أعلم أنها نزلت في المدينة، وهي أول ما نزل في المدينة، فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك، رواه ابن ماجه والنسائي في الكبرى وحسنه الألباني.

فهذا ثابت عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو خبر لا يحتمل الاجتهاد، فيكون دليلا واضحا بيّنا على أن هذه السورة نزلت عند أول قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

وفيها يخبر الله عز وجل أن العذاب الشديد في جهنم للذين يُنقصون الناس حقهم ويستوفون من الناس الذي لهم، فهم ظلمة لا عدل عندهم، ويدخل في ذلك كل من يستوفي حقه كاملا وقد يتجاوز ويزيد، ولا يعطي الناس حقهم أصلا أو يعطيهم حقهم ناقصا.

ومن ذلك ما يكون بين الزوج والزوجة فبعض الأزواج -هدانا الله وإياهم- يستوفي حقه كاملا ويطالب بحقه كاملا، ولا يعطي الزوجة حقها وهذا مطفف، وكذلك يدخل في هذا الذي إذا ألحقت به التهمة تعنت في رد الأمور الواضحات، وإذا ألحقت التهمة بغيره تكلف في إثبات التهمة على غيره فهو مطفف.

فهذا أصل عام في كل من يستوفي حقه كاملا ولا يعطي الناس حقهم.

وكذلك يدخل فيها عند أهل العلم من ينقص من الأعمال الواجبة عليه: كالصلاة والزكاة، فهذا مطفف.

ويقابل المطفف المتفضل وهو الذي يتجاوز عن حقه أو بعضه ويزيد في حق الناس، هذا أعلى الدرجات، متفضل إذا كان يستوفي حقه يتنازل عن بعضه، وإذا كان يعطي الحق فإنه يزيد ويتفضل في غير ممنوع شرعا، ودونه العادل وهو الذي يستوفي حقه ويوفي حق غيره.

فالناس في هذا ثلاثة مراتب:

1. **المرتبة الأولى والأعلى:** مرتبة التفضل بأن يُنقص من حقه عند الاستيفاء، وأن يزيد عند التوفية في غير محظور شرعي.
2. **والمرتبة الفاضلة التي دون الأولى:** مرتبة العدل، فيستوفي حقه كاملا، ويوفي غيره حقه كاملا.
3. **والمرتبة الثالثة:** مرتبة التطفيف، وهذا هو المتوعد والعياذ بالله بالعذاب الشديد يوم القيامة.

فالمطففون المتوعَّدون بويل هم الذين يستوفون حقهم كاملا، وإذا كالوا للناس أو وزنوهم ينقصون الحق.

ألا يتعقد أولئك الظلمة الذين يظلمون في الدنيا أنهم مبعوثون من قبورهم، فمجازون على أعمالهم ﴿**وَقَد خابَ مَن حَمَلَ ظُلمًا**﴾، ألا يتعقد أولئك الظلمة بالبعث فيخافون الجزاء، فينزجرون عن ظلمهم، فإنهم ولا شك مبعوثون ليوم عظيم، شأنه عظيم، وهوله شديد، في ذلك اليوم يقوم الناس لربهم، فيقومون في قبورهم حفاة عراة غرلا، ويقومون من قبورهم حفاة عراة غرلا، ويحشرون حفاة عراة غرلا، فيقومون لربهم خاضعين، في ذلك الموقف العظيم قد شخصت أبصارهم، وارتفعت رؤوسهم، وتدنو الشمس من رؤوسهم، فيعرق الناس على قدر أعمالهم:

فمنهم من يبلغ العرق إلى عقبيه، ومنهم من يبلغ إلى نصف ساقيه، ومنهم من يبلغ إلى ركبتيه، ومنهم من يبلغ إلى خاصرته، ومنهم من يبلغ إلى عنقه، ومنهم من يغيب في عرقه إلى أنصاف أذنيه، ومنهم من يغطيه عرقه تغطية كاملة، ويذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا، إنه قيام عظيم، فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون وما لا يحتملون.

وفي هذا تحذير أكيد من الظلم وعاقبته ووعيد بالقصاص في ذلك اليوم ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذا المقطع ونعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما ذكره الشيخ.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين في تفسيره: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة عذاب وعقاب.

قال جمع من المفسرين: هي كلمة عذاب وعقاب.

وقريب من هذا قول بعضهم: هي وعيد بالعذاب والعقاب، وقيل: ﴿وَيْلٌ﴾ دعاءٌ بالشدة والهلكة.

وقيل: ﴿وَيْلٌ﴾ وادٍ في جهنم يسيل فيه صديد أهل النار.

وقيل: ﴿وَيْلٌ﴾ هي النار، فويل اسمٌ من أسماء النار كجهنم والجحيم.

والذي عليه الأكثر، أنها كلمة عذاب وعقاب ووعيد.

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾.

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ قيل: إنها من الشيء الطفيف، والشيء الطفيف هو القليل، وذلك أن المطفف في المكيال والميزان في الغالب لا يأخذ إلا شيئا قليلا؛ لأنه لا يستطيع أن يطفف الشيء الكثير؛ لأنه يُكشَف، فخاب وخسر حيث يأخذ القليل فيكون من أهل هذا الوعيد الشديد.

فالمطفف إذن: هو المقلل حق صاحب الحق، وقيل: مأخوذ من طف الشيء، وطف الشيء هو جانبه، فالمطفف هو الذي لا يجعل المكيال تمتلئ جوانبه، والمعنى من حيث المقصود متقارب، فهو الذي يُنقص في الكيل والوزن.

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وفسر الله المطففين بأنهم ﴿الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ أي: أخذوا منهم وفاءً لهم عما قبلهم.

﴿اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ﴾ يعني: استوْفَوْا حقهم فأخذوه.

يستوفونه كاملا من غير نقص ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾.

﴿**وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ**﴾ يعني: إذا كالوا لهم أو وزنوا لهم، فهذه كلمة واحدة ﴿**كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ**﴾ فلا يوقف على ﴿**أو وزنوا**﴾.

لا تقرأ مثلا: ﴿**وإذا كالوهم أو وزنوا**﴾، ﴿**هم يخسرون**﴾، وهذا الذي عليه الأكثر وهو الصواب، وبعضهم أجاز أن تقف هكذا فتقرأ: ﴿**وإذا كالوهم أو وزنوا**﴾ وقف ﴿**هم يخسرون**﴾، ولكن الذي عليه الأكثر هو الصواب.

ومعنى ﴿**كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ**﴾: كالوا لهم أو وزنوا لهم وهي لغة حجازية.

أي: إذا أعطوا الناس حقهم الذي لهم عليهم بكيل أو وزن، ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذلك إما بمكيال أو ميزان ناقصين.

إما بمكيال وميزان ناقصين، فالنقص في نفس المكيال، يقول: هذا صاع وهو ليس بصاع، مقطوع، يقول: هذا كيلو وهو ليس بكيلو.

بعضهم مثلا: عندما كان الميزان فيه كفتين فيضع الكيلو في كفة ويضع شيئا آخر في الكفة الثانية تنقص الكيلو، فهذا المقصود بقول الشيخ: **إما بمكيال أو ميزان ناقصين**، فيكون النقص في المكيال والميزان.

أو بعدم ملئ المكيال والميزان

فيكون النقص في الكيل أو الوزن، وكلاهما يدخل في هذا.

أو بغير ذلك، فهذا سرقة لأموال الناس وعدم إنصاف لهم منهم، وإذا كان هذا وعيدا على الذين يبخسون الناس في المكيال والميزان.

وهو في باب المعاوضة يعطي ويأخذ ولكنه يظلم.

فالذي يأخذ أموالهم قهرا وسرقة أولى بهذا الوعيد من المطففين.

وهو الذي يأخذ ولا يعطي، وهذا ليس خاصا بالأموال يا إخوة كما قلنا هذا عام في كل شيء كما ذكرنا في التفسير الإجمالي.

قال رحمه الله: ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له يجب عليه أن يعطيهم كلما لهم من الأموال والمعاملات، بل يدخل في عموم هذا الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد منهما يحرص على ما له

من الحجج، فيجب عليه أيضا أن يبين ما لخصمه من الحجة التي لا يعلمها، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو.

الله أكبر! الله أكبر! يعني هذا حتى في مقام المناظرة يجب العدل وعدم التطفيف، فكما أن الإنسان يعرض أدلته ويقويها ويبين وجه دلالتها، فإنه يجب أن ينصف خصمه في أدلته، بل إذا كان له دليل لم يذكره فإنه يذكّره به، وهذا فضل في الخصومة.

وأيضا أن يحب أن يُنظر في أدلة خصمه كما يحب أن يُنظر في أدلته، وأن يحب أن يُنظر في أدلة قضيته كما يحب أن يُنظر في أدلة غيره، وهذا موجود في صنيع علماء أهل السنة عبر العصور، وإذا قرأت كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تجد أنه يعرض حجج خصومه بأقوى مما يعرضها الخصوم، وقد يذكر لهم من الحجج ما لم يذكروه، وهذه طريقة أهل الإنصاف والعدل والعلم الذين سلمت قلوبهم وأحبوا الحق لهم أو لغيرهم.

قال رحمه الله: وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه وتواضعه من كبره وعقله من سفهه.

صدق ورب الكعبة، وإنما تظهر الأخلاق في المضايق، أما في السعة فالكل في الغالب يكون على خلق، لكن إذا جاءت المضايق كالخصومات ونحو ذلك ظهرت الأخلاق، وبدا الإنصاف، وبدا من يحب الحق ممن يقدم نفسه على الحق نعوذ بالله من سوء الحال.

ثم توعد الله تعالى المطففين، وتعجب من حالهم إقامتهم على ما هم عليه فقال: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿4﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿5﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿6﴾﴾.

فاتني أن أقول في قول الله عزوجل: ﴿**الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ**﴾ (على) هنا ما معناها؟

بعض المفسرين قال: معناها (مِن)، يعني: الذين إذا اكتالوا من الناس.

وبعض المفسرين قال: معناها (عند) يعني: إذا اكتالوا عند الناس، والمعنى واحد.

﴿**أَلَا يَظُنُّ**﴾ **قال بعض المفسرين:** معناها: ألا يعتقد ويعلم أولئك.

وقال بعض المفسرين: معناها: ألا يخاف أولئك.

وقال بعض المفسرين: معناها: ألا يخطر في قلوب أولئك أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ فيزجرهم ذلك عن الظلم.

قال رحمه الله: فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به وعرفوا أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم على القليل والكثير لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه.

﴿**لِيَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾ **قال العلماء**: يوم كله عظمة، فهو عظيم في ذاته، عظيم فيما يقع فيه، عظيم في أهواله.

﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ **قال بعض المفسرين**: يوم يقوم الناس في قبورهم.

وقال بعض المفسرين: يوم يخرج الناس من قبورهم.

وقال بعض المفسرين: يوم يقوم الناس في عرصات القيامة.

والكل مراد.

فالناس يقومون لرب العالمين ابتداءً من قيامهم في قبورهم، ثم قيامهم من قبورهم، ثم قيامهم في العرصات.

أما القول بأن القيام فقط الذي في القبور فبعيد، والقول بأن القيام هو القيام من القبور فقط فبعيد، لأن الآية واضحة أنها في القيام يوم القيامة، لكن أن يكون ذلك كله حاصلا ومقصودا فنعم، فهم يقومون في قبورهم، ثم يقومون من قبورهم، ثم يقومون في عرصات يوم القيامة.

﴿**لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ أي: خاضعين لرب العالمين فلا يتكلمون إلا بإذنه، ولا يعصون أمره، ولا ينتظرون إلا جزاءه، هذا معنى ﴿**لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿7﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿8﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿9﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿10﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿11﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿12﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿13﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿14﴾﴾.

يزجر الله عز وجل المكذبين بالبعث والعاملين بالظلم كأنه لا بعث، يزجرهم عما يقولون ويفعلون من الظلم، ويقرر أن البعث كائن والجزاء حاصل والعمل محصى.

فكتاب الفجار الذين مالوا عن التوحيد فكانوا مشركين مكذبين بالبعث، والذين فسقوا عن طاعة رب العالمين فكانوا من العاصين المجرمين إن كتابهم لفي الأرض السابعة السفلى، فأعمالهم كانت سافلة في الدنيا فكان كتابهم سافلا بعد موتهم، وذلك أن الكافر إذا قُبضت روحه ثم عُرِج به إلى السماء الدنيا لا يُفتح له، ويقول الله عز وجل: **اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى**، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ويوجه الله الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ**﴾؛ أي: وأي شيء أدراك يا محمد ذلك الكتاب؟ وهذا على وجه التعظيم لسفل ذلك الكتاب، وإلا فمحمد عليه صلى الله عليه وسلم عربي، وسجين كلمة عربية فلما سمعها فهمها صلى الله عليه وسلم، ولكن قول الله عزوجل: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ**﴾ من باب التعظيم لسفل وضيق ذلك الكتاب.

وإذا قيل في القرآن: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فهذا إعلام أن البيان يتلو ذلك دائما، إذا قرأت في القرآن ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فاقرأ ما بعده فإنه بيان ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴿1﴾ **وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴿2﴾﴾ [القدر: 1-2] إذا أردت أن تعرف ليلة القدر فاقرأ ما بعدها ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ [القدر: 3] إلى آخر السورة وهكذا، إذا قرأت في القرآن ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ فاقرأ ما بعدها فإنه بيان.

إذن: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ إعلامٌ بأن البيان يتلو ذلك.

﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ**﴾ إنه كتاب مكتوب بعدل، لا ينقص منه ولا يزاد فيه.

ثم يتوعد الله عز وجل المكذبين بالبعث ويوم القيامة وما فيه من الجزاء بالعذاب الشديد.

ويبين ربنا سبحانه وتعالى أنه ما يكذب بيوم الدين -بيوم الجزاء والحساب- إلا كل معتد على الله عز وجل في قوله فهو مكذب لقول الله، ولا أعظم اعتداءً ممن كذب كلام الله، وهو معتد أيضا على حق الخلق كالمطففين، فالمكذب بيوم الدين معتد دائما.

ولا تنتظر من كافر عدلا وإنصافا وإنما يكون عدله وإنصافه بحسب مصلحته الدنيوية فما يكذب بيوم الدين إلا كل معتد شديد الاعتداء حيث يعتدي على الله بتكذيب كلامه، ويعتدي على خلق الله بتضييع حقوقهم.

أثيم: صاحب إثم كثير بمعاصيه، إذا تتلى عليه الآيات من القرآن لا ينتفع بها ولا يسلم لها، وإنما يقول: إنها حواديث الأولين، وأخبار الماضين التي لا حقيقة لها، وإنما هي أباطيل وأكاذيب، وإنما سطرت في الكتب ولا حقيقة لها.

وليس الأمر كما يقولون ويفترون، ولكن غلب على قلوبهم وغطاها ما كانوا يعملون من الذنوب، حتى أصبحت لا تقبل حقا ولا ترد باطلا، فأظلمت قلوبهم بسواد ذنوبهم، فأصبحت لا ترى النور ولا تقبل النور.

القرآن لو أُنزل على جبل لتصدع، وفيه الحق المبين ولكن هؤلاء لا ينتفعون بالقرآن، وإذا سمعوه قالوا: أساطير الأولين، وهم يعلمون أنه ليس كذلك، لكن غطت ذنوبهم قلوبهم حتى أظلمت فأصبحت لا ترى نورا ولا تقبل نورا.

وفي هذا بيان أن من سوء الذنوب أنها تغطي القلوب، حتى يصبح القلب لا يقبل الحق، ولذلك من أعظم أسباب رد الحق: الذنوب، فإن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب منها ونزع صُقِل منها، وإن زاد زادت حتى ترين على قلبه، ولذلك إذا وجدت الرجل لا يسلم للحق ولا يقبل الحق فاعلم أنه صاحب ذنوب، أظلم قلبه بها والعياذ بالله.

ثم نعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما ذكره الشيخ.

قال رحمه الله تعالى: يقول تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾.

(كلا) كما تقدم مرارا **قال بعض المفسرين**: هي كلمة ردع وزجر عن الباطل ويتلوها تقرير للحق.

وقال بعضهم: هي نافية ومعناها: ليس الأمر كذا.

وقال بعض المفسرين: معناها: حقا، فالذي بعدها حق ويقين

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾.

﴿**كتاب الفجار**﴾ **قال بعض المفسرين**: هو الكتاب الذي كتبت فيه أعمالهم.

وقال بعض المفسرين: هو الكتاب الذي كتبت فيه أسماؤهم، فأسماء أهل النار مكتوبة في كتاب، ومن كُتب اسمه في ذلك الكتاب فإن مصيره إلى النار.

إذن ﴿**كِتَابَ الْفُجَّار**﴾ قال **بعض أهل العلم بعض المفسرين**: هو كتاب أعمالهم الذي كُتبت فيه أعمالهم، **وقال بعض المفسرين**: هو الكتاب الذي كُتبت فيه أسماؤهم، ذلك الكتاب الذي من كان اسمه فيه كان من أهل النار.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾ وهذا شامل لكل فاجر من أنواع الكفرة والمنافقين والفاسقين.

على أن (ال) للجنس، فهو يشمل كل فاجر.

والفاجر: إما المائل عن التوحيد للشرك وهو الكافر، وإما الفاسق الذي خرج عن الطاعة إلى المعصية.

وقال بعض المفسرين: (ال) هنا للعهد الذين يُتحدث عنهم وهم المنكرون للبعث الكفار المنكرون للبعث.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾.

﴿**لَفِي سِجِّينٍ**﴾ سجين فعِّيل من السجن: أي: في مكان ضيق، وهي الأرض السابعة كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح، فهذا المكان جمع بين غاية السفل وغاية الضيق، فهو ضيق كما يدل على ذلك كلمة سجين، وهو في أسفل سافلين في الأرض السابعة.

وقال بعض المفسرين: ﴿**سِجِّينٍ**﴾ هي جهنم، فكتابهم في سجين.

وقال بعض المفسرين: ﴿**سِجِّينٍ**﴾ بئر في جهنم مكشوف.

وعلى هذه الأقوال ﴿**سِجِّينٍ**﴾ هو مكان، والأول منها هو الأولى؛ لأنه جاء في الحديث الصحيح: يعني في الأرض السابعة، وكلمة سجين تدل على ضيقه.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**لَفِي سِجِّينٍ**﴾ لفي خسارة وضلال، فكتابهم ما فيه إلا الخسارة والضلال؛ لأنهم كفار والكافر مالو حسنة في الآخرة، فهذا وصف لأعمالهم على هذا القول، ﴿**سِجِّينٍ**﴾ وصف لأعمالهم على هذا القول.

وقال بعض المفسرين: ﴿سِجِّينٍ﴾ هو اسم الكتاب الذي كتبت فيه أسماء أهل النار، اسمه سجين.

﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾.

﴿وما أدراك﴾ يعني: وأي شيء أدراك يا محمد؟ من باب تعظيم سفل هذا الكتاب وضيقه.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوب كتابة عدل ثابتة حروفه، فلا ينمحي منه شيء ولا يزاد فيه ولا ينقص.

الكتاب المرقوم: هو المكتوب كتابة ثابتة محفوظة، فهو لا تمحى حروفه، ومحفوظ لا يزاد فيه ولا ينقص منه.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ أي كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة. وسجين المحل الضيق الضنك، وسجين ضد عليين الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي ،وقد قيل: إن سجين هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم.

حيث تكون النار، قالوا النار تكون في الأرض السابعة هذا معنى كلام الشيخ.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثم بينهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله.

كل معتد؛ أي: شديد الاعتداء، شديد الاعتداء على الله بالتكذيب وعلى محارم الله وعلى حقوق خلق الله.

معتد على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام، ﴿أَثِيمٍ ﴾ أي: كثير الإثم.

أثيم فعيل؛ أي: كثير الإثم.

وقال بعض المفسرين: معتد أي: في أفعاله، فأفعاله فيها اعتداء، أثيم أي: في أقواله فهو كذاب أشر؛ فأفعاله فيها اعتداء، وأقواله فيها إثم أي كذب.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم، فهذا يحمله عدوانه على التكذيب، ويوجب له كبره رد الحق، ولهذا إذا تتلى عليه آيات الله الدالة على الحق وعلى صدق ما جاءت به الرسل كذبها وعاندها وقال: هذه أساطير الأولين.

أساطير يعني: ما يُسطر في الكتب من الأكاذيب والأباطيل، الأسطورة ليس الشيء العظيم كما يظن بعض العامة، **الأسطورة**: ما يُسطر في الكتب من الأكاذيب والأباطيل.

وقال: هذه أساطير الأولين أي: من تُرَّهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله تكبرا وعنادا، وأما من أنصف وكان مقصوده الحقَّ المبين فإنه لا يُكذِّب بيوم الدين؛ لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار، بخلاف من ران على قلبه كسبه وغطته معاصيه فإنه محجوبٌ عن الحق.

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿15﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿16﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (17)﴾.

يعني: أنه ليس الأمر كما يقول هؤلاء الكفار أنهم لو بُعثوا لكان لهم عند الله الحُسنى والقُربى، بل لهم الذلة والخزي عند بعثهم، بل ﴿**إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**﴾ فهم محجوبون عن رؤية ربهم، ولا ينظر إليهم ربهم نظرة رحمة، فيجمع الله عز وجل عليهم عذاب الخوف الشديد في ذلك اليوم، وعذاب الحجب عن رؤيته، وعذاب المنع من رحمته، يجمع الله عليهم في ذلك اليوم عياذًا بالله من سوء الحال عذاب الخوف الشديد في ذلك اليوم، وعذاب الحجب عن رؤيته، وعذاب المنع من رحمته سبحانه وتعالى.

وفي هذا دلالة على أن المؤمنين يرون ربهم في ذلك اليوم، فلما كان من عقوبة أهل السخط الحجب عن رؤية الله، كان من نعيم أهل الرضا رؤية الله سبحانه وتعالى، وسيأتي في شأن الأبرار هذا.

ثم إنهم بعد هذا حيث ينالهم الخوف الشديد والحجب عن رؤية الله وهو أشد عليهم من ذلك الخوف والمنع من رحمة الله، ثم بعد ذلك إنهم لداخلوا النار شديدة الحر، شديدة العذاب، بعيدة القعر، فيأتيهم لهبها من كل مكان، ويصيبهم عذابها من كل مكان.

ثم يُقال لهم وهم في الجحيم: هذا العذاب الذي دخلتموه هو الذي حُذّرتم منه في الدنيا فكذبتم ولم تؤمنوا به، فيكون ذلك تبكيتًا لهم، فيُجمع لهم في عذاب جهنم بين العذاب

الجسدي والعذاب النفسي بهذا التبكيت الذي يُقال لهم، ففي هذا زيادةٌ في نكالهم وزيادة في عذابهم والعياذ بالله.

ثم نعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: ولهذا جُزيَ على ذلك بأن حُجِب عن الله كما حُجب قلبه في الدُّنيا عن آيات الله.

فلا يرى الله كما أنه في الدنيا لم ير آيات الله جزاء وفاقًا، والمؤمن كما أنه في الدُّنيا رأى آيات الله واستسلم لها فإنه في الآخرة يرى الله سبحانه وتعالى.

ثم إنهم مع هذه العقوبة البليغة لصالوا الجحيم.

﴿**لَصَالُواْ**﴾ أي: لداخلوا، ﴿**الْجَحِيمِ**﴾ يعني: النار شديدة الحرارة، عظيمة العذاب بعيدة القعر فيأتيهم لهبها من كل مكان.

ثم يُقال لهم توبيخًا وتقريعًا ﴿هذَا الَّذي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبونَ﴾.

يعني هذا العذاب الذي ذُكر لكم في الدنيا، وحُذّرتم منه فكنتم تكذبون به، وقد دخلتموه.

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب عن رب العالمين المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودلَّ مفهوم الآية أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه كما ذكر الله ذلك في عدّة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله ﷺ.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتنقلب عليه الحقائق فيرى الباطل حقًّا والحقَّ باطلا، وهذا من أعظم عقوبات الذنوب.

ولذلك ينبغي أن يعتني طالب العلم بالبعد عن المعاصي، فإن المعاصي تؤثر في قلبه فيكسل عن طلب العلم، ولا يفهم إذا حضر، ولا ينتفع إذا علم، فإذا أراد طالب العلم أن يُحصّل

العلم وأن يفهم العلم وأن ينتفع بالعلم فليجلوا قلبه عن أثر المعاصي بالبعد عن المعاصي والتوبة من الماضي.

الحمد لله الذنب ليس أمرًا لاصقًا بالإنسان لا يستطيع أن يتخلص منه، مهما فعل من الذنوب سابقًا يستطيع أن يتوب صادقًا فإذا بها تُزال، ويبتعد عن الذنوب ويبتعد عن أهل الذنوب سيجد همّة عالية في طلب العلم وتحصيلاً وجمعًا للعلم، وفهمًا للعلم، ويرزقه الله من الفهم والبيان عن ذلك الفهم ما يفوق به غيره.

فوصيتي لنفسي ولطلاب العلم الحرص على تخليص النفس من الذنوب السابقة بتوبة صادقة، والحرص على مجانبة الذنوب ومجاهدة النفس في هذا الباب، فإن الذنوب من أعظم العوائق عن تحصيل العلم وفهمه، ومن وفقه الله ليتخلص من الذنوب فقد وفقه لأعظم سبيل لتحصيل العلم وفهمه والانتفاع به.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿18﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿19﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ ﴿20﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿21﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿22﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿23﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿24﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿25﴾ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿26﴾ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿27﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿28﴾﴾.

بعد أن بيّن ربنا سبحانه وتعالى مقام الفجار وهوانهم عند الله عز وجل يوم القيامة، وبدأ بهم؛ لأن الحديث عنهم لا تشريفا لهم، بين سبحانه مقام الأبرار، وزجر المفترين الكذب المنكرين للبعث عما يقولون من الكذب والافتراء، وبين سبحانه أنه ليس الأمر كما يقولون أن العزة والحسنى لهم عند الله لو بعث الله عز وجل العباد، بل العزة والمكانة العلية والحسنى عند الله عز وجل يوم القيامة للأبرار، الذين كثر خيرهم وعظم تباعدهم عن الشر، فأطاعوا الله على نور من الله، يرجون ثواب الله، وتركوا معاصي الله على نور من الله يخافون عذاب الله، فبين الله عز وجل علو قدرهم يوم القيامة من جهة كتابهم، ومن جهة حالهم.

فكتاب أعمالهم في علو مكانة ومكانا، فكتاب الأبرار الذي كتبت فيه أعمالهم في علو عظيم فهو في السماء السابعة، في الجنة قرب عرش الرحمن سبحانه وتعالى، وهو عالي المكانة، كما سيأتي بيانه في الآيات التالية.

ويعظِّم الله عز وجل كتاب الأبرار بتوجيه الخطاب لسيدهم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ يعني: وأي شيء أدراك يا نبينا ما عليون؟ ما مكانة ومكان هذا الكتاب، تعظيما له، وتفخيما لشأنه وبيانا لشدة علوه.

إنه ﴿**كِتَابٌ مَّرْقُومٌ**﴾ لا ينمحي حرفه، ولا ينقضي فضله، فالله عز وجل جعل فيه للأبرار فضلا، فلم تكتب فيه الحسنة بحسنة، بل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، وهو محفوظ لا ينقص منه شيء.

ومع علو مكانه فإن له علو المكانة حيث يشهده المقربون من أهل السماء، يشهده المقربون من الله سبحانه وتعالى، من أهل السماء وهم الملائكة ويشهدون عليه، فيحضره المقربون من الملائكة، ويشهد عليه المقربون من الملائكة.

ثم بين الله عز وجل العزة للأبرار يوم القيامة في الحال، وأنهم في نعيم دائم لا ينقطع زمنا ولا يكدر حالا، بل سرورهم ممتد بلا نهاية، وتام بلا نقصان، ومتجدد فلا يمل منه، كلما أوتوا شيئا منه كأنهم يرزقونه لأول مرة، فهو نعيم دائم شامل للأرواح والأجساد، فقلوبهم وأرواحهم في سرور ونعيم، وأجسادهم في نعيم عظيم.

ومن نعيمهم أنهم على السرر المرفوعة في الحلل واللباس من اللؤلؤ والياقوت، يجلسون على أسِرَّة لها سقف خاصة بها، مثل المظلة فوق السرير ترفيها وتنعيما، ينظرون وهم على تلك السرر إلى ما يزيدهم سرورا ويسعد قلوبهم مما أعطاهم الله من الكرامة والنعيم في الجنة مما لا ينتهي الطرف إليه، وأعظم سرورهم بالنظر في الجنة هو نظرهم إلى وجه ربهم سبحانه وتعالى.

وهذا النعيم الذي أكرمهم الله به أثر حتى في أجسادهم، فأصبحت لو نظرت إلى الواحد منهم ترى في وجوههم صفة النعيم، فترى في وجوههم نعومة ونضارة وبهاء وجمالا.

ومن باب التقريب وإلا فلا يداني هذا هذا في الدنيا إذا نظرت إلى من عاش في الترف والأموال والغنى وتربى في ذلك ترى في وجهه نضرة، وترى كما يقولون الدم كأنه سيخرج من خديه من النعيم الذي أثر فيه، في الجنة يصل النعيم أن يؤثر في أجساد أهل الجنة، فإذا نظرت إلى وجههم وجدت النعيم ظاهرا فتجد صفة النعيم، وهذا يدخل النعيم أو يدخل السرور على قلبك، إن نظرت إليهم فهذا يريح القلب وهم قد ظهر أثر النعيم في وجوههم.

ومن نعيمهم العظيم أنهم يسقون خمرا صافية محفوظة لا غش فيها ولا ضرر فيها، يسقيهم ولدان مخلدون على أجمل هيئة وبأحسن آنية، يسقونهم تلك الخمر، وذلك الخمر طيب المادة طيب الرائحة، فطعمها طيب وريحها طيب ويعقبها ريح طيب، وهذا كله عكس حال الخمر في الدنيا، فحال الخمر في الدنيا أن طعمها خبيث، وأن ريحها خبيث، وأنه يعقبها في فم شاربها رائحة خبيثة مع ما يحصل لشاربها بعد فراغه من شربها من صداع وغثيان وغير ذلك، أما خمر الآخرة فمسلمة من كل هذا، نعيم خالص.

وإذا علم العقلاء من أمثالكم هذا النعيم فإنّ شأنهم والمرجو منهم أن يتنافسوا في تحصيل هذا النعيم، وفي إدراك هذا النعيم، ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**﴾، وليتسابق المتسابقون في تحصيل ذلك النعيم.

﴿**وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ**﴾ أي: أن ذلك الخمر يخلط بماء أو شراب ينزل عليهم من فوق من أعلى الجنة من الفردوس الذي هو أعلى الجنة، من عين يشرب منها المقربون، أهل الفردوس يشربون منها مباشرة، والمعلوم يا إخوة أن الفردوس أوسط الجنة وأعلى الجنة، ومنه تتفجر أنهار الجنة كما ثبت ذلك في صحيح البخاري، فأهل الفردوس هم المقربون يشربون من تلك العيون مباشرة، وأما من دونهم فإنه ينزل إليهم من شرابها ومائها، فيخلط به شرابهم، وهذا من أعظم النعيم في الجنة، وفي هذا حث على أن يتسابق المسلمون والمؤمنون ليس إلى الجنة فقط وإنما إلى الفردوس الأعلى، حتى يصبحوا من المقربين الذين يشربون من العيون من عيون الجنة بجميع شرابها مباشرة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس الأعلى**)).

وإذا طلبتم يا معاشر المؤمنين الجنة فلتكن غايتكم منها أعلاها بإحسان العمل، ولن يحسن العمل إلا بتمام الإخلاص لله وتحقيق الاتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلما صفا إخلاصك لله وحققت في فعلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ذلك أدعى لأن تكون من المقربين الذين ينعم الله عز وجل عليهم بالفردوس الأعلى.

هذا التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات ونعود إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما كتبه الشيخ.

قال الإمام عبد الرحمن الناصر السعدي رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له ولشيخنا ولسامعين: لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها وأفسحها.

الله عز وجل قال: (كلا)، و(كلا) هنا:

- تأتي وتحتمل أن يكون المراد حقا، حقا إن كتاب الأبرار لفي عليين، يقينا لا شك فيه، حقا.
- وتحتمل أن يكون المراد بها الردع والزجر عما يفتريه الكفار من الأقاويل.
- ويحتمل أن يكون المراد بها هنا النفي، أي: ليس الأمر كما يزعم الكفار أن لهم الحسنى والعزة عند الله لو كان هنالك بعث، بل الحسنى والعزة للأبرار عند الله يوم القيامة.

وكل هذه المعاني يصلح أن تقال هنا، يصلح أن تكون (كلا) بمعنى حقا ويستقيم الكلام، ويصلح أن تكون بمعنى الردع والزجر عما يفتريه الكفار ويستقيم الكلام، ويصلح أن تكون بمعنى النفي لما يقولون ويقوله الكفار ويستقيم الكلام.

﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ﴾ الكتاب هنا كما تقدم في كتاب الفجار:

- قد يكون المراد به كتاب أعمالهم، الكتاب الذي كتبت فيه أعمالهم مرفوع قدرا ومكانا.
- وقد يكون المراد به الكتاب الذي كتبت فيه أسماء أهل الجنة، فمن كتب فيه اسمه فهو من أهل الجنة.

﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ **قال بعض أهل العلم**: عليون هي السماء السابعة.

وقال بعض أهل العلم: هي الجنة، ولا تضاد بين هذين المعنيين، فإن الجنة في السماء السابعة، فيكون القول الثاني تعيينا للمكان الذي في السماء السابعة.

وقال بعض المفسرين: قرب عرش الرحمن، وهذا أيضا لا يضاد ما تقدم؛ لأن سقف الفردوس الأعلى الذي هو أعلى الجنة عرش الرحمن سبحانه وتعالى، فيكون على هذا يكون كتابهم في السماء السابعة، وفي الجنة منها، وفي أعلى الجنة قرب عرش الرحمان.

وقيل: عند سدرة المنتهى، وهو أيضا قريب مما تقدم.

وقال بعض أهل العلم: (عليون) يعني ليس علوا واحدا، بل علوٌ يصحبه علوٌ يصحبه علوٌ ليس علوا واحدا، فهو:

- **علو المكان** قرب عرش الرحمن في الجنة.
- **وعلو المكانة** يشهده المقربون من ملائكة السماء.
- **وعلو الفضل** ففيه الفضل للمؤمنين؛ فهو ليس علوا واحدا.

وقال بعض المفسرين: (عليون) يعني أن هذا اسم الكتاب الذي تكتب فيه أسماء أهل الجنة، ما اسم الكتاب الذي تكتب فيه أسماء أهل الجنة؟ قالوا: عليون.

وقال بعض المفسرين: عليون هنا معناها الفوز والربح، ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ يعني: لفي فوز وربح وفلاح عظيم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ أي: أي شيء أدراك يا محمد ما عليون؟ لا تسأل عن علوه، فعلوّه لا يدرك منتهاه إلا الرحمن سبحانه وتعالى.

وأن كتابهم المرقوم ﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ مرقوم كما قلنا مكتوب بحيث لا ينمحي حرفه، الرقم هو إظهار الحرف وبقاؤه بحيث لا يزول، ومحفوظ بحيث لا يفقد منه شيء، وفيه فضل الله -وهذا زائد على كتاب الفجار- فيه فضل الله على المؤمنين، فليس ككتاب الفجار.

كتاب الفجار مبني على العدل، أما كتاب الأبرار فمبني على الفضل، على فضل الله سبحانه وتعالى.

المؤمن يوم القيامة إذا صلى صلاة لا يجد صلاة بصلاة -هذا العدل-، لا، أقل مؤمن قبلت صلاته يجد صلاته بعشر صلوات، ومنهم من يجدها بمائة، ومنهم من يجدها بأكثر، والله يضاعف لمن يشاء.

﴿يَشْهَدُهُ﴾ **قال بعض المفسرين**: يعني يحضره، لشرفه يحضره المقربون، ولم يذكر هذا في كتاب الفجار.

وقال بعض المفسرين: ﴿يَشْهَدُهُ﴾ أي: يشهد عليه المقربون من الله عز وجل، وهم المقربون من الملائكة في كل سماء، فكل سماء فيها أعداد لا تحصى من الملائكة، والملائكة يفضل بعضهم بعضا، والذين يشهدون على كتاب الأبرار هم المقربون من ملائكة الرحمن عليهم السلام أجمعين.

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، وينوّه الله بذكرهم في الملإ الأعلى، وعليون اسم لأعلى الجنة.

فلما ذكر كتابهم ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

من أين أخذ هذا الشيخ؟ أخذه من حذف المتعلَق ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ نعيم لماذا؟ لأبدانهم؟ ما حُدد، لقلوبهم؟ ما حُدد، لأرواحهم؟ ما حُدد، فيعم، إذا حذف المتعلق فإنه يعم فهم في نعيم في جميع أمورهم: أرواحهم منعمة، قلوبهم منعمة، أبدانهم منعمة نعيما دائما.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: على السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾: جمع أريكة، والأريكة عند العرب سرير خاص، وهو كما قلت لكم السرير الذي يكون له سقف، يكون له مظلة، فليس مكشوفا وإنما فوقه مظلة، وهذا فيه زيادة نعيم.

وهذا السرير فيه الفُرُش التي فيها النعيم المقيم، وفيه الوسائد المصفوفة الناعمة، وأهله عليه في الألبسة الفاخرة والحلي من اللؤلؤ والياقوت، فهم في غاية الترفه في الجنة.

ينظرون إلى ما أعد الله من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم*.

كما قلنا سابقا في النعيم نقول هنا: ﴿**عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ إلى ماذا؟ حُذِف المتعلق، وهذا يقتضي التعميم، ينظرون إلى كل ما يزيدهم نعيما وسرورا إذا نظروا إليه، فينظرون إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وإلى خدمهم، وإلى زوجاتهم في الجنة وما فيهن من الحُسن، وإلى إخوانهم يقابلونهم على الأسرّة، ليس في قلوبهم ذرة حقد ولا حسد، وأعظم سرورهم بنظرهم إلى وجه ربهم الكريم.

﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر.

تعرف أيها الناظر إذا كنت من أهل الجنة، ستنظر إليهم وينظرون إليك، فإن نظرت إليهم رأيت في وجوههم صفة النعيم، فقد تأثرت أجسادهم بالنعيم، وإذا نظروا إليك رأوْا في وجهك صفة النعيم، فقد تأثر جسدك بنعيم الجنة.

﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي: بهاءة ونضارته ورونقه.

وهذه هي صفة النعيم: البهاء والرونق والجمال، والمقصود: أن النعيم يؤثر فيهم حتى يظهر على وجوههم، ويرى في وجوههم.

فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح، يكسب الوجه نورا وحسنا وبهجة.

ولا شك في هذا، الآن أنت ترى الرجل فتقول: هذا فلاح، أو هذا حداد، لما ترى في يديه من الخشونة والتشققات تعرف أنه يعمل بيده ويكدح وفي شقاء، وترى آخر فتقول: هذا موظف، وترى آخر فتقول: هذا من الأثرياء لما ترى يده ووجهه فيه من النعومة والطراوة، فتوالي السرور والملذات يكسب الجسد نضارة وطراوة ولينا، فكيف بنعيم الجنة الذي لا يدانيه نعيم؟!

يا أحبتي؛ نعيم الجنة كل نعيم الدنيا لا يساوي قطرة من نعيم الجنة، لو أن الإنسان في الدنيا أوتي كل نعيم متصوَّر في الدنيا، كل هذا لا يساوي قطرة واحدة من نعيم الجنة، لا شك أن لهذا النعيم تأثيرا عظيما في أجساد أهل الجنة.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾.

(الرحيق) **قال أكثر المفسرين**: هو الخمر، من أسماء الخمر الرحيق.

وقال بعض المفسرين: هي عين في الجنة شرابها له رائحة كالمسك.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مَّخْتُومٍ﴾ ذلك الشراب، ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

فمعنى مختوم على هذا مغطى بغطاء يمنع أن يخالطه غيره، وهذا الغطاء من المسك، وهذا معنى قول بعض المفسرين: مطين.

أصحاب الخمر إذا أرادوا أن يضمنوا أنه لا يخلطه شيء يطينونه بطين من فوق، يغطونه بطين، واليوم حتى في غير الخمر إذا أرادوا أن يضمنوا أنه غير مخلوط وغير مغشوش وكذا الغطاء يكون له مثل الأمان، فتسمع له صوتا، إذا فتحته إذا لم تسمع هذا الصوت معناه أنه مفتوح أو فيه غش، فهذا هو المقصود عندما يقول بعض المفسرين يعني: مختوم يعني مطين، يعني أنه مغطى بما يضمن أنه لا يخلطه شيء، ولكن غطاءه من المسك.

فمعنى مختوم مغطى.

قال: ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة وهي المسك الأظفر.

فمعنى ختامه آخره، على المعنى الأول ختامه يعني: غطاؤه، على هذا المعنى ختامه يعني: آخره مسك، فهو خمر ثم يبقى في آخر الإناء شيء هو من المسك الخالص، فيختمون شرب الخمر بشرب هذا المسك الذي تطيب به الرائحة، فخمرهم مخلوط بمسك مختوم بمسك، مخلوط بمسك، فرائحته رائحة المسك، وآخر ما يبقى فيه من الإناء ويشرب هو من المسك، وعلى هذا معنى ﴿**خِتَامُهُ**﴾ أي: آخره.

قال: ويحتمل أن المراد أنه الذي يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأظفر، فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق يكون في الجنة بهذه المثابة.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله، ﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه.

وليرغبوا فيه وليطلبوه.

والتنافس **قال بعض أهل العلم**: أصله من النفيس: وهو الشيء الغالي الذي يضِن به أصحابه عن غيرهم، ويحتفظون به لأنفسهم.

دائما عادة الإنسان أن الشيء الغالي يحافظ عليه، مثلا: في المكتبة عند طالب العلم كل الكتب عند طالب العلم غالية، لكن هناك كتب تكون نفيسة عنده غالية تجده جاعلها في مكان خاص لا يصل إليه كل أحد.

فقال بعض أهل العلم: التنافس أصله من الشيء النفيس؛ أي: الغالي الذي يضِن به صاحبه أن يصل إليه غيره، والمقصود: أن يسعى كل واحد أن يحصل على هذا الشيء الغالي النفيس.

وقال بعض أهل العلم: التنافس أصله من النفس، كأن المتنافسين يتسابقون حتى يشتد نفسهم، والإنسان إذا اشتد عدوه يشتد نفسه، فهو كناية عن سرعة العدو للسبق، يسرع سرعة شديدة حتى يتعالى نفسه من السرعة حتى يُحَصل هذا المقام العظيم.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: فليتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس وأحرى ما تزاحمت للوصول إليه فحول الرجال.

ومِزاج هذا الشراب من تسنيم.

(المزاج) كما قلنا: هو الذي يُمزج به يُخلط به، فالشراب الذي يُخلط به الخمر أو الماء الذي يُخلط به الخمر من تسنيم.

وتسنيم **قال بعض العلماء**: هو الإجراء من فوق، فالتسنيم يدل على العلو، ومنه سنام البعير، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: **((ذروة سنامه الجهاد))** يعني: ذروة أعلاه.

فمعنى (تسنيم): أنه ماء يجري من فوق، أي: أنه يتفجر من الفردوس الأعلى، وجميع شراب الجنة يتفجر من الفردوس الأعلى، فأصل أشربة الجنة في الفردوس الأعلى.

وقال بعض أهل العلم: تسنيم اسم العين التي يشرب بها المقربون، اسمها تسنيم.

وقال بعض المفسرين: تسنيم هو الماء الصافي العذب.

ولا مانع من الجميع، فالعين اسمها تسنيم؛ لأنها عالية، وماؤها يجري إلى أهل الجنة من فوق، وماؤها صافي نقي عذب، هذا معنى تسنيم.

ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين يشرب بها المقربون صرفا.

طيب انظر قال الله عز وجل: ﴿**عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ**﴾ العين يُمكن يُشرَب بها؟ يعني تأخذ العين وتحملها وتَشرَب؟

لا؛ طيب لم قال الله: عينا يشرَبُ بها؟

قال بعض المفسرين: (بها) معناها منها، وهذا من تعاور حروف الجر، يعني يحل بعضها محل بعض في المعنى، قالوا: إذن معنى يشرب بها أي يشرب منها.

وقال بعض أهل العلم: الشُرب هنا ضُمّنَ معنى الرِيِّ فصارت كأنها يُروى، يشرب بها، يشرب صارت كأنها يُروى، يُروى بها المقربون، ليس كل من شَرِب رَوِيَ، قد يشرب الإنسان ولا يَروى، أما شراب الجنة فإنهم يشربون ويُروون بهذا الشراب، فضُمن يشرب الرِيَّ، ما الذي دل على هذا التضمين؟

قول الله عز وجل: ﴿**بها**﴾ فعلمنا أنه شراب وزيادة وهو أنه شراب مُرويّ.

﴿يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ صِرفا، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين؛ أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

قلنا يا إخوة إن المقربين يشربون من أصل العيون؛ لأن المقربين هم أهل الفردوس الأعلى، فيشربون من أصل عيون الجنة، ثم هذه العيون تسيل إلى من هم دون المقربين فيخلطون شرابهم منها؛ الخمر ونحو ذلك، فأعلى من يتنعم بشراب الجنة هم المقربون؛ لأنهم يشربون من الأصل ثم من دونهم ثم من دونهم.

وكما ذكرت لكم مرارا وتكرارا: ليس في الجنة نقصٌ وإنما في الجنة كمال، درجات الجنة يا إخوة تفاضلٌ في الكمال لا يستلزم نقصا، فكل من في الجنة منعم حتى آخر أهل الجنة دخولا مُنعم، لكن هناك من هو أعلى منه، أكمل منه.

طيب يقول قائل منكم: العادة أن الإنسان إذا رأى من هو أعلى منه يقع في قلبه شيء حتى لو لم يحسده، يقع في قلبه شيء، نقول: هذه نوزعت من قلوب أهل الجنة؛ لا توجد هذه في قلوب أهل الجنة، فهم يتفاضلون في كمال النعيم تفاضلا لا يستلزم نقصا ولا يولد ألما.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم ووالدينا أجمعين ومن نحب من أهل كمال النعيم في الجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿29﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿30﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿31﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿32﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿33﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿34﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿35﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿36﴾﴾.

سبحان الله! يبين الله عزوجل حال أهل الإجرام مع حال أهل الإسلام في الدنيا وانقلاب الحال في الآخرة.

فيبين الله عزوجل أن المجرمين المنكرين للبعث الكفار كانوا في الدنيا يضحكون من المؤمنين، ويستهزئون بالمؤمنين وبتصديقهم النبي صلى الله عليه وسلم وبإيمانهم بالبعث والجزاء وبعملهم بالدين، ويستهزئون بهم.

وهذا يدل على أن المستهزئين بأهل الدين هم مجرمون، فإذا كان الاستهزاء بهم من أجل دينهم فإنه كفر مخرج من ملة الإسلام.

وإذا مر المؤمن بأولئك المجرمين أخذ كل واحد منهم يغمز لصاحبه ويشير بعينه استهزاء به واستحقارا له وسخرية منه، وإذا مر أولئك المجرمون بمجالس المؤمنين أخذ أحدهم يغمز للآخر بعينه ويشير بعينه، فهم يستهزئون بالمؤمنين سواء مر المؤمنون بهم أو هم مروا بالمؤمنين، فشأنهم هو الاستهزاء بالمسلمين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم.

وكان هؤلاء المجرمون إذا انصرفوا إلى أهلهم انصرفوا معجبين بأنفسهم وما هم فيه من أمور الدنيا وقوة الدنيا وتنظيم الدنيا وغير ذلك من أمور الدنيا، ومسرورين بحالهم، ومنعمين بنعم الله، ما أحدثوا نعمهم بأنفسهم، المنعم هو الله، وهم ينقلبون متنعمين بنعم الله في بيوتهم، ومع ذلك لا يشكرون الله، بل يكفرونه ويستهزئون بعباده، ما كفاهم أنهم لا

يشكرون الله على النعم، بل يكفرون، بل زادوا سوءا أنهم يستهزئون من عباد الله الشاكرين، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

وإذا رأى أولئك المجرمون المسلمين وما هم عليه من التمسك بالدين قالوا: إن هؤلاء لضالون ضائعون تائهون عن طريق الحق وجادة الصواب، والحق أنهم ما بعثوا حافظين على المؤمنين، وما خلقهم الله عز وجل ليراقبوا المؤمنين في أعمالهم ويحاسبوا المؤمنين على أعمالهم، وإنما خلقهم ليعبدوه، فتركوا ما خلقوا من أجله، واشتغلوا بما لم يكلفوا به، الله خلقهم ليعبدوه فما عبدوه، والله عز وجل ما خلقهم ليراقبوا عباده فراقبوا عباده، فتركوا ما خلقوا له، واشتغلوا بما لم يخلقوا به، هذه الحال في الدنيا.

أما الحال يوم القيامة فإنها منقلبة، ففي يوم القيامة يضحك المؤمنون من الكافرين، يضحكون مما هم فيه من النكال والذلة والهوان جزاء وفاقا، فالضحك في الدنيا قد يكون للكافرين، الضحك في الدنيا الفانية قد يكون للكافرين، أما الضحك في الآخرة الباقية فهو يقينا للمؤمنين، فالمؤمنون يوم القيامة يقينا يضحكون من الكفار ومما هم فيه من الهوان، يضحكون وهم في النعيم المقيم، وهم على سرر الترفه والتنعم، ينظرون إلى الكافرينَ وما يصيبهم في النار.

ومن نعيم أهل الجنة أنه إذا أراد أحدهم أن يرى كافراً بعينه في النار وما هو فيه من العذاب جعله الله يطلع عليه، حتى ذكر بعض السلف أن هنالك مثل النوافذ لأهل الجنة في الجنة، إذا أراد المؤمن أن يطلع على الكفار فتحت هذه الكوة فيرى الكفار وما هم فيه من العذاب، ولو أراد أن يرى كافرا بعينه مثل أن كافرا كان يؤذيه بعينه في الدنيا، وأراد أن يراه في النار بعينه فإن الله يجعله يطلع عليه، فيراه ويضحك من حاله ويضحك من هوانه.

فسبحان الله! أهل الجنة على الأرائك ينظرون في حالين عظيمين:

- ينظرون إلى ما يسرهم ويتنعمون به من زوجاتهم وما أوتوا من الحلل، وما أوتوا من الغلمان والخدم، وما يرونه أمامهم من النعيم، وأعظم نعيمهم رؤيتهم ونظرهم إلى الله هذه من حال وجهة.

- ومن جهة أخرى وهم على أرائكهم أيضا ينظرون إلى الكافرين وما هم فيه من العذاب، فيضحكونَ من هوان الكفار الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا، ويضحكون أن الله سلمهم من هذه الحال، ويعظم النعيم إذا رأى الإنسان حال من فقد ذلك النعيم.

ولذلك إذا أراد الإنسان أن يعرف عظيم نعم النعمة التي هو فيها فلينظر إلى من فقدها، سيرى أن النعمة التي هو فيها مع ما فيها من نقص نعمه عظيمة، يعني الذي عنده أولاد وما هو راضي عنهم في بعض الأمور ينظر إلى من فقد الولد كيف يتمنى جزء ولد، فيعظُم في نظره ولده ويسعى لإصلاحه، الذي أنعم الله عليه بنعمة الصحة يذهب للمستشفى ويرى المرضى، فتعظُم في عينه نعمة العافية والصحة التي رُزق بها.

الشاهد: أن أهل الجنة بنظرهم إلى الكفار يضحكون بأمرين؛ بسببين:

- **السبب الأول**: أنهم يرون أن الله انتقم لهم من الكافرين الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا.
- **والأمر الثاني**: أنهم يعرفون عِظم النعيم الذي هم فيه، وأن الله سلمهم من هذا الهوان الذي فيه الكفار.

ثم تُختم الآية بهذا السؤال العجيب؛ وهو سؤال تقرير: ﴿**هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾، هل جُوزي الكفار على ما كانوا يفعلون بالمؤمنين في الدنيا أم لا؟

الجواب: نعم، الكفار يوم القيامة جُوزوا ما كانوا يفعلون في الدنيا من ضحكهم على المؤمنين وانقلابهم إلى أهلهم فكهين؛ جُوزوا بالعذاب المهين، والمؤمنون هم الذين يضحكون مع أهليهم يوم القيامة في الجنة يُنعَّمون.

وفي هذا السؤال تسليةٌ عُظمى للمؤمنين: مهما رأيتم من حال الكفار من قوتهم في الدنيا، من تسلطهم على المؤمنين، من أذيتهم للمؤمنين، من مكرهم بالمؤمنين، إن الله عز وجل سيجازيهم على هذه الحال في يوم القيامة وينقلب الحال؛ ويُصبح المؤمنون هم الذين يضحكون من الكفار.

ففي هذه الآية تسليةٌ للمؤمنين عما يشاهدونه في الدنيا من الكافرين، وتصبير لهم على ما يلقونه منهم، فإن الله عز وجل سينتقم لهم، قد ينتقم في الدنيا والآخرة، وقد يُملي للكافر حتى ينتقم منه الانتقام العظيم يوم القيامة.

وهذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني، ونعود إلى التفسير التفصيلي فنذكر ونقرأ ما ذكره الشيخ.

قال رحمه الله تعالى: لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المحسنين، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين ويستهزئُون بهم، ويضحكون منهم.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا**﴾ **والإجرام** هو: فعل الذنوب.

والمقصود: إن الذين أجرموا الذنب العظيم وهو الشرك بالله سبحانه وتعالى.

فيتغامزون بهم عند مرورهم عليهم.

﴿**يَتَغَامَزُونَ**﴾ أي: يُشيرون بعيونهم، **الغمز** هو: الإشارة بالعين، وإذا كان بين طرفين فإنه يغلب عليه أن يكون من باب السخرية والاستهزاء.

فيتغامزون بهم عند مرورهم عليهم احتقارا لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم، ﴿وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ﴾ صباحا أو مساء، ﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾: أي: مسرورين مغتبطين.

وقال بعض المفسرين: أي: معجبين بما هم فيه.

وقال بعض المفسرين: أي: ناعمين، فالله يعطيهم من الدنيا ما شاء، يكيد لهم سبحانه وتعالى لما يكيدونه المؤمنين.

وقيل: (فكهين) أي: واجدين لما يحبون فهم يتنعمون بالنعم.

وقال بعض المفسرين: (فكهين) أي: متلذذين بالسخرية بالمؤمنين حتى في بيوتهم، في مجالسهم يسخرون بالمؤمنين، إذا رجعوا إلى بيوتهم وجلسوا مع زوجاتهم وأولادهم يتلذذون بالسخرية من المؤمنين، فحديثهم في بيوتهم فيه السخرية بالمؤمنين، والكلمة تحتمل كل هذا.

والقاعدة: أن الكلمة تحمل على جميع معانيها ما لم تتناف المعاني وتتضاد فإنه يختار منها.

﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا أشد ما يكون من الاغترار أنهم جمعوا بين غاية الإساءة مع الأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون افتراء على الله تجرؤوا على القول عليه بلا علم، قال تعالى: ﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾.

﴿وَمَا أُرْسِلُوا﴾ قال بعض المفسرين: يعني: وما بعثوا.

وقال بعض المفسرين: يعني: وما خُلقوا.

﴿عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: مراقبين لأعمالهم مُحصينها.

فالمعنى كما ذكرنا: ما خلقوا ليراقبوا أعمال العباد، وإنما خلقوا ليعبدوا رب العباد، فلم يعبدوا رب العباد ولم يسلم من مراقبتهم العباد، فضادوا ما أراد الله في الأمرين في الجهتين.

﴿وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم حتى يحرصوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب ليس لهم سند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة.

فهم يضحكون لانتقام الله لهم؛ ولأن الله زحزحهم عن العذاب وأدخلهم الجنة، إذا نظروا إلى الكفار ضحكوا لانتقام الله لهم من الكفار، ولزحزحتهم عن النار.

﴿عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ وهي السرر المزينة، ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

وعلى هذا التفسير يكون هذا تكرارًا لما تقدم وتأكيدًا له، **﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾** فتكون الجملتان بمعنى واحد.

وعلى التفسير الثاني: **﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾** أي: ينطرون إلى الكفار في النار وما هم فيه من الهوان؛ يكون هذا بيانًا لأمرٍ آخر غير الأول.

فالأول: ﴿**عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ**﴾ ينظرون إلى النعيم، وما أعده الله لهم في الجنة، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

وفي الثاني: ينظرون إلى الكفار وما هم فيه من الهوان وألوان عذابهم فيتنعمون بهذا.

وهذا أولى؛ لأن القاعدة أن حمل القرآن على زيادة المعنى أولى من حمله على التأكيد، حمل القرآن على زيادة المعنى، يعني: على معنى جديد، أولى من حمله على التأكيد.

﴿هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جُوزوا من جنس عملهم.

وهذا استفهامٌ تقريري، يعني: أن هذا واقع، وجوابه: نعم جوزيَ الكفار على ما كانوا يعملون.

فكما ضحِكوا في الدنيا من المؤمنين ورمَوهم بالضلال ضحك المؤمنون منهم في الآخرة حين رأوهم في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغيِّ والضلال، نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون عدلًا من الله وحكمة والله عليمٌ حكيمٌ.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة المطففين، والله أعلم.

وصلَّى الله على نبينا وسلَّم.

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿1﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿2﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿3﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿4﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿5﴾﴾.

هذه السورة العظيمة سورة مكية بإجماع العلماء وفيها مواعظ عظيمة وزواجر كبيرة، ففيها وصف ما يكون يوم القيامة إذا أتى أمر الله، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾)** رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني.

فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من سره أن يعرف أحوال يوم القيامة كأنه ينظر إلى ذلك اليوم العظيم رأي عين فليقرأ هذه السور الثلاث: **﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ﴾، و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾.**

والمعنى في هذه الآيات التي تلاها الأخ والابن نور الدين أنه إذا أتى أمر الله وأذن سبحانه بقيام الساعة حصلت أمور عظيمة وتغير الكون، ومن تلك الأمور العظيمة:

أن السماء الشديدة التي بناها الله عز وجل شديدة فلا ترى فيها فطورا، ولا ترى فيها شقوقا تنشق في ذلك اليوم، وترى فيها شقوقا وصدوعا وفطورا، يراها الناظر كأنها أبواب، وينشق بعضها بالغمام وهو السحاب الأبيض البارد، ويتغير ما يُرى فيها، فتلف شمسها ويذهب ضوؤها، ويخسف قمرها ويسود ويذهب ضوؤه، وتتناثر كواكبها ونجومها وتتساقط، وكل ذلك بإذن ربها وأمر ربها سبحانه وتعالى، فهي قد سمعت أمر ربها سماع استجابة وانقياد وطاعة، حيث أمرها الله عز وجل بذلك فانقادت وأطاعت، وحق لها أن تسمع وتطيع وتنقاد، وثبت لها ذلك فإنها مدبرة مسخرة مطيعة لربها منقادة لمن دبرها سبحانه وتعالى.

ومن تلك الأمور العظيمة أن الأرض بجبالها ومعالمها يتغير حالها فتدك جبالها وتنسف وتزال معالمها، فلا يبقى فيها جبل ولا حبل -أي رمل مرتفع- ولا شجر، وتمد مدا وتبسط بسطا وتفرش فرشا كالأديم إذا دبغ ومد، ويزاد في اتساعها حتى تتسع للناس عند البعث،

وتُخرج أثقالها، فتخرج الموتى من بطنها، وذلك عندما ينفخ في الصور النفخة الثانية، وتُخرج كنوزها فكأنه يقال للناس: هذه الكنوز التي ألهتكم في الدنيا وأشغلتكم عما ينفعكم ها هي أمامكم لا تنتفعون بها شيئا، فتعظم حسرة المفرطين الذين ألهتهم الدنيا وكنوزها عن طاعة الله سبحانه وتعالى.

وتخلت الأرض عما في بطنها من الأموات والكنوز بعد أن كانت ساترة لها، وكل هذا بإذن ربها وأمر ربها سبحانه وتعالى حيث أمرها بهذا، فاستمعت لإذن ربها وأمر ربها استماع انقياد واستجابة وطاعة فأطاعت وفعلت، وحق لها أن تطيع وأن تستجيب فإنها مسخرة مدبرة ذليلة لربها ومدبرها سبحانه وتعالى.

فهاتان الآيتان العظيمتان: السماء والأرض، يتغير حالهما يوم القيامة إذا أذن الله عز وجل بقيام الساعة.

فهذا هو معنى هذه الآيات الموضوعي الإجمالي الإيماني ونقرأ ما ذكره الشيخ السعدي رحمه الله في التفسير ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى في تفسيره: يقول تعالى مبينا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض وانتثرت نجومها وخسف شمسها وقمرها.

فمعنى ﴿**انشَقَّتْ**﴾ أنها انفطرت وتصدعت، حيث يكون فيها شقوق وفروج وصدوع تُرى فيها كأنها أبواب، ومع انشقاقها يتغير حال ما فيها مما نراه وما لا نراه من الشمس والقمر والكواكب، فهذا معنى انشقت.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاخت لخطابه.

معنى: ﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا**﴾ استمعت سماع إجابة وانقياد وطاعة لأمر ربها.

يقال: أذن للصوت؛ أي: سمع الصوت واستمع له، ومنه الحديث: (**ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي حسن الصوت بالقرآن يجهر به**)، والحديث في الصحيحين، والمعنى: ما استمع الله عز وجل فأذن بمعنى استمع.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: استمعت إليه وألقت سمعها وأصاخت لخطابه

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

معنى ﴿**وَحُقَّتْ**﴾ أي: حق لها أن تطيع وشأنها أن تطيع، ومعنى حق لها أي: ثبت لها وكان حقيقا بها أن تطيع وكان شأنها أن تطيع، فهي مدبرة مسخرة ذليلة لمن دبرها سبحانه وتعالى لا تخرج عن طاعته.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: رجفت وارتجت ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدها الله مد الأديم حتى صارت واسعة جدا تسع أهل الموقف على كثرتهم فتصير قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا.

﴿**وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ**﴾ أي: وإذا الأرض بسطت وأزيلت معالمها البارزة فيها حتى صارت قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ففرشت ووسعت وزاد الله عز وجل في سعتها.

قال بعض المفسرين: ﴿**مُدَّتْ**﴾ من المد، والمد هو البسط، فمعنى ﴿**مُدَّتْ**﴾ بسطت.

وقال بعض المفسرين: ﴿**مُدَّتْ**﴾ من الإمداد، والإمداد هو الزيادة، ومعنى ذلك أنه زيد في سعتها.

وهذا اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، فكلا المعنيين صحيح، فالأرض يوم القيامة تبسط وتفرش وتمد ويزاد في سعتها، فهذا ليس من باب اختلاف التضاد وإنما من باب اختلاف التنوع.

وقال بعض العلماء: إن الأرض اليوم كروية فيغيب بعض الناس عن بعض فيها، فالإنسان البعيد عن نظرك يغيب عنك ما تراه، أما يوم القيامة فإنها تمد مدا وتبسط بسطا ولا تكون كروية، فلا يغيب أحد عن أحد، فيحشر الله الناس على صعيد واحد، ينفذهم البصر ويُسمعهم الداعي لكون الأرض قد مدت، فلا يغيب أحد فيها عن أحد.

وهذا المعنى الأخير أشار إليه شيخنا الشيخ ابن عثيمين رحمه الله عز وجل رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ من الأموات والكنوز.

معنى ﴿**وَأَلْقَتْ**﴾ أخرجت ما في بطنها من الأموات والكنوز وألقته إلى خارجها إلى ظاهرها، فهذا معنى ﴿**وَأَلْقَتْ**﴾.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض وتُخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون. ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

﴿**وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ**﴾ **قال بعض المفسرين**: معنى ﴿**وَتَخَلَّتْ**﴾ أي: تركت ما في بطنها وكشفته بعد أن كانت ساترة له وخلا جوفها من ذلك.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**وَتَخَلَّتْ**﴾ أي: خلت الأرض من الأحياء عليها، وذلك عند النفخة الأولى في الصور.

فيكون المعنى: تخلت الأرض عن الأحياء فخلت منهم، حيث يموت كل حي عليها عندما ينفخ في الصور النفخة الأولى، ثم ألقت ما في جوفها من الأموات والكنوز عندما ينفخ في الصور النفخة الثانية نفخة البعث، فيكون التخلي قبل الإلقاء، يكون على هذا المعنى التخلي قبل الإلقاء؛ لأن:

التخلي: معناه أنها خلت من الأحياء على ظهرها.

والإلقاء: أنها أخرجت ما في بطنها من الأموات من أجل البعث.

فهذان معنيان ذكرهما أهل العلم لجملة ﴿**وَتَخَلَّتْ**﴾:

فالمعنى الأول: بمعنى أن جوفها خلا مما فيه.

والمعنى الثاني: بمعنى أن ظهرها خلا مما فيه.

ولا مانع من الأمرين، ففي الأول يخلو ظهرها من الأحياء فلا يبقى على ظهرها حي، وفي الثاني يخلو جوفها من الأموات والكنوز فلا يبقى في جوفها كنز ولا ميت.

﴿**وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ**﴾ أي: سمعت الأرض أمر ربها سماع استجابة وانقياد فانقادت لأمر ربها.

ومعنى ﴿**وَحُقَّتْ**﴾ أي: حق لها أن تسمع وتطيع وتنقاد فإنها مسخرة مدبرة:

فالجملة الأولى: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ في السماء.

والجملة الثانية: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ في شأن الأرض.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿6﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿7﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿8﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿9﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿10﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿11﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿12﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿13﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿14﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿15﴾﴾.

يخاطب الله عز وجل جنس الإنسان بأنه خلق في الدنيا في دار العمل وهو ساعٍ إلى ربه بعمله، إما أن يتقدم إلى العمل الصالح عن العمل السيء، وإما أن يتأخر عن العمل الصلح إلى العمل السيء.

فكل الناس في يومه يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها، ثم هو ميت ومبعوث يوم القيامة وملاق ربه، حيث يلاقي عمله ويعرض عليه عمله في كتاب، ويلاقي جزاء عمله، فإلى الله إيابه وعلى الله حسابه، فإنه مهما عمل إن أطاع وعمل الصالحات أو طغا وتجبر وعمل السيئات آيب إلى ربه سبحانه وتعالى وملاق عمله، وسيعرض عليه عمله، ويلقى جزاء عمله.

وبين الله عز وجل للإنسان كيف يلقى عمله يوم القيامة، وهو أن عمله مكتوب في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وسوف يؤتى ذلك الكتاب يوم القيامة حيث ينقسم الناس إلى فريقين:

فأما من أوتي كتابه بيمينه إكراما له وتشريفا له وهو السعيد الذي جعل الآخرة نيته، وسارع في الدنيا إلى الجنة بالعمل الصالح، ولازم التوبة والاستغفار، وغلبت صالحاته سيئاته، أو عفا الله عن سيئاته بفضله ورحمته ومغفرته وكرمه وبره ورأفته سبحانه وتعالى، ذلك السعيد سوف يحاسب حسابا يسيرا سهلا عليه.

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك اليسر حيث قال صلى الله عليه وسلم: **(من نوقش الحساب عذب)**، فقالت أمنا عائشة رضي الله عنها وأرضاها: (أوليس يقول الله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾، فقال النبي صلى الله عليه: **(إنما ذلك العرض، ولكن من نوقش الحساب يهلك)** متفق عليه.

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الحساب اليسير هو عرض الأعمال عرضا من غير مناقشة، وبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم طريقة ذلك العرض، فقال صلى الله عليه وسلم: (**إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ وهو يقول: نعم أي ربي، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى في نفسه أنه قد هلك قال الله: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، ويعطى كتاب حسناته**) متفق عليه.

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن من يحاسب حسابا يسيرا يدنيه الله عز وجل ويضع عليه كنفه فيستره ولا يفضحه بين الخلائق حتى عند العرض، وتعرض عليه ذنوبه: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أي نعم يا ربي: ولا يقال له: لِمَ فعلت كذا؟ وإنما يقال له: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أي نعم يا ربي، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: أي نعم يا ربي، حتى إذا قرره بذنوبه وعرض عليه ذنوبه ورأى العبد في نفسه أنه قد هلك لهذه الذنوب، قال الله: أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فلا يستر الله عبدا في الدنيا إلا ستره يوم القيامة.

لكن لا ينبغي للعبد أن يستهين بالذنب إن سُتر، فلعل هذا يكون استدراجا حتى إذا أخذه الله بذنبه لم يفلت، لكن من أذنب ذنبا فستره الله في الدنيا فأقلع عنه فهذه بشارة أن الله يستره في الآخرة، ولن يستر الله عبده في الدنيا ويفضحه في الآخرة، بهذا أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم.

وخير من هذا من يدخل الجنة بغير حساب أصلا -بغير عرض-، حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن سبعين ألفا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وبين صلى الله عليه وسلم أنهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، كما ثبت ذلك عند الشيخين البخاري ومسلم.

وصاحب السعادة هذا الذي يحاسب حسابا يسيرا أو لا يحاسب أصلا ينقلب إلى أهله في الجنة من الحور العين، ومن دخل الجنة من أهله في الدنيا ينقلب فرحا مسرورا، ويظهر أثر هذا الفرح على وجهه حتى يكون في أجمل الصور عند دخوله الجنة، وسبب سروره أنه

سلم من عذاب الله وأدخل الجنة، ومن خاف الله في الدنيا أمن يوم القيامة وكان من أهل السرور إذا لقي الله سبحانه وتعالى.

وأما الفريق الثاني: وهو من أوتي كتابه بشماله من وراء ظهره حيث تلوى يده الشمال وراء ظهره فيعطى كتابه مهانا، أنظروا إلى الإهانة: يعطى الكتاب بالشمال لا باليمين، وليس بمجرد الشمال، بل إن الشمال تلوى حتى تكون من وراء ظهره، ويعطى كتابه على ذلك الحال، وذلك هو الشقي الذي جعل الدنيا همه، ولها بها عن الآخرة، فكفر بربه أصلا، أو أسلم لكنه أسرف على نفسه بالذنوب، فعصى ربه حتى غلب عصيانه طاعاته، ولم يعف الله عنه وجاهر بمعاصيه في الدنيا، فسوف يحاسب حسابا عسيرا ثقيلا حيث يناقش الحساب، فيقال له: لِمَ فعلت كذا؟ لِمَ فعلت كذا؟ ويذكره الله بنعمه فيعرفها فيقول الله عز وجل: فما صنعت فيها؟ ومن نوقش الحساب عذب وهلك عياذا بالله.

وشر منه من يُفضح على رؤوس الخلائق كالمشركين والمنافقين الذين ينادى بهم على رؤوس الخلائق، فيقول الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين.

وعند ذاك يدعو الشقي بالويل والهلاك والعذاب والشر على نفسه؛ لأنه تيقن من عذاب الله سبحانه وتعالى، ويقول وهو يدعو على نفسه بالويل والثبور والهلاك والشرور: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ** ﴿25﴾ **وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ** ﴿26﴾﴾ [الحاقة: 25-26]، ويكون مآله إلى النار المسعرة التي اشتد حرها وعظم عذابها، فيحترق بتلك النار من جميع الجهات، ويأتيه العذاب من كل مكان، فيتمنى أن يموت فلا يموت، ويسأل تخفيف العذاب فلا يجاب، فلا يفتر عنه العذاب، ولا يخفف عنه العذاب، ولا يعتاد على العذاب حتى يخف عنه، بل هو في عذاب دائم وسعير دائم لا ينقطع.

وهذا الخزي والعذاب -الخزي في الموقف والعذاب في النار- وِفاق لعمله في الدنيا، فإنه كان في الدنيا في أهله مسرورا فرحا باتباع هواه ونيل شهواته المحرمة ونيل ملذاته المحرمة، وفعله المحرمات، وظن أنه مخلد في الدنيا، ولن يبعث يوم القيامة إن كان كافرا، يعني:

- إن كان كافرا فإنه كان في الدنيا يظن أنه مخلد في الدنيا، وينكر البعث وأنه لن يبعث يوم القيامة ولن يلقى الله، ويسخر ممن يخبره أنه سيبعث ويلقى الله سبحانه وتعالى.
- وإن كان مسلما عاصيا يكون قد غفل عن هذه الحقيقة وهو في الدنيا وإن كان يعتقد بالبعث لكن أصابته الغفلة وألهاه التكاثر وألهته الملذات حتى مات وهو على سوء الحال.

والحال أن ربه كان به بصيرا لا يخفى منه شيء عن ربه، ولا يخفى من عمله شيء عن ربه، والملائكة تشهد عليه وتكتب عمله.

فهذان الفريقان قد أخبرنا الله عنهما وعن حال كل فريق يوم القيامة، ومن أصدق من ربنا قيلا سبحانه وتعالى.

فالواجب على البصير أن يعتبر، وأن يعلم أن السرور في الدنيا بالحرام يستحق به العذاب يوم القيامة، وأن لزوم طاعة الله وترك الحرام ولو دعت النفس إلى ارتكاب الحرام سبب لنيل فضل الله ودخول الجنة عند لقاء الله سبحانه وتعالى، فعليه أن يختار.

أنت يا عبد الله؛ يا من تعيش في الدنيا؛ أخبرك الله أنك عامل ولابد، إما أن تعمل صالحا فتتقدم، وإما أن تعمل سيئا فتتأخر، وأنك ستبعث، وأنك ستلقى الله فإلى ربك المنتهى، وأنك ستلقى عملك لا تفقد منه شيئا، وأن الناس يوم القيامة سيكونون على الفريقين عند إعطاء الكتاب، فاختر لنفسك اليوم حيث أنك في دار العمل، إن كنت أسرفت فيما مضى فتب إلى الله صادقا، وأحسن فيما يأتي من أيامك لتكون من أهل السرور يوم القيامة، وإياك أن تكون ممن يُذهب سرورهم الزائل في الدنيا سرورَهم الدائم يوم القيامة، وبئس البيع أن يبيع العبد السرور الدائم يوم القيامة بالسرور الزائل في الدنيا، أعني: السرور بالمحرمات.

فوالله ثم والله إن السرور في الدنيا كله لا يساوي لحظة من عذاب الله سبحانه وتعالى، وإن الشقاء في الدنيا كله لا يساوي لحظة في النعيم يوم القيامة، فإنه يؤتى يوم القيامة بأنعم رجل كان في الدنيا من أهل النار فيغمس غمسة في النار فيقال: هل رأيت نعيما قط؟

فيقول: لا؛ ما رأيت نعيما قط، ويؤتى بأبأس رجل كان في الدنيا من أهل الجنة فيغمس غمسة في الجنة فيقال: هل رأيت بؤسا قط؟ فيقول: لا والله يا ربي ما رأيت بؤسا قط.

ومن هنا تعلم معنى أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فالمؤمن محبوس بالدنيا عن النعيم المقيم في الجنة، فمهما كان في نعيم دنيوي فهو محبوس عن النعيم الأعظم، وليس بين المؤمن الطائع وذاك النعيم إلا أن يموت، وأما الكافر فإنه محبوس في الدنيا عن العذاب الشديد يوم القيامة، فمهما كان في بؤس في الدنيا فهو بالنسبة لآخرته في جنة، والمؤمن العاصي على خطر عظيم، قد يدخل النار بسبب ذنوبه فيعذب، ولا يطيق العبد لحظة واحدة في النار، ثم يخرج إذا شاء الله أن يخرجه من النار فيدخل الجنة، وقد يعفو الله عنه.

فالواجب على العبد أن ينظر إلى نفسه اليوم وأن يختار لنفسه اليوم.

هذا التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني للجزء الذي قرأه الأخ نور الدين من هذه السورة، ونعود إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما ذكره الإمام السعدي رحمه الله.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ قال رحمة الله عليه: أي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيدا، وبالعقوبة العادلة إن كنت شقيا.

يقول الله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ**﴾ **قال بعض المفسرين**: (ال) هنا للجنس، فهذا خطاب لكل إنسان سواء كان مؤمنا أو كافرا، طائعا أو عاصيا، ويدل لذلك التنويع عند اللقاء في إتيان الكتاب.

وقال بعض العلماء: (ال) هنا للعهد، وهذه السورة مكية، فالخطاب للكفار الذين ينكرون البعث، ويدل لذلك ما جاء في آخر الآيات ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾.

والأظهر والله أعلم أن الخطاب لجنس الإنسان، لكل إنسان سواء كان مؤمنا أو كافرا.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ **يقول العلماء**: الكدح: هو العمل المستمر بجد ومشقة، فالإنسان عامل في الدنيا ولابد بجد ومشقة، وعمله مستمر لا انقطاع فيه حتى يلقى الله سبحانه وتعالى، يعني: حتى تقوم قيامته بموته.

﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ **قال بعض المفسرين**: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ أي: ملاقي الله عز وجل كما قال الشيخ السعدي هنا، فأرجعوا الضمير إلى الله.

وقال بعض المفسرين: ﴿فَمُلَاقِيهِ﴾ أي: ملاقي عملك، فأرجعوا الضمير إلى العمل.

وكلا القولين صحيح واقع، فإن الإنسان كادح إلى ربه كدحا بالعمل فملاقي ربه وملاقي عمله.

قال: ولهذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ وهم أهل السعادة.

(فأما) هذا للتنويع، وهو أن الإنسان إذا لقي ربه يوم القيامة ولقي عمله يوم القيامة:

- إما أن يكون من فريق السعداء.
- وإما أن يكون من فريق الأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ﴾ ولم يبين لنا من الذي يعطيه الكتاب، نحن علمنا يقينا أنه سيعطى الكتاب بيمينه، لكن من الذي سيعطيه الله أعلم، لم يبن ذلك لنا.

﴿كِتَابَهُ﴾ أي: كتاب أعماله، والأعمال تكتب مرتين:

- كتبت أولا في اللوح المحفوظ، فعمل كل إنسان مكتوب عندما خلق الله القلم وأمره أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، لكنه ليس المراد هنا.
- ويكتب إذا عمله الإنسان تكتبه الملائكة إن عمل خيرا أو عمل شرا، وهذا الذي يؤتاه العامل يوم القيامة، فإن كان من أهل السعادة يؤتى الكتاب بيمينه ويعطى الكتاب بيمينه إكراما له وتشريفا له.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك قال الله تعالى: إني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أسترها لك

اليوم.

وهذا تفسير الحساب اليسير كما ذكرناه في التفسير الإجمالي، والحساب اليسير هو السهل الذي لا مشقة فيه ولا عناء فيه.

طيب نلحظ أن ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿فَسَوْفَ﴾ (الفاء) هنا واقعة في جواب (أما) وهي تفيد الترتيب والتعقيب وتشعر بالقرب، هي واقعة في جواب (فأما) وهي مفيدة للترتيب والتعقيب، ومفيدة للقرب -مشعرة للقرب-، فظاهر هذا الترتيب أن الإنسان يؤتى كتابه بيمينه، ثم يحاسب حسابا يسيرا، لكن السنة دلت على العكس، الحديث في الصحيحين دل على أنه يحاسب حسابا يسيرا، ثم يعطى كتابه، فينطلق بكتابه مسرورا، ويقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه، فالترتيب والتعقيب هنا هو للقرب، وإلا فإن الترتيب أنه يحاسب حسابا يسيرا، ثم يعطى كتابه بيمينه.

(والفاء) هنا مشعرة بالقرب، ولا شك أن الأمر قريب، فالموت قريب، والساعة قريبة، والجزاء قريب، فالدنيا سريعة، انظر لنفسك، بالأمس القريب كنت طفلا تلعب، واليوم أنت شاب أو كهل أو شيخ، والله ما بينك الآن وبين كونك طفلا كأنه ساعة، قريب، وهكذا سيكون الباقي من عمرك كالماضي تماما سيمضي سريعا، ولو طال عمرك فإنه قريب، ويأتيك الموت وتقبر وتبعث وتلقى عملك وتجازى.

(فالفاء) هنا كما قلت مشعرة بالقرب، ولا شك أن كل ما هو أمامنا قريب والله، وإذا أردت أن تعتبر فانظر إلى ما خلفك من عمرك كيف أنه كأنه لحظات، وهكذا ما بقي من عمرك وعمر الدنيا قريب سريع الزوال، والله يكون كأنه لحظات.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ في الجنة، ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ قال بعض العلماء المفسرين: أهل خلقهم الله له في الجنة وهن الحور العين وخدمه في الجنة من الغلمان.

وقال بعض المفسرين: أهله في الدنيا من أهل الجنة، يعني: أهله الذين كانوا في الدنيا ودخلوا الجنة.

وهذا كما قلنا مرارا وهذا على اختلاف المفسرين اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد، فهو ينقلب إلى أهله من الحور العين والحور الطين وأولاده ممن دخلوا الجنة، فيجتمع مع أهله الذين يحبهم من أهل الدنيا، ويزيده الله أهلا في الجنة، فيعظم سروره، من سرور المؤمن في الجنة ونعيم المؤمن في الجنة أنه لا يفرَّق عن أهله الذين كانوا معه في الدنيا إذا دخلوا الجنة، بل يرفع الأدنى منزلة منهم إلى الأعلى، ولا ينزل الأعلى إلى الأدنى، لا؛ يعني لو كان الأب صالحا وكان في منزلة عالية في الجنة، ودخلت زوجته الجنة ودخل أولاده الجنة ، لكنهم في مرتبة دنيا بالنسبة له، فإنهم لا يبقون هكذا؛ لأنه لا يفرق بين صاحب الجنة وأهله، ولا ينزل الأعلى إلى الأدون، وإنما يرفع الأدون إلى الأعلى، وكذلك الابن لو كان صالحا فأُدخل الجنة فكان في مرتبة عليا، ودخل أبواه الجنة ولكنهما كانا بالنسبة له في مرتبة أدون في الجنة، وكما قلت مرارا وتكرارا يا إخوة مراتب الجنة مراتب كمال، يعني: التفاضل فيها تفاضل كمال، ليس فيها شقاء أبدا، ليس في الجنة شقاء أبدا، لكن يتفاضل أهل الجنة في الكمال، فإن الوالدين يرفعان إلى منزلة الابن ولا يفرق بينهما.

﴿مَسْرُورًا﴾ قال الشيخ: لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب.

وقال العلماء: سروره في قلبه تظهر بهجته على وجهه، وهذا معروف يا إخوة الذي في القلب يظهر على الوجه.

الإنسان إذا كان حزينا في قلبه سترى في وجهه وعينيه أثر الحزن، وإذا كان مسرورا سترى ذلك في وجهه وعينيه، فينعكس سرور قلبه بهجة ونضرة على وجهه، ويكون سروره بحسب عمله ونضرته بحسب عمله، فيتفاوت أهل الجنة في جمالهم، وكل من يدخل الجنة يكون جميلا، لكن أهل الجنة يتفاوتون في الجمال بحسب أعمالهم في الدنيا، وما يحصل لهم من سرور في الآخرة بسبب أعمالهم بفضل الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من وراء ظهره.

بعض العلماء قالوا: إن الناس ثلاثة أقسام:

1. قسم يؤتى كتابه بيمينه.
2. وقسم يؤتى كتابه بشماله.

3. وقسم يؤتى كتابه من وراء ظهره.

لكن الأقرب والله أعلم ما ذهب إليه الأكثر من أن الناس على فريقين:

1. قسم يؤتى كتابه بيمينه.
2. وقسم تلف شماله وراء ظهره، فيؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره إذلالا له وخزيا له نعوذ بالله من ذلك.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

الثبور **قال العلماء**: هو الهلاك والشر، فمعنى: **﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾** أنه ينادي على نفسه بالهلاك والشر: يا ويلي، يا هلاكي -نعوذ بالله- ليتني لم أؤت كتابيه ولم أدر ما حسابيه، ينادي على نفسه بين الناس، يرفع صوته، هذا معنى الدعاء، يرفع صوته وينادي ويدعو على نفسه بالهلاك والشر والويل، ويقول: ليتني لم أوت كتابيه، ولم أدر ما حسابيه.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ أي تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها.

يقول العلماء: معنى (يصلى) يحترق ويقاسي شدة الحر ويعاني العذاب.

سعيرا قال العلماء: السعير: هي النار شديدة الحرارة عظيمة العذاب.

فمعنى **﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾**؛ أي: ويحترق بنار شديدة الحرارة يعاني حرها، ويقاسي من عذابها نعوذ بالله من عذاب الله.

وذلك لأنه كان في أهله مسرورا لا يخطر البعث على باله وقد أساء، ولا يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

(إنه) تعليلية، يعني: أن هذا العذاب والخزي يوافق عمله؛ لأنه كان في أهله في الدنيا مسرورا.

سبحان الله! انظر كيف قابل الله بين السعيد والشقي:

-السعيد متى يكون في أهله مسرورا؟ في الجنة، نعم؛ هو قد يُسَرُّ في الدنيا لكن سروره الأعظم في الجنة.

-وأما الشقي فلا سرور له في أهله إلا في الدنيا.

﴿**إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ**﴾ ﴿**إِنَّهُ ظَنَّ**﴾ أي اعتقد إن كان كافرا.

﴿**أَن لَّن يَحُورَ**﴾ لن يحور يعني لن يرجع إلى الله:

- فإن كان كافرا في الدنيا فإنه اعتقد أنه لن يبعث ولن يرجع إلى الله، لكن لما كان اعتقاده باطلا لا حقيقة له حتى في نفسه فإن الآيات التي تدل على البعث ظاهرة جدا، قال الله: ﴿**أَن لَّن يَحُورَ**﴾ فسماه ظنا؛ لأنه ما يمكن أن تكون له عقيدة دينية؛ لأن كل شيء يراه يدله على أنه سيموت، وعلى أن الله قادر على أن يبعثه، فهو في الحقيقة ظن، وإن كان ينكر البعث ويعتقد ذلك.
- وإن كان من أهل الشقاء المسلمين الذي يسميه العلماء بالشقاء المؤقت، فإنه ظن أنه لن يحور؛ أي: غفل عن الرجوع والبعث فلها بالدنيا.

والعلماء يقولون: الناس يوم القيامة ثلاثة أقسام من جهة السعادة والشقاء: سعيد مطلقا، وشقي مطلقا، وشقي مؤقت.

1. سعيد مطلقا هم الذين يدخلون الجنة ابتداءً.
2. وشقي مطلقا هم الكفار والمنافقون المخلدون في النار.
3. وشقي شقاء مؤقتا هم عصاة الموحدين الذين شاء الله أن يدخلوا النار؛ شاء الله بعدله أن يدخلوا النار، فهؤلاء لهم شقاء مؤقت.

فالسعيد اعتقد أنه سيبعث وعمل لما بعد الموت، ولم تلهه الدنيا بزخارفها عن الآخرة، والشقي المطلق اعتقد في الدنيا أنه لن يبعث فعمل للدنيا ولم يعمل للآخرة، والشقي شقاء مؤقتا غفل عن البعث، فألهته الدنيا حتى طغت على قلبه، فعمل المعاصي وأسرف، ولم يتب إلى الله سبحانه وتعالى، فهذا كما تعلمون يوم القيامة تحت المشيئة: إن شاء ربه عفا عنه بفضله، وإن شاء ربه عذبه بعدله، فإن شاء ربنا أن يعفو عنه صار من أهل السعادة المطلقة، وإن شاء الله أن يعذبه صار من أهل الشقاء شقاء مؤقتا.

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يخفى منه عليه شيء، ولا يخفى من عمله عليه شيء، وكان ربه قد علّمه وبين له طريق الجنة وأمره بلزومه، وبين له طريق النار وحذره من سلوكه، ثم إن إيابه إلى الله وحسابه على الله.

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (16) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (17) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (18) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (19) فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (20) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ (21) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (22) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (23) فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (24) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (25)﴾.

يقسم الله عز وجل بهذه الآيات العظيمة التي تكون في الليل، وهي تدل على وجوده سبحانه وعلى تدبيره لأحوال عباده وعلى قدرته على تغيير أحوالهم من حال إلى حال.

وللعظيم سبحانه أن يقسم بما شاء، وليس للإنسان أن يقسم إلا بربه العظيم سبحانه وتعالى، فمن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك.

والمقسَم عليه هنا أمر ثابت لا يحتاج أن يقسَم عليه، لكن أقسم الله عليه مزيدا للتأكيد ولإقامة الحجة، وإلا فهذا المقسَم عليه ثابت يقينا، فإن الله أخبر عن ذلك ومن أصدق من الله قيلا، وإن الآيات الكونية دالة على ذلك، لكن أقسم الله عز وجل عليه ليزداد اطمئنان النفوس المؤمنة به، ولتقام الحجة على الكافرين.

فأقسم ربنا بالشفق وهو الضوء الأحمر الذي يكون في أول الليل بعد غروب الشمس، ثم الضوء الأبيض الذي يتلو الضوء الأحمر.

فالشفق شفقان:

- **شفق أحمر**: وهو الذي علقت بغيبوبته صلاة العشاء عند جمهور الفقهاء.
- **وشفق أبيض**: وهو يتلو الشفق الأحمر، وهو آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى حيث يظهر في هذا الوقت في أول الليل عند إقبال الظلمة.

وأقسم سبحانه بالليل وهو -أعني الليل- في نفسه آية عظيمة في إقباله وفي إدباره، حيث يقبل على الأرض فيغشى الأرض ويغطيها، ثم يدبر فتنقشع ظلمته. فسبحان الله! من أين أتى هذا الظلام كله؟! وإلى أين ذهب هذا الظلام كله؟!

وهو آية في الأحوال التي تقع فيه وتناسب سكونه وظلمته، حيث يجمع ويضم الأشياء المنتشرة المنتشرة في النهار، وتسكن فيه الدواب بأن ترجع إلى أوكارها ومأواها، ويسكن فيه الإنسان بأن ينام ويلقي عنه تعب النهار.

وأقسم بالقمر حال اكتمال ضوئه وتمام ضوئه وذلك إذا أصبح بدرا، ويكون ذلك في وقت منتظم من الشهر لا يتقدم ولا يتأخر، ويكون له أثره في الليل فتستنير الأرض مع ظلمة الليل، وكل هذا فيه آيات عظيمة.

وكان المقسَم عليه الذي أقسم عليه العظيم سبحانه بهذه الآيات لتركبن أيها الناس في حياتكم الدنيا وفي أخراكم طبقا عن طبق، فتكونون في الدنيا على أطوار وتتنقلون في أحوال، فالإنسان في أول أمره يكون محبوسا في ظلمة الرحم، وفي آخر أمره يكون محبوسا في ظلمة القبر إلا من وسع الله عليه قبره وأنار له قبره.

والإنسان يبدأ طفلا ضعيفا في جسده، ضعيفا في عقله، ثم ينتقل إلى حال الشباب فيقوى، ثم ينتقل إلى حال الكهولة، ثم ينتقل إلى حال الشيب إن كتب الله له البقاء، ثم يموت لينتقل من حال الدنيا إلى حال الآخرة، ويبقى في قبره ما شاء الله أن يبقى ويكون في قبره على أحوال: فإما معذب -عياذا بالله-، وإما منعم.

ويُبعث يوم القيامة ويكون الناس عند بعثهم على أحوال، ويرون الشدائد والأهوال، ثم يكونون في مآلهم ومستقرهم على أحوال، فمنهم سعيد، ومنهم شقي، ومنهم من يشقى في أول أمره ثم يُلحق بالسعداء.

فهذا أمر عظيم أقسم عليه العظيم سبحانه وتعالى.

ولا يكون ذلك إلا بأمر الله وتدبيره، وهذا يدل العاقل -أعني ما يراه من أطوار وأحوال في الدنيا- على حقيقة البعث، وأن الله قادر إذا شاء أن يغير أحوال الدنيا بالبعث لتكون الآخرة.

وهنا تلحظ مناسبة ما أقسم الله به للمقسم عليه، فأقسم الله بأحوال في الليل على أن الإنسان يكون على أحوال وأطوار في دنياه، ويكون على أحوال في أخراه، وفي ذلك عبرة لمن اعتبر ونظر وتفكر وتدبر، فإن ذلك يدله على وجود الله وعلى قدرة الله وعلى تدبير الله، وعلى أن المستحق للعبادة وحده هو الله سبحانه وتعالى، ويدله على البعث وما فيه من الأحوال.

فما لهؤلاء الكفار الذين ينكرون البعث مع ثبوته لا يصدقون تصديقا مع انقياد وعمل؟ ألا عقول لهم؟! إنهم لفي أمر مريج ومنكر عظيم.

وما لهم إذا قرئ عليهم القرآن بما فيه من إعجاز لا تخشع قلوبهم ولا تخضع أجسادهم لله ولا يصلّون؟!

إن الذي يجعلهم على هذه الحال القاسية الخبيثة أنهم يكذِّبون بالقرآن وما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم تكذيب مكابرة وعناد، وليس اعتقادا مبنيا على أصول صحيحة، بل كل شيء يدلهم على ثبوت ما ينفون، ولكنهم يكذبون تكذيب المعاند المكابر.

والرادُّ للحق عنادا ومكابرة لا حيلة فيه، فمهما أوردت عليه من الأدلة لا يستنير قلبه بالحق ولا يقبل على الحق إلا أن يشاء الله أن يرحمه، فيدفع عنه هذا العناد وهذه المكابرة.

والله سبحانه العليم أعلم بهم وبأعمالهم وبما تكنه أنفسهم وقلوبهم، أعلم بهم من أنفسهم سبحانه وتعالى، يعلم ما في قلوبهم وما يسرون وما يخفون، وما يعلنون وما يجهرون به، ويحصي ذلك عليهم وسيجازيهم بأعمالهم.

وليس للكفار يوم القيامة إلا النار، فبشرهم يا رسولنا بعذاب أليم دائم لا ينقطع.

لكن الذين آمنو فصدقوا تصديقا مع إذعان وعمل صالح فلهم شأن آخر، فلهم ثواب على أعمالهم غير مقطوع عنهم ولا منغص عليهم ولا مكدر عليهم، فهم في نعيم لا تشوبه شائبة، وقلوبهم به متنعمة لا ينغصها خوف ذهاب ولا قلق من نقص، وأجسادهم به متنعمة في جنة أعد الله فيها لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فشتان معاشر المؤمنين بين حال الكافرين المعذبين، وبين حال المؤمنين المنعمين.

والمؤمن إذا سمع هذا فإنه يبرأ إلى الله من الكفر وأهله، ويجهد نفسه في أن يتقرب إلى الله بكل ما يستطيع لعله أن يكون من الفائزين.

هذا التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات العظيمة ونعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما ذكره الإمام السعدي رحمه الله عز وجل ونعلق عليه

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: أقسم في هذا الموضع بآيات الليل فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس الذي هو مفتتح الليل.

﴿فَلَا أُقْسِمُ﴾ **يقول المفسرون أو أكثر المفسرين**: (لا) هنا صلة بمعنى أنها زائدة للتوكيد، زائدة لتوكيد القسم، ولها فائدة فليس في القرآن ما لا فائدة له، لها فائدة:

- وهي: أنها تفيد أن المقسَم عليه ثابت يقينا ولا يحتاج أن يقسَم عليه، لكن يقسِم الله عليه رحمة بالناس لتطمئن قلوبهم ويزداد أهل الإيمان إيمانا.
- كما أنها تفيد أن المقسَم عليه مع ثبوته يقينا فإن من البشر من نفاه.

دائما إذا وجدت بين يدي القسم (لا) فاعلم هذه الفائدة، أنها تفيد هذين الأمرين:

- **الأمر الأول**: أن المقسم عليه ثابت ثبوتا يقينيا بدون القسم؛ ولا حاجة لأن يقسم عليه، لكن الله يتفضل على المؤمنين بالقسم عليه لتطمئن قلوبهم وليزدادوا إيمانا مع إيمانهم.
- **والفائدة الثانية**: أن المقسَم عليه مع ثبوته ثبوتا يقينيا بينا فإن هناك من البشر من انطمست بصائرهم حتى أنكروا ذلك المقسم عليه.

رأيتم الفائدة يا إخوة؟ ليس في القرآن زائد لا يفيد بحيث يستغنى عنه من جهة المعنى، وإنما تكون الزيادة من حيث التركيب اللغوي.

وقال بعض المفسرين: معنى (فلا) أي: ليس الأمر كما ظن الكفار، فالنفي هنا ليس واقعا على القسم، وإنما واقع على ظن الكفار، فمعنى (فلا) أي: ليس الأمر كما ظن الكفار: بل أُقْسِم على خلاف ظنهم.

قالوا: معنى (فلا) أي: فليس الأمر كما ظن الكفار بل أُقْسِم على خلاف ظنهم، والأول أقوى -ما ذهب إليه أكثر المفسرين أقوى-، وإن كان للثاني وجه.

والقسم: هو الحلف واليمين لتوكيد الأمر.

﴿**بِالشَّفَقِ**﴾ **الشفق**: هو الضوء الذي يظهر عند أول الليل فيكون أحمر ثم يعقبه ضوء أبيض، وهذا الضوء الأبيض -قال بعض العلماء- يمتد إلى قرب نهاية الثلث الأول من الليل، وبعده تبدأ الظلمة الشديدة حيث يذهب هذا الضوء.

وأصل معنى الشفق من الرقة، ومنه يقال: إن الوالد شفيق؛ أي: رقيق القلب، ويقال: أشفقت على اليتيم؛ أي: رق قلبي له، فسمي هذا الضوء شفقا لرقته، ليس ضوءا ساطعا، وإنما هو ضوء رقيق ضعيف يكون في أول الليل.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾: أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها.

﴿**وَمَا وَسَقَ**﴾ **قال بعض المفسرين**: أي: ما جمع وضم.

فالوسق: هو الجمع والضم.

ومعنى ذلك أنه في الليل يجتمع ما انتشر في النهار: الناس والحيوانات، كلها تنتشر في النهار، فإذا جاء الليل اجتمع ما انتشر في النهار، فتأوي الطيور إلى أوكارها، وتأوي الحيوانات إلى مأواها، ويأوي الإنسان إلى سكنه وبيته وينام.

وقال بعض العلماء: ﴿**وَمَا وَسَقَ**﴾ من السوق وهو الجلب، ومعناه: أن الليل يجلب الناس والحيوانات إلى مخادعها، يسوقها بعد أن كانت منتشرة.

وقال بعض العلماء: ﴿**وَمَا وَسَقَ**﴾ من الوسق بمعنى، جن وستر، فمعنى ﴿**وَمَا وَسَقَ**﴾: أي: وما ستر من المخلوقات والأعمال، فإن الليل يستر المخلوقات ومنها الإنسان، ويستر الأعمال أيضا منها: قيام الليل وقراءة القرآن في الليل والدعاء في الليل والذكر في الليل يستره الليل، ولذلك العمل في الليل أقرب إلى الإخلاص من العمل في النهار؛ لأن الليل يستره.

وهذا الاختلاف كأكثر اختلاف المفسرين اختلاف تنوع، فالكل داخل في قول الله عز وجل ﴿وَمَا وَسَقَ﴾؛ أي: ما جمع وضم وجلب وجن وستر، كلها تدخل في هذا المعنى

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ﴾ أي امتلأ نورا بإبداره وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع.

﴿اتَّسَقَ﴾ يعني: اكتمل نوره فصار بدرا.

ومعنى ﴿اتَّسَقَ﴾ في الأصل تم واجتمع واستوى، يقال: اتسق أمرك؛ أي: تم أمرك، فمعنى ﴿اتَّسَقَ﴾ تم واستوى واجتمع، فمعنى **(اتسق القمر)**؛ أي: تم نوره واكتمل نوره فصار بدرا.

قال: والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيها الناس، ﴿طبقا عن طبق﴾؛ أي: أطوارا متعددة وأحوالا متباينة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى نفخ الروح، ثم يكون وليدا وطفلا ومميزا، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك ثم يبعث ويجازى بأعماله.

فهذه طبقات مختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود الموحد المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز تحت تدبير العزيز الرحيم.

هذا على قراءة ضم الباء ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾؛ أي: أيها الناس لتكونون أطوارا وعلى أحوال في حياتكم.

وقال بعض المفسرين: الخطاب ليس للناس جميعا وإنما لمن بعث لهم محمد صلى الله عليه وسلم؛ أي: لتعملن كما عملت الأمم من قبلكم، فمنكم من يؤمن به ومنكم من يكفر، هذا خطاب لأمة الدعوة؛ يعني: سيكون شأنكم مع محمد صلى الله عليه وسلم كشأن الأمم السابقة مع أنبيائها فمنكم من يؤمن ومنكم من يكفر.

ويكون الخطاب أيضا لأمة الإجابة بأنكم ستعملون أعمال من قبلكم من اليهود والنصارى، فتتبعون سنن من كان قبلكم.

وقال بعض المفسرين في قراءة ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء: الخطاب للكفار خاصة؛ أي: لتكونن في النار في دركات وطبقات، تطبق عليكم وتغلق عليكم فلا محيد لكم عنها ولا مخرج لكم منها ولا متنفس لكم من عذابها ولا ضوء فيها وعذابها مطبق بكم.

هذه ثلاثة أقوال في قراءة ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾:

1. **القول الأول**: أن الخطاب لعموم الناس على المعنى الذي ذكرناه.
2. **والقول الثاني**: أن الخطاب لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من أمة الدعوة وأمة الإجابة.
3. **والقول الثالث**: أن الخطاب للكفار المنكرين بالبعث.

وقِرأت الآية قراءة سبعية بفتح الباء ﴿**لتركبن**﴾، فيكون الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم، ويكون المعنى: لتكونن مع الناس في أحوال وتمر بشدائد بسبب دعوتك إلى التوحيد، لتكونن يا محمد مع الناس في أحوال وستمر بشدائد: منها إخراج قومه له، ومحاربة قومه له إلى غير ذلك.

وقال بعض المفسرين: المعنى لتركبن يا محمد السماوات السبع، وقد كان ذلك في المعراج حيث مر النبي صلى الله عليه وسلم بالسماوات السبع.

والقرآن يجمع المعاني، ولا تضاد بين هذه المعاني كلها.

والطبق -قال العلماء-: هو الأمر الشديد، وكذلك الأمر المحيط وكذلك الجماعة.

قال رحمه الله: ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون.

أي: لا يصدقون تصديقا معه إذعان وعمل، فما الذي جعلهم كذلك؟

﴿**فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ وهذا استفهام إنكاري تضمن التعجيب من حالهم، هذا الاستفهام إنكاري؛ لأنه لا شك أنهم فعلوا منكرا، فإن إنكار البعث وعدم الإيمان منكر واضح النكران؛ لأن الأدلة على البعث وعلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم أوضح من الشمس، وهذا الاستفهام الإنكاري تضمن التعجيب من حالهم، وهو يشعر المؤمن بأن يحمد الله.

ما الفرق بين من آمن ومن كفر؟ هذا إنسان وهذا إنسان، هذا له عقل وهذا له عقل، لكن تفضل الله على من شاء ممن هو أهل للهداية فهداه، فهذا الاستفهام متضمن للتعجيب من حال الكفار، ومشعر للمؤمن بحمد الله على نعمة الهداية للإيمان.

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾، أي: لا يخضعون للقرآن ولا ينقادون لأوامره ونواهيه.

﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾ **قال بعض المفسرين:** يعني لا يخشعون ولا يخضعون، وعلى هذا يشمل هذا جميع أحوالهم، ويدل أيضا على أن قلوبهم أقسى من الجبال، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله، وهؤلاء القوم يفهمون القرآن ومع ذلك لا يخشعون ولا يخضعون، فقلوبهم قاسية أشد من قسوة الحجارة.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: أي: لا يصلون، والسجود يطلق على الصلاة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك الرجل: (**أعني على نفسك بكثرة السجود**)؛ أي: بكثرة الصلاة.

قالوا: وخصت الصلاة هنا؛ لأنها أعظم الأعمال، بل هي عند جمع من العلماء أصل في الإسلام من لم يأت بها ولو أقر بوجوبها لا يكون مسلما.

وللفقهاء مبحث في هذه الآية هل هي من آيات سجود التلاوة أو ليست من آيات سجود التلاوة محل هذا المبحث كتب الفقه.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن فإن المكذب بالحق عنادا لا حيلة فيه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يعملونه وينوونه سرا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم.

فمعنى ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾: أي: بما يخفون ويضمرون في قلوبهم.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿بِمَا يُوعُونَ﴾: أي: بما يجمعون من اعتقادات وأعمال، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ حتى من أنفسهم ويحصيه عليهم.

وهذه الآية متضمنة الوعيد، ليست مجرد خبر، بل هو خبر ضمن الوعيد، فإن الله أعلم بما يوعون وهو محصيه عليهم وسيجازيهم به.

ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وسميت البشارة بشارة؛ لأنها تؤثر في البشرة سرورا أو غما.

هذا على قول إن البشارة عامة تعم الإخبار بالحسن السار وبالسيء الذي يغم؛ لأنها

مأخوذة من تأثر البشرة، والإنسان إذا أخبر بما يسر تأثرت بشرته بهجة وسرورا فيظهر ذلك على وجهه، وإذا أخبر بما يغمه تأثرت بشرته أيضا وظهر ذلك على وجهه.

وقال بعض العلماء: بل البشارة الإخبار بما يسر فقط، البشارة هي الإخبار بما يسر، واستخدمت هنا في الإخبار بالعذاب وهو لا يسر تهكما بهم واستهزاء بهم جزاء وفاقا؛ لأنهم يتهكمون بالمؤمنين ويسخرون من المؤمنين، فاستخدمت البشارة هنا فيما يغم من باب التهكم بالكافرين والسخرية بهم.

قال: فهذه حال أكثر الناس: التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان به.

ومن الناس فريق هداهم الله فآمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل فآمنوا وعملوا الصالحات، فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع بل هو أجر دائم مما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والحمد لله.

والاستثناء هنا ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ **قال بعض العلماء**: استثناء منقطع؛ لأن المستثنى هنا ليس من جنس ما قبله فيكون استثناء منقطعا، ويكون معنى (إلا) لكن، كما لو قلت مثلا: جاء القوم أو جاء الرجال إلا حمارا أو إلا بقرة، فإن المستثنى ليس من جنس ما قبله، فيكون استثناء منقطعا، وتكون إلا بمعنى لكن.

فالمعنى على هذا: لكن المؤمنين على حال أخرى هي حال النعيم المقيم.

وقال بعض المفسرين: الاستثناء هنا استثناء متصل من قوله تعالى: ﴿**لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ**﴾؛ أي: لتركبن الشدائد والأهوال يوم القيامة إلا الذين آمنوا؛ أي: يا أيها الناس لتركبن الشدائد والأهوال يوم القيامة إلا الذين آمنوا فلن يكونوا مثل الكفار يوم القيامة.

وقال بعض المفسرين: هو استثناء متصل أيضا، ولكن من قوله تعالى: ﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾، والمعنى: إلا الذين آمنوا من أولئك الكفار فتابوا من كفرهم وأسلموا، فإن الإسلام يهدم ما كان قبله فلهم أجر غير ممنون، فهم سالمون من ذلك الوعيد، فتوعد الله الكفار وفتح لهم باب السلامة.

﴿**فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ ومن أراد السلامة منهم فإن له بابا وهو أن يؤمن ويترك الكفر، فإذا آمن وترك الكفر سلم من العذاب الشديد.

والأجر: هو الثواب عن العمل بما ينفع.

يعني الأجر يا إخوة لا يطلق على ما يعطى بلا عمل، هذا لا يسمى أجرا، فهو الثواب على عمل، والجزاء بما يضر لا يسمى أجرا إلا من باب التوسع أو التهكم، وإنما الأجر هو الثواب على العمل بما ينفع.

والأجر غير الممنون قال بعض المفسرين: هو غير المقطوع.

وقال بعضهم: هو الثواب الذي يعطاه صاحبه بإكرام ومن غير تنغيص.

ولله المثل الأعلى: لو أن عاملا عمل عندك استأجرته على عمل بأجرة اتفقتما عليها، ولما فرغ من عمله رميت عليه الأجرة رميا، أعطيته أجرته لكن من غير إكرام، أو أخذت تحاسبه وقلت: أنا اتفقت معك بمائة وأنت أنقصت كذا، فأنا أنقص خمسة وأنقصت كذا فأنا أنقص كذا، فنغصت عليه أجرته.

أما الثواب غير الممنون فهو الذي يعطى على سبيل الإكرام ومن غير منغص، إذا أخذت المبلغ ووضعته في يده وقلت: جزاك الله خيرا يا أخي قد أحسنت، بارك الله فيك أسأل الله عز وجل أن يبارك في عملك ومالك، فأنت أعطيت على سبيل الإكرام من غير أن تنغص عليه، فيكون هذا أجرا غير ممنون.

وكِلا المعنيين صحيح هنا: فهو أجر غير مقطوع، ويعطاه المؤمنون بإكرام فيساقون له سوق إكرام ومن غير منغص لا فيه ولا في القلب ولا في الحقيقة، لا منغص لنعيم المؤمن يوم القيامة.

وبهذا تتم هذه السورة.

وهذه السورة مع ما سبقها من السور من التكوير إلى هذه السورة سورة الانشقاق فيها إنذار وتخويف لعباد الله عز وجل ببيان أحوال يوم القيامة، ليستعد المؤمنون لذلك اليوم استعدادا صحيحا.

كما أن في هذه السور بيان إهانة الكفار يوم القيامة حتى لا يغتر المؤمنون بما قد يرونه من أحوال الكفار في الدنيا، فإن هذا استدراج لهم وهو عرض زائل ولهم الإهانة والذلة الكبرى الدائمة يوم القيامة.

كما أن فيها بيان أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن ما يزرعه الإنسان اليوم يحصده غدا، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها.

كما أن فيها أن ما يراه الإنسان في نفسه وفي الكون المحيط به يدل على وجود الله، فلا يمكن أن توجد أنت أيها الإنسان لوحدك، أنت فقط أنت بنفسك، لا يمكن أن توجد على هذا النظام العجيب بغير موجد، كما يقول بعض المخذولين: صدفة، ما يمكن، لو كان صدفة لوجدنا واحدا نجد أنفه فوق رأسه وواحد عين في الجبهة وعين في الذقن، إضافة إلى ما أعجز العلماء عبر القرون مما في داخل الإنسان من أجهزة عجيبة فإنها تدل على أنه لابد أن لك من موجد، ما يمكن، وأنت تعلم يقينا أنك لم توجد نفسك، وأنك لم يوجدك أحد من الناس، فتعلم يقينا أن الذي أوجدك هو الله سبحانه وتعالى.

وكذا الكون من حولك: هذا النهار والليل والشمس والقمر والنجوم والحر والبرد كلها دالة على وجود الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته، فالذي يميتك الموتة الصغرى بالنوم؛ النوم لا تستطيع أن تجلبه ولا تستطيع أن تدفعه إن هجم عليك، ولذلك الناس الذين يقولون: نومي بيدي، هذا غلط، الله عز وجل هو الذي يجعلك تنام، ولو شاء ما استطعت النوم ويأتيك النوم ويغلبك، قد لا تريد أن تنام لكن تنام هذه الموتة الصغرى.

والذي يحييك من نومك قادر على أن يميتك ويبعثك، وقد أراك شيئا من الجزاء في الدنيا فأنت تعمل العمل الصالح فتجد راحة في قلبك في ذلك اليوم، تجد أنك مرتاح، تصلي الليل فترتاح في النهار، تصلي الفجر فتجد نشاطا في يومك، وقد يأتيك من الله ما يأتيك وأنت في الدنيا، فأراك أنك تجازى على عملك، هذا في الدنيا فكيف في الآخرة.

فهذه السور التي قرأناها وقرأنا تفسيرها فيها هذه الحقيقة العظمى، وهو أن كل ما نراه في أنفسنا وفي الكون وفي الأرض وفي السماء يدلنا على وجود الله وعلى أنه سبحانه المدبر وعلى أنه على كل شيء قدير، وما دام ذلك كذلك فإنه المستحق للعبادة وحده سبحانه وتعالى.

فهذه الحكم الكلية والفوائد الكبرى في هذه الآيات التي قرأنا تفسيرها.

سورة البروج

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (1) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (2) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (3) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9) إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ (10) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذلك الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (11)﴾ [البروج: 1-11].

في هذه السورة المكية باتفاق العلماء يقسم الله عزوجل بالسماء ذات النجوم وذات المنازل للكواكب المعروفة، وذات الخلق الحكيم والشدة والإحكام، وبيوم القيامة الذي هو اليوم الموعود بزمانه الذي لا يعلمه إلا الله، وبما فيه من أهوال وأحوال، والذي وعد أهل الأرض والسماء بالاجتماع فيه.

وبالشاهد بكل حق في الدنيا والآخرة، فالله شاهد وكفى بالله شهيدا، والملائكة الكرام شاهدون، ومحمد صلى الله عليه وسلم شاهد ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: 41]، والأنبياء عليهم السلام شهود على أممهم ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ [النساء: 41]، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد على الأمم ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، وأعضاء الإنسان تشهد عليه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: 24]، ويوم الجمعة يشهد لأهله، والحجر الأسود يشهد لمن استلمه بحق يوم القيامة، وكل شاهد بالحق يدخل في هذا القسم العظيم.

ويقسم الله عزوجل بالمشهود وهو يوم القيامة، وكل يوم مشهود في الدنيا كيوم عرفة، وكل مشهود عليه في الدنيا والآخرة.

وجواب هذه الأقسام العظيمة ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: 4]، لقد لعن وأُهلك وعذب أصحاب الأخدود الذين حفروا في الأرض شقا عظيما مستطيلا، وأوقدوا فيه نارا

شديدة أشعلوها بالحطب، وازداد اشتعالها بأجساد المؤمنين حيث قذفوا فيها، فاتقدت وعظمت نارها.

ومن عظيم جرمهم وقسوة قلوبهم أنهم قعدوا على النار، فقعدوا عند أطرافها، ووقفوا عليها يشهدون المؤمنين وهم يحترقون، وينظرون إليهم وهم يحترقون في النار كبارا وصغارا، نساء ورجالا، وهذا يدل على شدة كفرهم، وقسوة قلوبهم، وانحرافهم عن الفطرة بالكلية، فإن الإنسان لا يطيق أن ينظر إلى من يحترق في النار ولو كان من أعداءه، فكيف بالجماعات من الصغار والكبار والرجال والنساء؟!

مع أن أولئك المعذَّبين بتلك النار ما أجرموا جرما، ولا اقترفوا ذنبا، فإنهم ما عذبوهم لذنب قد اقترفوه، ولا جرم قد فعلوه، وإنما عذبوهم على ما يمدحون به حيث آمنوا بالله عز وجل الذي له العزة المطلقة، والمحمود على كل حال سبحانه، وذلك لما رأوا الآيات البينات، ومنها: الغلام الذي آمن بالله عز وجل، فأراد الملك الطاغية الجبار أن يقتله، فلم يتمكن من قتله، وكلما سعى إلى قتله نجا ذلك الغلام من بطشه، حتى قال له الغلام: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به، قال: وما هو؟ قال: أن تجمع الناس على صعيد واحد، وتصلبني في جذع، وتأخذ سهما من كنانتي، وتقول: باسم رب هذا الغلام وترميني به، فإن فعلت فإنك قاتلي، ففعل ذلك، فمات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، فانقلب الكيد على ذلك الملك الجبار، وآمن الناس، فأمر ذلك الملك بأن يُحفر شق عظيم في أفواه السكك، وأن يرمى فيه الحطب الكثير، وأن توقد فيه النار، وأمر بجمع الناس، وقال للناس: من رجع منكم عن دينه تركناه، ومن بقي على دينه أحرقناه، وأمر غلمانه وجنوده بأن من لم يرجع عن دينه فاحموه فيها، واقذفوه فيها، فأخذ المؤمنون يتعادون إلى تلك النار، ويتدافعون فيها، وجعل غلمانه يلقون في ذلك الأخدود، ووقفوا عند جوانب النار ينظرون إلى المؤمنين وهم يحترقون في تلك النار.

ولم يخف أولئك الكفار المتجبرون ربهم سبحانه وتعالى الذي له ملك السماوات والأرض، فهو يملكهم ويملك غيرهم، ويدبرهم ويتصرف فيهم، وهو المطلع على كل شيء، يعلم ويسمع ويبصر، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وكفى به شهيدا.

فأولئك المتجبرون مملوكون له سبحانه وتعالى، وهو مطلع على ما يفعلون بالمؤمنين، ومع ذلك لا يخافونه، ويقتلون أولياءه ويعذبونهم بهذا العذاب الشديد.

ثم توعد الله الذين يعملون على صرف المؤمنين عن دينهم، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بشتى الأساليب ومنهم أولئك الجبارون أصحاب الأخدود بأن لهم العذاب الشديد المحرق في نار جهنم وبئس المهاد.

إلا من تاب منهم بعد جرمه، وأناب إلى الله، وأسلم وآمن، فإن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله، وسبحان الله! إذا كان الله عز وجل يقبل توبة هؤلاء المجرمين، بل ويحثهم على التوبة، ويفتح لهم باب الرجوع، لا شك أن من كان دونهم أقرب إلى هذا، وأقرب إلى أن يتوب الله عز وجل عليه إن صدق في توبته، فإن الله يغفر الذنوب جميعا.

ثم لما ذكر الله عز وجل عقاب أعدائه المتكبرين المتجبرين، ذكر ثواب عباده الصالحين الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله تعالى، إيمانا مع إذعان وانقياد، وعملوا الصالحات بإخلاص لله واتباع لرسول الله صلى الله عليه وسلم، بشرهم ربهم بأن لهم جنات وليس جنة واحدة، وكل جنة منها فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ومن نعيم أهلها أن الأنهار من الماء الصافي العذب البارد، والعسل المصفى، والخمر المصفى من كل ما يضر، واللبن الذي لم يتغير طعمه تجري من تحت قصورهم، ومن تحت بساتينهم، ومن بين أيديهم من غير أخاديد تحدها، بل تجري حيث يشتهون، ولا تفيض على أهلها، ولا تخطؤ طريقها، يتنعمون برؤيتها تجري من تحتهم، ويتنعمون بالشرب منها شرابا سائغا لذة للشاربين.

وذلك الفوز بالجنة هو الفوز الكبير العظيم الذي لا يدانيه فوز، ولا يقاربه فوز، فهو الفوز الدائم الذي لا ينقطع، الذي يتحقق به المطلوب في أعلى درجاته، ويسلم به من المرهوب في كل ألوانه، ومن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز الفوز العظيم.

هذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات العظيمة التي فيها أكبر العبر، وأعظم المواعظ لمن قرأ وتدبر، وراجع وتفكر، وينبغي أن يكون لها أكبر الأثر وأعظم الوقع على قلوب المؤمنين.

ثم نعود إلى التفسير التفصيلي للآيات، حيث نقرأ من هذا الكتاب البديع النافع تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للإمام المفسر الفقيه الأصولي المتفنن عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله عز وجل وسائر علماء المسلمين.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: ذات المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام، دالة على كمال قدرة الله تعالى، ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿**وَالسَّمَاءِ**﴾ **الواو** للقسم، والسماء معروفة، وكل ما علاك فهو سماء، والمقصود بالسماء هنا السماء المعهودة المعروفة الموصوفة بأنها صاحبة البروج.

﴿**ذَاتِ**﴾ بمعنى صاحبة.

﴿**الْبُرُوجِ**﴾ **قال كثير من المفسرين**: أي المنازل التي تسير فيها الكواكب المعروفة، وهي اثنا عشر كوكبا، أو اثنا عشر برجا، لكل فصل منها ثلاثة أبراج.

وقال بعض أهل العلم: البروج هي النجوم كلها، فمعنى ذات البروج صاحبة النجوم والكواكب.

وكل هذا مراد، فالسماء ذات النجوم الكثير وذات المنازل للكواكب المعروفة التي يعرفها الناس، وفي ذاك إحكام للخلق ونظام عجيب، وذلك دال على وجود الله، وعلى قدرة الله وعلى تدبير الله، فإنه لا يمكن للسماء أن تخلق نفسها وأبراجها وما فيها، ولا يمكن لمخلوق أن يخلقها، فخالقها ومدبرها بهذا النظام العجيب هو الله سبحانه وتعالى، وما دام ذلك كذلك فإنه المستحق للعبادة، لا يستحق أحد العبادة من دونه سبحانه وتعالى.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله الميعاد.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف، أي: مبصر ومبصر، وحاضر ومحضور، وراءٍ ومرئي).

هذا هو أوسع معنى للآية، فيدخل فيه جميع المعاني.

وقال بعض المفسرين: المشهود هو المخبَر عن أعماله، والشاهد هو المخبِر عن أعمال غيره.

وقال بعض المفسرين: المشهود يوم عرفة، والشاهد يوم الجمعة، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**اليوم الموعود يوم القيامة والمشهود يوم عرفة والشاهد يوم الجمعة**))، رواه الترمذي وحسنه الألباني، واختار هذا التفسير شيخنا الشيخ ابن باز رحمه الله عز وجل، وقال: إنه أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية.

وقال بعض المفسرين: يدخل فيها كل شاهد وكل مشهود.

وهذا الأرجح، فإن معاني القرآن واسعة، فيدخل في هذا القسم كل مشهود، سواء كان بحضوره، أو باعتباره، أو بكونه يُشهد عليه، ويدخل في هذا كل شاهد بالحق في الدنيا والآخرة.

قال رحمه الله: والمقسَم عليه ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمة الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾.

يعني أن جواب القسم هو ما تضمنه هذا القسم.

وقول الله: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ خبر مستأنَف، فيكون جواب القسم مضمَّنا في القسم، وأما قول الله عز وجل: ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ فهذا خبر جديد مستأنف.

وقال بعض العلماء: إن جواب القسم متروك، لم يذكر، يقدره السامع، وقال بعض المفسرين: جواب القسم ﴿**قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ**﴾ كما قال الشيخ.

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك.

﴿**قُتِلَ**﴾ **قال بعض المفسرين:** يعني لعن، وكل قتل في القرآن فهي بمعنى لعن.

وقال بعضهم: أهلك وعذب، وكلها معان صحيحة مرادة هنا، وهو:

- إما دعاء عليهم باللعن والهلاك والتعذيب.

- وإما خبر بما وقع عليهم، وهو أنه قد وقعت عليهم لعنة الله وأهلكوا وعذبوا في الدنيا والآخرة.

والأقرب كونه خبرا، وأن هذا الأمر قد وقع عليهم.

قال: والأخدود الحفر التي تحفر في الأرض.

الأخدود هو الشق العظيم الذي يحفر في الأرض ويكون مستطيلا.

قال: وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قوما كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودوهم على الدخول في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدودا في الأرض، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنون وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله، وأهلكم وتوعدهم، فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾.

وعلى هذا الرأي يكون أصحاب الأخدود هم أولئك الكفار الذين حفروا ذلك الشق، وحرَّقوا المؤمنين فيه، وهذا قول أكثر المفسرين.

وقال بعض المفسرين: أصحاب الأخدود هم أولئك المؤمنون الذين عُذبوا بالنار في ذلك الأخدود.

فمعنى ﴿قُتِلَ﴾ أي: قتل أولئك الكفار أصحاب الأخدود بتلك الطريقة البشعة، حيث حفروا شقا في الأرض، وأضرموا فيه النار، وألقوا فيها المؤمنين.

وهذا والله أعلم مرجوح، وقول الأكثر هو الأقرب والأظهر لما بعده من الآيات.

ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾، ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (6) ﴿وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ (7)﴾.

﴿**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾ بدل اشتمال، بدل من الأخدود، بدل اشتمال، والمعنى: المشتمل على النار، ولذلك يقول العلماء: هذا بدل اشتمال، بدل من الأخدود بدل اشتمال.

﴿**النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ**﴾ أي: النار صاحبة الوقود، أي: ذات الحطب الكثير المشتعل.

وقال بعض العلماء: أي ذات الاتقاد الشديد والاشتعال.

وكلاهما صحيح فهي ذات حطب شديد أوقد فيه حتى اشتعل، وزاد اشتعاله بالأجساد الملقاة فيه، فصارت النار ذات اتقاد شديد واشتعال عظيم.

﴿**إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ**﴾ أي: قعود على حافتها، ولقربهم منها قال الله: ﴿**عَلَيْهَا**﴾ كأنهم على النار ذاتها قعود، وذلك من شدة قربهم من النار.

وقال بعض العلماء الذين قالوا إن أصحاب الأخدود هم المؤمنون الذين عذبوا: إن المؤمنين كانوا في النار قعودا، لما ألقوهم في النار صاروا قعودا في النار.

﴿**وَهُمْ على مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ**﴾ أي: حضور، وهذا يدل على قسوة قلوبهم وشدة إجرامهم، كما قال الشيخ.

قال وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب؛ لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياه عند إلقاءهم فيها.

والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة يُمدحون عليها وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد، أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿**وَمَا نَقَمُوا**﴾ أي: ما عابوا عليهم، وما أنكروا عليه، وما أخذوا عليهم إلا هذا الحال المحمود، وهو أنهم آمنوا بالله العزيز الذي له العزة كلها، وبجميع معانيها: فله عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة الاستغناء، الله عز وجل له العزة المطلقة بجميع معانيها: فله عزة القوة، وله عزة الامتناع، وله عزة الغلبة والاستغناء، وله عزة القهر سبحانه وتعالى.

﴿**الْحَمِيدِ**﴾ فعيل بمعنى مفعول وفاعل، فهو سبحانه محمود على كل حال؛ لأن أفعاله وشرعه مبنية على الحكمة، فكل فعل لله مبني على الحكمة التامة، وكل شرع الله مبني على الحكمة التامة، فهو سبحانه محمود على كل حال، مثنى عليه بصفات الكمال والجمال، وهو حامد لمن يستحق الحمد من عباده.

فالحميد فعيل بمعنى مفعول، وبمعنى فاعل.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقا وعبيدا يتصرف فيهم بما يشاء.

ومنهم أولئك المجرمون الذين فعلوا بالمؤمنين ما فعلوا.

﴿وَاللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علما وسمعا وبصرا.

معنى شهيد أنه مطلع على كل شيء، لا يخفى عليه شيء سبحانه وتعالى، فهو مطلع على كل شيء بعلمه وسمعه وبصره سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيء، ولا يختلط عليه شيء بشيء سبحانه وتعالى، وهذا تهديد للكفار جميعا.

قال: أفلا خاف هؤلاء المتمردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أوَ مَا علموا أنهم مماليك لله؟ ليس لأحد على أحد سلطة من دون إذن المالك؟ أوَ خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازيهم عليها؟

كلا؛ إن الكافر في غرور، والجاهل في عمى وضلال عن سواء السبيل.

ثم أوعدهم الله ووعدهم وعرض عليهم التوبة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾: أي: العذاب الشديد المحرق، قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ **قال بعض المفسرين**: يعني إن الذين اجتهدوا في صرف المسلمين عن دينهم بشتى السبل، ومنها تعذيبهم وإحراقهم.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا﴾ أي: أحرقوا وأدخلوا المؤمنين في النار، يقال: فتن الذهب إذا أدخله في النار، فهو من هذا المعنى.

والأولى حمله على المعنى الأوسع الذي هو الأول، الذي يشمل كل من يسعى لصرف المسلمين عن دينهم في كل زمان ومكان، ما مضى قبل نزول القرآن، وما يلحق بعد نزول القرآن، فإنهم يدخلون في هذا الوعيد الشديد.

﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ انظر كيف أن الله عزوجل دعاهم إلى التوبة، وأخبرهم أنهم إن تابوا سلموا، وإن كانوا قد أجرموا، فالله لا يغلق الباب أمام أحد مهما بلغ إجرامه، فإنه إن أقبل على الله أقبل الله عليه، وإن أناب إلى الله قبله الله، بل وفرح به.

﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ **قال بعض المفسرين**: أي: لهم العذاب المحرق في جهنم شديدةِ العذاب.

وقال بعض المفسرين: فلهم عذاب جهنم في يوم القيامة، ولهم عذاب الحريق في الدنيا، فعذبهم الله في الدنيا بإحراقهم جزاء وفاقا لفعلهم بالمؤمنين.

وقد ذكر بعض السلف أن النار التي أحرقوا بها المؤمنين خرجت من الأخدود عليهم فأحرقتهم، وهذا اختاره بعض المفسرين كابن جرير الطبري، ونقله عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا تعارض بين المعنيين، فلهم عذاب محرق في جهنم، وأحرقهم الله عز وجل بالنار في الدنيا.

قال رحمه الله: ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم.

إن الذين ءامنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وعملهم من إيمانهم، فالعمل الصالح من الإيمان، فذكره بعد الإيمان من باب ذكر الخاص بعد العام، كما قال الله عز وجل: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: 4]، فالروح الذي هو جبريل من الملائكة عليهم السلام، ولا يعني هذا أن الروح ليس من الملائكة.

فكذلك هنا العمل الصالح من الإيمان، وذُكر بعد الإيمان من باب ذكر الخاص بعد العام.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل لهم الفوز برضا الله ودار كرامته.

﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ الجنات في اللغة: هي البساتين كثيرة الأشجار، التي تستر ما بداخلها لكثرة أشجارها، وهي كذلك في الآخرة، أعدها الله لعباده المتقين، وجعل فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

و﴿الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ هو الفوز العظيم الذي يتحقق به المطلوب، ويُسلم فيه من المرهوب، فهذا هو الفوز الكبير.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (13) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (14) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (15) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (16) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: 12-16].

يخبر الله عز وجل أنه غفور ودود، وأنه شديد العقاب، عظيم البطش، وأن بطشه وأخذه أعداءه وانتقامه منهم شديد قوي أليم، وفي ذلك تهديد لأولئك الأعداء إن لم يتوبوا، فهو سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وأخذه أخذا شديدا أليما، وهو سبحانه له الأمر كله من قبل ومن بعد، فهو الذي بدأ الأشياء كلها، وإليه تنتهي الأشياء كلها، فهو الخالق، وهو القابض، وهو الباعث وهو المعيد سبحانه وتعالى.

ومن ذلك أنه إذا شاء عذب أعداءه في الدنيا، فابتدأهم بالعذاب في الدنيا، وأعاد عليهم العذاب يوم القيامة، وهو أشد وأبقى، وآلم وأنكى سبحانه وتعالى.

ومع كون بطشه شديدا فإن رحمته واسعة، ومغفرته عظيمة، فهو ذو المغفرة الذي يستر الذنوب، ويسقط عقابها سبحانه وتعالى إن تاب صاحبها منها، وإن لم يتب منها ولم تكن شركا فإنه إن شاء غفر، فستر وأسقط، وإن شاء عاقب بعدل سبحانه وتعالى.

وهو الودود ذو المحبة الخالصة لأوليائه، والذي يحبه عباده الصالحون حبا خالصا، ويقدمون حبه على كل حب، وهو الذي يتودد إلى عباده بالنعم.

وفي قرن الودود بالغفور بشارة للمذنبين التائبين أن ذنوبهم السابقة مهما بلغت لا تمنع من أن يكونوا أولياء لله بعد توبتهم، فليس من شرط الولي ألا يسبق ولايته ذنب، أو ألا يقع في ولايته ذنب، ولكن الولي أواب يرجع إلى الله سبحانه وتعالى، فقرن الله الودود بالغفور ليبشر عباده التائبين أن ذنوبهم السابقة لا تمنع أن يكونوا أولياء لله، يحبهم الله سبحانه وتعالى.

وهو سبحانه له السلطان التام، فهو صاحب العرش الذي استوى عليه سبحانه، وهو أعظم مخلوقاته وأكبرها وأوسعها وأشدها، وذلك العرش مجيد، له الغاية في فضل المخلوقات، وربه سبحانه المستوي عليه مجيد، له الكمال المطلق في ذاته، وفي أسمائه وصفاته، وفي سلطانه، وفي شرعه، وفي خلقه سبحانه وتعالى.

وهو سبحانه فعال لما يريد، كثير الفعل لما يريد كونا وقدرا، فما أراده كونا وقدرا كان.

وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يمنعه مما أراد مانع سبحانه من عظيم، وهذا يقتضي أن يوحَّد، وأن يعبد سبحانه وتعالى.

هذا المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات المتلوة، ونعود إلى المعنى التفصيلي.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة، وهو للظالمين بالمرصاد.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾ البطش هو الأخذ والانتقام والتعذيب.

﴿لَشَدِيدٌ﴾ الشديد هو القوي العظيم الأليم المحيط.

والْحَظْ أن الشيخ قال: (**أي إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام لقوية شديدة**) فبطش الله شديد بمن يستحق البطش، ففعل ما يستحق به أن يُنتقم منه، وأن يعذب، وأن يؤخذ بذلك العمل، بأن فعله وأصر عليه، أما من سلم من الذنب فلم يذنب، فإن الله لا يبطش به، ومن أذنب فتاب فإن الله لا يبطش به.

إذن إن بطش ربك لشديد بمن يستحق البطش، أما من لا يستحق البطش فإنه داخل في الرحمة الواسعة وفي المغفرة من الله سبحانه وتعالى.

وهو للظالمين بالمرصاد، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: 102].

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا يشاركه في ذلك مشارك.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ﴾ أي: يبتدئ الكفار بالعذاب في الدنيا، فيعذب من شاء أن يعذبه منهم في الدنيا، كما حدث مع قوم نوح وفرعون وثمود كما سيأتي إن شاء الله.

﴿وَيُعِيدُ﴾ أي: أنه يعيد لهم العذاب يوم القيامة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى وأعظم وأنكى. وهذا في الحقيقة نوع من أنواع المراد، فيدخل في ذلك كل ما ذكرناه في التفسير الموضوعي الإجمالي.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

فالغفور هو كثير المغفرة، الذي يستر الذنب، ويسقط العقوبة، الغفور هو كثير المغفرة، والمغفرة: يا إخوة ستر الذنب وإسقاط العقوبة، فلا فضيحة ولا عقوبة، فيستر ويسقط سبحانه وتعالى.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.

الود هو خالص المحبة، فهو ليس المحبة، إنما نوع عالٍ من المحبة، أعلى المحبة، خالص المحبة، فالودود هو الذي يحب أولياءه حبا خالصا، ويحبه أولياؤه حبا خالصا، ففعول بمعنى فاعل ومفعول، يَوَد ويُوَد، ربنا سبحانه يَوَد ويُوَد ويتودد سبحانه وتعالى، فيتودد إلى عباده بالنعم وبتدبير أمورهم.

الودود الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء، فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك لا يشبهها شيء من أنواع المحاب، ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها.

كما تقدم في التوحيد، لا تكون العبادة عبادة إلا إذا كانت عن محبة وعن ذل وخضوع، ومحبة الله عز وجل مقدمة على كل محبة، بل إن كل محبة تَتْبع محبة الله، كل محبة مشروعة أو مأذون فيها تتبع محبة الله، فهي إما محبة لله: نحن نحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لله؛ لأن الله أكرمه، وجعله رسولا، وأمرنا بحبه، وهو صلى الله عليه وسلم يستحق أن نحبه، ولكن حبنا له لله وليس مع الله، ما نشرك مع الله، هو لله، محبتنا للعلماء لله، محبتنا فيما بيننا لله، محبة الزوج لزوجته من جهة النكاح هي محبة بإذن الله سبحانه وتعالى، وهذا معنى قول الشيخ: (تتقدم جميع المحاب وتغلبها).

وإن لم يكن غيرها تبعا لها كانت عذابا على أهلها؛ لأنها ممنوعة، وقد تكون شركية، وقد تكون دون ذلك كما فصلناه وفسرناه في شرح كتاب التوحيد.

وتلحظون أن الشيخ هنا فسر الودود بمعنى المحبوب الذي يحبه أولياؤه، ويوده أولياؤه، وقلنا إنا المودة محبة خالصة، فهي من أرفع أنواع المحبة.

قال: وإن لم تكن غيرها تبعا لها كانت عذابا على أهلها، وهو تعالى الودود الواد لأوليائه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، والمودة هي المحبة الصافية.

وهنا ذكر المعنى الثاني للودود، وهو أن الله يود ويحب سبحانه وتعالى، وكلها مرادة كما قلنا يتودد، كلها داخلة في الودود: يَود ويُود ويتودد سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله تعالى: وفي هذا سر لطيف حيث قرن الودود بالغفور؛ ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنابوا غفر لهم ذنوبهم، وأحبهم، فلا يقال: تغفر لهم ذنوبهم ولا يرجع إليهم الود كما قاله بعض الغالطين، بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب من رجل على راحلته عليها طعامه وشرابه وما يسطحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحا بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

يعني أن هذا الفرح قرِّب بهذا المثال، كما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فلله الحمد والثناء وصفو الوداد ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه.

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش العظيم الذي من عظمته أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته؛ ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى.

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾ العرش في اللغة: سرير المُلك، سرير الملك يسمى عرشا.

ولربنا سبحانه وتعالى عرش عظيم يحمله ثمانية، أحدهم ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام، وهذا يدلك على عظمة العرش، فالعرش يحمله من الملائكة ثمانية، أحدهم ما بين شحمة أذنه وعاتقه مسيرة سبعمائة عام، وله قوائم -أعني العرش- وهو سقف الفردوس.

﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ**﴾ بقراءة الكسر على أن هذا وصف للعرش، والمجيدُ من المجد، والمجد هو الغاية في الكرم والفضل، وسعة الصفات وعظمها.

فعرش ربنا له الكمال في فضل المخلوقات، وهو عظيم الصفات، من عظمته أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في فلاة، قال تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ**﴾ [البقرة: 255].

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفا عليه أن الكرسي موضع القدمين، وأن العرش لا يقدر قدره إلا الله، صح هذا عن ابن عباس موقوفا، أما المرفوع فضعيف.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة**))، وذكره الألباني في الصحيحة، فهذا يدل على عظمة العرش ومجده.

قال: وهذا على قراءة الجر يكون المجيد نعتا للعرش، وأما على قراءة الرفع فإنه يكون نعتا لله، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

على قراءة الرفع في المجيد ﴿**ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ**﴾ فإن هذا اسم لله، ووصف لله سبحانه وتعالى، وكما قلنا المجد هو الغاية في الكرم والفضل، وسعة الأوصاف وعظمها، فالله عز وجل هو المجيد الكامل في ذاته، والكامل في صفاته، والكامل في سلطانه، والكامل في شرعه، والكامل في خلقه سبحانه وتعالى.

وكلا القراءتين صحيحتان سمعيَّتان، وكلا المعنيين صحيح، فالعرش مجيد، وربه مجيد، ومجد هذا يليق بالمخلوق، ومجد ربنا هو المجد المطلق والكمال المطلق.

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئا فعله، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله.

أي مهما أراد شيئا كونا وقدرا؛ لأن إرادة الله نوعان:

- إرادة كونية قدرية إيجادية.
- وإرادة شرعية أمرية.

والمراد بالإرادة هنا الإرادة الكونية القدرية الإيجادية، فمهما أراد شيئا كونا وقدرا فعله، إذا أراد شيئا قال له: كن، فيكون.

يعني العامة يقولون بين الكاف والنون، لا؛ ليس بين الكاف والنون؛ لأن البينية تقتضي التوسط، وإنما بكن تكون، ما نقول: أمر الله وخلق الله بين الكاف والنون، نقول: أمر الله مع كن، فإذا قال الله كن كان.

قال الشيخ: (وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله)؛ لأنه ليس لأحد إرادة مطلقة إلا الله، الإنسان له إرادة، لكنها تحت إرادة الله، ولن يريد إلا ما أراده الله سبحانه وتعالى، فليس لأحد من الخلق إرادة مطلقة، الإرادة المطلقة لرب الخلق سبحانه وتعالى، لله، وأما كل مخلوق فمهما بلغت قوته، ومهما بلغت عظمته بالنسبة للمخلوقات، فإنه ليست له إرادة مطلقة، وليس كل فعل له يبنى على إرادته، فقد يفعل ما لا يريد، وقد يريد ولا يفعل، الإنسان قد يفعل ما لا يريد، يأتيه مثلا الخارج من السبيلين، هو لا يريده، لكن يفعل، وقد يريد شيئا، ولكنه لا يفعله .

فالفعال لما يريد هو ذو الإرادة المطلقة سبحانه وتعالى، ربنا سبحانه وتعالى.

وفعال تدل على الكثرة، فلا يفعل بعض الأشياء التي يريدها، بل هو كثير الفعل لما يريد كونا وقدرا، وهو سبحانه إن أراد كونا وقدرا فعل بقوله: كن، فهو الغني القدير.

أما المخلوق فإنه إذا أراد شيئا لابد أن يُعان عليه، كل الأشياء لا يمكن أن يفعلها المخلوق إلا إذا أعانه الله، وقد يحتاج إلى عون مخلوق مثله، ولا يستطيع أن يفعل ما يريد إلا إذا أعانه مخلوق مثله.

وهذا يدلنا على أن الكمال المطلق والغنى المطلق والقوة المطلقة إنما هي لربنا سبحانه وتعالى، أما المخلوق فليست له قوة مطلقة، وليس له غنى مطلق، فهو فقير وإن استغنى.

قال: فإن المخلوقات ولو أرادت شيئا فإنه لابد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

فلا يمنعه مما أراد مانع، وإذا أراد شيئا قال له: كن، فيكون، فلا يمتنع ولا يمانع، لا يمتنع ما أراده، ولا يمانَع سبحانه مما أراده، وإذا أراد شيئا فإنما يقول له: كن فيكون، فهو الفعال لما يريد.

وفي هذا وعيد شديد لأعدائه الذين يكذبون رسله، ويعادون عباده الصالحين.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ (19) وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (20) بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (21) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ (22)﴾.

في هذه الآيات الكريمات يخاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين تبعا له تسلية لنبيه صلى الله عليه وسلم على ما يلقاه من أذى الكفار عندما كان في مكة وما يراه من إعراضهم، وتسلية للمؤمنين معه الذين كان الكفار يعذبون أغلبهم، ويحرصون على فتنة المسلمين عن دينهم، وتهديدا لأعدائه المحاربين لنبيه ولأوليائه المؤمنين وبيانا لسنته الكونية في أعدائه المكذبين لرسله بقوله سبحانه: **﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾** أي: قد أتاك خبر القوم ذوي القوة والمنعة والعدد الكثير، فجاءك حديثهم وخبرهم.

والاستفهام هنا للتنبيه والمراد التحقيق: قد أتاك خبرُهم، وهم فرعون وملؤه الذين طغوا في البلاد وأظهروا فيها الظلم والفساد، وثمود قوم صالح الذين قطعوا الصخور وبنوا بها القصور ونحتوا الجبال بيوتا، ولم يؤمن هؤلاء ولا أولئك فانتقم الله منهم، فأغرق فرعون وملأه بالماء الذي كان فرعون يتجبر به ويتكبر ويقول: وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأهلك الآخرين برجفة وصيحة لم تترك منهم أحدا.

وخص الله عز وجل فرعون وثمود بالذكر لشهرة أخبارهم عند العرب وعند اليهود والنصارى، فهم أقرب للاعتبار بهم، وهذا الذي وقع يكفي زاجرا للكفار بمحمد صلى الله عليه وسلم عن كفرهم، فلو كانوا يعقلون لانزجروا واعتبروا بما وقع لمن كفر وعاند من الأمم السابقة، ولكنهم يكذبون برسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يؤمنون بالآيات المتلوة عليهم في القرآن ولا بالأخبار الصادقة التي يخبرهم بها سيد ولد عدنان صلى الله عليه وسلم، ولا يعتبرون بالآيات الكونية ولا بما يمرون به مما فيه اعتبار ومواعظ للقلوب الحية.

فهم في وسط التكذيب، والتكذيب محيط بهم من كل جانب فأعمى أبصارهم وطمس بصائرهم، فلا يصدقون ولا يعتبرون.

والشأن أن الله سبحانه وتعالى محيط بهم وبأعمالهم من كل جانب لا يخرجون من سلطانه، ولا يغيبون عن علمه ولا عن سمعه ولا بصره، ولا يخفى منهم شيء.

ثم هم راجعون إلى الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك أعظم التهديد لأولئك الكفار المكذبين برسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين يكذبون بالقرآن وهو قرآن ذو عظمة ومجد وإعجاز، فهو كلام الله المعجز، ولا يمكن لمخلوق مهما بلغ من الفصاحة أن يأتي بمثله أو أن يأتي بمثل بعضه.

ومن كان من أهل القرآن صادقا كان له من المجد والعزة النصيب الأعظم، ومن كذب بالقرآن كان له من الذلة النصيب الأعظم.

وهو محفوظ في اللوح المحفوظ لا يناله تغيير ولا تبديل، وهو محفوظ عند نزوله، فالله يتكلم به متى شاء، ويسمعه منه جبريل الأمين عليه السلام، ويُسْمِعُه لمحمد الصادق الأمين صلى الله عليه وسلم، وهو محفوظ لأمة محمد تكفل الله بحفظه: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: 9]، ويسر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم حفظه.

فالقرآن يحفظه المؤمنون يحفظه صغار من المؤمنين ويحفظه كبار من المؤمنين، ولو قرأ قارئ فأخطأ في آية لرد عليه صغار الحفاظ قبل كبارهم، فهو محفوظ لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ما بقيت هذه الأمة، يتلونه اليوم وغدا كأنه نزل اللحظة على محمد صلى الله عليه وسلم.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه الآيات، ونعود إلى التفسير التفصيلي، ونقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله عز وجل ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)﴾.

﴿هَلْ﴾ بمعنى قد، فإن أخبارهم قد أتته صلى الله عليه وسلم في القرآن، والاستفهام كما قلنا للتنبيه لما في هذه الأخبار من المعاني والعبر.

﴿حَدِيثُ﴾ أي: خبر.

﴿الْجُنُودِ﴾ هم القوم المجتمعون كثيرو العدد الذين لهم قوة ومنعة، فهم يتصفون بثلاث صفات: الاجتماع، والكثرة، والقوة.

وبين الله عز وجل المراد بالجنود هنا في قوله: ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وفرعون ملك له جنود وملأ، فليس المقصود فرعون فقط، وإنما من تحت ولايته من الكفار من جنوده ووزرائه وأتباعه الذين آمنوا به ولم يؤمنوا بالله عز وجل.

﴿وَثَمُودَ﴾ هم قوم صالح، وهم عند العرب وديارهم في ديار العرب وآثارهم باقية، فالبيوت التي نحتوها في الجبال لازالت باقية، ويمر بها العرب ويرونها.

ومن هنا تعرف سر تخصيص فرعون وثمود بالذكر مع كون الجنود الكفرة المهلَكين كثر، خص فرعون بالذكر لشهرة أخباره عند العرب واليهود والنصارى، وخص قوم صالح ثمود بالذكر لكونهم في ديار العرب فهم أقرب للمخاطبين بالقرآن عند نزوله.

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18)﴾ وكيف كذبوا المرسلين فجعلهم الله من المهلكين.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات، ولا تجدي لديهم العظات.

وانظر أن ربنا سبحانه وتعالى قال: ﴿فِي تَكْذِيبٍ﴾ فهم في التكذيب، ومعنى ذلك أن التكذيب محيط بهم من كل جانب، فهم لا يؤمنون ولا يصدقون، فقد أعماهم التكذيب وطمس بصائرهم.

﴿وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ﴾ قد أحاط بهم علما وقدرة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ففيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

وهم راجعون إلى الله عز وجل ومؤاخذهم بأعمالهم لن يغيب منها شيء ولن يفقد منها شيء.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: واسع المعاني عظيمها كثير الخير والعلم.

تقدم معنا أن المجيد من المجد وهو الكمال في الفضل، والقرآن هو أفضل الكتب المنزلة على الرسل وقد بلغ الكمال وهو كلام الله سبحانه وتعالى.

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

فهو محفوظ في اللوح المحفوظ الذي لا يتطرق إليه تغيير، ومحفوظ عند إنزاله كما قلنا الله عز وجل يتكلم بالآيات متى شاء، فيسمعها جبريل عليه السلام، وجبريل ذو قوة أمين متين فينزل بالقرآن، والسماء قد حفظت من الشياطين والجان، فيُسْمع محمدا صلى الله عليه وسلم الآيات، ومحمد صلى الله عليه وسلم رسول الله الصادق الأمين فيسمعها للناس.

ثم بعد نزوله أيضا هو محفوظ، ولازال محفوظا وسيبقى محفوظا، وهذا من مجد القرآن وكمال فضله.

قال: وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ورفعة قدره عند الله تعالى والله أعلم.

وبهذا فرغنا من تفسير هذه السورة ومن الحكم الكلية.

والفوائد العظمى من هذه السورة:

-بيان قوة الله وقدرته وسنته في نصر أوليائه وأخذ أعدائه: بيان قوة الله القوي المتين وقدرة الله سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير وسنته الجارية في نصر أوليائه وأخذ أعدائه.

- أيضا من الحكم الكلية والفوائد العظمى في هذه السورة بيان سنة الكفر والكفرة مع دين الله عز وجل والعداء لأهل دين الله عز وجل، وأن عداوة الكفار للمسلمين إنما هي من أجل دينهم وإن تظاهروا بأشياء أخرى، فإن حقيقة عداوتهم أنها من أجل دين المسلمين، ولذلك لن يرضى الكفار عن المسلمين مهما فعلوا إلا أن يتركوا دينهم؛ لأن عداوة الكفار وبغض الكفار للمسلمين إنما سببه دين المسلمين، وعلى المسلمين أن يعوا هذا الأمر.

- ومن الحكم الكلية والفوائد العظمى في هذه السورة: بيان أن المسلمين لا يزالون منصورين ما تمسكوا بالقرآن العظيم، وأنهم لن يهزموا إلا إذا تركوا كتاب الله سبحانه وتعالى.

- وكذلك من تلك الحكم الكلية والفوائد العظمى: بيان أن من أجرم وأصر على إجرامه حقيق بأن يأخذه الله أخذا شديدا، وأنه إذا تاب من إجرامه قبل أن يحل به العذاب يسلم من ذلك العذاب، بيان أن من أجرم وأصر على إجرامه وظلم وعظم ظلمه حقيق بأن يأخذه الله عزوجل أخذا شديدا وإن أملى له، وأنه إن تاب من إجرامه مهما عظم قبل أن يحل به العذاب يسلم برحمة الله من ذلك العذاب.

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ (2) النَّجْمُ الثَّاقِبُ (3) إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (4) فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (8) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (10)﴾.

في هذه السورة المكية يقسم الله عز وجل بالسماء وما يكون فيها مما يظهر ليلا ويختفي نهارا، وينبه نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمن ويشوقه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ أي: وما أعلمك ما الطارق؟ إنه النجم اللامع شديد اللمعان والمتوهج بضوئه الذي يثقب السماء بشدة ضوئه، ويكون متميزا عن غيره من النجوم بشدة ضوئه، وكذلك النجم الذي يرى ضوؤه عندما ترمى به الشياطين حتى لا تسترق السمع، وفي ذلك إشارة إلى حفظ القرآن الكريم.

وجواب القسم أنه ما من نفس من الناس إلا ويحفظها الله عز وجل، وجعل عليها من الملائكة من يحفظها ويحرسها من الآفات والمهلكات، ولولا ذلك لما عاش الإنسان في الدنيا على الأرض وهلك، ولكن الله عز وجل يسر له ملائكة تحفظه من الآفات المهلكات.

كما جعل له ملائكة يحفظون أعماله -أو نقول يحفظون أعمالها باعتبار أنا نتكلم عن النفس- من الأفعال والأقوال الظاهرة والخفية، ويكتبون ذلك لتعرض على صاحبها يوم القيامة ويلاقيها.

وقد جعل الله عز وجل للإنسان في دنياه ما يعتبر به ويتعظ به إن تفكر فيه وتدبر، ومن ذلك نفسه. فلينظر الإنسان في نفسه نظر تفكر واعتبار، وليفكر من أي شيء خُلق؟ وما هو أصل خلقته؟ إنه خُلق من ماء مهين هو المني يخرج دفقا ودفعا من بين ظهر الرجل وأعلى صدره، أو من بين ظهر الرجل وصدر المرأة، فهو في مكان أمين من الجسد يحفظ فيه بحيواناته، ثم يخرج عند الشهوة مندفعا سائلا حيث يختلط ببويضة المرأة وبماء المرأة الأصفر الرقيق الذي فيه البويضة، فتلقح البويضة بالحيوان المنوي إذا شاء الله عز وجل

ذلك، وتستقر تلك البويضة الملقحة في الرحم، فإن سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى شبه أبيه، وإن سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى شبه أمه.

وهذا يشترك فيه كل الناس الأغنياء والفقراء الملوك والعامة بمختلف الألوان، كل الناس هذا أصل خلقتهم، فأصل خلقتهم واحد، ولا يملك مخلوق مهما أوتي من العلم أن يوجد ذلك الماء، ولا أن يحدث تلك البويضة فالعلماء بالطب والتشريح مع سعة علمهم عاجزون عن إيجاد الماء وما فيه من الحيوانات المنوية، وعاجزون عن إيجاد البويضات، لا يملك ذلك إلا الله.

والقادر على إيجاد مادة الإنسان قادر على أن يعيده يوم القيامة، والإعادة أسهل وأهون من الابتداء، وهذا أمر عقلي مرئي لا يمكن دفعه لمن كانت له بصيرة، وإعادته وبعثه يوم القيامة يوم تختبر القلوب، وتكشف المكنونات، وتبرز الأعمال من الكتب، وتربط الأعمال بالقلوب صلاحا وفسادا، ويحاسب الإنسان على ذلك، في يوم يكون فيه الإنسان ضعيفا لا قوة له في ذاته، ولا في حيلته حتى يدفع عن نفسه، ولا ناصر له من غيره يحميه ويدفع عنه لا من نسبه، ولا من أصحابه، ولا من جنده، ولا من غير ذلك.

فهو يأتي ربه يوم القيامة فردا، وهذه حقيقة الإنسان؛ يبدأ ضعيفا من ماء مهين ضعيف، ويكون في رحم أمه فردا، ثم يعيش في الدنيا ويسعى بعمله ويكدح إلى ربه، ثم يكون في قبره فردا، ثم يبعث يوم القيامة فردا، لا تكون له قوة يدفع بها عن نفسه، ولا حيلة يحتال بها، ولا تقبل منه فدية يفتدي بها من عذاب الله، ولا يوجد شيء يساوي جرمه حتى يفتدي به من عذاب الله لو كان يملكه، فكيف وهو لا يملك شيئا يوم القيامة؟!

يأتي كما ولدته أمه، ولا يكون له ناصر ينصره ويحميه، ولا يكون له شافع إلا أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

ولو أن الإنسان علم هذا علم اليقين لسار إلى ربه في تقى، وخاف من الله أشد الخوف، واستحيى من الله حق الحياء.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات، ونعود إلى المعنى التفصيلي لهذه الآيات، ونقرأ ما ذكره الشيخ رحمه الله.

قال رحمه الله تعالى: يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ (1)﴾.

الواو للقسم.

و﴿**السَّمَاءِ**﴾ هو كل ما علاك، فيشمل ذلك الأفلاك والسماء المعروفة بهذا الاسم، هكذا قال جمع من العلماء.

والأظهر والله أعلم أن المراد بالسماء هنا هي السماء المعروفة بهذا الاسم، وليس كل ما علا، وهذا هو المتبادر إلى الذهن عند سماع اسم السماء.

وأما الطارق فيأتي تفسيره.

﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ**﴾ **قال العلماء**: هذا استفهام تنبيه وتشويق قدم أمام البيان لتلتفت القلوب وتنتبه وتشتاق إلى ما يأتي من التفسير، وفُسر الطارق بقول الله

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء الذي يثقب نوره فيخرق السماوات فينفذ حتى يرى في الأرض.

قال: أي: المضيء شديد الإضاءة الذي يثقب نوره؛ أي: أنه شديد الإضاءة، فضوؤه شديد وهاج، فينفذ حتى يرى في الأرض ويلتمع نوره وهو في السماء.

وقال بعض المفسرين: ﴿**الثَّاقِبُ**﴾ هو الذي يرتفع ويعلو.

وقال بعض المفسرين: ﴿**الثَّاقِبُ**﴾ هو الذي يُرمى به؛ أي: أن النجم الثاقب هنا هو الذي ترمى به الشياطين.

ومن نظر إلى السماء يرى أحيانا ضوءا يلتمع، هذا ضوء النجم الذي ترمى به الشياطين.

وقال بعض المفسرين: ﴿**الثَّاقِبُ**﴾ هو المحرق، وهو النجم الذي ترمى به الشياطين فيحرقها.

هذا تفسير معنى الثاقب.

ثم اختلف العلماء في هذا النجم الثاقب: هل هو كل النجوم؟ أو نجم معين؟ وهذا ما ذكره الشيخ.

قال: والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب، وقد قيل إنه زحل الذي

يخرق السماوات السبع وينفذها فيرى منها.

وقيل: إنه الثريا، لكن الأقرب والأظهر أنه يشمل كل نجم ثاقب له نور يرى ويراه الناس من الأرض.

قال: وسمي طارقا لأنه يطرق ليلا .

ومعنى يطرق ليلا يظهر ليلا ويختفي نهارا، يقال: طرق فلان بيته إذا جاءه ليلا، فالطرق هو المجيء في الليل.

وبعض المعاصرين الذين يتكلمون عن إعجاز القرآن؛ وهذا التفسير أعني بإعجاز القرآن إن كان متوافقا مع كلام المتقدمين وكان حقيقة علمية فهو طيب، أما إذا كان يخالف كلام المتقدمين ويأتي بمعنى جديد لم تعرفه الأمة فهذا لا يمكن في القرآن وهو باطل، فإذا اختلفت الأمة في التفسير على قولين أو جاءت بقول واحد وإن تنوع التعبير فإنه لا يجوز لمن بعدهم أن يحدث قولا جديدا يخالف ما كان عليه أول الأمة، فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا تجتمع إلا على حق، وما خرج عن اجتماعها فهو باطل.

وكذلك التفسير بالإعجاز بالنظريات التي ليست حقائق يقينية، فإنه لا يجوز أن يجر القرآن إلى ما هو تحت التجربة، يمكن أن يثبت ويمكن ألا يثبت.

بعض الذين يعتنون بتفسير الإعجاز أو التفسير الإعجازي وهو تفسير مخترع جديد يعني يقولون الطارق والنجم الثاقب هو النجم الذي له صوت، فيقولون: الطارق من الطرق، من طرق الباب وطرق الخشب له صوت، فالنجم الثاقب هو النجم الذي له صوت.

وهذا لم يقله أحد من المفسرين المتقدمين، ولا يعرف في لغة العرب فلا يلتفت إليه، وإنما ذكرته هنا لأذكر الفائدة المتعلقة بالتفسير الإعجازي وأنه متى يكون طيبا ومتى يكون ممنوعا، وإلا فالحقيقة مثل هذا التفسير لا يوقف عنده ولا يؤبه به.

قال: والمقسم عليه قوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذه إحدى القراءتين **لـمَّا** بتشديد الميم، وعلى هذا تكون **إن** نافية، و**لـمَّا** بمعنى إلا، فيكون المعنى: ما من نفس إلا عليها حافظ.

وفي قراءة الأكثر **لما** بتخفيف الميم -كما كاد نور الدين أن يقرأها-. ﴿**إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ**﴾، فتكون **إن** مخففة من الثقيلة، و**اللام** زائدة للتوكيد صلة، و**ما** فارقة، فيكون المعنى: إِّن كل نفس عليها حافظ.

والحافظ كما ذكر الشيخ هنا هم الملائكة حفظة الأعمال كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين، ومنهم شيخهم ابن جرير، هم الملائكة حفظة الأعمال.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الحافظ هنا هم الملائكة الذين يحفظون الإنسان ويحرسونه في الدنيا من المهلكات حتى يأتي قدر الله، وأحسب أن ابن كثير ذهب إلى هذا.

وقال بعض المفسرين: الحافظ هنا هو الله.

والكل صحيح، فالله حافظ وهو خير الحافظين، وقد قيظ للإنسان ملائكة يحفظونه ويحرسونه من المهلكات، وجعل له ملائكة يحفظون عليه أعماله وأقواله ويكتبونها.

فهذا كما قلنا مرارا من اختلاف التنوع، وهذا الغالب على اختلاف المفسرين أن يكون من باب اختلاف التنوع، لماذا؟

لأن القرآن حمال وجوه، ويحتمل المعاني الكثيرة في الكلمات القليلة.

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5)﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه.

﴿**فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ**﴾ **قال بعض أهل العلم**: **ال** هنا للجنس، فهذا خطاب لجنس الإنسان المؤمن والكافر، كل إنسان يأمره الله أن ينظر في أصل خلقته وفي نفسه نظر تدبر واعتبار.

وقال بعض أهل العلم: **ال** هنا للعهد، فالإنسان هو الكافر المنكر للبعث؛ أي: فلينظر هذا الإنسان الذي يكذب النبي صلى الله عليه وسلم وينكر البعث إلى نفسه وإلى أصل خلقته.

والأظهر أنه لجنس الإنسان، كلما كان المعنى أعم وأشمل واحتمله اللفظ كان أولى إلا أن يأبى ذلك السياق، وهذا ضابط في تفسير القرآن، كلما كان المعنى أعم وأشمل ويحتمله اللفظ ولا يأباه السياق كان أولى أن يحمل عليه القرآن.

قال: فإنه مخلوق من ماء دافق وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب، يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد المني الدافق وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما

وصف به الماء الدافق الذي يحس به ويشاهد دفقه وهو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل للرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، فلو ولدت الأنثى لقيل: من الصلب والثديين ونحو ذلك والله أعلم.

﴿**خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ**﴾ **بعض المفسرين يقول**: هذا هو ماء الرجل، المني الذي يخرج دفقا ودفعا عند حصول سبب ذلك.

وبعض المفسرين قالوا: هذا ماء الرجل وماء المرأة، الماء الدافق هنا هو ماء الرجل وماء المرأة؛ لأن الإنسان يخلق من الماءين، من ماء الرجل وماء المرأة، قالوا: وكان دافقا؛ لأنه يندفع من مكانه عند حصول السبب، فماء الرجل يندفع من مكانه ويخرج مندفعا، وماء المرأة يخرج من المبايض مندفعا ولكنه لا يخرج دافقا، وفي هذا رد على الذين ضعفوا القول بأنه ماء المرأة وماء الرجل بأن ماء المرأة لا يكون دافقا، قالوا والذي يكون دافقا هو ماء الرجل، يخرج مندفعا عند حصول السبب، أما ماء المرأة فإنه لا يخرج دفقا، وإنما يسيل حتى لو احتلمت المرأة فإنها قد ترى الماء وهو ماء أصفر رقيق يسيل سيلانا، قد يخرج خارج الفرج وقد لا يخرج، رد عليهم من يقول إنه ماء المرأة وماء الرجل بأن الدفق هنا يعني الاندفاع من المحل، فماء الرجل يندفع من محله وماء المرأة يندفع من محله عند حصول السبب.

﴿**يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ**﴾ الصلب هو الظهر باتفاق المفسرين، ظهر الرجل.

لكن اختلفوا في الترائب، **فقال بعضهم**: الترائب هي ترائب الأنثى، وما هي ترائب الأنثى؟

قال بعضهم: هي ثدياها، ومعنى هذا أن الماء متصل بالثدي بطريقة الله أعلم بها.

وقال بعضهم: الترائب ما بين الثديين.

وقال بعضهم: ترائب المرأة أضلاعها.

وقال بعضهم: الرجلان والقدمان والعينان، ما هي الترائب؟ قالوا الرجلان واليدان والعينان.

طبعا هؤلاء من يا إخوة؟ الذين يقولون إن الماء الدافق هو ماء الرجل وماء المرأة.

وقال بعض المفسرين: الصلب ظهر الرجل، والترائب ترائب الرجل، والترائب هي الصدر، ترائب الرجل قالوا الصدر، يعني ما بين الظهر والصدر.

وبعضهم قال: الأضلاع.

وبعضهم قال: بعض الأضلاع.

وبعضهم قال: الرجلان واليدان والعينان.

والشيخ ابن سعدي كما رأيتم اختار أن الماء الدافق هو ماء الرجل، وأن الترائب ترائب الرجل، والآية محتملة، لكنا نجزم أن للمرأة ماء كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وأن خلقة الإنسان لا تكون من ماء الرجل فقط، بل من ماء الرجل وبويضة المرأة التي تكون في مائها، وأما المراد في الآية فهو محتمل، وإن كنت أنا أميل إلى أن الماء الدافق هو ماء الرجل وماء المرأة، والدفق كما عرفنا الاندفاع من المحل، والصلب هو ظهر الرجل، والترائب هي ترائب المرأة.

قال رحمه الله: فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب قادر على رجعه في الآخرة وإعادته للبعث والنشور والجزاء.

وقد قيل: إن معناه أن الله على رجع الماء المدفوق في الصلب لقادر وهذا وإن كان المعنى صحيحا فليس هو المراد من الآية.

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ عندنا ضميران: **إنه** هنا الضمير يعود إلى الله سبحانه وتعالى، إن الله.

﴿عَلَىٰ رَجْعِهِ﴾ الضمير في رجعه يعود إلى ماذا؟

قال بعض المفسرين -وهو الأظهر-: يرجع إلى الإنسان، فيكون المعنى إن الله على رجع الإنسان وبعثه يوم القيامة لقادر، إن الله على رجع الإنسان وإعادته بعدما يبلى وبعثه يوم القيامة لقادر، وهذا أظهر ما قيل.

وقال بعض المفسرين: الضمير يرجع إلى الإنسان، ولكن المعنى: إن الله على إعادة هذا الإنسان المتكبر بنفسه المكذب بدين ربه لقادر على أن يعيده ماء كما كان لو شاء، يقول:

هذا الإنسان المتكبر المتجبر الذي يكذب بدين الله؛ ربُّه الذي خلقه من ماء مهين قادر على أن يعيده ماء مهينا.

وهذا وإن كان صحيح المعنى وفيه تهديد للكفرة إلا أن السياق يأباه؛ لأن السياق يدل على أن هذا في الآخرة، ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ والإرجاع يوم تبلى السرائر هو إعادة الأجساد والبعث.

وقال بعض المفسرين: إنه -أعني الضمير- يرجع إلى الماء، إنه على رجعه؛ أي: على رجع الماء لقادر، فيكون المعنى: إن الله على رد هذا الماء وحبسه حتى لا يندفع من مكانه لقادر لو شاء، لو شاء الله ما جعل هذا الماء يخرج، سبحان الله! الله عز وجل خلق الماء ولو شاء ما خلقه، وجعله في مكان أمين يحفظ فيه هذا الماء بخواصه وينتج، ولو شاء ما كان، وجعل خلقة الرجل وخلقة المرأة قابلة للجماع، ولو شاء ما جعل ذلك، وأرشد الإنسان إلى العمل الذي يتحرك به الماء ويحصل به التقاء ماء الرجل وماء المرأة، ولو شاء ما فعل ذلك، ألا يدل هذا الإنسان على ضعفه وعلى أن الله هو الذي يدبر أمره، وعلى وجود ربه وعلى قدرته، وعلى أنه المستحق للعبادة؟!

أين يذهب الملحدون الذين يزعمون أنهم أصحاب عقول من هذه الحقيقة التي لا يمكن دفعها؟!

هذا الملحد الذي ينكر وجود الله وينكر الأديان إذا أراد الولد ماذا يفعل؟ يبقى ويقول: يأتي الولد، وهل يملك من أمره شيئا؟ لا؛ والله، ولكنهم قد استسلموا للشيطان، والله لا سبب للإلحاد إلا الاستسلام المحض للشيطان، ما يمكن يكون فيه عقل، ما يمكن يكون فيه آيات، ما يمكن، ما يمكن، إلا الاستسلام المحض للشيطان، أو يكذبون على أنفسهم ما هم ملحدون، ولكن هم يريدون ما وراء الإلحاد.

ناظرت ملحدا من الملحدين العرب لا كثرهم الله وهدى الضلال، فمازلت به بحمد الله حتى رجع، فقال: أخبرك يا شيخ؛ أنا والله وصلت مع القوم إلى القمة، ما بالقوم إلحاد، وإنما هم يريدون الحرية البهيمية، ولذلك يتواعدون في بعض الدول بزوجاتهم، ويتبادلون الزوجات، ملحدون، هكذا يتوهمون، فالملحد لا يخلو من حالين:

- إما أنه مستسلم للشيطان استسلاما تاما محضا.
- وإما أنه يريد ما وراء الإلحاد، وإلا فهو ليس ملحدا في الحقيقة، في قلبه ليس ملحدا، ولكن يريد ما وراء الإلحاد من الحياة البهيمية والحرية المطلقة كما يزعمون.

أعود فأقول **قال بعض المفسرين**: إن الضمير يرجع إلى الماء الدافق، فيكون المعنى: إن الله على رد ذلك الماء وحبسه في مكانه حتى لا يخرج لقادر، فلا يخلق الإنسان.

وقال بعض المفسرين: إن الله على رده إلى الإحليل حيث خرج منه لقادر، والمعنى متقارب، لكن هذا الثاني يكون يعني بعد خروجه الله قادر على رده، وألا يأخذ طريقه حيث يحصل الالتقاء.

ولكن الأظهر والله أعلم أن الضمير كما قلنا في الأول يرجع إلى الإنسان، والمعنى: أن الله على رجع الإنسان وإعادة جسده وبعثه يوم القيامة لقادر بدلالة السياق.

قال رحمه الله: ولهذا قال بعده: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9)﴾ أي: تختبر سرائر الصدور.

تختبر سرائر الصدور يعني: سرائر القلوب ويكشف ما فيها، وتربط أعمال الجوارح بها، فإن فساد الأعمال أو صلاح الأعمال منوط بالقلوب، ((ألا وإن في الجسد مضغة إن صلحت صلح الجسد كله وإن فسدت فسد الجسد كله))، فيكشف ما في القلوب من نيات واعتقادات، وتربط أعمال الجوارح بها ويحاسب الإنسان على ذلك.

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (9)﴾ أي: تختبر سرائر الصدور ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

وقال بعض المفسرين: السرائر هي ما في الكتب، هي أعمال الإنسان وأقوال الإنسان التي في الكتب، تكشف وتظهر يوم القيامة، فمعنى **تبلى** على هذا القول: تظهر وتبدى بعد أن كانت في بطون الكتب، تظهر وتبدى لأصحابها، وبعض الناس يفضح أمام الناس عياذا بالله من سوء الحال.

قال رحمه الله: ففي الدنيا تنكتم كثير من الأشياء ولا يظهر عيانا للناس، وأما يوم القيامة فيظهر بر الأبرار وفجور الفجار، وتصير الأمور علانية.

وقوله: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ﴾ أي: من نفسه يدفع بها، ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ من خارج ينتصر به فهذا القسم على العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12) إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ (13) وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ (14) إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (15) وَأَكِيدُ كَيْدًا (16) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (17)﴾.

يقسم الله عز وجل في هذه الآيات بالسماء ذات المطر الذي يرجع إلى الأرض ويتكرر، وبه حياة الأرض، وبالأرض صاحبة الانشقاق فيتخللها الماء عند نزوله من السماء، يتخلل تلك الصدوع إلى باطن الأرض، ثم يخرج منها النبات بسبب المطر فتُحيي بعد موتها.

وجواب القسم أن القرآن الذي به الحياة الحقيقية، وهي أعظم من الحياة الحسية التي تكون بالمطر، وكلاهما نازل من السماء، ولكن المطر مخلوق والقرآن كلام الله سبحانه وتعالى، فهو قول الله عز وجل تكلم به سبحانه وألقاه إلى جبريل عليه السلام، فبلغه جبريل عليه السلام نبينا صلى الله عليه وسلم، فهو قول جبريل باعتبار أنه قد بلغه للنبي صلى الله عليه وسلم، وبلغه النبي صلى الله عليه وسلم لأمته، فهو قول محمد صلى الله عليه وسلم باعتبار تبليغه للأمة.

إذن هو قول الله عز وجل الذي تكلم به حقيقة، وقول جبريل الذي بلَّغ كلام الله إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقول محمد صلى الله عليه وسلم الذي بلَّغ كلام الله إلى أمته جميعا، وهو فصل يفصل بين الحق والباطل، هذا جواب القسم **﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾** أي: إن القرآن لقول، هو قول الله تكلم به، وقول جبريل بلغه، وقول محمد صلى الله عليه وسلم بلغه، وهو فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المحقين والمبطلين، وبين المؤمنين والمنافقين والمشركين، فيميز هذا عن هذا، وهو يفصل ويقطع كل من عاداه، فمن عادى القرآن وناصب القرآن العداء فإنه مهزوم، فهو يَخصِم ولا يُخصَم أعني: القرآن، ويَهزِم ولا يُهزَم.

ولو أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تمسكت بالقرآن وعملت بما جاء فيه حقا وصدقا لهزمت سائر الأمم وخصمت سائر الأمم، فالقرآن قول فصل.

وهو حق ليس بالهزل واللعب واللغو، لذا لا تنقضي عجائبه، ولا يمل منه قارئه، ومع ذلك فإن الكفار لانطماس بصائرهم يكذبون به مع أن الصدق فيه ظاهر، ويكيدون للنبي صلى

الله عليه وسلم وللمؤمنين كيدا عظيما شديدا متتابعا ليصرفوا المسلمين عن دينهم، وليشوهوا الحق ويظهروه للناس بصورة الباطل.

وملة الكفر في هذا واحدة، وكلمتهم فيه مع اختلاف أزمانهم واحدة، فمع اختلاف قلوبهم وتشتتهم فيما بينهم تجدهم في الكيد للإسلام على كلمة واحدة وعلى طريقة واحدة، وهذا واقعهم الذي لا يتغير، فبالنسبة لنبينا صلى الله عليه وسلم عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم حيًّا كاد الكفار له ليقتلوه، وصنعوا ما عرفتم في السيرة من أنهم أرادوا أن يجتمعوا على قتله، وانتخبوا من كل قبيلة رجلا حتى يضيع دمه بين القبائل ولا يستطيع قومه أن يطالبوا بدمه، أو أن يثأروا له، واتفقوا على ليلة معينة يدخلون فيها على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في فراشه ليقتلوه، فأوحى الله إليه وأخبره بما كادوا ونجاه من كيدهم، وخرج وهاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة.

واليوم -والنبي صلى الله عليه وسلم ميت- تجد أن الكفار يكيدون لنبينا صلى الله عليه وسلم ويعملون على تشويه صورته، وعلى بذل الأسباب التي تجعل الناس ينفرون منه وينفرون من دينه صلى الله عليه وسلم، وبالنسبة لديننا فإن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يحرصون على صد المسلمين عن الدين بتعذيب من آمن، وبوصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر أو كاهن أو كذاب أو مجنون أو غير ذلك من الأوصاف التي يعلمون سلامته منها، واليوم تجد أن الكفار يعملون جاهدين على صد المسلمين عن دينهم بشتى السبل، ومن كيدهم للمسلمين أنهم يستعملون بعض المسلمين لصد المسلمين عن دينهم ولإضعاف دين المسلمين، فيستخدمون الدراويش الذين يعبدون الله عز وجل عن طريق الدروشة لا عن طريق السنة في صرف الناس عن حقيقة الدين الذي هو السنة؛ لأن عدونا الكافر يعلم أن المسلمين لو عادوا إلى أخذ دينهم من كتاب الله ومن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بفهم الصحابة ومن بعدهم ممن اتبعهم بإحسان لكانوا متمسكين بالدين حقا، فوجدوا أن الدروشة وعبادة الله بالبدع تصرف الناس عن دينهم،

فاستخدموا أولئك الدراويش، ونحن نعرف اليوم أن الكفار يبذلون الملايين من الأموال لرؤوس أولئك الدراويش من أجل صرف الناس عن دينهم وإضعاف تمسك الناس بدينهم، وكذلك نعلم جازمين أن أعداء الإسلام أن الكفار من كيدهم للمسلمين يستخدمون باب الغلو والغلاة لصرف الناس عن دينهم، ويضخمون شأن الغلو، ويستخدمون خوارج العصر في إضعاف دين الإسلام وفي إضعاف المسلمين، وفي صد المسلمين عن دينهم، وفي تشويه

صورة الإسلام، فإن هؤلاء الخوارج القساة الضلال قد أعطوا الكفار الصورة التي يريدون من أجل تشويه دين الإسلام حتى يصرفوا الناس عن دينهم.

الشاهد أن كيد الكفار للمسلمين كيد عظيم متتابع لا ينقطع، غرضهم منه أن يصرفوا المسلمين عن دينهم، وسببه دين الإسلام، فهم لا يحسدوننا على مال، ولا يحسدوننا على مكان، وإنما يحسدوننا على هذا الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ومع أن الكفار يكيدون للإسلام وأهله كيدا عظيما كبيرا متتابعا فإن رب المسلمين الله سبحانه وتعالى يكيد للكفار كيدا عظيما، ويدبر الأمر، وينصر الحق وأهله، ويحفظ دينه، ويحفظ المتمسكين بدينه حقا وصدقا، ويكون ذلك في زمنه المناسب وبحكمة تامة، ولذلك قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا**﴾ [الطارق: 17]؛ أي لا تعجل على الكافرين واصبر وانتظر فإن الله ينصر الحق ولو بعد حين.

فيا محمد ويا أيها المؤمن لا تعجل على الكفار، واصبر عليهم، وانتظر خذلانهم في وقت قريب، فإن بقاءهم على ما هم عليه قليل، فانتظر خذلانهم من رب العالمين.

وقد يكون كيد الله عز وجل للكافر بأن يطيل في عمره ويملي له ليزداد إثما، وليعظم عذابه عند لقاء الله سبحانه وتعالى، فالله يرحم المؤمنين ويكيد للكافرين.

وإنك لتعجب ممن يُعجب بمن يكيد الله له، ولا يرضى أن يكون في صف من يرحمهم الله سبحانه وتعالى.

فعلى الأمة كلها حكامها ومحكوميها أن يتمسكوا بدين الإسلام، وأن يتمسكوا بما في القرآن والسنة، وأن يصبروا وينتظروا نصر الله سبحانه وتعالى إن هم عملوا بما في كتابه وما في سنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

هذا هو التفسير الموضوعي الإيماني الإجمالي لهذه الآيات، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لبعض الكلمات الواردة في هذه الآيات من خلال القراءة في تفسير الإمام السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله رحمة واسعة وغفر له ولشيخنا والسامعين: ثم أقسم قسما ثانيا على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ (11) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ (12)﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام وتنصدع الأرض للنبات. فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضا بالأقدار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات.

الشيخ يقول: ثم أقسم –أي: ربنا- قسما ثانيا، القسم الأول هو في أول السورة، وقد تضمنت تلك الأقسام أن القرآن محفوظ كما ذكرت لكم في التفسير، وهنا يقسم الله قسما ثانيا على صحة القرآن.

﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾ ﴿**وَالسَّمَاءِ**﴾ هي السماء المعروفة التي إذا أطلقت انصرفت الأذهان إليها.

﴿**ذَاتِ**﴾ يعني: صاحبة.

﴿**الرَّجْعِ**﴾ عند أكثر المفسرين هو المطر، ولماذا سمي المطر رجعا؟

قال بعض العلماء: لأنه يرجع ويتكرر وقتا بعد وقت، فهو ليس منهمرا طوال السنة لا ينقطع أبدا، وطوال العمر لا ينقطع أبدا، بل ينزل وينقطع، فيأتي ثم ينقطع ثم يرجع مرة أخرى.

وقال بعض المفسرين: سمي المطر رجعا لأنه يرجع إلى الأرض بعد أن ارتفع ماؤه منها، فالنظرية التي يذكرها العلماء أن الماء يتبخر من البحار ويصعد إلى السماء، ويتكثف ويكون سحابا بأمر الله، وينزل المطر كانت معروفة في الجاهلية قبل الإسلام، كانوا يرون أن السحب إنما هي ماء قد ارتفع من الأرض، فليس أمرا جديدا عرفه علماء هذا الزمان فبعض المفسرين قالوا: إن المطر سمي رجعا لأنه ماء يرجع إلى الأرض بعد أن كان قد ارتفع منها، فهو يعود إليها.

وفسر بعض المفسرين: الرجع بالكواكب التي تظهر وتغيب فقالوا: ﴿**وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ**﴾ يعني صاحبة الكواكب التي تظهر وتغيب ثم ترجع مرة أخرى فتظهر.

ولكن الذي عليه أكثر المفسرين أن الرجع هو المطر، وهو المناسب لما بعده.

﴿**وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**﴾ ذات الصدع هنا جنس يا إخوة ليس شقا واحدا وإنما جنس؛ يعني: ذات الشقوق، فليست يعني صلبة لا يدخل فيها شيء ولا يخرج منها شيء، بل جعل الله فيها صدوعا وشقوقا حتى في الجبال سبحان الله! هناك صدوع يدخل منها الماء ويخرج منها النبات، وهذا دليل على قدرة الله عز وجل.

ومناسبة المقسَم به هنا للمقسَم عليه أن في المطر والنبات حياة الأرض، وفي المقسَم عليه وهو القرآن حياة الخلق، وهي الحياة الحقيقية التي من لم يحياها فهو ميت، ولو كان يأكل ويشرب ويتكلم، بل هو أشد من الأموات فهذه المناسبة بين المقسَم به والمقسَم عليه

﴿إِنَّهُ﴾: أي: القرآن، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: أي: حق وصدق بين واضح.

﴿إِنَّهُ﴾: أي: القرآن، هذا جواب القسم، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾: أي: القرآن.

﴿لَقَوْلٌ﴾ وكما قلنا القرآن قول الله؛ لأنه تكلم به فهو كلام الله، وقول جبريل عليه السلام لأنه بلغه، وقول محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بلغه، فهو قول.

﴿فَصْلٌ﴾ أي: مميز فاصل بين الحق والباطل، وفاصل يهزم من يخالفه.

وما ذكره الشيخ هي الأوصاف التي كان بها فاصلا أي: حق وصدق بين واضح، هذا جواب سؤال، لماذا كان فاصلا؟

لأنه حق وصدق وبين وواضح، فمعنى فاصل أنه مميز بين الحق والباطل، وهازم للباطل وأهله، لماذا؟

لأنه حق وواضح بين فهو كلام الله.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقالات وتنفصل به الخصومات.

﴿وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ﴾ يعني: ليس باللعب ولا باللغو، ليس قول لعب ولا قول لغو، وإنما هو قول حق يحق الله به الحق ويدمغ به الباطل.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم وللقرآن، ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل.

يأتي سؤال في الأذهان: ما علاقة هذا بما قبله؟ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ انتقل الله عز وجل من الكلام عن القرآن إلى الكلام عن الكفار، ما العلاقة بين الأمرين؟

العلاقة أن القرآن مع كونه فصلا ليس بالهزل، ظاهرَ الصدق، قوي الحجة بلسان العرب الذين كانوا يخاطبون به في ذلك الوقت لم يؤمن به الكفار، بل كادوا لأهله، فهم مع كفرهم يكيدون لأهل القرآن.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمية أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده.

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: قليلا.

﴿فَمَهِّلِ﴾ أي: أتركهم واصبر عليهم ولا تعجل عليهم، وانتظرهم فإن الله يكيد لهم.

﴿رُوَيْدًا﴾ الرويد هو القليل، فبقاؤهم قليل.

قال: فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

وبهذا تم تفسير هذه السورة العظيمة، ومن فوائد السورة العظمى وحكمها الكلية:

- بيان أن الإنسان يبدأ ضعيفا فردا، وينتهي ضعيفا فردا، ويبعث يوم القيامة ضعيفا فردا، ولا قوة له إلا بفضل الله والتوحيد والعمل الصالح.

بيان أن الإنسان يبدأ ضعيفا فردا في رحم أمه، وينتهي فردا في قبره، ويبعث يوم القيامة ضعيفا فردا، ولا قوة له أبدا إلا بفضل ربه سبحانه وتعالى بأن يؤمن بالله عز وجل، ويوحد الله، ويعمل الصالحات.

- كذلك من فوائدها العظمى وحكمها الكلية بيان أن حال الكفار الدائم الكيد للمؤمنين بسبب دينهم، وأن الله يحفظ المؤمنين وينصرهم ما تمسكوا بقرآنهم ودينهم، وأن العزة لا تكون للأمة إلا بالتمسك بالقرآن والسنة.

سورة الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ (8)﴾.

في هذه السورة المكية عند جمهور المفسرين -وهو الصواب- يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن تبعا له صلى الله عليه وسلم بأن ينزه ربه سبحانه وتعالى عن كل ما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى من النقائص، وأن يعظمه بإثبات الكمالات له سبحانه وتعالى، فالتسبيح تنزيه وتعظيم.

وأن ينزه أسماء ربه سبحانه وتعالى عن الإلحاد فيها والميل بها عن معانيها وتحريفها وعن امتهانها، وعن تسمية المخلوقين بها على الوجه الذي يسمى بها الله سبحانه وتعالى.

ومع هذا التنزيه يأمره بأن يكون ذاكرا لربه سبحانه وتعالى بلسانه، وناطقا باسم ربه، فيجتمع القلب واللسان.

وهو سبحانه مستحق للتنزيه والتعظيم فهو الرب الخالق والمالك والمدبر والمربي بالنعم دقيقها وجليلها، حسيها ومعنويها، وهو السيد المصلح أمر خلقه سبحانه وتعالى فله الخلق وله الأمر سبحانه وتعالى.

وهو الأعلى هو الرب وهو الأعلى الذي له العلو المطلق بذاته، فهو مستو على عرشه فوق مخلوقاته لا شيء فوقه سبحانه وتعالى، وله العلو المطلق بقدره، فصفاته صفات الكمال، وله العلو المطلق بقهره سبحانه وتعالى.

ومن ربوبيته سبحانه وتعالى أنه خلق كل شيء فسوى خلقه بما يناسبه وما خلق له، وجعل لكل خلق ما يصلحه ويناسبه ويتحقق به المقصود من خلقه في أحواله وأفعاله، فلم يجعل الخلق جنسا واحدا، بل هؤلاء أناس، وهذا نمل، وتلك فيلة، وتلك غنم، وذاك نبات، وهكذا، وجعل كل خلق من جنس يناسب بعضه بعضا بإحكام وانتظام سبحانه وتعالى.

وأرشد كل مخلوق إلى ما يصلحه: الذي له عقل، والذي لا عقل له، أرشده إلى ما يصلحه وما يكون به بقاؤه، فأرشد النحل مثلا إلى التكاثر وكيف يكون، وإلى صنع المكان الذي

يحفظ فيه العسل ولا يمكن أن يحفظ في غيره، وكيف يصنع العسل، وهكذا في سائر المخلوقات.

وأرشد الإنسان إلى ما يصلح دنياه، ويكون به بقاؤه، وما يتحقق به ما خلق من أجله، وهو أن يوحد الله ويعبده هداية بيان، وهدى من شاء هدايته من الناس هداية توفيق، الله خلق الإنسان وهداه، هدى كل الناس هداية بيان، وهدى من شاء أن يهديه هداية توفيق.

وهو سبحانه الذي أخرج من الأرض ما تكون به أقوات الأحياء عليها وتحصل به حياتهم، فأخرج من بطنها صنوف الأشجار والنباتات والحشيش الأخضر، وهذا متضمن أنه أنزل من السماء ماء؛ لأن النبات لا يخرج إلا بالماء النازل من السماء بأمر الله سبحانه وتعالى.

وجعل لذلك النبات زهوة ورونقا وشدة وخضرة تعجب الناظرين إليه، حتى إذا شاء سبحانه جعله يابسا متكسرا هشيما مسودا من الاحتراق واليبس، متغيرا تطير به الريح، ويحمله السيل زبدا ويقذف به على جوانبه.

وذكر هذه الآيات العظام والمنن الجسام مُوَطِؤ لذكر نعمة عظمى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته، وهي أن الله عز وجل سيقرئ النبي صلى الله عليه وسلم القرآن الذي هو كلامه، ويجعله يحفظه في قلبه وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، لكنه لا يحتاج إلى كتابة حتى يحفظ، ولا يحتاج أن يقرأ مع المَلَك حتى يحفظ، بل سيقرئه الله عز وجل القرآن يسمعه من الملك فيحفظه ولا ينسى منه شيئا لا قليلا ولا كثيرا إلا ما شاء الله أن ينساه من النسيان العارض بعد البلاغ، فالنبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الأمة القرآن كاملا لا ينسى منه حرفا، ولكنه بعد تبليغه قد يعرض له النسيان فينسى آية أو يتردد في كلمة، كما وقع في صلاته صلى الله عليه وسلم، ليعلم الناس أنه بشر شرفه الله بالرسالة، ولذلك قال: ((**إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني**))، إلا ما شاء الله أن ينساه من النسيان العارض بعد التبليغ التام.

وكذلك ما ينساه لكون الله نسخه تلاوة وحكما، فإنه مر معنا في الأصول أن من الآيات ما ينسخ لفظا وحكما، تلاوة وحكما، فهذا ينساه النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا معنى إلا ما شاء الله.

وهو سبحانه يعلم الجهر الظاهر والسر الخفي من بني آدم فلا يغيب عن علمه شيء، فهو يعلم علانيتك وسرك ويعلم أعمالك سرها وجهرها، ويعلم ما في قلبه، وهذا الخطاب لكل إنسان.

ويبشر الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم بنعمة أخرى وهي أنه سيسهل له اليسرى بجميع معاني اليسر، فييسر له ذكر القرآن والتذكير به والتذكر به، وهذا ليس للنبي صلى الله عليه وسلم فقط لكل الأمة، ييسر الله له ذكر القرآن أي: حفظ القرآن.

يا إخوة لا يوجد واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم لا يستطيع أن يحفظ القرآن إلا أن يكون في عقله شيء، لكن هي الهمم، وييسر الله له أن يذكر بالقرآن، وييسر الله له أن يتذكر بالقرآن، وييسر الله له دينه حيث جعل دين محمد صلى الله عليه وسلم يسرا، إن هذا الدين يسر، وييسر الله له طرق الجنة، الله يسر لأمة محمد صلى الله عليه وسلم طرق دخول الجنة، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى**))، والله عزوجل جعل الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء وهذا من اليسرى التي جعلها الله عزوجل لمحمد صلى الله عليه وسلم وأمته.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه الآيات ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: يأمر تعالى بتسبيحه المتضمن لذكره وعبادته والخضوع لجلاله والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحا يليق بعظمة الله تعالى بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها العظيم الجليل، وتذكر أفعاله...

﴿سَبِّحِ﴾ **قال بعض العلماء**: أي: نزه ربك عما لا يليق بجلاله من النقائص كلها.

وقال بعض المفسرين: ﴿سَبِّحِ﴾ هنا بمعنى عظم ربك بإثبات الكمالات لله؛ لأنه لم يسبق هذا الأمر ما ينزه عنه، فقالوا: ﴿سَبِّحِ﴾ أي: عظم.

والتحقيق أن الأمرين مقصودان، فسبح هنا بمعنى نزه ربك عن النقائص، وعظم ربك بإثبات الكمالات له سبحانه وتعالى.

هل الأمر هنا بتسبيح الاسم أو تسبيح الرب أو التسبيح بالاسم؛ لأن الله قال: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾؟

فقال أكثر المفسرين: هذا أمر بتسبيح الرب سبحانه وتعالى تنزيها وتعظيما، والاسم هنا مقحم للتعظيم وللدلالة على أنه يُجمع مع تعظيم القلب وتنزيه القلب تعظيم اللسان وتنزيهه، فصار المعنى: سبح ربك ناطقا باسمه، هذه فائدة ذكر الاسم، يقولون: مقحم هنا؛ لأن التسبيح المقصود أن يكون للرب سبحانه وتعالى للتعظيم، لتعظيم الله عزوجل وللدلالة على التعظيم والتنزيه باللسان، فيكون التعظيم والتنزيه بالقلب وباللسان.

وقال بعض المفسرين: التسبيح هنا للاسم؛ أي: نزه اسم ربك أن تسمي به غير الله إن كان خاصا بالله، أو تسمي به غير الله على الوجه الذي يسمى به الله إن كان مشتركا، وعن أن تمتهنه.

وقال بعض المفسرين: بل هذا أمر بالتسبيح بالاسم أي: بالذكر، فيكون معنى التسبيح هنا الذكر، اذكر ربك باسمه.

وكلها مرادة ولا تدافع بينها، فهذا من باب اختلاف التنوع، فيكون الأمر بتسبيح الاسم وتنزيهه وذلك مستلزم استلزاما أوليا تسبيح الرب سبحانه وتعالى، إذا كنت تنزه وتسبح اسم الله فمن باب أولى أن تنزه وتسبح الرب سبحانه وتعالى ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**﴾.

لفتات المفسرين يتضح بها المعنى ويعظم بها الإيمان، ولذلك نحن بحاجة إلى أن نقرأ التفسير فترة بعد فترة، يعني يحسن للإنسان إذا جعل له وردا في قراءة القرآن كل يوم واختار لورده أفضل وقته ينبغي أن يجعل لأحسن الكلام وهو كلام الله أحسن الأوقات، أحسن وقت تكون مستجمعا فيه الذهن قبل الفجر بعد الفجر، يحسن بالمؤمن أن يستصحب كتاب تفسير معتمد مثل كتاب تيسير الكريم الرحمن، فإذا فرغ من قراءة ورده قرأ تفسير هذا الورد، وهذا الحزب الذي يقرؤه من الكتاب، فيعظم فهمه ويزداد إيمانه.

﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ**﴾ الرب هو السيد الكامل في سؤدده، المصلح لعبيده، المدبر لأمرهم المنعم عليهم بشتى النعم، الخالق لهم ابتداء، والمالك لهم والمدبر أمورهم، كلها تدخل في معنى الرب.

﴿**الْأَعْلَى**﴾ الذي عليه أكثر المفسرين أن الأعلى وصف للرب، فالله هو العلي المتعالي الأعلى الذي له العلو المطلق: علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.

وبعض المفسرين قال: هذا وصف للاسم، والاسم هنا يا إخوة جنس لأسماء الله عز وجل، ولا شك أن أسماء الله عليا وحسنى.

لكن الأقرب هو ما ذهب إليه أكثر المفسرين أن هذا وصف للرب

قال: أو تذكر أفعاله التي منها أنه خلق المخلوقات فسواها؛ أي: أتقن وأحسن خلقها.

﴿**الَّذِي خَلَقَ**﴾ هذا من ربوبية الله، من ربوبية الله عز وجل هذه الأفعال الذي خلق فأوجد من العدم.

﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي: أحكم وأتقن وأعطى كل شيء خلقه المناسب له.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرا تتبعه جميع المقدرات.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ أي: قدر تقديرا محيطا تاما لا يخرج عنه شيء من المخلوقات.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿قَدَّرَ﴾ وفق كل شكل من الخلق إلى ما يشاكله، ووفق الإنسان ليكون مع الناس، النملة تكون مع النمل، القطة تكون مع القطط، وهكذا، فقالوا هذا معنى قدر.

وقال بعض المفسرين: أي قدر الأقوات والأرزاق، وعلى هذا يكون معنى ﴿فَهَدَىٰ﴾ أرشدهم إلى طرق اكتساب الأرزاق التي قدرها، قدر الأقوات والأرزاق فما من مخلوق إلا وقد قدر الله رزقه وعلى الله رزقه، وأرشد كل مخلوق إلى طرق اكتساب ما قدره له من الرزق.

وقال بعض المفسرين: أي قدر التناسل بين المخلوقات ليبقى الخلق قائما، وأرشد الذكر إلى الطريقة التي يكون بها التناسل مع الأنثى.

أيضا قال بعض المفسرين: **قدر**؛ أي: قدر مدة بقاء الجنين في رحم أمه، ﴿فَهَدَىٰ﴾ أي: أرشد الجنين إلى الخروج من الرحم عند انتهاء تلك المدة، ولا شك أن هذا من آيات الله العظام، الجنين في آخر مدة الحمل يستعد للنزول فينقلب، من الذي أرشده وعلمه؟ الله سبحانه وتعالى، وهذا في الحقيقة كله من باب التفسير بالمثال، فقدر كما قال الشيخ تشمل كل تقدير، وكل ما ذكره المفسرون إنما هي أمثلة لهذا التقدير.

﴿فَهَدَىٰ﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

فمعنى ﴿فَهَدَىٰ﴾ يعني: أرشد.

قال: وهذه الهدايات العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية ولهذا قال: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾.

ما معنى: وتذكر فيها نعمه الدنيوية؟

أي: أن العبد وهو يسبح الله وينزه الله ويعظم الله سبحانه وتعالى يذكر أسماء الله الحسنى، ويذكر أفعال الله وحكمته، ويذكر نعمه عليه في الدينا، هذا مراد الشيخ.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾ أي: أنزل من السماء ماء فأنبت به أصناف النبات والعشب الكثير فرتع فيه الناس والبهائم وجميع الحيوانات، ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب ألوى نباته وصوح عشبه.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ﴾ أي: أسود؛ أي: جعله هشيما رميما.

﴿فَجَعَلَهُ غُثَاءً﴾ أي: يابسا متكسرا هشيما، **والغثاء**: هو الشيء اليابس.

وقال بعض العلماء: الغثاء هو الزبد الذي يقذف به السيل يسمى غثاء.

أحوى أي: متغيرا، **وقال بعض المفسرين:** أي صار أسود من يبسه واحتراقه.

الغالب أن النبات إذا يبس يحرقه الزراع فيصير أسود، بدلا من كونه أخضر زاهيا يصبح متكسرا هشيما مسودا من الإحراق.

وقال بعض المفسرين: الأحوى الذي اسود من شدة اخضراره، إذن يكون هذا متى؟ عند التكسر ولا عند الخضرة؟ عند الخضرة على هذا المعنى، فيصير المعنى: فجعله أحوى أي: شديد الخضرة مسودا، ثم جعله غثاء، فيصير التقدير هكذا: الذي أخرج المرعى: أخرجه من الأرض، فجعله أحوى أي: جعله أخضر شديد الخضرة حتى أن الناظر إليه يظن أنه أسود من شدة خضرته، ثم جعله غثاء يعني: جعله يابسا متكسرا.

قال: ويذكر فيها نعمه الدينية.

ويذكر فيها أي: في التنزيه والتسبيح نعم الله الدينية.

قال: ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها وهو القرآن فقال: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي: سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئا.

ولا تحتاج إلى تكراره عند سماعه، ولا إلى لوح لحفظه.

قال بعض المفسرين: معنى ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي: فلا يغيب عنك شيء من القرآن، لا يغيب عن قلبك شيء من القرآن.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي: فلا تترك العمل بالقرآن، أي: أنا نعينك فتكون عاملا بالقرآن كله.

ولذلك ماذا تقول أمنا عائشة رضي الله عنها؟ **((كان خلقه القرآن))** صلى الله عليه وسلم، فتكون على هذا المعنى الآية قد تضمنت نعمتين:

النعمة الأولى: حفظ القرآن.

والنعمة الثانية: العمل بالقرآن.

على القول بأن معنى ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾ أي: فلا تترك العمل بالقرآن ولا ببعضه، بل نعينك فتكون عاملا بالقرآن كله، تكون الآية تضمنت نعمة الحفظ في قول الله عز وجل: ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾، وتضمنت نعمة العمل في قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تَنسَىٰ﴾.

ولا مانع من إرادة المعنيين فلا يغيب عن قلبك شيء من القرآن، ولا تترك العمل بشيء من القرآن.

قال: وهذه بشارة من الله كبيرة لعبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم، أن الله سيعلمه علما لا ينساه، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة وحكمة بالغة

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ هنا وقف المفسرون وقفة: هل ينسى النبي صلى الله عليه وسلم شيئا من القرآن؟

فقال بعضهم: لا؛ إذا قلنا: لا لا ينسى، **ما معنى** ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾؟

قالوا: المعنى فلا تنسى إلا أن يشاء الله أن تنسى، لكن الله لم يشأ ذلك، فهذا التعليق حقيقي لكنه لم يقع، يقولون: لا تنسى إلا أن يشاء الله أن تنسى، فأنت عبد من عباد الله، ولكن الله لم يشأ ذلك، وقالوا هذا الأسلوب معروف ومستعمل.

وقال بعض المفسرين: بل النبي صلى الله عليه وسلم ينسى الآية من القرآن، سبحان الله! كيف ينسى؟ ما الذي ينساه؟ قالوا أمران:

الأمر الأول: النسيان العارض بعد تمام البلاغ كما قلنا في التفسير الموضوعي، فيعرض له النسيان بعد أن بلّغ القرآن من غير نقص ولا نسيان، كما حصل للنبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي نسي آية، ونوزع آية، وتردد في كلمة هذا عارض، وقد وقع وله حكمة كما قلنا أن يعلم الناس أنه بشر، فلا يصرف له شيء من أنواع العبادة.

والأمر الثاني: ما نسخ لفظه ومعناه وحكمه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ينساه ولا يقرأ به بعد نسخه.

وهذا هو الصواب في تفسير الآية.

قال: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده؛ أي: فلذلك يشرع ما أراد ويحكم بما يريد.

أي: يعلم كل شيء سبحانه وتعالى، فخلقه وتقديره وشرعه عن علم وحكمة.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ هنا إنه يعلم ما يبقى من القرآن فتجهر به وتقرؤه، وما يخفى؛ أي: ما ينسخ فلا تقرأ به.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ﴾ أي: ما تجهر به من القرآن لبقائه وعدم نسخه.

﴿وَمَا يَخْفَىٰ﴾ أي: ما لا تقرأ به من القرآن لكونه قد نسخ، يعلم ذلك قبل النسخ سبحانه وبعد النسخ.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ وهذه أيضا بشارة أخرى أن الله ييسر رسوله صلى الله عليه وسلم لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيرا.

كما قلنا: اليسرى تشمل اليسر بجميع وجوهه، فلا إعنات في دين محمد صلى الله عليه وسلم، يسر الله لنا القرآن، ويسر الله لنا السنة، ويسر الله لنا العلم، وجعل دينه كله يسرا، ويسر لنا دخول الجنة، يسر لنا طرق الجنة، ويسر لنا الخروج من الذنب، لم يجعل الذنب إذا ارتكبناه لازما لنا لا ننفك عنه، ولم يوجب علينا أمرا شاقا عسيرا حتى نخرج من الذنب، بل يسر لنا الخروج بتوبة صادقة، فإذا بنا نخرج من الذنب كله.

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ (9) سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ (13) قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (17) إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (19)﴾.

في هذه الآيات الجليلات العظيمات يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وكل من يصلح للخطاب بأن يعظ الناس ويعلمهم القرآن، وما دل عليه القرآن، فستنفع الذكرى، فإن الذكرى تنفع المذكر فيكتب له الأجر وتبرأ ذمته، وتنفع التقي الذي يخاف الله عز وجل ويخاف وعيده ويخاف اليوم الآخر بعلم وإيقان، وأما الشقي فإن الذكرى تنفع بإقامة الحجة عليه.

فالذكرى تنفع على كل حال، فالتقي الذي يخاف الله ويخاف وعيده واليوم الآخر مع العلم بذلك والإيقان بذلك يتعظ بالذكرى، ويتعظ بمواعظ القرآن، ويتعظ بالزواجر العظيمة، فيزداد إيمانا وخشية وإقبالا على الأعمال الصالحة وبعدا عما يغضب الله تعالى، وأما الأشقى الذي أحاطت به الشقاوة وكان أشقى الناس فسيعرض عن الذكرى، ويعاند ويتكبر ولا يعتبر بالمواعظ، فيكون مآله إلى أشقى حال، فيكون في أشقى الشقاء فيدخل النار الكبرى التي تفضل نار الدنيا بتسعة وستين جزءًا، يحترق فيها ويقاسي حرها ويعاني أليم عذابها الدائم الذي لا يخفف عنه لحظة، ولا يتعود عليه جسده، ولا راحة منه حتى يتمنى أن يُخرج من النار ليعمل الصالحات، ويعطي العهود والمواثيق المغلظة على ألا يرجع إلى ما كان، فيكون جوابه مع غيره ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: 108]، فإذا يئس من

الخروج نادى مالكا خازن النار ليقض علينا ربك، فيتمنى الموت فيكون جوابه مع غيره: إنكم ماكثون، فلا يموت في النار حتى يرتاح من العذاب ولا يحيى حياة تسعده وتسره كما يحب الحي ويتمنى، فهي حياة الموت خير منها، والموت أحب إلى صاحبها منها.

وبين الله عز وجل سبب سعادة السعداء يوم القيامة وشقاء الأشقياء يوم القيامة؛ بأن السعيد يوم القيامة هو من تطهَّر في الدنيا من الدنائس والرذائل والأخلاق السيئة، ومما يغضب الله سبحانه وتعالى، فزكَّى قلبه فكان طاهر القلب، وزكى ظاهره فكان طاهر العمل، فأفلح في دنياه وأفلح في أخراه، وفاز الفوز العظيم إذا لقي الله عز وجل، ودعته تزكية نفسه إلى الإقبال على طاعة الله والاجتهاد في طاعة الله بقلبه ولسانه وجوارحه، فأكثر من ذكر الله عز وجل حتى أصبح لسانه رطبا من ذكر الله، وأصبح قلبه طيبا بذكر الله سبحانه وتعالى، واطمأن قلبه بذكر الله، وعمل الصالحات وعلى رأسها الصلاة التي هي خير أعمال العباد.

وأما الأشقياء في الآخرة فإن سبب شقائهم أنهم قد اغتروا بالدنيا وبزخارفها وبمتاعها من غير تفكر وتدبر، فقدموا الدنيا لاغترارهم بها على الآخرة، منهم من قدم الدنيا على الآخرة تقديما كليا فكفر بالله عز وجل ولم يعمل لأخراه، ومنهم من آمن بالله لكن ألهته الدنيا عن أخراه فعمل المعاصي وأسرف على نفسه، ولم يقبل دعاء الله له بالتوبة، وأصر واستكبر حتى مات على ذلك، فكان إيثاره الدنيا سبب شقائه عند لقاء الله سبحانه وتعالى، فأدخله الله نارا فيها الشقاء والعذاب الدائم، إن كان كافرا لا ينقطع عنه ذلك العذاب، وإن كان مؤمنا استحق دخول النار بعمله، وشاء الله أن يعذبه بعمله دخل النار فكان فيها شقيا، وغمسة في النار هي عذاب شديد، وجمرتان من النار يغلي منهما الدماغ، فكيف بدخول النار ولو في زمن يسير غير مؤبد؟! ثم يُخرج منها إن كان في قلبه إيمان بعد أن يشقى بعذابها ويعاني عذابها.

ثم بين الله عز وجل أن هذا المذكور قريبا من أن الفلاح لمن تزكى وأتعب نفسه في طاعة الله، وأن سبب الشقاء تقديم الحياة الدنيا على الآخرة، وأن الآخرة خير وأبقى من ذاك المتاع الزائل قد تتابعت عليه الأنبياء واتفقت عليه الأنبياء، فهو في الصحف الأولى التي سبقت نزول القرآن، فهو في صحف إبراهيم عليه السلام الذي هو أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وفي صحف موسى بن عمران عليه السلام الذي هو أفضل الأنبياء بعد محمد صلى الله عليه وسلم وإبراهيم، فهذا الأمر مصلحته دائمة قد جاء به

جميع الأنبياء وقرره جميع الأنبياء، فحق للعاقل وهو يسمع ذلك أن ينظر في الدنيا نظرة تدبر واعتبار، وأن يرى كيف أن نعيمها إن حصل يكدر بمنغصات في أثناءه، ثم يزول ولا يبقى نعيما، بل يورث في القلب حسرة وظلمة وكآبة، وأن الدنيا كلها مهما طالت فإنها قصيرة مفارِقة أو مفارَقة، فالإنسان فيها إما أن يفارقها بالموت، وإما أن تفارقه بارتحال ما فيها، حتى إذا شاء الله عز وجل فنيت الدنيا كلها وكانت الآخرة.

وأن يعلم علم اليقين أن الآخرة خير له وأبقى، فوالله ثم والله لو أن نعيم الدنيا كلها جمع للإنسان بطريق يغضب الله سبحانه وتعالى فإن لحظة في النار تنسيه كل ذلك النعيم، وإن لحظة من نعيم الجنة أعلى وأحلى وأكمل من نعيم الدنيا كله لو اجتمع لإنسان، فكيف يؤثر العاقل الموقن النعيم المكدر الفاني على النعيم الخالص الدائم الباقي؟!

لا شك أن الموفق سيدرك أن الباقي خير له من الفاني، فإن كان على طاعة اجتهد فيها وأكثر وعمل على الإخلاص والمتابعة، وإن كان في معصية فارقها خوفا من الله عز وجل ويقينا بتلك الحقيقة المطلقة العظيمة.

هذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات العظيمة التي تغسل قلوب المؤمنين، وتزلزل قلوب الكافرين، ونعود للتفسير التفصيلي لبيان معنى أو معاني بعض الكلمات في الآيات، ونقرأ ما سطره الإمام المفسر الأصولي الفقيه عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي السعدي رحمه الله عز وجل في كتابه النافع: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: قوله ﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته.

فذكر بمعنى عظ وعلم بالقرآن وما دل عليه القرآن، وهو مراد الشيخ بقوله: بشرع الله وآياته.

﴿إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة والموعظة مسموعة سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه، ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى بأن كان التذكير يزيد في الشر أو ينقص من الخير لم تكن مأمورا بها بل منهيا عنها.

هذا على أن **إن** شرطية، فيكون معنى الآية: فذكر إن غلب على ظنك أن الذكرى ستنفع المذكَّر فيزداد بها الخير ويكسر بها الشر، ولا تذكر إن غلب على ظنك أن الذكرى ستضر، فيعظم بها الشر أو ينفر بسببها من الخير، هذا معنى كلام الشيخ، نفع يقابله ضر، إن غلب

على ظنك أن الذكرى ستنفع ذكر، وإن غلب على ظنك أن الذكرى ستضر في هذا المقام أمسك.

وقال بعض المفسرين: المعنى: فذكر إن نفعت الذكرى ولا تذكر إن لم تنفع، فإن غلب على ظنك أنها تنفع ذكر، وإن غلب على ظنك أنها لا تنفع أمسك، ما الفرق بين هذا والذي قبله؟

هذا الذي يقابل النفع هو عدم النفع، عدم حصول النفع حتى لو لم يقع ضرر، أما الذي قبله فالذي يقابل النفع هو حصول الضرر.

وقال بعض المفسرين: المعنى: ذكر إن نفعت الذكرى وهي نافعة على كل حال؛ لأنها تنفع المذكِّر بثبوت الأجر له وبراءة ذمته، وتنفع المذكَّر إن كان تقيا فيتعظ ويعتبر، وأما الشقي فإن نفعها بالنسبة إليه أن تقام عليه الحجة، ونتيجة ذلك يكون المعنى: فذكر على كل حال فإن الذكرى نافعة.

وقال بعض أهل العلم: المعنى: ذكر على كل حال فإنك لا تدري متى تنفع الذكرى ومتى لا تنفع، فإن علم ذلك عند الله، فإنه يعلم من ينتفع ومن لا ينتفع، أما أنت فإنما عليك البلاغ وعليك البيان وعليك الذكرى، فإنك لا تدري هل ينتفع المذكَّر بهذه الذكرى أو لا ينتفع.

قال: فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين، فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الله، فإن خشية الله تعالى والعلم بمجازاته على الأعمال توجب للعبد الانكفاف عما يكرهه الله والسعي في الخيرات.

﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ الخشية هي الخوف بعلم، فهي نوع من الخوف؛ لأن الخوف قد يكون بعلم وقد يكون بغير علم، أما الخشية فهي بعلم **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** [فاطر: 28]، فالخشية بعلم.

فمعنى **﴿مَن يَخْشَىٰ﴾** من يخشى الله لمعرفته بربه ويقينه بذلك، ويخشى وعيد الله لمعرفته بذلك ويقينه، ويخشى اليوم الآخر لمعرفته بذلك ويقينه.

قال: وأما غير المنتفعين فذكرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ (12)﴾، وهي النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

وأما غير المنتفعين فذكرهم بقوله **﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾** الأشقى أفعل تفضيل؛ أي: أنه أشقى الأشقياء؛ لأن شقاءه في فساد دينه، وأشقى الشقاء هو فساد الدين، الشقاء قد

تكون له أسباب دنيوية: يكون هذا شقيا لأن أولاده يعقونه فيشقى بهم، يكون هذا شقيا لأنه لا مال عنده، وهذا شقاء عارض، لكن أشقى الأشقياء هو من يكون شقاؤه في فساد دينه، فهو في الدنيا أشقى الأشقياء، ويكون مآله يوم القيامة إلى أشقى الشقاء وهو دخول النار والعياذ بالله.

وقال بعض العلماء: المراد بالأشقى هنا الكافر فإنه أشقى العصاة، العصاة أشقياء، أشقاهم هو الكافر، وقالوا: إن الحديث هنا إنما هو عن الكافر.

لكن هذا القول مرجوح والراجح هو الأول: الأشقى الذي هو أشقى الأشقياء بسبب فساد دينه، وهو يعرض عن الذكرى ويعاند ويصر على الشر الذي هو فيه.

﴿**الَّذِي يَصْلَى**﴾ يصلى يعني يحترق ويعاني العذاب، يعني يحترق بالنار ويعاني عذابها.

﴿**النَّارَ الْكُبْرَىٰ**﴾ هي نار جهنم -والعياذ بالله- دار الانتقام، وهي النار الكبرى، والنار الصغرى هي نيران الدنيا كلها، كل نيران الدنيا منذ أن قامت الدنيا إلى أن تفنى هي بالنسبة لجهنم نار صغرى؛ لأن نيران الدنيا -لا إله إلا الله-، نيران الدنيا كلها بما ترون من نيران الأفران ونيران البترول والحرائق إلى غير ذلك من النيران إنما هي جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ففضلت نار جهنم على نيران الدنيا بتسعة وستين جزءًا.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**ناركم جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، قيل: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إن كانت لكافية**))، إن كان هذا الجزء من السبعين وهو نار الدنيا لكاف في العذاب، فقال صلى الله عليه وسلم: ((**إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء كلهن مثل حرها**)) متفق عليه، فلو أن نيران الدنيا كلها عبر أزمنتها وأماكنها جمعت في مكان واحد في وقت واحد لكان حر تلك النيران جزءا من سبعين جزء من حر جهنم، وكل جزء من التسعة والستين الباقية مثل حر هذا الجزء، نعوذ بالله من عذاب الله، إنها النار الكبرى.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: يعذب عذابا أليما من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

يقول قائل: هذان نقيضان، الموت والحياة نقيضان، الإنسان إما أن يكون ميتا وإما أن يكون حيا، لا يجتمعان معا ولا يرتفعان معا، لا يمكن أن يكون الإنسان حيا ميتا، ولا

يمكن أن يكون ليس حيا وليس ميتا، فلماذا قال الله عز وجل: ﴿**ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**﴾؟

قلنا: إن المقصود بالحياة هنا الحياة التي تحصل بها الراحة، التي يحصل بها السرور، التي يتمناها الإنسان، فإنه لا يموت موتا يرتاح به، ولا يحي حياة يرتاح فيها، فهي كما قلنا حياة الموت خير منها لصاحبها.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق.

قد للتحقيق، فالفلاح إنما هو في التزكية، **والفلاح**: هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، ولا يكون الفلاح في الدنيا على الحقيقة وفي الآخرة إلا لمن تزكى وعمل الصالحات، فصفى قلبه وأعماله وأخلاقه مما يغضب الله، وربَّى نفسه على طاعة الله، فكان عاملا بالتصفية والتربية.

التصفية: التزكية، **والتربية**: هي الزيادة في الخير.

فـ **تزكى** معناها طهر قلبه وأقواله وأعماله من الدنائس والرذائل، وأعظم ذلك التطهر من الشرك في الاعتقاد والعمل والقول.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**تَزَكَّىٰ**﴾ هنا أي: زكى أمواله، قد أفلح من أدى الزكاة.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**مَن تَزَكَّىٰ**﴾ هنا من زكى زكاة الفطر، فزكى نفسه بأداء زكاة الفطر.

وعلى هذين المعنيين الأخيرين تكون هذه الآية مدنية؛ لأنه تقدم معنا أنه عند جمهور العلماء -وهو الصواب- أن الأعلى سورة مكية، لكن على هذا التفسير تكون هذه الآية مدنية؛ لأن الزكاة لم تفرض إلا في المدينة، وزكاة الفطر لم تفرض إلا في المدينة، وهذا ما جعل بعض المفسرين المتأخرين يقول: من ذكر هذا المعنى من السلف مراده أن الآية تشهد لهذا، وليس المراد أنه هو المراد من الآية، بمعنى: أن هذا المعنى يدخل في عموم الآية وليس هو المراد بالآية، بل المراد بالآية العموم فيدخل في عمومه هذا المعنى، فتكون الآية شاهدا لهذا المعنى، وليس هذا المعنى مرادا أصليا من الآية وإنما يدخل في عمومها.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أي: اتصف بذكر الله وانصبغ به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله خصوصا الصلاة التي هي ميزان الإيمان، هذا معنى الآية الكريمة.

فيكون معنى ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ**﴾ أي: داوم على ذكر الله.

﴿**فَصَلَّىٰ**﴾ أي: اجتهد في طاعة الله بالأعمال وعلى رأسها الصلاة.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ**﴾ أي: في يوم الجمعة، ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ**﴾ أي: الخطيب في الخطبة والمصلي بالسماع، قالوا: الخطيب في الخطبة عندما يعظ ويذكر ذكر اسم ربه، والمصلي بسماع الخطبة، ﴿**فَصَلَّىٰ**﴾ أي: صلى صلاة الجمعة، وقالوا: هذا يدل على أن صلاة الجمعة والعناية بها من أعظم ما يتزكى به الإنسان، كما أن عدم العناية بالجمعة وإهمال الجمعة من أعظم ما يدنس قلب الإنسان، حتى أنه إذا ترك ثلاث جمع تهاونا فودعها تهاونا طبع على قلبه وختم على قلبه.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ**﴾ أي: ذكر اسم ربه على الأضحية في يوم النحر، ﴿**فَصَلَّىٰ**﴾ أي: صلى صلاة العيد صلاة عيد الأضحى.

والكلام هنا في هذين التفسيرين كالكلام في السابق، على هذين التفسيرين تكون الآية مدنية؛ لأن هذا إنما كان في المدينة، أو على ما وجهه بعضهم يكون كلام بعض السلف الذين ذكروا هذا المعنى مرادا به أن هذا يدخل في عموم الآية، فالآية شاهد له، وليس هو المراد بعينه بالآية، وإنما يدخل في عمومها.

وما ذكره الشيخ أولى، وقد قلت لكم سابقا إنه في تفسير القرآن يحمل المعنى على المعنى الأعم ما دام أن اللفظ يحتمله والسياق يقبله، دائما في التفسير: يحمل المعنى على المعنى الأعم بشرط أن يكون اللفظ محتملا له وأن يكون السياق قابلا له.

قال رحمه الله: وأما من فسره قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ يعني: أخرج زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ﴾ أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلا في اللفظ وبعض جزئياته فليس هو المعنى وحده.

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل على الآخرة.

بل يقول العلماء هي للإضراب الانتقالي؛ أي: لنقل الخطاب من شيء إلى شيء، فيؤتى بـ **بل** للإضراب عن الكلام السابق ونقل الكلام إلى أمر آخر؛ لأنه كما يعرف طلاب العلم الإضراب إما إبطالي وإما انتقالي.

1. إما **إبطالي** لما قبله وبيان الحق بعده.
2. وإما **انتقالي**: ينقل الكلام من شيء إلى شيء.

و (**بل**) هنا للإضراب الانتقالي.

﴿تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمون الحياة الدنيا على الآخرة، والحياة الدنيا سميت دنيا، لأنها قريبة الزمان إلى الإنسان، فالإنسان يعيش فيها فهي قريبة له.

وسميت دنيا كذلك لقصر زمانها، فهي وإن طالت قصيرة فانية.

وسميت دنيا كذلك؛ لأنها متقلبة فلا تستقر بالإنسان على حال، يوم في نعيم وضحك، ويوم في بكاء وشقاء، بل قد يكون في ساعة في غاية السرور، ثم يكون في بقية يومه في غاية الشقاء، فهي دنيا، ومن تفكر فيها دلته على نفسها.

العاقل لا يحتاج إلى أكثر من أن يتفكر في الدنيا فيما مر عليه هو كم بلغ اليوم؟ بلغ أربعين سنة، يتفكر فيما مضى فتدله الدنيا على نفسها وأنها دنيا، وهكذا كل من بلغ عمرا إذا تفكر فيها دلته الدنيا على نفسها، وأنها دنيا لا تبقى على حال.

﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ (19)﴾ اللذين هما أشرف المرسلين بعد محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين، فهذه أوامر في كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ هذا اسم إشارة إلى قريب.

فقال بعض المفسرين: يرجع إلى السورة كلها، إن هذا المذكور في هذه السورة قد جاء به الأنبياء جميعا، فهو من المصالح الثابتة التي لا تختلف باختلاف الأمم.

وقال بعض المفسرين: هذا يرجع إلى أقرب شيء، وهو أن الفلاح لمن تزكى إلى آخره، وهذا أقرب المعاني إن شاء الله.

وقال بعض المفسرين: هذا يعود إلى الجملة الأقرب وهي الجملة الأخيرة، إن كون الآخرة خيرا وأبقى في صحف جميع الأنبياء، فكان ذلك في الصحف الأولى.

وذكر إبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام لكونهما أشرف الأنبياء بعد النبي صلى الله عليه وسلم بعد محمد صلى الله عليه وسلم؛ ولأن أخبارهما معلومة عند العرب الذين كانوا يخاطَبون بالقرآن عند نزول هذه الآيات، فإبراهيم عليه السلام أخباره معروفة في

مكة، وموسى عليه السلام أخباره معروفة ومنتشرة، فخصا بالذكر لهذين الأمرين العظيمين.

ولا يعني هذا أن هذا ليس مذكورا إلا في صحف إبراهيم وموسى، بل هو مذكور في الصحف الأولى كلها، وصحف إبراهيم وموسى هذا من الخاص بعد العام لما ذكرنا.

وبهذا يتم تفسير هذه السورة العظيمة التي فيها الحكم الكلية العظمى والفوائد الكبرى:

- فمن فوائدها بيان بعض الآيات الكونية التي تدل على قدرة الله وتدبيره وقوته وإحاطته بخلقه، وأنه المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

- ومن حكمها الكلية وفوائدها العظمى: بيان نعمة الله الكبرى على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أمته بحفظ القرآن وتيسير الدين وتيسير طرق الجنة، فالله رحم هذه الأمة فحفظ كتابها، ولم يكل حفظ كتابها إلى العلماء، ويسر دينها ويسر لها طرق الجنة، واليهود والنصارى يحسدوننا على هذا.

- ومن حكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن من علم شيئا ينبغي عليه أن يذكِّر، وأما قلوب الناس فليست بيده، ولا يعلم شيئا عن حالها، فلا ينبغي للداعية ولا المربي أن ييأس من إنسان ما بقيت الروح في جسده، بل يذكره دائما، فوظيفته البيان والتذكير، وأما من ينتفع ومن لا ينتفع فعلم ذلك إلى الله سبحانه وتعالى.

- ومن فوائدها الكلية وحكمها العظمى: بيان أن من أعظم الأسباب لانطماس بصيرة الإنسان إيثار الحياة الدنيا والاغترار بها من غير تفكر في حقيقتها.

- ومن حكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن من الشرائع ما اتفق عليه الأنبياء، فليست شرائع الأنبياء مختلفة في جميع شرائعها -جميع أعمالها-، بل هناك من الشريعة ما اتفق عليه الأنبياء وكلفت به جميع الأمم، وذلك لثبات المصالح والمفاسد فيها، فلا تتغير مصالحها ولا المفاسد المدروءة بذلك الشرع باختلاف الزمان والمكان.

سورة الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً (4) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (5) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (16)﴾.

في هذه السورة المكية باتفاق العلماء يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ**﴾ أي: قد جاءك نبأ الغاشية على وجه التفصيل، فجاءك نبأ يوم القيامة الذي يغشى الناس جميعا ويعمهم ويحيط بهم من كل جانب بالأهوال والكروب، وما فيه من النار التي تغطي أهلها بلهيبها وعظيم عذابها وتأتيهم من كل مكان، حيث ينقسم الناس في ذلك اليوم إلى أشقياء وسعداء.

أما الأشقياء فوجوههم ذليلة منكسرة حيث امتلأت قلوبهم بالذلة، وظهر أثر ذلك على وجوههم، وعلى نظرهم فلا ينظرون إلا من طرف خفي، وعلى أصواتهم فاختفت أصواتهم ذلة وانكسارا، وهذه الوجوه الذليلة يوم القيامة في النار عاملة عملا فيه نكالها وعذابها، فهي تحمل الأغلال الثقيلة، وتجر السلاسل الطويلة، وتنقل أقدامها في النار بثقل وألم شديد، كالذي ينقل أقدامه وقد غرق في الطين، وأحاط به الطين من كل جانب، فهي في غاية التعب وفي شدة العذاب الذي لا راحة منه، وقد دخلت النار الحامية التي اشتد حرها ودام فلا تخفو ولا يخف عذابها، فأحرقهم حرها وشواهم لهيبها، وهو حر لا يخْبو فيخفف إحراقه، ولا تتعود عليه الأجساد فيخف أثره، فهو سعير أبدا، والجلود تبدل كل ما احترقت جلودا غيرها.

ومن عذاب تلك الوجوه الشقية أن ما تشربه ليس قريبا منها تتناوله متى أحست بالعطش، بل هو بعيد عنها لا يعطى لها إلا إذا اشتد عطشها فاستغاثت وطالت استغاثتها، عند ذاك يأتيها السقاة به متى شاؤوا، وذاك الشراب هو ماء قد بلغت في الحرارة منتهاه، وصديد أهل النار من الدماء والقروح وما يخرج من فروج النساء، وقد اشتد حره وبلغ الغاية في الغليان، فإذا أعطاهم السقاة ذاك الشراب فقربوه من وجوههم شوى وجوههم،

فإذا شربوا منه مع حرارته لشدة عطشهم صهر ما في بطونهم، وأذاب ما في أجوافهم، فهو شراب لا خير لهم فيه، بل فيه زيادة عذابهم.

وأما إذا اشتد جوعهم فإنه لا طعام لهم في النار إلا نبتا له شوك عريض قاس، وله أوراق شديدة المرارة تكون يابسة، فتكون سما، فيأكلون من ذلك النبات ما يضرهم ويؤذيهم؛ لأنه أخذه من بين الأشواك مؤلم، وهو حال يبسه سم، ولا يقويهم ولا يكسبهم قوة، ولا يذهب جوعهم مع نتانة رائحته ومرارة طعمه.

وأما السعداء فوجوههم ناعمة، قد ظهر أثر النعيم عليها وظهرت أنوار السعادة فيها، فإنها في نعيم منذ فارقت الدنيا، بل عند فراقها للدنيا تبشر -والناس يبكون حولها- بروح وريحان ورب غير غضبان، وهي في نعيم وهي محمولة على أعناق الرجال، ترى وتبشَّر بما تقدم عليه وتنادي: قدموني قدموني، وهي في قبورها في نعيم منعمة، وعند البعث آمنة، وقد أعطي أصحابها الكتب باليمين، وبشروا بالمقام الكريم، فأكسبهم ذلك سرورا وسعادة، وظهر أثر ذلك على وجوههم، فكانت لعملها في الدنيا راضية يوم القيامة، حامدة ما عملت، مجازاة بالجنة بفضل الله بسبب ما عملته في الدنيا، فهي في جنة مليئة بالأشجار وفيها ألوان النعيم، فهي عالية المكان فوق السماوات، وسقف أعلاها عرش الرحمن، وهي عالية المكانة، فنعيمها لا يمكن وصفه، ففيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولأهلها الإكرام التام المقيم الدائم، ولهم المكانة العالية، ولا يكون فيها إلا ما يسر الأنفس.

فمن نعيمها أنك إن دخلتها لا تسمع فيها كلمة تؤذيك، فلا تسمع فيها باطلا ولا تسمع فيها لغوا لا خير فيه، ولا تجد فيها جماعة لاغية تتكلم بالباطل وتتكلم بما لا فائدة فيه.

ومن نعيم هذه الوجوه -والمقصود أصحابها- أنها في جنة شرابها طيب عذب قريب لا تتعب في تحصيله، فهي في جنة فيها عيون من كل شراب طيب، من ماء وخمر وعسل ولبن يجري من تحتها وحيث شاءت من غير أخاديد تحده، يوجهونها كيف شاؤوا، إن أرادوا أن تكون عن أيمانهم كانت، وإن أرادوا أن تكون عن شمائلهم كانت، وإن أرادوا أن تكون من بين أيديهم كانت.

وفيها سرر عالية مرتفعة إذا أراد أحدهم أن يجلس عليها تطأطأت له ثم ارتفعت به، يتكئ عليها مع أهله في نعيم مقيم، ينظرون إلى نعيم الجنة وأنهارها، وفيها وسائد قد صفت لهم ووضع بعضها بجوار بعض يتكئون عليها في ترف ونعيم وهناء وسرور من غير تعب يسبق

ذلك، ولا يتخلل ذلك ولا يلحق ذلك، وفيها أغلى وأعلى وأنعم الفرش المبثوثة المبسوطة في كل مكان، لا يفقدونها في مكان ولا يتعبون في بسطها.

وذاك النعيم دائم متجدد، لا يفقدون منه شيئا، ولا يملونه أبدا، بل كلما نظروا إلى نعيم كانوا كأنهم قد رأوه أول مرة، وكلما رزقوا رزقا في الجنة قالوا: ﴿**هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ**﴾ [البقرة: 25] لكن إن أكلوه وجدوا نعيما جديدا ولذة جديدة، هم وأهلهم وأزواجهم يحبرون فيها ويتنعمون فيها، أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعلنا ووالدينا وأهلينا وأحبابنا من أهل هذه الجنة، وألا يحرم منا أحدا، أسأل الله كما أكرمنا أن نكون في مسجد رسوله صلى الله عليه وسلم إخوانا في درس العلم متقابلين أن يجعلنا جميعا في الجنة إخوانا على سرر متقابلين.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه الآيات الجليلات الكريمات، ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأهوال الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها.

أكثر المفسرين على أن الغاشية هي يوم القيامة.

وقال بعض المفسرين: الغاشية هي النار تغشى أهلها.

ولا مانع من إرادة الأمرين، فالغاشية يوم القيامة وفيها النار التي تغشى أهلها.

وقال بعض المفسرين: الغاشية هم الناس الذين يدخلون النار، فالناس الذين يدخلون النار هم الذين يغشون النار.

ولكن ما تقدم أقرب إلى المعنى.

قبل هذا قال الله: ﴿**هَلْ**﴾ هل هنا بمعنى قد، وجيئت بصيغة الاستفهام للتنبيه والتشويق والتعظيم، يعني: أن هذا النبأ عظيم، ولتشويق النفوس لتسمع ما بعد هذا.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**هَلْ**﴾ الاستفهام على وجه الحقيقة، والمقصود: هل أتاك وقومك نبأ الغاشية على وجه التفصيل قبل أن يوحى إليك؟ وفي هذا إقامة الحجة على الكفار في مكة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم جاءهم بما لا يعلمون ولا يعهدون من تفصيل ما يكون يوم القيامة، وأقام البراهيم العقلية والأدلة النقلية على هذا الأمر العظيم.

و ﴿حَدِيثُ﴾ هو النبأ العظيم.

قال: وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم ويتميزون إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في وصف أهل النار: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ أي: يوم القيامة، ﴿خَاشِعَةٌ﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

فهي ذليلة منكسرة قد ظهر الهوان والذل عليها.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: تاعبة في العذاب تُجَر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ في الدنيا، لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباء منثورا.

عاملة ناصبة قال كثير من المفسرين: إن هذا يوم القيامة بدلالة السياق ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: يومئذ، يوم القيامة، فهي عاملة بما يعذبها كما قلنا تحمل الأغلال، وتجر السلاسل، وتتنقل في النار بتثاقل وألم، فهي متعبة أشد التعب.

وقال بعض المفسرين: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ هذا في الدنيا؛ أي: أنها كانت عاملة ناصبة، فعملت بأعمال تتقرب بها، وأتعبت أنفسها في ذلك، لكن هذا لم ينفعها يوم القيامة؛ لأنه لا ينفع مع الكفر عمل.

وقال بعض المفسرين: أنها عاملة في الدنيا بأعمال تتقرب بها ولا تنفعها في الآخرة، ناصبة في الآخرة؛ لأنها تدخل النار، ف ﴿عَامِلَةٌ﴾ في الدنيا، و ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ في الآخرة.

وقال بعض المفسرين: ﴿عَامِلَةٌ﴾ أي: عاملة بالشرك والمعاصي في الدنيا، ﴿نَّاصِبَةٌ﴾ أي: يوم القيامة؛ لأنها تدخل النار بسبب عملها.

طبعا في الأقوال السابقة عملها عمل تتقرب به، لكن في هذا القول عملها بالمعاصي والشرك في الدنيا، ناصبة في الآخرة أي: تدخل النار بسبب معاصيها.

والأقرب والله أعلم هو المعنى الأول: أن هذا في يوم القيامة بدلالة السياق، وأن الكلام عن حال الأشقياء يوم القيامة.

فإن قال قائل: قد جاء عن بعض السلف كابن عباس أنه قال: إنهم النصارى، قلنا: هذا قياس حالهم في الآخرة بحالهم في الدنيا، وليس تفسيرا للآية؛ يعني: هذه الوجوه وجوه النصارى في الدنيا عاملة ناصبة لكثرة الرهبنة فيها، وهي في يوم القيامة عاملة ناصبة، عاملة في النار -كما قلنا-، متعبة في النار.

قال: وهذا الاحتمال وإن كان صحيحا من حيث المعنى فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول: لأنه قيده بالظرف وهو يوم القيامة؛ ولأن المقصود هنا بيان ذكر أهل النار عموما، وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدا حرها تحيط بهم من كل مكان.

﴿**تَصْلَىٰ**﴾ أي: تُحرق وتُشوى نارا، ﴿**حَامِيَةً**﴾ أي: شديدة الحرارة.

قال بعض المفسرين: معنى ﴿**حَامِيَةً**﴾ أي: دائمة شدة الحرارة، وإلا فمعلوم أن النار حامية، فالمقصود بحامية هنا أنها دائمة شدة الحرارة، فلا تخبو ولا تخف شدة حرارتها.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿**حَامِيَةً**﴾ أنها شديدة الغضب على أهلها، تكاد تتقطع وتفجر من شدة غضبها وغيظها على أهلها.

ولا شك أن كل هذا واقع في النار، فالنار شديدة الحرارة، وشدة حرارتها دائمة، وهي تتغيظ وتفور على أهلها، تكاد تميز من الغيظ من شدة غيظها وإرادتها الانتقام منهم؛ لأنهم أغضبوا الله سبحانه وتعالى.

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ أي: شديدة الحرارة، ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ [الكهف: 29] فهذا شرابهم.

قال الله: ﴿**تُسْقَىٰ**﴾ فهي لا تشرب بنفسها، والشراب ليس قريبا منها بل يسقيها غيرها، فإذا أصابها العطش واشتد بها استغاثت، فيغيثها الساقي متى أراد، ويعطيها شرابها بإهانة وإذلال، وفي هذا مزيد تعذيب لها، وهذا الشراب يؤتى به من عين آنيه قد بلغت الشدة في غليانها وحرها، ومادتها إما ماء وإما صديد أهل النار الذي يخرج من قروحهم وجروحهم من الدماء والصديد الأبيض، وما يخرج من فروج النساء المعذبات في النار عياذا بالله من سوء الحال.

قال: وأما طعامهم فـ ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ (7)﴾.

الضريع هو نبت لاصق بالأرض له شوك عريض قاس مؤلم، وله ورق مر، وإذا صار يابسا -أعني ورقه- فإنه يصبح سما، فلا تأكله حتى البهائم، هو نبت معروف في الدنيا وبعضهم

يسمي هذا النبت إذا كان ورقه أخضر بالشبرق، ولازال بعض الناس يسمونه بالشبرق إلى اليوم، وإذا كان يابسا يسمونه الضريع، وهو إذا يبس يصبح سما، وهذا هو المراد، والمراد أنه شجر في النار كالضريع يأكلون منه فيضرهم ولا يسرهم، يضرهم لأنه صار سما وهو من النار، ويؤلمهم عند أخذه من الشوك، ولا يكسبهم قوة ولا يدفع عنهم جوعا.

قال: وذلك لأن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة نسأل الله العافية.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي رحمه الله تعالى: وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ناعمة؛ أي: قد جرت عليهم نظرة النعيم فنضّرت أبدانهم واستنارت وجوههم وسروا غاية السرور.

تلحظون هنا أن الوجوه لم تُعطف بالواو، فلم يقل ربنا: ووجوه يومئذ ناعمة؛ **قال العلماء**: لأن المقام مقام تقسيم أحوال، فذاك حال وهذا حال آخر.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ هذه وجوه السعداء يوم القيامة، ناعمة ظهر أثر النعيم عليها وظهر السرور عليها؛ لأنها كانت في نعيم وصارت إلى نعيم وستصير إلى نعيم.

فهي كانت في نعيم عند موتها فبشرتها الملائكة بروح وريحان ورب غير غضبان، وكانت في نعيم في قبورها، وأمنها الله عزوجل يوم الخوف، خافت ربها في الدنيا فأمنها يوم القيامة، ولن يجمع الله لعبده خوفين، فمن خاف الله في الدنيا أمن يوم القيامة، وبمقدار خوف العبد من ربه في الدنيا يكون أمنه يوم القيامة.

ثم إنها أُعطيت كتبها بأيمانها، وبشرت بالجنة وعلمت أنها تصير إلى الجنة فظهر أثر النعيم على الوجوه سرورا ولينا وضياء وبياضا في ذلك اليوم العظيم.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله.

﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرا مضاعفا، فحمدت عقباه وحصل لها كل ما تتمناه.

﴿لِّسَعْيِهَا﴾ يعني: لأعمالها التي عملتها في الدنيا.

﴿رَاضِيَةٌ﴾ أي: حامدة راضية بتلك الأعمال؛ لأنها أوصلتها إلى فضل الله، فدخلت الجنة بفضل الله بسبب تلك الأعمال.

وقال بعض المفسرين: ﴿لِّسَعْيِهَا﴾؛ أي: لثواب سعيها راضية، فهي بثواب سعيها راضية؛ لأنه هو الذي يكون في يوم القيامة.

والمعنيان متقاربان، فإن الأعمال في الدنيا هي سبب الثواب في الآخرة.

قال: وذلك أنها في جنة جامعة لأنواع النعيم كلها.

الجنة يا إخوة في اللغة هي البستان كثير الشجر الذي يستر ما فيه ومن فيه، والجنة في الشرع هي دار الكرامة ودار الرحمة ودار المقامة للمؤمنين التي فيها الأشجار العظيمة والأنهار الكريمة والنعيم المقيم، ففيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، أعد الله فيها لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وهي جامعة لأنواع النعيم كلها، وهي جنات وليست جنة واحدة، وتتفاضل تلك الجنات في كمال النعيم، ولا نقص في جنة منها وإنما تتفاضل في الكمال، فبعض الجنان أعلى من بعض حتى تبلغ الفردوس الأعلى الذي هو أعلى الجنة وأكمل الجنة نعيما.

هذا النعيم الذي في الجنة لا يدانيه نعيم الدنيا كله من أوله إلى آخره، فأقل أهل الجنة نعيما له أعظم من نعيم الدنيا كله أضعافا مضاعفة، وبهذا تعلم حسرة من يبيع هذا النعيم المقيم بشيء من النعيم الذي لا يساوي شيئا في ذلك النعيم.

﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

فهي عالية؛ لأنها فوق السماوات، وسقف أعلاها عرش الرحمن سبحانه وتعالى.

والغرف التي فيها عالية تُتراءى كما يتراءى الكوكب الغارب، ففيها غرف من فوقها غرف مبنية يتنعم فيها أهلها، وما فيها من النعيم عالٍ، فهو أعلى النعيم، ومن فيها لهم العلو والإكرام والمكانة العالية، كل هذا يدخل في قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿عَالِيَةٍ﴾.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 23]: أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول بحيث يناولوها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو

يستعصي عليهم منها ثمرة.

الظاهر والله أعلم أن الشيخ لم يرد تفسير هذه الآية هنا، ولكن أراد لما تكلم عن معنى عالية وأن ما فيها عال بين أن هذا العالي يتذلل لأصحاب الجنة. فلا يعانون للوصول إليه، بل يتذلل لهم ويدنوا إليهم، لا يحتاجون فيه إلى طلب، بمجرد أن يشتهي أحدهم شيئا دنا منه. فالأشجار العالية بثمارها العالية إذا اشتهى المؤمن منها شيئا تذللت له ودنت منه، وكذا أسرتها المرتفعة كما ستأتي إذا أراد العبد أن يركب عليها طأطأت له حتى يركب عليها ويجلس، ثم ارتفعت به في نعيم وكمال سرور.

فلا يظهر لي والله أعلم أن الشيخ أراد تفسير هذه الآية هنا، وإنما أراد أن يبين أن هذا العلو لا يقتضي تعبا في الوصول إليه، بل كل عال في الجنة إذا اشتهاه المؤمن دنا له وطأطأ له، واقترب منه.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾: أي: الجنة. ﴿لَاغِيَةً﴾.

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ هذه قراءة، وفي قراءة متواترة: **﴿لَّا يُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ﴾**، وفي قراءة أخرى متواترة: **﴿لَّا تُسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةٌ﴾**، والمعنى واحد، أن أهل الجنة لا يسمعون فيها ما يؤذيهم من الكلام.

﴿لَاغِيَةً﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن نافع مشتمل على ذكر الله وذكر نعمه المتواترة عليهم وعلى الآداب الحسنة بين المتعاشرين الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿لَاغِيَةً﴾ قال بعض العلماء: هي مصدر بمعنى اللغو؛ أي: لا تسمع فيها لغوا.

واللغو: هو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة منه.

وقال بعض العلماء: **﴿لَاغِيَةً﴾** وصف لموصوف محذوف تقديره: لا تسمع فيها كلمة لاغية، والكلمة اللاغية هي الكلمة المؤذية من الباطل والشتم واللغو الذي لا خير فيه ولا فائدة منه.

وقال بعض العلماء: هي صفة لموصوف مقدر أيضا ولكن تقديره: جماعة، لا تسمع فيها جماعة لاغية، فليس من أهل الجنة من يلغو، بل كلامهم جميعا كله خير وكله حسن.

والمقصود أنه ليس في الجنة ما يؤذي مطلقا لا من الكلام ولا من غيره.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ وهذا اسم جنس؛ أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأنى أرادوا.

فتجري حيث اشتهوا، فليس لها مسار محدد وأخاديد معينة تسير فيها، وهي تسير بطيب الشراب من الماء العذب البارد، والعسل المصفى، والخمر الذي يسر ولا يضر، واللبن الذي لم تشبه شائبة ولم يتغير طعمه، تجري من تحتهم، وحيث شاءوا لها واشتهوا أن تجري، وذاك من تمام سرورهم ونعيمهم.

﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ والسرر جمع سرير، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

فهي مرتفعة في ذاتها، وعالية في وصفها، فعليها فرش وطيئة ناعمة، فإذا أراد صاحبها أن يجلس عليها طأطأت له حتى يجلس عليها ثم ارتفعت به.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾؛ أي: أواني ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمع كُوب أو كَوْب، والكَوْب أو الكُوب هو الإناء الذي لا عرى له فيحمل بذاته؛ يعني: الكأس كما يقول العلماء هو الإناء الذي له عرى، والعامة تقول يد، والكُوب أو الكوْب هو الإناء الذي لا عرى له.

ومعنى **﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾**؛ أي: أنها بين أيديهم في متناول أيديهم، ليست مرتفعة عنهم ولا منخفضة عنهم، ومنها أوان يطوف عليهم بها ولدان مخلدون النظر إليهم نعيم.

وقال بعض المفسرين: **﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾**؛ أي: على حواف العيون التي تجري، فالعيون تجري بالأكواب المهيأة.

وقال بعض المفسرين: معنى **﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾**؛ أي: مملوءة بما يشتهون، فبمجرد أن يشتهي ولي الله في الجنة أن يشرب شيئا امتلأ الكوب بذلك الشيء واقترب منه.

وكل هذه المعاني صحيحة لموضوعة فكلها داخلة في هذه الكلمة.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾: أي: وسائد من الحرير والاستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها وقد أريحوا عن أن يضعوها أو يصفوها بأنفسهم.

النمارق: هي الوسائد التي يتكئ عليها صفت بأنواعها، فلا يحتاجون إلى صفها وإنما يجدونها مصفوفة مرتبة، حيث ذهبوا وأرادوا أن يجلسوا وجدوا تلك الوسائد معدة لهم مصفوفة يتكئون عليها بحبور وسرور.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ والزرابي هي البسط الحسان، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

الزرابي هي البسط، وهي أحسن البسط.

وهي ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ **قال بعض المفسرين**: أي: كثيرة، ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: يعني: كثيرة.

وقال بعض المفسرين: أي: مبسوطة، فهي ليست مطوية بل مبسوطة لهم.

وقال بعض المفسرين: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: يعني: أن بعضها فوق بعض، وهذا يزيدها نعومة ولينا، عندما يوضع البساط الحسن اللين وفوقه بساط حسن لين فإن هذا يزيده نعومة ويزيده لينا.

وقال بعض المفسرين: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: يعني: مفرقة في المجالس بما يسر الناظرين؛ يعني: هنا يوضع بساط بلون وبطريقة، وهنا بساط بلون وطريقة، وهنا بساط بلون وطريقة، فهي موزعة في المجالس بما يسر الناظر إليها.

وكل هذا مراد فهي صفات لهذه الزرابي.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم (26)﴾.

لما ذكر الله عزوجل في أول السورة أن الناس يوم القيامة منهم أشقياء ومنهم سعداء، حث من كان على طريق الشقاوة في الدنيا على اجتناب ذلك الطريق قبل أن يصبح من أهل

الشقاوة في الآخرة، ودله على آيات عظام إذا تفكر فيها تفكر المعتبر المتجرد ترك الكفر إلى الإيمان، والعصيان إلى الطاعة.

والخطاب وإن كان لأولئك الكفار الذين يسلكون طريق الشقاء في الدنيا أصلا؛ فإنه يدخل فيه المؤمن أيضا ليزداد إيمانا، فهو أيضا يدخل في الحث على هذا النظر وهذا التفكر.

أفلا ينظرون نظر تفكر واعتبار إلى الإبل التي يرونها صباحا ومساء، ويركبونها كيف خلقت خلقا عجيبا، وسخرت للإنسان، فهي كبيرة بحجمها تسير المسافات الطويلة بلا كلل ولا تعب، وتحمل الإنسان إلى البلدان البعيدة، وتصبر على العطش، وتحمل الأثقال وهي باركة، ثم تقوم بها لكي يتمكن الإنسان من الانتفاع بها، وترد ما لا يرده غيرها من الشجر حيث جعل الله عز وجل لها شفاةً مشقوقة فتصل إلى أوراق الشجر من بين الأشواك ولا تؤذيها الأشواك، وجعل أعناقها طويلة إن رفعتها وصلت إلى أعلى الأشجار، وإن خفضتها وصلت إلى الأرض، وجعل لها خفافا تقيها حر الشمس، ومع كبر حجمها فإنها يقودها الصبي الصغير والمرأة الضعيفة، فسخر الله عز وجل هذا المخلوق الكبير لعبده الصغير، وتلك من آيات الله سبحانه وتعالى.

وفي كل الحيوانات عبر لكن الله خص الإبل بالذكر هنا؛ لأن العرب المخاطبين أصالة عند نزول القرآن بالقرآن يعرفون الإبل معرفة دقيقة، ولعظم منفعة الإبل، فإن منفعة الحيوان للإنسان: إما في الأكل، وإما في الركوب، وإما في الحلب، حيث يشرب الإنسان من حليبها، وكل هذه المنافع مجتمعة في الإبل، فهي حلوبة وركوبة وأكولة وحمولة تحمل أثقال الإنسان، فهي أعظم الحيوانات نفعا للإنسان، ولذلك خصها الله عز وجل بالذكر للنظر والاعتبار.

وإلى السماء الشديدة الخلق الواسعة الأرجاء المرتفعة بغير عمد كيف رفعت بغير عمد من غير أن ترى فيها ميلا في ناحية من نواحيها، أو انبعاجا في وسطها، أو صدوعا أو شقوقا مع تطاول الزمان، وما فيها من الكواكب العظيمة التي تظهر وتغيب، كيف رفعت وعلقت بين السماء والأرض.

ولا شك أن من نظر إلى السماء نظرة اعتبار وتفكر أيقن أنها لا يمكن أن تكون قد خلقت نفسها، وأنه لا يمكن لمخلوق أن يكون قد خلقها، ولا يمكن أن تكون مع هذا الانتظام العجيب والعلو أن تكون قد خلقت صدفة، فلم يبق إلا أن الذي قد خلقها هو القوي القدير سبحانه وتعالى.

وإلى الجبال العظيمة كيف نصبت مع اختلاف ألوانها، فجُعل لها ظاهر بارز على وجه الأرض، وجُعل لها باطن في داخل الأرض، وحُفظت بها الأرض أن تميد مع ما جعله الله فيها من المنافع والكنوز، ولازال الناس يكتشفون الكنوز والمنافع في الجبال إلى يومنا هذا.

وإلى الأرض كيف سطحت وهيئت للإنسان ليعيش عليها، فكانت صالحة للاستقرار عليها، وقابلة للحياة ولاستقبال الماء ولإنبات الزرع وغير ذلك، فسبحان الله! لم يجعلها الله مرتفعة كالسماء، ولم يجعلها منتصبة كالجبال، بل بسطها وهيأها للإنسان، وكل ذلك يدل على قدرة الله وعلى قوة الله وعلى تدبير الله عز وجل، وبالتالي يدل على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى أنه هو المستحق للعبادة.

وما دام ذلك كذلك فعِظْ يا محمد ومن يصلح للخطاب من المؤمنين، وذكر وخوف بالآيات المتلوة والآيات المخلوقة، فإن وظيفتك والمطلوب منك هو التذكير والبيان، ولا تملك إلا ذلك، فعلِّق قلبك بما تملك ولا تؤاخذ نفسك بما لا تملك، فلا يحملنك الألم من عدم إيمانهم على أن تؤذي نفسك بذلك، فإنك لا تملك ذلك، وإنك لست مسلطا على الناس، ولا مالكا لقلوبهم تصرفها كيف تشاء وتحملهم على الإيمان، ولا موكلا بأعمالهم، فليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء، وليس عليك أن تحصي عليهم أعمالهم، ولكن الله يحصي عليهم أعمالهم.

لكن من تولى وأعرض عن الذكرى وكفر بربه فإن الله لن يتركه، بل سيأخذه سبحانه وتعالى، فسيلاقي جزاءه في الآخرة، فيعذبه الله العذاب الأكبر في الآخرة، وإن شاء عذبه العذاب الأصغر في الدنيا، ومن عذابه الأصغر في الدنيا ضيق القلوب، وما قد ينزله الله عز وجل من العذاب بأعدائه، فإن الناس مهما عاشوا فإنهم ميتون، وإذا ماتوا فإنهم إلى ربهم راجعون، فملاقو أعمالهم فيجازيهم الله عز وجل بأعمالهم.

ويكونون يوم القيامة سعداء أو أشقياء، فأما السعداء فمنهم من يكرم بالكرامة الكبرى فيدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، ومنهم من يحاسب حسابا يسيرا فيعرض عليه عمله، ثم يدخل الجنة.

وأما الأشقياء فمنهم من يناقَش الحساب ثم يهلك ويعذب، ومنهم من يفضح فضحا على رؤوس الخلائق ثم يهلك ويعذب، ثم هؤلاء الأشقياء منهم من يخرج من النار بعد أن يعذبه الله ما شاء، وهم أهل التوحيد العصاة الذين شاء الله عز وجل أن يدخلهم النار، ومنهم من يبقى في ذلك الشقاء الدائم لا يموت فيه ولا يحيى، وهم الكفار الذين لا إيمان في قلوبهم، فيؤبدون في العذاب.

فرجع آخر السورة إلى أول السورة، وذلك من أعلى مقامات البلاغة، ومن أعلى مقامات النظم. هذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات، ثم نرجع إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: يقول تعالى حَثًّا للذين لا يصدقون الرسول صلى الله عليه وسلم ولغيرهم من الناس أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحيده.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾: أي: ألا ينظرون إلى خلقها البديع؟! وكيف سخرها الله للعباد وذللها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها؟!

أفلا هذا الاستفهام **قال العلماء**: هذا للحث والأمر، للحث على التفكر والتدبر، والأمر بالتفكر والتدبر.

وقال بعض المفسرين: هذا الاستفهام لتوبيخ الكفار يوم القيامة حيث صاروا إلى الشقاء، فيكون المعنى: أفلم يكونوا ينظرون إلى تلك الآيات حتى يعتبروا وينزجروا.

وقال بعض العلماء: هذا الاستفهام لتوبيخ الكفار في الدنيا، كيف يكفرون والآيات الدالة على التوحيد بينة عظيمة؟ ألا عقول لهم؟! إنهم أشد حالا من المجانين، فهذا توبيخ للكفار في الدنيا.

ولا مانع من الكل، فالله عز وجل يأمر ويحث على التفكر، ويوبخ من لم يتفكر في الدنيا، وسيوبخ من جاءته الرسل فلم يؤمن بها ولم يعتبر بآيات الله يوم القيامة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظر تفكر واعتبار، وإلا فكل صاحب عين ينظر إلى الإبل من العرب، الذين يعرفون الإبل ينظرون إلى الإبل ويركبونها، وينظرون إلى السماء وينظرون إلى الجبال التي أمامهم، وينظرون إلى الأرض، لكنهم لا ينظرون نظر تفكر واعتبار.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظر تفكر واعتبار.

﴿إِلَى الْإِبِلِ﴾ الإبل هي الأباعر، وهي الحيوان المعروف.

والعلماء يقولون: الإبل اسم جمع لا واحد له من جنسه، وهي مؤنثة دائما تلزم التأنيث؛ لأن اسم الجمع الذي لا واحد له من جنسه لغير العاقل يلزم التأنيث دائما، فهي مؤنثة.

قال بعض المفسرين: لما ذكر الله عز وجل في أول السورة ما يكون يوم القيامة أنكر الكفار البعث، فأقام الله عليهم البراهين الدالة على قدرته، وأنه قادر على أن يبعث الناس بقوله: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ الآيات.

وقال بعض المفسرين: لما قال الله عز وجل: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾، قال بعض الكفار مستهزئين: فكيف يجلس عليها أصحابها ما دام أنها مرفوعة؟

وقال بعض المفسرين: قال بعض المؤمنين: كيف نجلس عليها؟

إذا قلنا: قال بعض الكافرين: كيف يجلس عليها أهلها؟ فهذا سؤال استبعاد وسخرية، وإذا قلنا: قال بعض المؤمنين: كيف نجلس عليها؟ فهذا سؤال استعلام لاستحلاب معرفة النعيم؛ يعني: للاستزادة من معرفة النعيم، ذكر الله لهم مثالا يدلهم على ذلك، فإن الأباعر والإبل مرتفعة، كيف يركب عليها الإنسان؟ إذا أراد الإنسان أن يركب بركت له فيركب عليها، فكذلك تلك السرر إذا أراد صاحبها أن يجلس عليها طأطأت له فجلس عليها، هذا قاله بعض المفسرين لكن ليس له إسناد، لكن قاله بعض المفسرين.

والظاهر والله أعلم ما بدأنا به، وهو أنه لما ذكر الله حال الأشقياء والسعداء يوم القيامة دل عباده على ما ينجيهم من الشقاء وهو الإيمان، ودلهم على آيات تدعوهم إلى الإيمان، والآيات الداعية إلى الإيمان إما متلوة وهي من كلام الله، وإما مخلوقة سواء في الكون أو في النفس أو في المخلوقات، فهذا الأظهر والله أعلم.

وبعض العلماء بعض المفسرين قالوا: والإبل هنا هي السحب، قالوا: أفلا ينظرون إلى السحب وما فيها من الخير الذي ينزل إلى العباد بأمر الله، لكن هذا خلاف ظاهر اللفظ وخلاف ما يفهم من اللفظ.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة حصل بها الاستقرار للأرض وثباتها من الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع الجليلة ما أودع.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾؛ أي: مدت مدا واسعا، وسهلت غاية التسهيل ليستقر العباد على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها وسلوك طرقها.

أي: أنها أعدت للإنسان ليعيش عليها.

قال: واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس خصوصا في هذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد، فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدا الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر، وأما جسم الأرض الذي هو كبير جدا واسع فيكون كرويا مسطحا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

يشير الشيخ هنا إلى كروية الأرض، وأن الأرض كروية مستديرة كما دلت على ذلك أو نبهت على ذلك بعض الآيات وبعض الأحاديث، وكما يدل عليه الحس والعلم.

وكون الأرض كروية لا ينافي كونها مسطحة، فإنها مسطحة للإنسان بحيث ينتفع بها، وهي كروية في هيأتها العامة.

وقلت مرارا وتكرارا لا ينبغي لطلاب العلم أن يبادروا إلى نفي الحقائق العلمية، وأن يجروا القرآن إلى نفي تلك الأمور، فإن هذا مما يزري بالمتكلم، وقد يشكك بعض الناس في القرآن، فلا ينبغي لطالب العلم أن يصادم الحقائق العلمية الثابتة بفهم لبعض آيات القرآن، هذا مما ينبغي أن يترفع عنه طلاب العلم، وقد ظهر قبل فترة يسيرة طالب علم تكلم في حقائق علمية بما لا يحسن، وجر القرآن إلى ذلك فجعل لأعداء الدين وأعداء السنة وأعداء هذه البلاد فرصة ليسخروا ويستهزؤوا من ذلك الكلام.

فينبغي لطلاب العلم أن يعلموا أن كلامهم منسوب إلى الدين وإلى الأمة وليس منسوبا للواحد منهم، فلا يتكلم إلا بما يثمر خيرا ويزيد الناس إيمانا ويزجرهم عن الشر.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾؛ أي: ذكر الناس وعظهم وأنذرهم وبشرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث عليهم مسيطرا عليهم، مسلطا موكلا بأعمالهم.

فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (45)﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾؛ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله.

فهذا استثناء منقطع؛ لأن ما بعده ليس من جنس ما قبله، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ انتهى الكلام، لكن من تولى وكفر فإن الله سيتولاه سبحانه وتعالى، وهو لأعدائه بالمرصاد .

وبعض المفسرين قالوا: الاستثناء هنا متصل، ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ فقد جعل الله لك عليه سلطانا بالجهاد وينصرك عليه، لكن الذي عليه أكثر المفسرين أن الاستثناء هنا منقطع بمعنى لكن.

﴿فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾؛ أي: الشديد الدائم .

ووصفه بأنه الأكبر؛ لأن هناك عذابا أصغر، وهو ما يسبق دخول النار، فيعذَّب الشقي في الموقف.

والمعلوم أن الناس في الموقف منهم من يؤَمَن وهم من خافوا الله في الدنيا، ومنهم من يُخوف شديد الخوف، وأن الناس يكونون يوم القيامة في العرق على قدر أعمالهم، فمنهم من يعرق إلى كعبيه، ومنهم من يعرق إلى ركبتيه، ومنهم من يعرق إلى حقويه إلى وسطه، ومنهم من يعرق إلى ثدييه، ومنهم من يصل العرق إلى فمه يغطيه إلى فمه، ومنهم من يغطيه العرق تغطية، ويعذب في القبر، وقد يعذب في الدنيا بأن يأخذه الله كما أخذ بعض الأمم، أو يسلط عليه بعض مخلوقاته ونحو ذلك.

فالعذاب أكبر وهو عذاب النار الذي لا يدانيه عذاب، وأصغر وهو ما قبل دخول النار.

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾؛ أي: رجوع الخلائق وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ على ما عملوا من خير وشر.

فيكون الناس كما قلنا سعداء وأشقياء، والسعداء منهم من لا يحاسب أصلا، ومنهم من يحاسب حسابا يسيرا بعرض الأعمال عليه عرضا من غير مناقشة.

والأشقياء منهم من يحاسب حسابا عسيرا بأن يناقَش الحساب، ومن نوقش الحساب عذب وهلك، ومنهم من يفضح فضحا أمام الخلائق وينادى عليه على رؤوس الخلائق، ثم هؤلاء الأشقياء إذا دخلوا النار منهم من يخرج منها بعد أن يعذب ما شاء الله أن يعذب، وهم العصاة من الموحدين الذين شاء الله أن يدخلوا النار، ومنهم من يؤبد عذابه في النار وهم أهل الكفر، فلا خروج لهم من النار أبدا.

وبهذا نكون قد فرغنا من تفسير هذه السورة العظيمة سورة الغاشية، وهذه السورة فيها حكم كلية وفوائد عظمى وهي:

- أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الناس في الآخرة يكونون أشقياء أو سعداء بحسب أعمالهم في الدنيا.

- ومنها أن كل ما خلق الله يدل على الله، يدل على وجود الله، وعلى قدرة الله، وعلى قوة الله، وعلى تدبير الله، وعلى أنه المستحق للعبادة، ومن ذلك الآيات العظيمة التي ذكرت في هذه السورة.

ومنها بيان أن العالم لا يجب عليه إلا البيان، أما القبول فليس واجبا عليه، ولذلك لا يقاس العالم بكثرة الناس الذين يتبعونه، لا يقال هذا أتباعه كثر فهو ما شاء الله عالم طيب، وهذا الذي يجلسون عنده قلة فهو لا علم عنده، وإنما يقاس العلماء بما يقولون، فإن كانوا يقولون الحق وإليه يدعون فهم العلماء الأتقياء، ولو لم يتبعهم أحد، قد يبتلى العالم بأقوام أشقياء لا تتحرك قلوبهم للحق ويتبعون الهوى، ويجرحون العلماء الأثبات ولا يقبلونهم، فالمطلوب من العالم أن يبين، ويقاس العالم بما يقول، فإن كان يقول الحق ويدعو إليه فهو العالم الرباني، ولو لم يكن مشهورا، ولو لم يكن له جمهور، وإن كان يقول الباطل فهو داعية ضلال، وإن أقبل الناس إليه ومالوا إلى ما يقول.

سورة الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (3) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (4) هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (5)﴾.

في هذه السورة المكية يقسم الله عز وجل بآيات عظام متعلقة بأزمنة العبادة، فيقسم بالفجر الذي يكون عند إدبار الليل وإقبال النهار، وتكون فيه عبادة شريفة هي صلاة الفجر، وقراءة القرآن فيها مشهودة، وتجتمع فيه ملائكة الليل عند إرادتها الصعود إلى السماء، وملائكة النهار عند نزولها من السماء.

ويقسم بالليالي العشر التي هي عشر ذي الحجة التي ما من أيام العمل فيهن أحب إلى الله وأفضل عند الله منها، وفيها عبادات شريفة: ففيها الحج، فيها ركن الحج الأعظم وهو الوقوف بعرفة، وفيها يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر وأعظم الأيام عند الله سبحانه وتعالى، وفيها ذبح الأضاحي، وصلاة عيد الأضحى، أو هي ليالي العشر الأواخر من رمضان على ما ذهب إليه بعض السلف التي فيهن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفيهن العبادات العظيمة التي يجتهد فيها.

ويقسم سبحانه بالشفع وهو الزوج الذي يُضم فيه شيء إلى شيء، ولم يخص الله شفعا من شفع فيعم كل شفع.

ويقسم بالوتر الذي هو الفرد، ولم يخص الله فردا من فرد، والله وتر يحب الوتر.

ويقسم بالليل الذي يسري على الناس، ويغشاهم بظلامه، ويسير من أوله إلى آخره وهو أفضله. فالليل يسير له أول ووسط وآخر وآخره أفضله، ويسري فيه الناس، فتطوى لهم الأرض، وفيه ثلاث صلوات مفروضة: عند إقباله صلاة هي المغرب، وعند إدباره صلاة هي الفجر، وفي وسطه صلاة هي العشاء، -في وسطه يعني: في أثناءه ليس في نصفه-، وفيه أفضل صلوات النافلة التي هي قيام الليل.

وجواب القسم: إن في ذلك لقسما عظيما لذي عقل يعقل به ويتفكر.

هذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات، ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: الظاهر أن المقسَم عليه هو المقسَم به، وذلك جائز مستعمل إذا كان أمرا ظاهرا مهما، وهو كذلك في هذا الموضع.

فيكون جواب القسم مضمنًا في القسم؛ يعني: يفهم من القسم، أو يكون مقدرًا وتقديره: إن هذه المذكورات لآيات عظام.

وقال بعض المفسرين: جواب القسم المذكور هنا هو ما ذُكر بعدها مباشرة، وتقديره: إن في ذلك لقسما لذي حجر، وسيأتي بيانه إن شاء الله.

وقال بعض المفسرين: جواب القسم إن ربك لبالمرصاد، وهذا بعيد؛ لأنه فصل بين القسم والمقسم عليه فواصل كثيرة، فهذا بعيد.

قال رحمه الله: فأقسم تعالى بالفجر.

والفجر هو الصبح.

الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه تعالى هو المدبر لجميع الأمور الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة يحسن أن يقسم الله بها.

وبعض المفسرين قالوا: إن الفجر هنا فجر مخصوص وهو فجر يوم النحر؛ لأنه آخر الليالي العشر التي تتلو في الذكر هنا، وهو أعظم الأيام عند الله.

وقال بعض المفسرين: هو فجر مخصوص وهو فجر أول يوم من ذي الحجة؛ لأنه أول العشر ولذلك ذكر قبلها، ﴿**وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)**﴾ قال: والفجر هو فجر يوم مخصوص وهو فجر أول يوم من ذي الحجة؛ لأنه أول العشر.

والصحيح التعميم فيعم كل فجر، فإن الله لم يخص فجرا من فجر.

وقال بعض العلماء: المراد بالفجر النهار، فيكون التقدير والنهار إذا ظهر، لماذا؟ ليقابل ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ**﴾، فقالوا: عبر عن النهار بأوله وهو الفجر، فهذا تعبير عن الكل بالبعض.

لكن الأظهر والله أعلم أنه الفجر المعروف على ما ذكرنا من فضله وما يقع فيه من عبادات.

قال: ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح ليالي عشر رمضان أو عشر ذي الحجة.

وهذا يشعر أن الشيخ ابن سعدي رحمه الله يرجح أنها ليالي العشر الأخيرة من رمضان؛ لأنه قدمها بعد قوله الصحيح، كلا القولين محتمل، لكن هذا يُشعر أن الراجح عند الشيخ ابن سعدي رحمه الله أنها ليالي العشر الأخيرة من رمضان، وهذا هو الذي رجحه شيخنا الشيخ ابن عثيمين، قال: إن هذا أرجح أنها ليالي العشر الأخيرة من رمضان؛ لأن الله ذكر الليالي، والفضل في العشر الأوائل من ذي الحجة في الأيام، والفضل في العشر الأواخر من رمضان في الليالي، فقالوا: الراجح أنها العشر الأواخر من رمضان، ولكن جمهور المفسرين والعلماء بل بعضهم زعم أن عليه الكافة على أنها الليالي العشر الأول من ذي الحجة.

قال: فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة.

وقد روى الإمام أحمد والنسائي في الكبرى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**الليالي العشر عشر الأضحى**))، لكن ذكر الألباني في السلسلة الضعيفة أنه منكر، وفيه أبو الزبير راوية جابر وهو مدلس وقد عنعن رواه عن جابر، ولم يأت له شاهد يقويه، فهو ضعيف، وإلا لو صح فهو قاطع للنزاع؛ لأنه تفسير من النبي صلى الله عليه وسلم.

قال: فإنها ليالي مشتملة على أيام فاضلة ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع بغيرها.

(فإنها) يرجع إلى الأخير الذي ذكر وهو عشر ذي الحجة.

قال: وفي ليال عشر رمضان ليلة القدر التي هي خير من من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان الذي هو أحد أركان الإسلام العظام، وفي أيام عشر ذي الحجة الوقوف بعرفة الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فإنه ما رُئِيَ الشيطان أحقر ولا أدحر منه في يوم عرفة لما يرى من تنزل الأملاك والرحمة من الله على عباده،

ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة مستحقة أن يقسم الله بها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾.

والشفع والوتر الشفع كما قلنا يا إخوة هو الزوج، من لفظ الشفع بمعنى الضم، يضم شيء إلى شيء، والوتر هو الفرد.

قال بعض المفسرين: الشفع يوم النحر؛ لأنه يوم عشرة وهذا زوج، والوتر يوم عرفة؛ لأنه يوم التاسع وهذا وتر فرد، وذكروا الحديث المتقدم عند الإمام أحمد والنسائي وفيه: ((**والوتر يوم عرفة والشفع يوم النحر**))، ولكن الحديث ضعيف كما تقدم.

وقال بعض المفسرين: الشفع هو شفع الليالي، والوتر هو وتر الليالي، فالليالي منها شفع ومنها وتر سواء ليالي كلها أو ليالي العشر.

وقال بعض المفسرين: الشفع صلاة الفجر وهي في مفتتح النهار، والوتر صلاة المغرب وهي في مفتتح الليل.

وقال بعض المفسرين: الشفع صلاة الفجر والظهر والعصر والعشاء، والوتر صلاة المغرب، وقد روى الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الشفع والوتر فقال: ((**هي الصلاة بعضها شفع وبعضها وتر**))، ولكن الحديث ضعيف ضعفه الألباني وغيره.

وقال بعض المفسرين: الشفع عشر ذي الحجة فإنها عشر شفع، والوتر أيام التشريق فإنها ثلاثة.

وقال بعضهم: المراد الشفع في أعمال الحج، والوتر في أعمال الحج، فإن بعض أعمال الحج شفع وبعض أعمال الحج وتر.

وقال بعضهم: الوتر آدم عليه السلام قبل خلق حواء، والشفع آدم وحواء؛ يعني: يقولون كان آدم وترا قبل أن تخلق حواء، ثم صار شفعا لما خلقت حواء، فصار مع حواء شفعا.

وقال بعضهم: الوتر هو الله، والشفع هو المخلوقات.

والراجح: هو التعميم، وكل ما ذكر إنما هو أنواع للشفع والوتر، فلم يخص الله شفعا دون شفع ولا وترا دون وتر.

والشفع والوَتر هذه قراءة متواترة وهي لغة قريش، يقولون: الوَتر.

والشفع والوِتر بكسر الواو، هذه أيضا قراءة متواترة وهي لغة تميم، فالفتح قراءة متواترة ولغة عربية فصحى هي لغة قريش، والوِتر بكسر الواو كما تعودنا عليه نحن قراءة متواترة ولغة، فهي لغة تميم يكسرون الواو.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي: وقت سريانه وارخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويطمئنون رحمة منه تعالى وحكمة.

وقت سريانه؛ يعني: وقت مشيه، فهو يسير من أوله إلى آخره.

وقال بعضهم: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾** إذا ذهب فأدبر وأقبل النهار، **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾** معنى (يسر) ذهب.

وقال بعضهم: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾** إذا أذهب بعضه بعضا، فالليل أجزاء وليس جزء واحدا؛ يعني: الليل ليس طبقة واحدة من أوله إلى آخره، بل أوله على هيئة، ووسطه على هيئة، وآخره على هيئة، فيذهب بعضه بعضا.

وتلحظون هنا أن الياء محذوفة كتابة ونطقا، فلم يُكتب: والليل إذا يسري، ولا ننطقها: والليل إذا يسري، ولا أعلم تعليلا لغويا صحيحا لهذا، لماذا حذفت الياء؟

من حيث اللغة لا أعلم تعليلا صحيحا له، لهذا الحذف، ولكن من حيث القرآن هذا الحذف مراعاة لفواصل السور وللرسم العثماني؛ ولأنه مبني على التلقي فهو أقوى من اللغة.

نعم يا إخوة؛ القرآن أقوى من اللغة، كوننا لا نجد تعليلا عند أهل اللغة صحيحا، ولو بعضهم علل بتعليل عليل ولذلك لم أذكره، لا يعني ضعف هذا، بل هذا أقوى من اللغة.

فلماذا نحذف الياء؟

نقول: لأن القرآن مبني على التلقي، هكذا سمع من رسول الله صل الله عليه وسلم، وهكذا قرأه القراء، وهكذا نقرأه، ومراعاة للرسم العثماني، هكذا رسم في مصحف عثمان، ومن

حيث النظر القرآني أن هذا الحذف مراعاة لفواصل الآيات حتى تكون متسقة، ﴿وَالْفَجْرِ (1) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (2)﴾ إلى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ لو قلنا: (إذا يسري) تغير النسق.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

هل قال بعض المفسرين: هل هنا بمعنى إن، فهذا جواب القسم.

وقال بعضهم: بل هي على بابها من الاستفهام.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور ﴿ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾: أي: لذي عقل.

وسمي العقل حجرا؛ لأنه يمنع صاحبه مما لا يليق به من الدنائس والرذائل، والمراد: هل في هذه المذكورات في القسم عبرة لذي عقل؟

والجواب: نعم؛ بل في بعضها عبرة، بعضها كاف ليعتبر ذو العقل.

قال: نعم؛ بعض ذلك يكفي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (6) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (8) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (9) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (13) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (14)﴾ [الفجر: 6-14].

لما ذكر الله عز وجل في أول السورة أزمنة العبادات الشريفة منها لما فيها من تلك العبادات التي هي جنة لعباده الصالحين المؤمنين المطيعين المتذللين لربهم سبحانه وتعالى ذكر عز وجل بعض من يقابل أولئك المؤمنين المتذللين لله عز وجل من عتاة الكفار المتجبرين المعرضين.

فخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم وكل مؤمن: ألم تر رؤية بصيرة وتعلم بخبر الله عز وجل وذلك يشير إلى التصديق التام لخبر الله عز وجل وإلى اليقين بخبر الله عز وجل، فإن المؤمن إذا سمع الخبر من الله عز وجل يؤمن به ويوقن به كأنه يراه بعينيه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: أي: رؤية بصيرة وعلم بما أعلمه الله عز وجل به.

فالمعنى: ألم تر ببصيرتك كيف فعل ربك القادر بعاد قوم هود، وهم أولاد عاد بن إرم، وقد آتاهم الله ما آتاهم فزادهم في الخلق بسطة، وآتاهم قوة شديدة، وكانت لهم مدينة ذات

أبنية رفيعة شديدة قوية لم يُصنع مثلها في البلاد، وكذلك هم قبيلة قوية شديدة لم يخلق مثلها في البلاد، ومع كل ما أعطاهم الله إياه لم يؤمنوا ولم يتذللوا لربهم ولم يخضعوا لربهم سبحانه وتعالى، بل طغوا وتجبروا وآذوا عباد الله المؤمنين.

وذلك ألم تركيف فعل ربك بثمود قوم صالح الذين آتاهم الله قوة ومهارة، فجابوا الصخر بالواد قطَعوه من الجبال، وكانت عندهم قدرة على ثقبه فجاؤوا به إلى الوادي المعروف وادي القرى، فبنوا به القصور في الوادي، ونحتوا في الجبال بيوتا فارهين، وذلك مما أعطاهم الله عزوجل من القوة، ولكنهم لم يعرفوا لله حقه، ولم يؤمنوا برسوله، ولم يسلِّموا لآياته، بل طغوا وتجبروا وأفسدوا وعذَّبوا عباد الله المؤمنين وسخروا منهم.

وكذلك ألم تركيف فعل ربك بفرعون ملك مصر الذي كانت له جنود قوية كثيرة تثبّت ملكه، وكان له ملأ يعينونه على تثبيت ملكه، وكان طاغية جبارًا يستضعف الناس ويعذبهم، فيربط بعضهم بالأوتاد التي يغرسها في الأرض ويربط فيها أيديهم وأرجلهم، ويصلب بعضهم بخشب يغرسه في الأرض كالوتد ويكون منتصبًا، فيصلب عليه من يريد أن يعذبه من عباد الله.

ومن جبروته وطغيانه أنه كان يستضعف بني إسرائيل، فيذبح أبناءهم الذكور، ويستحيي نساءهم، وكل هذا مما أعطاه الله عزوجل، لكنه وقومه لم يؤمنوا ولم يخضعوا ولم يذِلوا لربهم، بل طغى هذا الجبار وقال مالم يقله غيره، فقال: ﴿**فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ**﴾ [النازعات: 24]، وقال: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي**﴾ [القصص: 38]، ووافقه ملأه وقومه على هذا الكفر والتجبر.

فكل هؤلاء من قوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون طغوا في البلاد، وتجاوزوا كل حد في ظلمهم، وأكثروا في الأرض الفساد، ورأس الفساد وأسُّه هو الشرك بالله عزوجل والكفر بالله عزوجل، وتفننوا في هذا الفساد، وأتوا منه ألوانًا، فعذبهم الله في الدنيا، وصب عليهم عذابًا مهلكًا سريعًا أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

وهذه سنة الله عزوجل في أعدائه أنه لهم بالمرصاد، قد يعذب بعضهم في الدنيا فيأخذهم بعذابه الأليم المهلك المستأصل، وقد يملي لبعضهم ويبقيهم في الدنيا ليزدادوا إثمًا مع

إثمهم، ولتعظم ذنوبهم حتى إذا أخذهم لم يفلتهم سبحانه وتعالى، والله قوي عزيز عليم حكيم.

وفِي هذا وعيد لمن كفر بالله عز وجل وأعرض عن ذكره أنه قد يأتيه عذاب الله بغته، فإنه ليس أقوى من فرعون ولا من عاد ولا من ثمود، ففي هذا أكبر الوعيد.

وخص الله عز وجل عادًا وثمودًا؛ لأنهم في جزيرة العرب، فعادٌ في الربع الخالي جنوب الجزيرة، وثمود في وادي القرى في الحجر على طريق تبوك من جهة المدينة، وفرعون كانت أخباره منتشرة في الجزيرة لاسيما مع وجود النصارى في نجران واليهود في المدينة، فذَكَّر الله الناس بما يعرفون، وأبان لهم من أخبارهم ما لا يعرفون؛ وفي ذلك أعظم العبر وأعظم الزواجر عن كفرهم وعنادهم.

هذا هو التفسير الإجمالي الإيماني الموضوعي لهذه الآيات، ونعود إلى التفسير التفصيلي، فنقرأ ما ذكره الشيخ عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله في كتابه تيسير الكريم الرحمن، ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: (يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك).

لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودًا عند فعل ذلك بهم، ولكن الله أخبره، فصار كأنه يرى تلك الأحداث، وهي في قلبه يقين؛ لأن الله عز وجل أخبره بهذا، وكذا كل مؤمن يقرأ القرآن يوقن بما أخبر الله عز وجل به كأنه ينظر إليه بعينيه.

(﴿كَيْفَ فَعَلَ﴾ بهذه الأمم الطاغية، عاد: وهي إرم القبيلة المعروفة في اليمن).

إرم قيل: هي عاد؛ تسمى عادًا وتسمى إرمًا، وقيل: إرم قبيلةٌ من عاد؛ فخذ من أفخاذ قبيلة عاد، وقيل: إن إرم مقر حكم وملك قوم عاد، وقيل: إن إرم هي مدينةٌ عجيبةٌ قوية البنيان، شديدة البنيان لقوم عاد.

وتلحظون هنا أن الشيخ قال بالقول الأول: أن إرم هي هي قبيلة عاد، وكل هذا قد قاله المفسرون.

قال: (**في اليمن**) في اليمن لأنها في الأحقاف، والأحقاف هي حبال الرمل، وحبال الرمل هي الربع الخالي في جنوب الجزيرة العربية، وكل الجنوب تسميه العرب يمنًا؛ كل جنوب الجزيرة العربية تسميه العرب يمنًا، كما أن الشمال -شمال الجزيرة العربية- يُسمى شامًا.

فالشيخ يقول: المعروفة في اليمن يعني: في جنوب الجزيرة العربية؛ وهي كما قلنا: في حبال الرمال في الربع الخالي، وأبعد النجعة بعض المفسرين فقال: إنها في الإسكندرية، وقال بعضهم في الشام، وهذا بعيد وغلط، فإنها في الأحقاف كما أخبر الله عز وجل، والأحقاف على أصح التفاسير هي: حبال الرمل.

(﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر).

ذاتُ العماد؛ هي ذاتُ العماد ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ هي ذاتُ العماد، قيل: ذات القوة والبطش والجبروت.

وقال بعض المفسرين: هي ذات الأجسام الطويل؛ فأجسامهم طويلة.

وقال بعض المفسرين: هي ذات الخيام الكبيرة التي تُبنى على الأعمدة الطويلة، فإنهم كانوا يسكنون المدينة؛ فلهم مدينة يسكنونها، وينتقلون منها عند الجدب، ويسكنون خيامًا كبيرةً تُبنى على الأعمدة الطويلة.

وكل هذا محتمل، وقد ذكره المفسرون، ولا مانع من اجتماعه كله لهم، فهم أهل شدة وقوة وجبروت، وأجسامهم طويلة، ولهم خيامٌ ينصبونها على الأعمدة الطويلة، ولهم مدينةٌ ذاتُ بناءٍ وعُمد؛ كل هذا كان لهم.

(الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ) أي: في جميع البلدان في القوة والشدة، كما قال لهم نبيهم هودٌ عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]).

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ عَودُ الضمير هنا بحسب التفاسير السابقة.

فقال بعض المفسرين: أي: لم يُخلق مثل هذه القبيلة في شدتها وطول أجسادها في البلدان.

وقال بعض المفسرين: ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ يعني المدينة؛ فيكون المعنى: التي لم يُصنع مثلها، فلم يستطع أحد من أهل البلدان أن يبنيَ مثل مدينتهم؛ مثلما بنَوا هم وصنعوا هم.

وقال بعض المفسرين: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ أي: الأعمدة التي يبنون عليها الخيام؛ كانت في الطول والشدة بحيث لم يصنع أحدٌ من أهل البلدان مثلها.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ **قال بعض العلماء:** هذا مطلق في جميع البلدان وفي جميع الأزمان.

وقال بعض المفسرين: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ في زمنها؛ فهو مُقيَّدٌ بذلك الزمان.

وظاهر القرآن الإطلاق أنها لم يُخلق مثلها في البلاد على المعاني التي ذكرناها.

﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن.

وادي القرى وهو معروف إلى اليوم؛ وهو الذي فيه الحجر، وفيه بما يسمى بمدينة صالح.

﴿**جَابُوا**﴾ يعني قطعوا وثقبوا، فهم كانوا يقطعون الصخور العظيمة من الجبال، ويأتون بها إلى الوادي فيثقبونها، ويدخلون هذا في هذا، فكانت عندهم قدرة على قطع الصخور العظيمة وعلى ثقبها، فيبنون بها في واديهم القصور.

وأما الجبال الثابتة فينحتون فيها، ومن مر بالحجر يرى هذا كيف أن هناك أبوابا منحوتة في الجبل، ثم هناك غرفا وهناك مقابر في داخل الجبال ونحو ذلك.

(﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ أي: ذي الجنود الذي ثبتوا ملكه كما ثبتت الأوتاد وما يراد إمساكه بها).

﴿**وَفِرْعَوْنَ**﴾ هذا اسم ملك مصر في ذلك الزمان، الملك في مصر في ذلك الزمان يقال له: فرعون، وليس اسما خاصا بإنسان بعينه، وإنما هذا لقب الملك: فرعون، وفرعون موسى كان طاغية جبارا قد مكن الله عز وجل له في الأرض.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ **قال بعض العلماء:** الأوتاد هنا هم الجنود والملأ العظيم الذين ثبَّتوا ملكه كما يثبت الوتد الخيمة، فكانوا يخدمونه ويثبتون ملكه.

وقال بعض العلماء: ﴿**ذِي الْأَوْتَادِ**﴾ قالوا: فرعون ذو الأوتاد يعني: الذي كان يصنع أوتادًا يعذب بها الناس فيغرس بعضها في الأرض ويربط يدًا في وتد ويدًا في وتد آخر ورجلًا في وتد ورجلًا في وتد آخر ويتركهم تحت الشمس، وينصب خشبا عريضًا يثبته في الأرض ويصلب عليه من يريد أن يعذبه ويأمر بضربه بالسياط، ولا مانع من الأمرين.

وقال بعض المفسرين: ﴿**وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ**﴾ يعني صاحب الخيام الكثيرة الكبيرة، فكانوا يتخذون الخيام الكبيرة التي يثبتونها بالأوتاد للنزهة والفسحة.

وأشار بعض المفسرين إلى احتمال لم يذكره أحد من المتقدمين، وهو أن الأوتاد هي الأهرام المعروفة الموجودة في مصر قالوا: لأنها تشبه الجبال، وهي ظاهرة على وجه الأرض كأنها جبل، ولكن لم أقف على أحد من العلماء المتقدمين ذكر هذا التفسير.

وعلى كل حال فهذا الوصف يدل على القوة وما أنعم الله به على أولئك الأقوام.

(﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود وفرعون ومن تبعهم فإنهم طغوا في بلاد الله وآذوا عباد الله في دينهم ودنياهم).

﴿**الَّذِينَ**﴾ هذا الوصف لكل من تقدم.

﴿**طَغَوْا**﴾ تجاوزوا الحد، ورأس الطغيان الشرك والعياذ بالله، فطغوا في كل جرم وظلموا واستعبدوا عباد الله.

(ولهذا قال الله: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ [الفجر: 12] العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبا وسوط عذاب).

﴿**فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ**﴾ [الفجر: 13]: ﴿**فَصَبَّ**﴾ هذا يدل على أن العذاب أتاهم من فوق.

والمعنى: أنزل الله عز وجل بهم عذابا أخذهم واستأصلهم في وقت قليل، فأخذ عادًا بالريح العقيم التي سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، فمع قوتهم وجبروتهم لم يبق منهم أحد، يعني من الكفار، وأخذ هودًا بالصيحة، وأخذ ثمود بالصيحة، وأغرق فرعون وملأه بالماء.

قال بعض المفسرين: قال الله هنا ﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾ قالوا: للدلالة على الأخذ الشديد السريع كأنه سوط نزل بهم مع كل ذلك الجبروت.

وقال بعض المفسرين: في هذا إشارة إلى شدة عذابهم يوم القيامة، فإن عذابهم هذا الذي في الدنيا بالنسبة لعذابهم يوم القيامة كأنه سوط واحد.

ولا مانع من الفائدتين لذكر السوط هنا، فإنه دل على سرعة الأخذ، ويشير ويدل إلى ما ينتظرهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

(﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ لمن يعصيه يمهله قليلا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر).

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ **قال بعض المفسرين**: لمن يعصيه، فإنه يملي للظالم حتى إذا أخذه أخذ عزيز مقتدر، وقد يكون هذا في الدنيا، فيعذبه في الدنيا وعذاب الله أشد وأبقى يوم القيامة.

وقد يكون أخذ الله عز وجل له في الآخرة، فيملي له في الدنيا حتى يزداد إثمًا، ثم يأخذه يوم القيامة ويعذبه العذاب الشديد.

وقال بعض المفسرين: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ لعباده جميعًا مؤمنهم وكافرهم يرصد أعمالهم سبحانه وتعالى، ويحفظها عليهم، ثم يجازيهم بها يوم القيامة.

وقد يجازي هؤلاء وهؤلاء على أعمالهم في الدنيا، فالمؤمن الطائع قد يجازيه الله في الدنيا، كالذي يصل رحمه؛ قد يجازيه الله في الدنيا ثوابًا عاجلًا بأن يوسع له في رزقه، وينسأ له في أجله، وثواب الآخرة أعلى وأبقى وأحلى.

وقد يأخذ العاصي -كافرًا كان أو مؤمنًا- بعذاب في الدنيا، كالعاق والعياذ بالله، فإنه حري وأجدر أن ينزل الله به العذاب وهو في الدنيا، مع ما يدخر له من العذاب يوم القيامة.

الذين قالوا بالأول وهو الذي ذكره الشيخ، قالوا به من أجل السياق، فإن ما قبله يدل على هذا، أنه للعصاة.

والذين قالوا بالثاني قالوا لأن هذا أعم، ولا يأباه السياق، فإنه خاتمة، وليس تعليلًا لما تقدم.

ولعل هذا أرجح والله أعلم: أنه يعم المؤمن والكافر، ولكن شتان بين المؤمن والكافر حالًا وجزاءً.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (19) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾ [الفجر: 15-20].

يخبر الله عز وجل أنه يختبر الناس بالخير والشر، وأن الإنسان الجاهل والكافر إن ابتلاه الله بالخير: فأكرمه بالمال ونعمه بما وسع عليه في الدنيا، اغتر بذلك، وزاد شرا في نفسه؛ لأنه يظن أن الله أعطاه هذا الخير لعلم عنده، ومهارة عنده، ولكرامته ومنزلته عند الله التي استحقها بنفسه، فليس الفضل في ذلك عنده لله سبحانه وتعالى، وإنما لأنه مستحق لذلك.

وأما إن ابتلاه بالضر، وضيق عليه رزقه، وأعطاه بمقدار ما يحتاج، فيتسخط، ويقول: إني لا أستحق هذا، وأن الله ظلمني عياذا بالله مما يقول.

فليس هذا الجاهل أو الكافر عند الرخاء شاكرًا مقرًّا بفضل الله ولا عند الضراء صابرًا مسلّمًا الأمر لله عز وجل، وعند الرخاء لا ينسب الفضل إلى الله وإنما ينسب الاستحقاق لنفسه، وعند الضراء ينسب الظلم إلى الله وأنه لا يستحق ما نزل به.

ومفهوم هذا أن المؤمن العارف بربه بضد هذا، فإذا أكرمه الله بخير ووسع عليه في رزقه وابتلاه بذلك الخير قال: هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر، وليس لأنه مستحق لذلك لا فضل لله عليه بهذا، ويشكر الله على هذا بلسانه وقلبه وجوارحه، وأما إذا ابتلاه ربه بالضراء فإنه يقول: هذا بسبب من نفسي، والله يذكرني بهذا، والله قد رحمني فلم يعطني ما أستحق من الضراء بسبب ذنبي، فيقول: أنا مستحق لأكثر من هذا ولكن ربي غفور رحيم أنزل بي البلاء ليذكرني، ولم يأخذني بكل ما أستحق، فيسلِّم لأمر الله ويرجع إلى الله سبحانه وتعالى.

ثم بين الله لذلك الإنسان الجاهل والكافر حقيقة حاله، وأنه إذا أكرمه بالمال فإنه لا يفعل في ذلك ما يقتضيه الإكرام، مما يدل على أنه ليس كريمًا عند الله سبحانه وتعالى بمجرد السعة في المال والسعة في الدنيا.

فإنكم يا معاشر الجهلة أو الكفار هذا الخطاب، إذا أكرمكم الله لا تعطفون على اليتيم الذي قد مات أبوه وهو دون البلوغ، ولا تحسنون إليه من مالكم، ولا تكرمونه أيًّا كان هذا اليتيم سواء كان من أقربائكم أو لم يكن من أقربائكم، فلا يجد عندكم إكرامًا وإنما يجد الإهانة، ولا تعرفون حق الله في المال، فلا يحث بعضكم بعضًا على إطعام المساكين المحاويج الذين لا يجدون القوت، بل ولا تشعرون بالمسكين ولا تعطونه شيئًا، وإذا مات ميت وترك مالًا يورث لا تعطونه لأهله، وتقتسمونه فيما بينكم معاشر الأقوياء، ولا تعطون المستحقين له بل تأكلونه أكلًا تامًّا وتجمعونه مع أموالكم، ولا تبقون منه شيئًا، وتحبون المال حبًّا شديدًا أعماكم وأطغاكم، فجعلكم لا تعرفون حق اللّه في المال ، ولا تعطون أهل الحق حقوقهم ولا تنفقون منه شيئا في سبيل الله، وهذا كله يدل على بخلكم وشحكم والبخيل الشحيح ذليل مهان وليس مكرمًا.

ومفهوم هذا أن المؤمن إذا أكرمه الله عز وجل بالمال والسعة أكرم الأيتام، وأعطاهم من ماله، وحفظ لهم أموالهم، وتفقد المساكين المحاويج وأعطاهم من ماله، وحث غيره على الإنفاق، وإذا مات ميت وترك مالًا كان أحرص على إيصال الحقوق إلى أصحابها منه على أخذ حقه، ويحب المال بمقتضى الإنسانية حبًّا لا يطغيه، بل يجعل المال في يده ولا يجعله في قلبه، ويسأل الله أن يجعل غناه في قلبه.

ومقصود هذه الآيات بيان أن الله لا يكرِم بكثرة الدنيا والمال، كما لا يهين بقلة الدنيا والمال، وإنما الإكرام للمؤمن المطيع ولو قل ماله، والإهانة والإذلال للكافر العاصي ولو كثر ماله.

فهذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال المصنف رحمه الله: (يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

الله عز وجل يقول: ﴿فَأَمَّا﴾ هنا للتقسيم، فالإنسان في هذه الحال حال الاختبار بالخير والشر ينقسم إلى قسمين -والإنسان هنا جنس الإنسان-:

- مصرح به في الآيات وهو الجاهل الكافر.

- والقسم الثاني مفهوم من الآيات بمفهوم المخالفة.

وقال بعض المفسرين: ﴿فَأَمَّا﴾ زائدة صلة، والمعنى: إن الإنسان.

﴿الْإِنسَانُ﴾ هنا **قال بعض العلماء**: (ال) فيه للجنس، فيكون المعنى أن الأصل في الإنسان أنه ظلوم جهول وهذه حاله إلا من رحم الله.

وقال بعض المفسرين: (ال) في الإنسان للعهد، والإنسان المعهود بالخطاب في السور المكية هو الكافر، فالإنسان هنا هو الكافر ومن اتصف بهذه الصفات من المسلمين لجهله وظلمه لنفسه.

وقال بعض المفسرين: بل هذا كافر بعينه، فبعضهم قال أمية بن خلف وبعضهم قال كعب بن خلف وهكذا.

﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي: اختبره.

﴿رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ﴾ أي: بالمال.

﴿وَنَعَّمَهُ﴾؛ أي: بما وسع عليه.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ أي: لأني استحق الإكرام وليس هذا فضلًا من الله سبحانه وتعالى.

﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ أي: اختبره.

﴿فَقَدَرَ﴾ أي: ضيق.

﴿عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ وفي قراءة (فقدَّر) بالتشديد أي: أعطاه بمقدار حاجته، أعطاه بالمقدار، (قدَر) يعنى: ضيق عليه رزقه، وقراءة (فقدَّر)؛ أي: أعطاه بالمقدار؛ أي: بمقدار ما يحتاج إليه ولم يوسع عليه.

﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ وأنا لا أستحق الإهانة، فربي ظالم لي أعوذ بالله من هذا القول ومن هذا القائل.

قال: (وأنه إذا قدر عليه رزقه؛ أي: ضيقه فصار بقدر قُوتِه لا يقدر عنه أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحسبان فقال: ﴿كلا﴾ أي: ليس كل من نعَّمته في هذه الدنيا فهو كريم علي).

فالمعنى: كلا ليس الأمر كما تزعمون، فليس الإكرام بسعة الدنيا ولا الإهانة بضيق الدنيا.

قال: (أي: ليس كل من نعَّمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي، وإنما الغنى والفقر والسعة والضيق ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد ليرى من يقوم له بالشكر والصبر فيثيبه على ذلك الثواب الجزيل، ممن ليس كذلك فينقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضا فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط من ضعف الهمة ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ [الفجر: 17]).

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ﴾ فانتقل الخطاب من الغيبة إلى الحاضر ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ﴾، قبله ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ ثم: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ (17) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ (18) وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا (19) وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا (20)﴾؛ لأن الخطاب أصبح لهؤلاء الجهلة الكفار الذين تقدم وصفهم.

وفي قراءة: ﴿كَلا بَلْ لا يُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (17) وَلا يَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (18) وَيَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَمًّا (19) وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (20)﴾، فيكون ذلك على السياق؛ لأن الإنسان في قول الله: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾ كما قلنا للجنس، أي: الناس، وأن هذا هو الأصل فيهم، فهم لا يكرمون اليتيم هذا هو الأصل فيهم إلا من رحمه الله وهكذا.

(﴿كَلا بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه).

وهو دون البلوغ؛ لأن اليتيم إنما يسمى يتيما إذا كان دون البلوغ.

قال: (فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه وهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم وعدم الرغبة في الخير).

وعدم الرحمة تدل على أن صاحب هذا العدم ليس كريما، فإن الكريم عند الله رحيم، فالراحمون يرحمهم الرحمن سبحانه وتعالى.

﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضكم بعضا على إطعام المحاويج من الفقراء والمساكين، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب.

وقيل معنى ﴿وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ لا تحثون أهليكم على إعطاء المسكين إذا جاء يسأل عند البيت، بل تمنعوهم من ذلك، ولا مانع من الأمرين فهم لا يحث بعضهم بعضا على ذلك، ولا يحثون أهليهم على ذلك، بل ولا يرضون من أهليهم بذلك.

(ولهذا قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: المال المخلف).

التراث: هو الميراث، المال الموروث، هذا الذي عليه أكثر المفسرين.

وبعض المفسرين يقول: المال الموروث وغيره الذي أورثهم الله إياه، فالمال مال الله يعطيه من شاء من عباده، لكن الأقرب هو قول الأكثرين أن التراث هو المال الموروث.

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ أي: المال المخلف، ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أي: ذريعًا لا تبقون على شيء منه

ذريعًا أي: شديدًا فلا تتركون منه شيئا.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾ أي: أكلًا جامعًا لنصيبهم مع نصيبكم، فتجمعون نصيبهم مع نصيبكم وتأكلونه.

وقيل اللم هو: أن يأكل كل ما يقع في يده ولا يسأل عن حلال ولا حرام.

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾ أي: تأكلون كل ما يقع في يدكم، فالحلال ما حل في أيديكم لا تسألون عن حلال ولا حرام.

(﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: شديدا، وهذا كقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: 16-17]، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: 20-21]).

الجم في الأصل هو الكثير، والمراد به هنا الشدة، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: شديدا، وعُبر عن الشدة بالجم هنا للدلالة على حب الإنسان لكثرة المال، وأنه مهما كثر المال في يده فإنه يرغب في الزيادة، ولا يقنع أبدًا.

﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (26) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (27) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر: 21-30].

يبين الله عز وجل للإنسان الجاهل أو الكافر حقيقة حاله، وأن وجود الأموال في يده، والأولاد عنده في هذه الدنيا ليس إكراما له، فإنه ذاهب وتاركه.

فكلاًّ يا من تقدم بيان حالك، ليس الأمر كما زعمت، فإن وراءك يومًا تتغير فيه الأرض وتُبدل، فيدك كل ما على الأرض من شجر وجبال دكًّا شديدًا، وتزلزل الأرض حتى لا يبقى عليها شيء بارز، فلا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، بل تكون قاعًا صفصفًا، وتمد مدًّا كمد الجلد.

وفي ذلك اليوم موقف مهيب، حيث ينزل الله عز وجل نزولًا يليق بجلاله ليقضي بين الناس، يجيء في ظلل من السحاب البارد الأبيض، وتجيء الملائكة كلها، وهي كثيرة العدد فعددها لا يحصيه إلا من خلقها سبحانه وتعالى، تأتي في صفوف صفًّا صفًّا بين يدي ربها، وتصف من وراء الخلق في المحشر، وهي مع كثرة طاعتها، وشدة خلقها، تقف ذليلة خاضعة خاشعة لربها سبحانه وتعالى في ذلك اليوم.

وتقرب النار من الناس، فيُجاء بها، تأتي بها الملائكة يجرونها جرًّا، فقد روى مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**يُأتى بجهنم يومئذ ولها سبعون ألف زمام، مع كل زمامٍ سبعون ألف ملك يجرّونها**)، وإذا قُربّت من أهلها ورأت أهلها فإنَّهم يسمعون لها تغيظًا وزفيرًا؛ تكاد تقطَّع من الغيظ عليهم، ومن رغبتها في الانتقام منهم؛ لأنَّهم عصوا الله سبحانه وتعالى، ويعرضون على النَّار في ذلك الموقف بإهانةٍ وإذلال؛ فينظرون إلى النَّار التي سيعذبون فيها من طرفٍ خفي بذلة؛ كمن سيُقتل بالسيف فيُشهر السيف أمامه فيرفع

طرفه بذلةٍ واستكانة؛ ينظر إلى السيف الذي سيقتل به، فكذلك أهل النَّار في ذلك اليوم المهيب العظيم يُعرضون على النَّار فينظرون إليها بذلةٍ واستكانة من طرفٍ خفي، ويخرج عنقٌ من النَّار له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسانٌ ينطق يقول: إني وُكلت بثلاثة: بكل جبارٍ عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهًا آخر وبالمصورين؛ كما ثبت عند الترمذي بإسناد صحيح.

فإذا رأى الإنسان ذلك كله تذكر، وأنَّى له الذكرى؛ فالذكرى بعيدة عنه فقد فات أوانها، وانقضى زمانها فيدرك عند ذاك أنَّ الحياة حياة الآخرة، وأن حياة الدنيا حقيرةٌ دنية؛ فيقول متحسرًا على ما كان منه: يا ليتني قدمت لحياتي في حياتي، يا ليتني قدمت لحياتي الحقيقية التي هي هذه الحياة التي يراها في ذلك اليوم في حياتي السّابقة التي هي دار العمل.

ففي ذلك الموقف، وفي ذلك اليوم لا يعذب عذاب الله أحد؛ فعذاب الله أشد وأبقى، ولا يوثق وثاق الله أحد؛ فوثاق الله أشد حيث توضع الأغلال في أعناق أهل النَّار، وتُشد أيديهم إلى أعناقهم بسلاسل من النَّار، وتربط أرجلهم وتشد إلى أعناقهم وأيديهم في سلاسل طويلةٍ عظيمة منها ما يكون ذرعه سبعين ذراعًا، وبالتالي فإنَّ الذي يعذبه الله في ذلك اليوم وما بعده لا يعذَّب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد؛ فالغمسة في النَّار دونها كل عذابٍ قبلها؛ فكيف بالمُكث فيها والعياذ بالله.

وأما النفس المؤمنة التي كانت مطمئنة في الدنيا بالإيمان وبذكر الله وبالأعمال الصالحة، فإنها تكون مطمئنة يوم القيامة، حيث يؤمنها الله عز وجل، وتنادَى بما يسرها، ويدخل البهجة عليها، فيقال لها:

﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً﴾ [الفجر: 28] عن نفسك، وعن أعمالك، وعن ربك، ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ قد رضي الله عنك وأرضاك، وهذا شأن النفس المؤمنة المطمئنة منذ أن تبدأ في قيامتها، إذا أقبلت على الآخرة، وأدبرت عن الدنيا، فجاءها ملك الموت، فإنه يقال لها: أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية، وأبشري بروح وريحان، ورب غير غضبان.

وكذلك يقال لها يوم القيامة، فيقال لها: ارجعي إلى ربك -والكل سيرجع إلى الله في ذلك اليوم-، ولكن النفس المطمئنة ترجع إلى ربها آمنة راضية مرضية.

﴿**فَادْخُلِي فِي عِبَادِي**﴾ [الفجر: 29] الذين رضيت عنهم، وجعلت لهم الجنة نزلا.

﴿**وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾ [الفجر: 30] التي أعددتها لعبادي الصالحين، وجعلت فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

فبين الله لك أيها الإنسان ما يكون يوم القيامة للنفس العاصية المعرضة، وللنفس المطمئنة في الدنيا، فاختر لنفسك أيها الإنسان، فقد هداك الله النجدين، ووعظك، وذكرك، وبين لك غاية البيان، وجعل لك قدرة على عمل الطاعات وعلى ترك العصيان، فإن شئت فاعمل الطاعات؛ ولا تحسنُ إلا إلى نفسك، وإن شئت فاعمل المعاصي؛ ولا تسئ إلا إلى نفسك، فاعمل ما شئت فإنك ملاقيه ومجازى به.

هذا هو التفسير الإجمالي الإيماني الموضوعي لهذه الآيات، ونرجع إلى التفسير التفصيلي، ونقرأ ما ذكره الشيخ.

(﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل ما أحببتم من الأموال، وتنافستم فيه من اللذات ببقاق لكم، بل أمامكم يوم عظيم وهول جسيم تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمتا، ويجيء الله لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام، ويجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: 22] أي: صفا بعد صف كل سماء يجيء ملائكتها صفا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار.

﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: 23] تقودها الملائكة بالسلاسل.

فإذا وقعت هذه الأمور فيومئذ يتذكر الإنسان ما قدمه من خير ومن شر وأنَّى له الذكرى).

الإنسان: قيل كل إنسان، فـ (ال) هنا للجنس.

وقيل: الإنسان الذي ظلم نفسه فكفر أو عصى ربه عصيانا عظيما بدلالة ما بعده وهذا أقرب والله أعلم.

بعض أهل العلم: يقولون جنس الإنسان وما من إنسان يوم القيامة إلا ويندم ما من إنسان إلا ويندم يوم القيامة، إن كان محسنا ندم أنه لم يزدد إحسانًا ليزداد درجات، وإن كان مسيئًا ندم أنه لم يقلع عن إساءته ويعمل بالصالحات، قالوا: والسياق لا يأبى هذا.

وقال بعض العلماء: بل الإنسان هنا (ال) للعهد وهو الإنسان الذي تقدم وصفه وهو الكافر أو الجاهل الذي يعتقد ما تقدم.

(فيومئذ يتذكر الإنسان ما قدمه من خير وشر وأنى له الذكرى).

(أنَّى) للاستبعاد يعني: أنَّى الذكرى بعيدة عنه.

(وأنى له الذكرى فقد فات أوانها وذهب زمانها يقول متحسرا على ما فرط في جنب الله يا ليتني قدمت لحياتي الباقية الدائمة عملا صالحا).

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿لِحَيَاتِي﴾: أي: في حياتي، فاللام بمعنى في، يعني: يا ليتني قدمت في الحياة الدنيا الطاعة والإقلاع عن المعصية، وكلا المعنيين صحيح فالمعنى يا ليتني قدمت في حياتي لحياتي، يا ليتني قدمت في حياتي في الدنيا وهي الحياة الفانية، والدنيا دار العمل لحياتي الباقية الحقيقية فإن الدار الآخرة هي الحيوان فكلا المعنيين صحيح مراد.

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28)﴾ [الفرقان: 27-28] **وفي هذا دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها وفي تثمين ملذاتها هي الحياة في دار القرار فإنها دار الخلد والبقاء.**

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: 25] **لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل**

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ﴾ [الفجر: 26] **يخرجون بسلاسل من نار ويسحبون على وجوههم في الحميم ثم في النار يسجرون فهذا جزاء المجرمين).**

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ﴾ وعلى هذا يكون الضمير راجعا لله عز وجل، فيومئذ لا يعذب عذاب الله أحد فإن عذاب الله أشد وأبقى، وأن كل عذاب دون عذاب الله كلا عذاب.

﴿**وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أحد**﴾: أي: لا يوثق وثاق الله أحد، فإن ذاك الوثاق شديد أليم فإنه من النار مع الإهانة البالغة.

وفي قراءة ﴿**فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ أَحد (25) وَلَا يُوثَقُ وَثَاقَهُ** (26)﴾ [الفجر: 25-26]، فيكون الضمير في ﴿**عَذَابَهُ**﴾ راجعا إلى المعذَّب فيومئذ لا يعذَّب عذاب ذلك المعذَّب أحد فإن عذابه أشد وأبقى وأعظم ألما، بل كل عذاب دون عذابه كلا عذاب، ولا يوثق وثاق ذلك الموثَق أحد.

وقال بعض المفسرين: في هذه القراءة المعنى لا يعذَب بدلا منه أحد، ﴿**لَّا يُعَذَّبُ عَذَابَهُ**﴾ أي: لا يعذب أحد بدلا منه ولا يوثَق أحد بدلا منه، فإنه لا يفدي أحد أحدا في ذلك اليوم.

وهذا صحيح أيضا، وكل المعاني صحيحة وهذا اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد.

(قال: وأما من آمن بالله واطمأن به وصدق رسله فيقال له: يا أيتها النفس المطمئنة إلى ذكر الله الساكنة إلى حبه التي قرت عينها بالله).

فكانت مطمئنة في الدنيا بالإيمان وذكر الله والعمل الصالح.

(ارجعي إلى ربك الذي رباك بنعمته).

وقال بعض المفسرين: ﴿**إِلَىٰ رَبِّكِ**﴾: أي: إلى صاحبك فارجعي إلى جسده، فالمعنى: ارجعي إلى جسد صاحبك، لكن الأظهر هو الأول: ارجعي إلى ربك سبحانه وتعالى.

(ارجعي إلى ربك الذي رباك بنعمته وأسدل عليك من إحسانه ما صرت به من أوليائه وأحبابه.

﴿رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28] أي: راضية عن الله وعما أكرمها به من الثواب والله قد رضي عنها).

﴿**رَاضِيَةً**﴾ أي: عن ربها وبعملها فهي لسعيها راضية وحامدة ومرضية أرضاها الله سبحانه وتعالى ورضي عنها.

(﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (29) وَادْخُلِي جَنَّتِي (30)﴾ [الفجر:29-30] وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة وتخاطب به وقت السياق والموت).

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ هذه القراءة المتواترة يعني: فادخلي في عبادي المنعّمين الصالحين الذين كتبت لهم كرامتي، وهذا يقال للنفس المطمئنة عند حضور الأجل وخروج الروح، ويقال لها عند يوم القيامة، فالراجح العموم؛ لأن بعض السلف قالوا هذا عند الاحتضار، وبعضهم قال يوم القيامة، والراجح أنه يعم الأمرين.

وفي قراءة ليست متواترة: ﴿فادخلي في عبْدي﴾ هذا على معنى: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ﴾؛ أي: إلى صاحبك، فادخلي في عبْدي أي: ادخلي في جسده، والقراءة غير متواترة، لكنه يفسر بها.

ولكن الأمر كما قلنا: ارجعي إلى ربك الذي رباك وأنعم عليك بما تقدم وتفضل عليك بما هو بين يديك من النعيم.

وبهذا نكون ختمنا تفسير هذه السورة.

أُحب أن أذكر بعض الحِكم الكلية والفوائد الكبرى لسورة الفجر:

- فمن حِكم هذه السور الكلية وفوائدها العظمى: بيان قدرة الله عز وجل وتدبيره لخلقه، وأنه الرب المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

- ومن حِكم السور الكلية: بيان سنة الله في أعدائه وأعداء أوليائه المؤمنين، وأنه قد يُملي لهم فإذا أخذهم أخذهم أخذ عزيز مقتدر، وأن الذلة دائما لأعداء الله سبحانه وتعالى.

- ومن حِكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن الإكرام عند الله ليس بكثرة متاع الدنيا، وأن الإهانة عند الله ليست بقلة متاع الدنيا، وإنما الإكرام عند ربنا سبحانه بتوحيده وطاعته، والشكر عند السراء والصبر عند الضراء، فمن آمن بالله ووحده واجتهد في طاعته، وكان شاكرًا لنعم الله عز وجل صابرًا على بلاء الله فهو المُكْرم حقًّا عند الله، وله الإكرام في الدنيا والآخرة.

- ومن حكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن من أهمل الزراعة في الدنيا يندم وقت الحصاد في الآخرة، فالدنيا مزرعة، وأوان حصاد ثمارها في الآخرة، فمن أهمل الزرع في الدنيا فإنه يندم عند وقت أوان الحصاد في الآخرة.

- ومن حِكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن النفس المطمئنة في الدنيا بتوحيد الله وذكره وطاعته تكون مطمئنةً في الآخرة، فلها الطمأنينة عند لقاء ربها، ولها النعيم في جنة ربها.

سورة البلد.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ:

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (2) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (5) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (6)أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (7) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (8)وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (9) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (10) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (11) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (12) فَكُّ رَقَبَةٍ(13) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (14) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (15) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (16) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (17)أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (18) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (19) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (20)﴾.

هذه السورة الكريمة المباركة معانيها متصلة، وآياتها يأخذ بعضها ببعضٍ؛ ولذلك لم نقسمها ولم نقطعها.

ففي هذه السورة المكية يُقْسِم ربنا سبحانه رحمةً بعباده وإحسانًا إليهم لتأكيد المُقسَم عليه، فيُقسِم سبحانه بمكة البلد الحرام الذي حرَّمه سبحانه وتعالى يوم خلق السماوات والأرض، وأظهر تحريمَه نبيُّه الخليل إبراهيم عليه السلام، وفيه المسجد الحرام الذي هو أحب بقاع الأرض إلى الله سبحانه وتعالى، وفيه الكعبة التي لها الحرمة العظيمة، وفيه مقام إبراهيم الذي فيه آية كبرى.

يقسم بمكة حال كوّن النبي صلى الله عليه وسلم حالًّا بها فتزداد به شرفًا إلى شرفها، وحال إحلالها للنبي صلى الله عليه وسلم حيث ستزداد حين ذاك شرفًا بإسلام أهلها وتطهيرها من الكفار والكفر والأصنام.

وتضمن هذا القسم القسم بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي من شرفه أن الله يحل له شيئًا لم يحله لأحد من عباده لا من قبله ولا من بعده، حيث يحل الله له القتال في مكة ساعة من نهار وذلك لشرفه صلى الله عليه وسلم.

ويقسم الله عزوجل بكل والد من إنسان أو حيوان، وبكل مولود، وفِي التناسل آية عظيمة لله سبحانه وتعالى.

وجواب القسم: لقد خلقنا الإنسان في كبد، فخلقناه في حسن قامة واستقامة وميزناه بخلقته عن بقية المخلوقات، فخلقته أحسن خلقة، وأقوم خلقة، وخلقه الله عز وجل ليعمل العمل الكثير في الدنيا لدينه بأن يعبد الله سبحانه وتعالى وحده، ولدنياه التي لن يحصل ما فيها إلا بالسعي والتعب والمعاناة، فهو ينتقل من تعب إلى تعب، وسيكون بعد موته في تعب شديد ومعاناة شديدة إن لم يطع الله سبحانه وتعالى.

فالله أخبرك أيها الإنسان أنه قد خلقك في كبد، فما خلقت إلا لتعمل:

إما لدينك وهو الأصل في خلقتك بأن تعبد الله سبحانه وتعالى.

وإما لدنياك التي لن تحصل ما فيها إلا بتعب.

فأنت ما دمت في الدنيا تنتقل من تعب إلى تعب، وبعد الموت عند لقاء الله سيكون الإنسان في تعب شديد إلا إذا أطاع الله سبحانه وتعالى، فلا راحة للإنسان إلا في الجنة، حيث يضع رجله فيها إن كان من أهلها، فيضيف بزيادة كبد الحوت، ويذبح له ولأهل الجنة الثور المربى في الجنة كرامة لهم عند دخولهم.

هناك يرتاح الإنسان، فمن أتعب نفسه قبل ذلك في طاعة الله ارتاح في الجنة، ومن أعرض عن طاعة الله انتقل من تعبٍ إلى تعبٍ أشدّ منه.

وهذا الإنسان مع ضعفه الأصل فيه أنه ظلومٌ جهول مغتر بنفسه متكبر، فيظن أنه لا يقدر عليه أحد، وأنه لن يقدر عليه أحد مطلقا، فيغفل عن قدرة الله، وأن الله عز وجل على كل شيء قدير، ومن كبره وجهله يقول: إني صاحب أموال كثيرة لن تنقطع عني، فأنا قد أهلكت في شهواتي وملذاتي أموال كثيرة مجتمعة كالجبال، جمعت بعضها على بعض، فلم يذهب مالي ولن يذهب مالي.

أفلا يعلم ذلك المغرور أن الذي أعطاه المال قادر على أن يسلبه منه في لحظة؟! وقادر على أن يأخذه من المال في لحظة؟! إن الله على كل شيء قدير، وأن الذي خلقه قادر على إماتته وبعثه ومجازاته.

ومن ظلم ذلك الإنسان المتكبر المتجبر الظلوم الجهول أنه يظن أنه لا يرصده أحد، ولا يحفظ عليه عمله أحد، أفلا يعلم ذلك المغرور أن الله يُراقبه، وأن الله يراه ويسمعه، وأن عليه ملائكة تحفظ عليه أعماله؟!

أفلا يفكر هذا المتجبر المتكبر في أصل خلقته وفي ضعفه وفي نفسه حتى يعلم أنه ضعيف لا يملك من أمر نفسه شيئا ولا يملك لنفسه شيئا؟!

ألم ينعم الله عليه فيجعل له عينين يبصر بهما ويرى بهما؟! ولو شاء الله لما جعل له ذلك، ولو شاء الله لذهب بنورهما فما استطاع أن يعيد ذلك النور.

ومن آيات التي يريها للناس وهي متعلقة بهذا أنك تجد طبيب عيون يفقد بصره ويصبح أعمى، ولا يصنع لنفسه شيئا، فهو من ضعفه لا يستطيع إيجاد العينين، ولا أن يحافظ عليهما بل الله عز وجل خلقهما والله عز وجل يحفظهما.

ألم ينعم الله عليه فجعل له لسانا ينطق به، ويعبر به عن ما يريد؟!

سبحان الله! من أين تأتي هذه الحروف؟! يخرج هواء من الفم، فإذا به يكون حروفا، وإذا به يكون كلاما، من أين تأتي؟ والله لو اجتمع الخلق كلهم لما استطاعوا أن يخرجوا حرفا واحدا، الله جعل له ذلك، وجعل له شفتين تتشكل بهما الحروف، وفيهما منافع عظيمة، ولو شاء الله لسلبه ذلك، فكم من إنسان له لسان، وله شفتان، ويخرج من جوفه هواء كالذي يخرج من أجواف الناس، لكنه لا يتكلم بحرف، ولا يتكلم بكلمة، إن الإنسان ضعيف، وإن الذي أنعم عليه بهذا هو القوي القدير سبحانه وتعالى.

ألم يرشده ربه عند صغره عند ولادته وهو لا يعلم شيئا، ولا يدرك شيئا؟!

ألم يرشده ربه إلى ثديي أمه وأن فيهما غذاءه، ويعلمه كيف يمتص ذلك اللبن من ذلك الثدي؟!

فهداه النجدين، هداه طريقي تغذيته وهو صغير وهما هذان الثديان، فيذهب مباشرة إلى ثدي أمه يلتقمه، لا يذهب إلى سرتها، ولا يذهب إلى أصبعها، وإنما يذهب إلى ثديها، وهو لا يعلم شيئا، ولا يدرك شيئا، من الذي هداه؟ إنه الله سبحانه وتعالى.

ولما كبر هداه الله فعلمه طريق الخير وطريق الشر، فبعث له رسلا يدعونه إلى الخير، ويعلمونه الخير، ويبينون له الشر، وينهونه عن الشر.

بلى وربي، وكل ذلك يدل على قوة الله، وعلى قدرة الله، وعلى تدبير الله، وعلى ضعف الإنسان، وأنه لا يدبر لنفسه شيئا، وأنه لا يملك له من دون الله شيئا.

وذلك الإنسان الظلوم الجهول مع أن الله هداه النجدين، وبين له طريق الخير ويسر له سلوكه، وبين له طريق الشر وحذره من سلوكه، لم يسلك طريق الهداية؛ لأنها ليس فيها شهوة حاضرة، ويرى طريقها صعبا، فلم يسلك ذلك الطريق الذي يتجاوز به العقبة التي هي النار يوم القيامة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾ [البلد: 12] ما أعلمك أيها المخاطب ما العقبة، بينها لك ربك سبحانه وتعالى، وإذا سمعت في القرآن (ما أدراك) فانتظر البيان، فكل ما قال الله عز وجل فيه (ما أدراك) فقد بينه الله سبحانه وتعالى.

إن الطريق الصعبة في الدنيا الذي تُتَجاوز به العقبة يوم القيامة هو الإيمان بالله، والإحسان إلى خلق الله، والرحمة بهم، فمن ذلك: فك رقبة الأسير من أسره، والرقيق من رقه، ومنها: إطعام الضعفة في يوم ذي مجاعة، فإطعام الطعام من شيم الكرام، ومن أفعال الصالحين، ويعظم فضل إطعام الطعام إذا كان ذلك عند الحاجة، ويعظم إطعام الطعام عند الحاجة؛ إذا كان للضعفة الذين لا يُرجى منهم خير دنيوي، ولا يُخاف بأسهم.

فمما يجتاز به الإنسان العقبة، وينجو به من النار أن يطعم الضعفة في يوم شديد المجاعة يشتهي فيه الناس الطعام فلا يجدونه، ويبحثون عنه فلا يحصلونه.

وزاد؛ بأن يطعم يتيمه القريب، الذي من أقربائه، فيطعم اليتيم الذي فقد أباه وهو صغير قبل بلوغه، ذكرا كان أو أنثى، لاسيما إذا كان من أقربائه، فيكون له حق يتمه، وحق قرابته.

وكذلك أن يطعم المسكين الذي لا يجد شيئا، فهو لا يملك إلا التراب في يده إن كان في يده شيء، فلا تجد في يده إلا ترابا، إن كان في يده شيء، وكأنه قد لصق بالتراب لشدة حاجته،

فكأنه لا لباس يحول بينه وبين التراب، ولا بساط يحول بينه وبين التراب، فهو مسكين شديد المسكنة، لا يملك شيئا.

وكل ذلك الذي تقدم من الإحسان إلى خلق الله لا ينفع إلا إذا كان مع إيمان، فشرط قبوله أن يكون العامل به مؤمنا بالله عز وجل، يفعله إيمانا واحتسابا، إيمانا بالله، وإيمانا بوعد الله، واحتسابا لما عند الله سبحانه وتعالى.

فكان من الذين آمنوا بالله وبموعود الله سبحانه وتعالى، وكان من أهل الصبر، فإن الثبات على طريق الاستقامة لا يكون إلا للصابرين، فلا إيمان لمن لا صبر له.

والصبر لابد له من التواصي به، فيحتاج المؤمن في استقامته إلى أن يوصي غيره بالاستقامة، وأن يوصيه غيره بالاستقامة، فيكون في ذاته صابرا على طاعة الله ولا سيما في زمن الغربة، لا سيما في آخر الزمان حيث يقل المعين على الطاعة، ويكثر المثبط عن طاعة الله سبحانه وتعالى، ويكون صابرا عن معصية الله لا سيما في زمن الفتن حيث تقترب المعاصي من الإنسان، وتسهُل له وتكثُر عليه، ويكون صابرا على أقدار الله وعلى بلاء الله، ويوصي غيره بذلك ويوصيه غيره بذلك.

ولابد للإنسان في دنياه من رحمة حتى يُرحَم في الدنيا والآخرة، فمن لا يرحم لا يُرحَم، ومن رحم عباد الله رحمه الله سبحانه وتعالى، والرحمة تحتاج إلى تواصي بها، وأن يوصي المؤمنون بعضهم بعضا بالرحمة، أولئك الذين آمنوا بالله وأحسنوا إلى خلق الله ورحموا عباد الله أصحاب الإكرام من الله، فالله يكرمهم.

وأما من قابلهم فكفر بالله، ولم يرحم عباد الله ولم يحسن إلى عباد الله فأولئك أصحاب الإذلال والإهانة من الله عز وجل، ولهم العذاب الشديد يوم القيامة، فتوصد عليهم النار، وتطبَق عليهم النار، ويُجعل لأبوابها عُمد حتى لا تفتَح أبدا، فلا يخرج من لهيبها شيء إلى خارجها، ولا يخرج من حرّها شيء إلى خارجها، بل كل عذابها وكل لهيبها على أهلها مسعر، هي كانت قبل دخول أهلها إليها اشتكت إلى ربها فقالت: (يا ربي أكل بعضي بعضا)، من شدة ما فيها، فأذن لها بنفسين: نفس في الصيف، ونفس في الشتاء، فأشد ما يجد الناس من الحر من نَفَسِ جهنم، وأشد ما يجد الناس من البرد من نَفَسِ جهنم.

لكن إذا أُدخِل أهلها إليها وأُطبِقت عليهم أبوابها، وأوصِدت بالعُمَد، فإنه لا يخرج منها شيء، أعني من لهيبها وعذابها، بل تسعَّر على أصحابها، فإن كان أهلها كفارا فإنها تطبق عليهم أبد الآباد، لا تبيد ولا يخرجون منها، وإن كان أهلها من عصاة الموحدين فإنها تطبق عليهم حتى إذا شاء الله أن يخرجهم أخرجهم، فمنهم من يخرج سريعا بشفاعة الشفعاء قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة، من عصاة الموحدين من يدخل جهنم ولكنه يُخرج منها بشفاعة الشافعين بإذن الله سبحانه وتعالى قبل أن يدخل أهل الجنة الجنة، ومنهم من يمكث فيها زمنا ثم يخرج منها، ومنهم من يطول عليه الزمن في نار جهنم حتى يكون كأنه مؤبد فيها وإن كان مآله إلى الخروج منها.

فنعوذ بالله من النار نعوذ بالله من النار نعوذ بالله من النار، اللهم نجنا ووالدينا وأهلينا وذرياتنا وأحبابنا من النار.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة العظيمة المكية المباركة، ونرجع إلى التفسير التفصيلي، ونقرأ ما ذكره الإمام الفقيه المفسر الأصولي المتفنن: مَن وَهَبَهُ الله البصيرة فجمع كثيرا من علم المتقدمين، وعندما تقرأ له تحس كأنه قد سبق زمنه فذكر من الأحكام والمسائل ما يناسب الزمن الذي بعده، وذاك فضل الله يؤتيه من يشاء، الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله وسائر علماء المسلمين.

أحبوا العلماء يا إخوة وادعوا لهم، فإن ذلك قربى إلى الله، والميت أخوك غائب فإذا دعوت له قال لك الملك: آمين ولك مثله، والعلماء حقهم علينا عظيم، ولا نزال بخير ما أحببنا علماء أهل السنة، وإن لم نرض شيئا من أقوالهم لأن غيرهم من أهل السنة قال قولا هو أحق بالرضى من قولهم، لكننا نحبهم، ويكون الابتلاء الحقيقي للقلوب عندما يأتيك شيء من الأذى من عالم من علماء أهل السنة فتبقى محبا له، داعيا له، ناشرا لفضله، غيورا على عرضه؛ لأنك تتقرب إلى الله لا لأحد من البشر، ومن علماء أهل السنة الكبار الشيخ السعدي رحمه الله وهو شيخ شيخنا الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، وهو ممن أثر تأثيرا بالغا عظيما في الشيخ ابن عثيمين رحمه الله رحمة واسعة وسائر علماء المسلمين.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى غفر له ولشيخنا وللسامعين:

يقسم تعالى بهذا البلد الأمين.

يقول الله: ﴿**لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ**﴾؛ **قال بعض المفسرين**: **(لا)** هنا زائدة، صلة لتأكيد القسم، وفيها بيان أن المقسم عليه ثابت لا شك فيه، ولا يحتاج إلى قسم، لكن الله يقسم عليه إحسانا لعباده ليزدادوا إيمانا، ولتطمئن قلوبهم. ومعنى: ﴿**أُقْسِمُ**﴾؛ يعني: أحلف.

﴿**بِهَٰذَا الْبَلَدِ**﴾؛ هو مكة بإجماع العلماء.

قال: يقسم تعالى بهذا البلد الأمين وهو مكة المكرمة أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصا وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها .

﴿**وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ**﴾ **قال بعض المفسرين**: وأنت حالٌّ بهذا البلد، يعني وأنت مقيم بهذا البلد فإنه يزداد شرفا إلى شرفه، وهذا ما ذكره الشيخ هنا.

وقال بعض المفسرين: في هذا إشارة إلى أنه سيخرج من مكة، وأنه سيُخرج من مكة، لأن الله قال: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ**﴾ يعني حال كونك حالًّا فيها، وهذا يشعر بأنه سيَخرج من مكة، وقد أخرجه قومه من مكة.

وقال بعض المفسرين: معنى قول ربنا: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ**﴾ وهذا البلد حلال لك، حيث سيُحَل لك هذا البلد المحرم، وفي هذا بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم أنه سيفتح مكة، فيكون هذا قسما ثانيا بحِل ربنا مكة لنبيه صلى الله عليه وسلم لما في ذلك من الشرف لمحمد صلى الله عليه وسلم ومن العز لدينه.

وقال بعض المفسرين: ﴿**وَأَنتَ حِلٌّ**﴾ أي: أنت حلال غير مُحْرِم، وليس المراد النبي صلى الله عليه وسلم فقط، بل كل حلال؛ يعني يقول ربنا: أقسم بهذا البلد ومن فيه مُحِلون غير محرمين فكيف إذا كانوا محرمين؟ لا شك أن الأمر أعظم.

وقال بعض المفسرين: **(لا)**هنا نافية **(لا أقسم) لا** هنا نافية، والمعنى لا أقسم بهذا البلد. لماذا؟ لماذا لا يقسم الله بهذا البلد؟

﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ ما معنى وأنت حل؟ يعني وأنت مستحَل في هذا البلد فدمك مستحَل يكيدون لك يريدون قتلك، وعرضك مستحَل يشتمونك ويسبونك ويلصقون بك التهم الكاذبة، فلا أقسم بهذا البلد ما دمت مستحلا في هذا البلد.

وقال بعضهم -الذين يقولون أن (**لا**) هنا نافية-: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (1) وَأَنتَ حِلٌّ﴾ أي حالٌّ عن البلد، أي: خارج عنها، أي لا أقسم بهذا البلد إذا أخرجك قومك منه.

فصارت ﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ (حِل) هنا لها أربعة معاني:

1. -﴿وَأَنتَ حِلٌّ﴾ يعني: وأنت حال في مكة، أقسم بمكة وأنت حال موجود فيها.
2. **والثاني**: أقسم بمكة وأنت حلال فيها، يعني: حلال من الحل، وأنت حلال فيها غير محرِم.
3. **والثالث**: بمعنى حل، يعني: مستحَل، فيكون المعنى: لا أقسم بمكة لأنك مستحَل فيها.
4. **والرابع**: (حل) بمعنى حال عن، الأول: حال في، الرابع: حال عن، يعني: لا أقسم بمكة وأنت حال عنها مُخرج منها.

وقال بعض المفسرين: (**لا**) هنا للرد على المكذبين بالبعث والنبي صلى الله عليه وسلم، فيكون المعني: لا؛ ليس الأمر كما تزعمون بل ستموتون وتبعثون وتجازون، أقسم بهذا البلد.

فتكون: **لا** نافية لكن ليست نافية للقسم، نافية لزعمهم أنهم لن يبعثوا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم كذاب -يزعمون هذا-، فيكون المعنى: لا، ليس الأمر كما تزعمون، بل محمد صلى الله عليه وسلم صادق، وستموتون وستبعثون وستجازَون بأعمالكم، أقسم بهذا البلدن

هذه المعاني كلها ذكرها المفسرين، لكن أظهرها الأول، وأن (لا) لتوكيد القسم، وأن الله يقسم بمكة حال كون النبي صلى الله عليه وسلم حالا فيها، وحال كونها حلالا له في المستقبل، وحال كونه حلالا فيها غير حرام، هذا الذي عليه الأكثر، وهو الأظهر إن شاء الله عز وجل، وإن كانت جميع المعاني متجهة على ما بيناه وفصلناه.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي: آدم وذريته.

هذا أحد الأقوال: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾ أي: ووالد والذي ولده الوالد؛ يعني: ومن ولده الوالد، (فالوالد) هو آدم والد البشر جميعا، (وما ولد) هم البشر جميعا.

وقيل: ووالد رزقه الله الولد ووهب له الولد، وما ولد، (ما) نافية، والعقيم الذي لم يولد له، فيكون الله أقسم بمن ولد وبمن لم يلد، هذا قول.

﴿وَوَالِدٍ﴾ وهبه الله الولد، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: لم يلد، فيكون الله أقسم بالصنفين: من يلد، ومن لا يلد.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَوَالِدٍ﴾ هو إبراهيم عليه السلام، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ هم الأنبياء بعده، فإن جميع الأنبياء بعد إبراهيم عليه السلام من ذرية إبراهيم عليه السلام، فصار المعنى: ﴿وَوَالِدٍ﴾ أي: وإبراهيم خليل الله، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ والأنبياء من بعده فإنهم من ذريته.

والمعنى الأعم أولى، ﴿وَوَالِدٍ﴾ أي: كل والد سواء كان إنسانا أو حيوانا، ويشمل هذا ما ذكره بعض المفسرين، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ أي: ما ولده ذلك الوالد سواء كان إنسانا أو حيوانا، فهذا أولى ما تُحمل عليه الآية؛ لأنه يشمل جميع ما ذكره المفسرون.

قال: والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، يحتمل أن المراد من ذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا وفي البرزخ ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد ويوجب له الفرح والسرور الدائم، وإن لم يفعل فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خِلقة يقدر على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه.

﴿فِي كَبَدٍ﴾ ما معنى الكبد هنا؟

قال بعض العلماء: في تعب ومعاناة شديدة، فهو يخرج من تعب إلى تعب، فيخرج من بين الصلب والترائب، ثم يتخلق في الرحم لا حيلة له، ثم يخرج من ذلك المخرج، فإذا خرج إلى الدنيا صاح، ثم يكون ضعيفا يتألم ولا يستطيع أن يعبر عن ألمه إلا بالبكاء، ولا يستطيع أن

يدل أحدا على ألمه إلا بالبكاء، ثم تظهر أسنانه ويعاني المعاناة الشديدة عند ظهورها، ثم يعاني في الحفاظ عليها، ثم يعاني في آخر عمره غالبا من ألمها، ويتعب في طلب رزقه، وهكذا يخرج من تعب إلى تعب، فإذا حضر الأجل أتته سكرات الموت: ((**وإن للموت سكرات**)) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فيتعب عند ذاك، وإذا أدخل قبره ضُم في قبره ضمة لن ينجو منها أحد، وإذا بُعث أدنيت الشمس من رؤوس الخلائق، ووَقف لا يدري ما يُصنع به حتى يقضي الله بين العباد، ثم إن كان ممن كتب الله له أن يسير على الصراط سار على الصراط، وهو منصوب على متن جهنم وهو أحدُّ من السيف على قدر عمله، فإذا سلم ونجا حُبس مع إخوانه المؤمنين على القنطرة حتى يُقتص لبعضهم من بعض، وفي كل هذا تعب وألم، فلا راحة له إلا بالجنة إن كان من أهلها، وإلا انتقل من تعب إلى تعب أشد فلا راحة له أبدا، الكافر لا راحة له أبدا أبدا، وأما المؤمن فإن له الراحة في الجنة، ولذلك لما سئل الإمام أحمد رحمه الله: متى الراحة يا أبا عبد الله؟ قال: (إذا وضعت رجلك في الجنة)، هناك الراحة.

وقال بعض المفسرين: (**الكَبد**) هو حسن القامة والاستقامة في الخِلقة، فقامته حسنة وخلقته حسنة.

وقال بعض المفسرين: (**الكَبد**) هو السماء، يعني في كبد السماء، فيكون المراد بالإنسان هنا آدم عليه السلام وحواء.

ولا مانع من المعاني الثلاثة كلها، فالإنسان خلق في السماء، أمنا وأبونا خلقا في السماء آدم وحواء، وخُلق في الدنيا في تعب، وينتقل من تعب إلى تعب، وقد أحسن الله له خِلقته فخلقه في أحسن تقويم.

قال: فحسب بجهله وبظلمه أن هذه الحالة ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

هنا إما أن الكلام عن الإنسان بجنسه فيكون هذا هو الأصل في الإنسان؛ أنه جهول ظلوم متكبر متعجرف لا يدرك حقيقة نفسه إلا من رحم الله فأنار بصيرته.

وإما أن تكون (**ال**) للعهد، فيكون الحديث عن الإنسان المعهود في السور المكية وهو الكافر الذي كفر بالله عز وجل.

﴿**أَيَحْسَبُ**﴾ أي: أيظن.

﴿**أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ**﴾ فيأخذه أو يأخذ ما أعطاه، أيظن أنه لن يقدر عليه أحد فيأخذه أو يأخذ ما أعطاه؟! وهذا ما جعله يطغى ويتجبر.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، فيقول: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ أي: كثيرا، بعضه فوق بعض وسمى الله تعالى الانفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكا؛ لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلة.

لم يقل الله: (يقول: أنفقت)، قال: ﴿**يَقُولُ أَهْلَكْتُ**﴾، والإهلاك هو الإتلاف بلا فائدة، وسبب ذلك أنه ينفقه على شهواته وملذاته المحرمة، فهو يبلى ويفنى وما بقي منه سيرحل عنه، فلا ينتفع بماله لا بما استعمل ولا بما أبقى، وسيجازى ويحاسب عنه من أين اكتسبه؟ وفيما أنفقه؟ فكان المال خسرانا عليه.

وقال بعض المفسرين: هذا هو الكافر الذي ينفق ماله في الصد عن دين الله وفي معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويفتخر بذلك، فسينفق ماله ويهلكه، ثم يكون عليه حسرة، ثم لا يتحقق له مراده، فالغلبة لدين الله، لأولياء الله سبحانه وتعالى.

قال: لا كمن أنفق في مرضات الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق: قال الله متوعدا هذا الذي افتخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: أيظن في فعله هذا أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير، بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله، ووكل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

قال: ثم قرره بنعمه، فقال: ...

قرره بنعمه وبين له حقيقة نفسه ومدى ضعفه، وأنه لا يستطيع أن يدبر أمره، وأن الله هو ربه الذي يدبر أمره.

قال ثم قرره بنعمه، فقال : ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ. وَلِسَانًا وشفتين﴾ للجمال والبصر والنطق وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا. ثم قال في نعم الدين ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال والرشد من الغي.

﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ أي: أرشدناه إلى الطريقين.

والنجد أصله المكان العالي، والمقصود به الطريق، فأرشدناه إلى طريق الخير وأمرناه به، وأرشدناه إلى طريق الشر ونهيناه عنه.

وقال بعض المفسرين: معنى الآية أرشدناه حال صغره إلى ثديي أمه، وهما طريقا غذائه.

ولا مانع من الأمرين، فالآية تحتمل الأمرين، فالله هدى الإنسان في صغره إلى طريق غذائه، وهداه في كبره إلى طريق الخير وأمره بسلوكه، وإلى طريق الشر ونهاه عن سلوكه.

قال رحمه الله: فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله ويشكره على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصي الله، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾.

﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾؛ أي: هدينا الإنسان طريق الخير وطريق الشر، ولكن الكافر المتجبِّر المغرور بنفسه لم يختر طريق الخير؛ لأنَّه ليس فيه شهوةٌ عاجلة، بل سلك طريق الشر؛ لأن فيه شهواته وملذاته العاجلة.

ومعنى ﴿**اقْتَحَمَ**﴾ سلك القُحمة، **والقحم**: هو الطريق الصعب أو صعاب الطريق، وأصل الاقتحام هو الدخول في الأمر بعزيمة من غير رويةٍ ولا مبالاة.

ومعنى **(فلا)**: إمّا أنّها نافية؛ يعني: فلا اقتحم الكافر ما يجتاز به العقبة، يعني: لم يسلك الكافر طريق الهداية الذي يجتاز به العقبة.

وقال بعض المفسرين: معنى (فلا) أفلا، أي: أن الله يحض الكافر في الدنيا أن يسلك طريق الخير ليجتاز العقبة.

والعقبة: أصلها الطريق في الجبل، ولازال النَّاس لليوم يسمون الطريق في الجبل عقبة، وطريق الجبل صعب، صعب في سلوكه، فالمراد الطريق الصعب في الدنيا الذي يجتاز به الإنسان العقبة يوم القيامة، والعقبة يوم القيامة هي جهنَّم.

وقال بعض السلف هي: الصراط الذي ينصب على متن جهنَّم، والمعنيان متقاربان، هذا معنى ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ**﴾.

﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾؛ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها.

ففسر الشيخ ﴿**فَلَا اقْتَحَمَ**﴾؛ بلم يقتحم؛ لأنَّ العادة أن (**لا**) إنما تذكر عند التكرار: ﴿**فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى**﴾؛ لكن لا تذكر لشيءٍ واحد، فقالوا (**لا**) هنا بمعنى لم يقتحم العقبة.

أي: لم يقتحمها ويعبر عليها؛ لأنَّه متبعٌ لهواه، وهذه العقبة شديدة عليه.

ثمَّ فسر هذه العقبة بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ**﴾؛ أي: ما أعلمك أيها المخاطب ما العقبة، العقبة الأولى والعقبة الثانية:

العقبة الأولى: التي هي صعوبة طريق الهداية؛ لأنَّ الإنسان في الهداية يخرج من داعية هواه إلى ما يريده مولاه، وهذا صعب على النّفس.

والعقبة الثانية: هي العقبة التي تجتاز يوم القيامة، وهي جهنَّم أو الصراط الذي ينصب على متن جهنّم.

والعقبة فسرها ما بعدها.

﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ**﴾؛ يعني: ما أدراك ما العقبة التي في الدنيا التي من سلكها اجتاز العقبة التي في الآخرة؛ إنها الإيمان بالله والإحسان إلى خلق الله والرحمة بهم.

ثم فسر هذه العقبة بقوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: فكها من الرق بعتقها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

وأصل الفك: هو حل القيد.

﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

وهذا أفضل إطعام الطعام، خير المؤمنين من أطعم الطعام، وخير هؤلاء الأخيار من أطعم عند القلة في يده والحاجة عند الناس لكنه لم يتكلف، وخير هؤلاء الأخيار من أطعم الضعفاء عند الحاجة، الذين ما يرجو منهم شيئا لا شفاعة ولا مكانة ولا ولا ولا، فيكون ذلك لله سبحانه وتعالى.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: جامعًا بين كونه يتيمًا وفقيرًا ذا قرابة.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أو مسكينا صاحب عيال يتربون عليه عند حاجته، هو مسكين محتاج وعنده عيال، وكل والد يعرف أن حاجة أولاده أشق على نفسه من حاجته، الإنسان يمكن أن يعيش مسكينا، وكما يقولون بالعامية: (يدبر نفسه)، لكن إذا جاءه الولد؛ الولد مبخلة للغني، الغني إذا جاءه الولد يبدأ يمسك، مستقبل الأولاد، والمسكين إذا جاءه الولد عظمت حاجته في نفسه، والمعلوم أن الأب والأم يقدم أولاده على نفسه.

ولذلك تلك المرأة التي جاءت ومعها البنتان إلى أمنا عائشة رضي الله عنها إلى بيت النبي صلى الله عليه وسلم تسأل، فلم تجد عائشة رضي الله عنها إلا تمرتين، بيت النبي صلى الله عليه وسلم ما كان فيه إلا تمرتان! لجوده صلى الله عليه وسلم، فأخذت تمرة فشقتها بينهما، فلما أكلتا النصف نظرتا إلى أمهما فشقت التمرة الثانية فأطعمتهما مع جوعها.

فقال بعض السلف: المسكين ذو المتربة هو المسكين ذو العيال فإنه أشد المساكين حاجة.

وقال بعض السلف: المسكين ذو المتربة هو كبير السن الذي لم يبق له، أحد الذي أصبح كبيرا لا يستطيع أن يقوم بنفسه وليس له أحد إما حقيقة أو معنى:

- إما حقيقة: لم يبق له زوجة ولا أولاد، وهذا في الغالب يهملة الناس ولا يلتفتون إليه.
- وإما حكما: بأن يكون له أولاد لكن لما رأوه قد كبر في السن وليس عنده شيء أهملوه وتركوه ولم يلتفتوا إليه.

قالوا: هو المسكين، والحقيقة أن كل هؤلاء يدخلون في المسكين، المسكين ذو المتربة الذي لا يجد شيئا أو يجد ما لا يكفيه، ثم هم درجات لا شك في هذا أن الحاجة تكون علىٰ درجات، والمسكين المتعفف أعظم المساكين حاجة والإحسان إليه أعظم الإحسان.

أنا أعرف طالب علم جاء إلىٰ المدينة يريد طلب العلم مسكين ما معه شيء، ولا عنده شيء، يحضر الدروس عند المشايخ في الحرم، ثم في الليل إذا رأىٰ أن الناس ناموا يذهب إلىٰ حاويات النفايات لعله أن يجد بجوارها طعاما يأكله، ما أَعلَمَ أحدا، ولا يسأل الناس، هنيئا لمن وقع عليه، والله من دله الله إلىٰ مثل هذا الإنسان فقد أكرمه الله، طالب علم ومسكين ما يجد ما يأكله، ومتعفف ما يخبر حتى زملائه، أحد زملائه لاحظ هذا في الغرفة وخرج وراءه وجده يفعل هذا ولم يخبره، لكن جاءني وأخبرني عن حاله.

ولذلك أنا أقول للناس: تفقدوا طلاب العلم، تفقدوا طلاب العلم، والله إن الإحسان إلى طالب العلم المحتاج خير من الإحسان إلىٰ غيره، اسألوا عنهم وعن أحوالهم، وأعينوهم بما تستطيعون، فهؤلاء هم شيوخ الأمة في قادم أيامها، وهم الذين يرجىٰ منهم الخير، ولا تزال الأمة بخير ما تفقدت ضعفاءها، النصر والرزق يأتي بسبب الضعفاء.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وعملوا الصالحات.

(ثم) هنا بمعنىٰ (الواو)؛ أي: وكان حال عمله هذا مؤمنا، فإن الذي تقدم لا يُمدح به إلا مؤمن، ولا ينفع إلا المؤمن، فلا يقبل الله عملا إلا من مؤمن، ولا يقبل عبادة إلا من:

1. مخلص الإخلاص الأكبر بالإيمان.
2. ومخلص الإخلاص الأصغر في نفس العبادة.
3. ومتابع لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

الله لا يقبل العبادة الخاصة إلا من مخلص الإخلاص الأكبر بالإيمان، ومخلص الإخلاص الأصغر بالإخلاص في نفس العبادة بأن يعملها لله، ومتبع لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم. ولا يقبل العمل من عبده ويثيبه عليه إلا إذا كان مخلصا له محتسبا الأجر عنده، فكان مخلصا الإخلاص الأكبر والإخلاص الأصغر في ذلك العمل.

أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فدخل في هذا كل قول وفعل واجب أو مستحب.

وقال بعض المفسرين: ﴿آمَنُوا﴾ أي: فعلوا ذلك إيمانًا واحتسابًا، وهذا يدخل في الإيمان، فآمنوا بالله وفعلو ذلك إيمانًا واحتسابًا.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضًا على الانقياد لذلك والإتيان به كاملاً منشرحًا به الصدر مطمئنةً به النفس.

والأصل هذا الأصل، أن من يوصي غيره يعمل بنفسه، هذا الأصل، الأصل أن العاقل ما يوصي غيره ولا يعمله، هذا الأصل، وإن كان قد لا يقع هذا، فالذين تواصلوا بالصبر الأصل أنهم يصبرون، ويوصون غيرهم بالصبر، الصبر بأنواعه الثلاثة: على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ للخلق من إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

المؤمن يرحم عباد الله، ومن رحمته بهم يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، ورأس ذلك أن يأمرهم بالتوحيد وينهاهم عن الشرك، ويرحمهم في بقية أمورهم، وكما قلنا في الصبر، الأصل أن من يوصي غيره بالمرحمة يكون رحيمًا بعباد الله.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين قاموا بهذه الأوصاف الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة، (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه وذلك عنوان السعادة وعلامتها.

فمعنى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أنهم أصحاب اليمن والبركة والسعادة والإكرام.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أنهم الذين يُعطَوْن كتبهم باليمين، أنهم الذين يُعطون كتبهم بأيمانهم.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ يعني أصحاب اليمين الذين وُعدوا بالنعم المقيم.

وقال بعض المفسرين: ﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ هم الذين أُخذوا من الشق الأيمن من آدم عليه السلام، الذين يكونون عن يمين آدم عليه السلام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم فلم يصدقوا بالله ولا آمنوا به ولا عملوا صالحًا ولا رحموا عباد الله.

﴿أولئك أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾.

﴿أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ قيل: أصحاب الشؤم والشقاء والعذاب.

وقيل: الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم.

وقيل: هم أصحاب الشمال الذين وُعدوا بعذاب السموم.

وقيل: هم الذين من الشّق الأيسر من آدم عليه السلام.

فأصحاب الميمنة في المعنى تقابل أصحاب المشئمة، وأصحاب المشأمة في المعنى تقابل أصحاب الميمنة.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مغلقة.

مغلقة مطبقة عليهم، ليس فيها نفس ولا مخرج أبداً.

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 9]، قد مدّت من ورائها لئلا تنفتح أبوابها.

فأغلقت أبوابها بالعمد، يعني سُمّرت أبوابها بالعمد، فلا رجاء لفتحها إلا أن تفتح لإخراج من استوفى عذابه من عصاة الموحدين في النار.

قال: قد ودت من ورائها لئلا تنفتح أبوابها حتى يكونوا في ضيق وهمّ وشدة.

وهذا آخر تفسير سورة البلد.

وهذه السورة فيها حكم كلية وفوائد عظمى كثيرة، لكن أذكر أهمها في نظري، من ذلك:

- بيان أنّ الإنسان خلق في تعب، ويخرج من تعب إلى تعب، وأنّه لا راحة له إلا في الجنة.

- ومنها: بيان أن الإيمان بقدرة الله وبمراقبة الله للعبد بأنّه يراه ويسمعه يقود العبد إلى تزكية نفسه، وأن الغفلة عن هذا تقود العبد إلى الطغيان، ولذلك لابد أن تذكر نفسك

دائما بأن الله عليك قادر، وأنّ الله يراك حيثما كنت، وأن الله يسمعك حيثما كنت، فإنّ هذا يقودك إلى أن تزكي نفسك، وأما الغفلة عن هذا فإنّها سبب للطغيان والعياذ بالله.

- ومنها: بيان أنّ طريق النجاة من النّار وتجاوزها هو الإيمان بالله، والإحسان إلى خلق الله، والرحمة بخلق الله.

- ومنها : بيان أنّ الاستقامة لابد لها من صبر، وأنّ الصبر لابد له من التواصي به، إذا أردت أن تثبت على الاستقامة فكن صبورا، درب نفسك على الصبر، ولابد للصبر -حتى يصبر الإنسان ويستمر على ذلك- من أن يتواصى به مع غيره من المؤمنين.

سورة الشمس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾

في هذه السورة المكية، يقسم الله عز وجل بالشمس وما فيها من الآيات: بنورها الذي تضيئ به الأرض، وبحرِّها الذي تنتفع به المخلوقات.

وبالقمر إذا تبع الشمس وجاء بعدها فهما يتعاقبان، وإذا أخذ منها ضوءه، فالشمس سراج، والقمر ضياء يأخذ ضوءه بإذن الله وأمره من الشمس.

وبالنهار المضيء الذي يكشف ما على الأرض، وبالليل الذي يغطي الأرض بظلامه، ويغطي المخلوقات بظلامه، ويستر ما على الأرض بذلك الظلام.

وبالسماء على اتساعها، وببنائها الشديد، الواسع، المحكَم بغير عمد.

وبالأرض ومدِّها، وبسطها، وتسويتها للمخلوقات جميعًا، التي تحيا عليها ودحيّها بالكنوز والخيرات، من النبات وغيره.

وبالنفس: نفس الإنسان، وتسويتها خلقةً وفطرةً، فسوّى خلقتها، وجعل خلقتها في أحسن تقويم.

وتميزت على المخلوقات بحسن الخلقة، وجعل فطرتها سويّة، فكل مولود يولد على الفطرة، وهيّأها لشأنها، فألهمها وعلّمها طريق التقى والطاعة وطريق الفجور والمعصية.

فبيّن لها هذا وبيّن لها هذا، وأمرها بالتُّقى والطاعة، ونهاها عن الفجور والمعصية، وأقدرها على فعل هذا وهذا، فجعل لصاحبها عقلاً يميّز به، وجعل له إرادةً ومشيئة يختار بها، ولن يشاء الإنسان إلا أن يشاء الله رب العالمين.

ثم هو سبحانه بعد أن هدى الناس جميعًا هداية البيان، إن شاء هدى من شاء منهم هداية التوفيق بفضله وإحسانه.

فيُؤتي أنفسهم تقواها ويهديها هداية البيان، ويزكّيها ويضلُّ من شاء إضلاله من الناس

بعدله، فذاك المضَلُّ مستحق للضلالة، والله الذي أضلّه عدل في ذلك سبحانه وتعالى.

وجواب القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ ففاز الفوز العظيم، فحصّل مرغوبه ونجا من مرهوبه من زكّى نفسه، فطهّرها من الشرك والمعاصي والرذائل، ونماها بالتوحيد والطاعة.

فالتّزكية: تطهير وتنمية، فيُطهّر نفسه من الشرك كبيره وصغيره، ويجتهد في تطهير نفسه من المعاصي والأخلاق الرذيلة، ويُنمّي نفسه، لأنها مولودة على الفطرة، مولودة على الخير، مولودة على الإسلام، فيُنمّي ذلك فيها بالتوحيد والاجتهاد في الطاعات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وخاب وخسر خسرانًا عظيمًا من أخفى خير نفسه بالشرك والمعاصي، وأخفى فطرتها السوية التي ولدت عليها بتدنيسها بالشرك والمعاصي، وفي هذا دليل على أن الإنسان له قدرة وإرادة وأنه يفعل الخير باختياره، ومشيئته ويفعل الشر باختياره ومشيئته، فهو يزكي نفسه أو يدنّس نفسه، ومشيئته ضعيفة قاصرة فهي تحت مشيئة ربه الكونية القدرية. فلا يكون في كون ربنا إلا ما شاء سبحانه وتعالى، فلا يشاء عبد إلا ما شاء ربه سبحانه وتعالى.

هذا هو التفسير الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات العظيمات ونعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما كتبه الإمام السعدي رحمه الله عز وجل ونعلق عليه.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله: أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال: ﴿وَالشَّمسِ وَضُحاها﴾ أي: نورها ونفعها الصادر منها.

(الواو) واو القسم، والشمس معروفة؛ ذلكم الكوكب الناري المتوهج. ﴿وَضُحَاهَا﴾، **قال بعض المفسرين:** أي ونورها النافع للعباد، فإن النهار إذا ظهر بنور الشمس، سعى العباد في خيرهم.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَضُحَاهَا﴾ أي وحرّها الذي ينفع البلاد والعباد، فتنضج به الثمار وتحصل به كثير من المصالح.

وقال بعض العلماء: أي ﴿وَضُحَاهَا﴾ والمخلوقات التي تظهر وتضحى عند إشراقها؛ فالمخلوقات تسكن في الليل، فإذا أشرقت الشمس خرجت، ولا مانع من إرادة الكل، فإن الكل من ضحى الشمس.

فضحاها: هو نورها، وهو حرها، وهو المخلوقات التي تظهر عند إشراقها.

﴿وَالقَمَرِ إذا تَلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور.

إذا تبعها في المنازل، فإن القمر يتبع الشمس في المنازل.

وفي النور، فإن القمر ضياء ليس سراجا، السراج هو المضيء بنفسه، ضوؤه منه. **والضياء:** هو الضوء من الغير.

فالقمر يتبع الشمس في الضوء، ويأخذ الضوء من الشمس.

وتلك آية عظيمة لربنا سبحانه وتعالى، أن الشمس غائبة في الليل، ويأخذ القمر منها الضوء، إنه أمر الله سبحانه وتعالى.

وقال بعض المفسرين: ﴿**وَالقَمَرِ إذا تَلاها**﴾ أي والقمر إذا صار بدرا فأشبهها، لأن القمر يبدأ هلالا، ثم يكبر، ثم يصير بدرا، فيكون مستديرا مثل الشمس ويضيء الأرض.

القمر إذا صار بدرا، يكون له ضوء في الأرض، فيشبه الشمس في ذلك، فقالوا: معنى ﴿**وَالقَمَرِ إذا تَلاها**﴾ أي والقمر إذا صار بدرا فأشبه الشمس.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ أي إذا جلى ما على وجه الأرض وأوضحه.

﴿**جَلَّاهَا**﴾ يعني أظهرها وكشفها، لكن الضمير يعود إلى ماذا؟

أكثر المفسرين يقولون: إلى الأرض، مع أنها ليست مذكورة سابقا، لكنه معلوم، فلا بأس من إعادة الضمير إلى المعلوم.

وقال بعض المفسرين: بل الضمير يعود إلى الشمس ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا**﴾ أي والنهار إذا جلى الشمس، وأظهر جرمها وضوءها.

ولا مانع من الأمرين، فإن هذا يحصل في النهار، وهذا يحصل في النهار.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلما

﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ يغشى: يعني يغطي.

ولكن يغطي ماذا؟ الضمير يعود إلى ماذا؟

بعض أهل العلم وهم الجمهور قالوا: يعود إلى الأرض، فهو يغشى الأرض، ويغطي الأرض بظلامه.

وقال بعض العلماء: الضمير يعود إلى الشمس، فهو يغطي الشمس فتغيب إذا ظهر، إذا دخل الليل غابت الشمس، فهو يغطيها.

والحَظْ هنا أن الله عز وجل قال: ﴿**وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا** ﴿٣﴾ **وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا**﴾ ففي النهار، ذكر الفعل الماضي.

وفي الليل، ذكر الفعل المضارع.

قال العلماء: لأن الضوء يقع في الأرض مرة واحدة، ضوء النهار واحد، أما الليل فإنه يأتي شيئا فشيئا.

ففي أول الليل يكون الظلام خفيفا، ثم يزداد عند العشاء، ثم يزداد في نصف الليل، فيأتي شيئا فشيئا، ولذلك جاء التعبير عنه بفعل المضارع بفعل المضارع.

قال: فتعاقب الظلمة، والضياء، والشمس، والقمر على هذا العالم بانتظام، وإتقان وقيام لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده الذي كل معبود سواه باطل.

لا شك في هذا، هذه الآيات العظام تدل على وجود الله سبحانه وتعالى، وعلى أنه الخالق المدبر، وعلى أنه على كل شيء قدير.

فهذا ضوء النهار الذي يأتي في النهار، من أين جاء؟ ثم إذا طوي بالليل أين يذهب؟ وظلمة الليل التي تغشى الأرض، من أين جاءت؟ أين كانت؟

و إذا جاء النهار، وانفجر الفجر، أين تذهب؟

إنها قدرة الله سبحانه وتعالى، الله على كل شيء قدير، وهذه الآيات تدل الإنسان على أنه فقير، وأن ربه يدبر أمره وعلى أن ربه هو الغَنِي الغِنَى المطلق سبحانه وتعالى.

فكيف ينصرف العبد عن الغني سبحانه، إلى ضعيف مثله فيدعوه من دون الله، ويضع حاجته عنده من دون الله سبحانه وتعالى.

فهذه الآيات تدل على أن الله هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن (ما) موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، وهو الله تعالى.

فيكون المعنى: والسماء والذي بناها؛ والذي بناها هو الله سبحانه وتعالى، فيكون الله قد أقسم بالسماء، وهي آية عجيبة يراها الإنسان، وبه سبحانه وتعالى، وهو الذي بنى السماء.

قال: ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام، والإتقان ،والإحسان.

ويحتمل أن (ما) وما بعدها مصدر، فيكون ﴿وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا﴾ فيكون الله أقسم بالسماء وببنيان تلك السماء البنيان العجيب، فهي مع اتساعها وارتفاعها، لا ترى لها عمدا، مع أن الإنسان يدرك أن الشيء غير المتسع، إذا رفع لابد أن يوضع له عمد وإلا سقط.

احتجنا في مساجدنا إلى السواري حتى لا يسقط السقف، ولكن السماء مع اتساعها لا ترى لها عمدا، ولا ترى فيها انبعاجا، ولا ترى فيها ميلانا، ولا ترى فيها تشققا مع تطاول الزمان، وهذه آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى.

قال: ونحو هذا قوله: ﴿وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾ أي مدها ووسعها، فتمكن الخلق حينئذ من الانتفاع بها بجميع أوجه الانتفاع.

قول الشيخ: ونحو هذا؛ أي مثل الآية السابقة ﴿**السَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا** ﴿٥﴾ **وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا**﴾

(ما) هنا يحتمل أن تكون موصولة، فيكون المعنى: والأرض والذي طحاها، وهو الله سبحانه وتعالى.

ويحتمل أن تكون مصدرية، فتكون هي وما بعدها مصدرا، فتكون والأرض ومدها. فمعنى ﴿**وَمَا طَحَاهَا**﴾ أي مدها، ووسعها، وبسطها لينتفع بها الخلق.

وقيل ﴿**وَمَا طَحَاهَا**﴾ يعني وما خلقها، يعني إما والذي خلقها، أو وخلْقِها؛ والأرض وخلْقِها.

وقيل معني ﴿**وَمَا طَحَاهَا**﴾ دحاها بما فيها من النبات والخيرات، وهذا الذي نص عليه

البخاري في الصحيح، وكل هذه المعاني صحيحة.

فالله خلق الأرض وبسطها، ومدها، ولم يجعلها صلبة، ولم يجعلها رخوة، وجعل منها ما يصلح للزراعة، ومنها ما يصلح للبناء عليه، ودحاها فجعل في باطنها من الخيرات والكنوز ما الله به عليم، ولازال الناس يستخرجون من كنوزها وينتفعون به.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ يحتمل أن المراد: ونفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ النفس هنا، يحتمل أن يراد بها كل نفس، وعلى هذا يكون معنى **﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾** ألهمها نفعها، وضرها، فعلمها ما ينفعها سواء كانت النفس حيوانا، أو إنسانا.

علمها ما ينفعها وعلمها ما يضرها ودلها كيف تحصل هذا وكيف تتقي هذا، لكن هذا الاحتمال والله أعلم مرجوح، فإن السياق يدل على المعنى الثاني، وهي أن النفس هنا، هي نفس الإنسان.

قال: ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وهناك احتمال ثالث: وهي أن النفس هنا، نفس آدم عليه السلام، ونفس واحدة هي نفس آدم عليه السلام، وتبعه في ذلك ذريته.

ولكن أقوى وأظهر الاحتمالات أنها نفس الإنسان، بدلالة السياق بعدها.

قال: وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي يحق الإقسام بها، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل والحركة، والتغير والتأثر، والانفعالات النفسية من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على ما هي عليه آية من آيات الله العظيمة.

﴿وَمَا سَوَّاهَا﴾ مثل ما تقدم، يحتمل أن تكون (ما) موصولة، فيكون المعنى: ومن سواها: والذي سواها، فيكون قسما بالله سبحانه وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون المعنى: ونفس وتسويتها، حيث سوى الله خلقتها، وسوى فطرتها، فجعلها على خلقة سوية، وخلقها على فطرة سوية، والإنسان يدنس هذه الفطرة أو ينميها.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ أي طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورقاها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع، والعمل الصالح.

هذا جواب القسم، لكن هنا إشكال، إذا كان هذا جواب القسم فأين اللام؟ أين اللام؟ المنتظر أن يقال لقد؟

قالوا: حذفت اللام لطول الفصل، لأنه فصل بين القسم والمقسم عليه فاصل طويل، فحذفت اللام من جواب القسم.

وقال بعض المفسرين: جواب القسم مقدر تقديره (لتبعثن) ، فالله عز وجل أقسم بهذه الآيات التي تدل على قدرته على أنه سيبعث الناس، والذي أوجد هذه الآيات قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته وقال بعض المفسرين: جواب القسم مقدر أيضا ولكن اختلف التقدير فقالوا: الجواب جواب القسم المقدر ليعذبن الله الكافرين، فكما أن الله قادر على المجيء بالنهار والذهاب به والمجيء بالليل والذهاب به فإنه قادر كما أوجد هؤلاء الكفار أن يذهب بهم، وعلى هذين القولين يكون قول الله عز وجل:{ قَدْ أَفْلَحَ } مستأنفا، ولكن الأقرب والله أعلم الأول وأن هذا هو جواب القسم.

طيب، ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ من المزكي هنا؟

قال بعض المفسرين: الإنسان نفسه ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾

وقال بعض المفسرين: هو الله، فالمعنى: قد أفلح من زكى الله نفسه، أي: هداه هداية التوفيق بعد أن هدى الناس جميعا هداية البيان.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ أي أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة، بقمعها وإخفائها بالتدنس بالرذائل، والدنو من العيوب والذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها .

﴿**وَقَدْ خَابَ**﴾ قد خسر، ﴿**مَن دَسَّاهَا**﴾ من أخفى خيرها بالشرك والمعاصي. وأصل دساها: دسسها؛ وهو إخفاء الشيء في شيء. التدسيس هو إخفاء الشيء في شيء.

ولذلك مثلا يقال: دسّ المال في يده؛ أي وضع المال في يده وأخفاه حتى لا يرى الناس أنه أعطى مالا.

ويقال: دسّ الكتاب في الحقيبة؛ أخفى الكتاب في الحقيبة.

وقال بعض المفسرين: ﴿**دَسَّاهَا**﴾ يعني أغواها، من الغواية.

وقال بعض المفسرين: المعنى قد خسر من دسّ نفسه في جانب المؤمنين وليس منهم، من هو هذا؟ المنافق، فيقول: المقصود بهذا المنافق، الذي دسّ نفسه مع المؤمنين وهو ليس منهم، فهو صالح الظاهر فاسد الباطن.

قالوا: ويشبهه من كان صالح الجلوة، فاسد الخلوة؛ يعني له به شبه، من كان صالح الجلوة، فإذا كان أمام الناس كان صالحا، فاسد الخلوة.

وإن كان الذي يظهر والله أعلم هو المعنى الذي ذكره الشيخ السعدي رحمه الله.

-تفسير المقطع الثاني من السورة-

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

في هذه الآيات الكريمات يبين الله عزوجل أنه محيط بالكافرين، وأنه لهم بالمرصاد، ويأخذ من شاء أخذه منهم بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة، كما فعل بثمود قوم صالح الذين أنعم عليهم بالنعم، وآتاهم قوة وقدرة، فكانوا يقطعون الصخور العظيمة، ويثقبونها، ويبنون بها القصور، وينحتون البيوت في الجبال، ويتفننون في البنيان، وبعث الله لهم صالح عليه السلام رسولا، فدعاهم إلى التوحيد، وحذرهم من الطغيان، لكنهم كذبوا لجبروتهم وطغيانهم، فلم يؤمنوا بالله عزوجل، ولم يصدقوا صالحًا عليه السلام، وأعرضوا عن الحق، وتجبروا، وتكبروا، وتجاوزوا كل حد.

فجعل الله لهم آية عظيمة، هي الناقة ذات الخلقة العجيبة، أخرجها لهم فقال لهم صالح عليه السلام: ﴿**وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ**﴾ [هود: ٦٤]

وأخبرهم أن لها شرب يوم، ولهم شرب يوم.

ونهاهم عن الاعتداء عليها في شربها، وتوعدهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها في شربها،

فأطاعوا في أول الأمر وتركوها، فكانت تشرب يوما، وفي اليوم الثاني يشربون هم، وكانت في اليوم الثاني لشربها تدر الحليب الكثير فيشربون مع شربهم، مع الماء يشربون حليبها العذب الطيب الكثير.

ثم إنَّ طغيانهم زاد فرأوا أن يقتلوا النَّاقة فتواطؤا على هذا، وندبوا من يقتلها، فانتدب لقتلها رجلٌ قوي ذو منعة، له مكانة في قومه وبايعوه على قتلها، فقال لهم رسول الله: (أحذركم ناقة الله لا تمسوها بسوء، وأحذركم سقيا الناقة الذي جعله الله لها لا تعتدوا عليه، وإلا مسكم العذاب)فكذبوه، ولم يصدقوا بالوعيد، فانبعث ذلك الرجل الشقي، أشقى تلك القبيلة بندب قومه له، فعقرها وقتلها.

ولمَّا كان قتله لها بندب بعضهم ورضى بعضهم، كانوا جميعًا كأنَّهم قد قتلوها، فالآمر بالشر كفاعل الشر، والراضي به كفاعله.

فبعضهم هو الذي أمر ذلك الرجل وانتدبه، وبعضهم رضي بفعله، ولذلك قال الله: ﴿**فَعَقَروها**﴾، مع أن الذي باشر النحر والقتل واحد هو ذلك الرجل؛ لكنهم اشتركوا جميعًا في قتلها لأمر بعضهم، ورضى بعضهم.

﴿**فَدَمدَمَ عَلَيهِم رَبُّهُم بِذَنبِها**﴾ وأطبق عليهم العذاب، وأصابهم العذاب العاجل المطبق. فأهلكهم الله عزَّوجل بالصيحة والرجفة فلم يبق منهم أحدًا؛ يعني من الكفار، فإنَّه ما آمن مع صالح إلا قليل عليه السلام، ولا يخاف الله سبحانه وتعالى تبعة تعذيبهم، ولا تعذيب غيرهم، فإنَّه سبحانه الملك الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، وإنَّه سبحانه الحكم العدل الذي لا يعذب إلا بذنب سبحانه وتعالى.

هذا هو التفسير الموضوعي الاجمالي الإيماني لهذه الآيات، ثمَّ نعود إلى التفسير التفصيلي.

﴿كَذَّبَت ثَمودُ بِطَغواها﴾ أي بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسولهم.

﴿**بِطَغواها**﴾ الباء سببية، لماذا كذبت ولم تصدق صالحًا عليه السلام، وتؤمن به، وتؤمن بما دعى إليه فتوحد الله؟ بسبب طغيانها، وتجبرها، وكبرها، وتجاوزها الحد.

﴿إِذِ انبَعَثَ أَشقاها﴾ أي أشقى القبيلة، وهو قدار بن سالف لعقرها حين اتفقوا على ذلك وأمروه فائتمر لهم.

وانبعث معناها: انطلق بسرعة غير مترددٍ، والأمر كما ذكرت لكم، أنَّهم في أول الأمر تركوا الناقة تشرب يومًا ويشربون يوما، ثم تواطؤوا على قتلها، فقال جماعة منهم: من ينتدب إلى قتلها؟ فانتدب إلى قتلها ذلك الشقي، فانطلق مسرعا بعد أن بايعوه على قتلها، انطلق مسرعا غير متردد.

فقال لهم رسول الله صالح عليه السلام محذرا: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها، أن تعقروها.

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ يعني أحذركم ناقة الله لا تمسوها بسوء، وأضيفت إلى الله تشريفا وتعظيما.

وأحذركم سقياها، وهو شربها يوما، لا تعتدوا عليه.

وقال بعض المفسرين: المعنى: أحذركم ناقة الله لا تمسوها بسوء، وأذكركم سقياها يعني: أذكركم اللبن الذي تشربون منها، فإنها نافعة لكم مع كونها آية، فإنها نافعة لكم.

فالمعنى: أحذركم ناقة الله لا تمسوها بسوء، وأذكركم سقياها، فحذرهم وأطمعهم، حذرهم من الاعتداء عليها، وأطمعهم في سقياها فقال: (وأذكركم سقياها).

فكذبوا نبيهم صالحا فعقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم: أي دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جاثمين على ركبهم، لا تجد منهم داعيا ولا مجيبا.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ كما قلنا مع أن العاقر واحد، لأن بعضهم آمر وبعضهم راضي، فكانوا جميعا قد عقروها بهذا.

﴿فَدَمْدَمَ﴾ أي أطبق، الدمدمة هي الإطباق، يقال: دمدم البئر إذا أطبق التراب فيه، فأطبق عليهم عذابا عاجلا.

﴿بِذَنبِهِمْ﴾ الباء سببية، أي بسبب ذنبهم، فالله لا يظلم الناس شيئا وإنما استحقوا هذا العذاب بذنبهم.

﴿فَسَوَّاهَا﴾ عليهم، أي سوى بينهم في العقوبة.

﴿فَسَوَّاهَا﴾ عليهم أي أنه أخذهم جميعا، جميع الكفار بعذاب واحد، فلم ينجو منهم أحد، فمعنى ﴿فَسَوَّاهَا﴾، سوّى بينهم في هذه العقوبة.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي تبعتها، وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق الحكيم في كل ما قضاه وشرعه.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ **قال بعض المفسرين:** المعنى: ولا يخاف الله تبعة تعذيبهم ولا تعذيب غيرهم، لأنه الملك الفعّال لما يريد، الذي لا يُسأل عمّا يفعل وهم يسألون. ولأنه الحكم العدل فلم يؤاخذهم إلا بذنبهم.

وقال بعض المفسرين: المعنى : لم يخف الذي عقر الناقة عقبىٰ فعله، فكانت عاقبة فعله تدميرا له ولقومه.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ **الذي عليه الجمهور:** أن الذي لا يخاف هو اللّه سبحانه وتعالى، لا يخاف تبعة تعذيبهم.

وقال بعض المفسرين: الذي لا يخاف هنا هو ذلك الرجل الشقي الذي عقر الناقة، والمعنى: ولم يخف الذي عقر الناقة عاقبة فعله فكان عاقبة فعله تدميرا له ولقومه، وقول الجمهور أظهر والله أعلم.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة الشمس.

ومن حكم هذه السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن الفلاح في تزكية النفس بالتطهر من الشرك والمعاصي، والتنمية بالتوحيد والطاعات.

وأن الخسران في الإشراك والعصيان، وهذا على ميزان قول الله عز وجل: ﴿**وَالْعَصْرِ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴿٣﴾**﴾

ومن حكم هذه السورة الكلية و فوائدها العظمى: بيان أن الطغيان سبب لأخذ الرب عبده بذنبه، فمن طغى كان أهلا لأن يعذبه الله في الدنيا إن شاء، سواء كان مشركا، أو طغى و تجاوز بالعصيان وهو موحد، فإنه أهل لأن يأخذه اللّه بالعذاب في الدنيا.

قلنا مثلا يا إخوة: من الطغاة الموحدين قاطع الرحم؛ قطّاع الرحم من الطغاة، وعاق

الوالدين من الطغاة، بهذا المعنى الذي ذكرناه فهم أهل لأن يعجل الله لهم العقوبة في الدنيا.

وكذلك الطغيان سبب لتعذيب الله الإنسان في الآخرة، فإن كان مشركا فإنه معذب ولابد، وإن كان موحدا وطغى بالعصيان، فإنه مستحق لأن يعذبه الله، فإن شاء عذبه وأذاقه النار، وإن شاء عفا عنه سبحانه وتعالى.

سورة الليل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ
لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾
وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي
عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾
فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾
وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ
﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾

في هذه السورة المكية عند جمهور العلماء، يقسم الله عزوجل بالليل في أكمل حالاته، إذا يغشى الأرض بظلامه، ويستر المخلوقات بظلامه.

والنهار في أكمل حالاته، إذا تجلى فانكشف وظهر وبان، فالنهار يُجلي ويتجلى.

يُجلي كما تقدم، ويتجلى كما هنا، فيظهر وينكشف بالضوء والنور.

وبخلق الذكر والأنثى، وفي ذلك آية عجيبة؛ فإن الذكر والأنثى يخلقان من ماءٍ واحد، يخرج من بين الصلب والترائب، ويخلقان في رحمٍ واحد، ومع ذلك يولد هذا ذكراً بصفات الذكورة الحسية والمعنوية، وتولد تلك أنثى بصفات الأنوثة الحسية والمعنوية، بل قد يولد الإثنان من رحم واحد، في وقت واحد، ويكون هذا ذكرا وهذا أنثى. من الذي فصل هذا عن هذا؟ وجعل هذا ذكرا بصفاته وهذا أنثى بصفاتها؟

إنه الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك آية عجيبة، وتلحظون أن القسم هنا كان في أمورٍ متقابلة: الليل والنهار، يغشى وتجلى، والذكر والأنثى؛ وذلك لأن المقسم عليه فيه تقابل.

فجواب القسم: إن سعيكم يا بني آدم لمختلفٌ في ذاته، ومختلف في جزائه، وهذا يتضمن أن الإنسان لابد أن يسعى وهو في الدنيا لابد أن يعمل، فإن عملكم يا بني آدم مختلف في ذاته، وفي جزائه.

ثم فصّل الله عزوجل ذلك فقال سبحانه: وأما من أعطى حق الله في نفسه وماله واتقى

الله، فعمِلَ بطاعة الله، يرجو ثواب الله وترك معصية الله يخاف عقاب الله، وصدّق وآمن بالكلمة الحسنى (لا إله إلا الله) وبالعاقبة الحسنى (الجنة) وبالوعد الحسن (وهو أن يُخلِف الله عليه ما أنفق، وأن إنفاقه في سبيل الله لا يُنقص ماله). وهذا ذهب المفسرون إلى أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد نقل جمع إجماع المفسرين على أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولكنَّ المعنى عام، لا شك أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه أولى الناس بهذا، ولكنه ليس خاصًّا به بل هو عام.

فسنيسره ونسهل له اليسرى في كل شيءٍ، فيكون له اليسر في الدِّينِ، ويكون له اليسر في أمره، فيجعل الله له من أمره يُسرى لأنه قد اتقاه، ويجعل أمره كله له خير؛ إن أصابته نعماء شكر فكان ذلك خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان ذلك خيرًا له، ويعينه على العمل الصالح، فيُسهِّلُه عليه وهو طريق الجنة -أعني العمل الصالح- فيوصله بتقواه وطاعته إلى جنته سبحانه وتعالى.

هذا صنف من العاملين ووصف لأعمالهم وهم المتَّقون، الذين سلموا من البخل.

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ﴾ بحق الله فلم يعبد الله، ولم يُخرج من ماله حق الله.

﴿وَاسْتَغْنَىٰ﴾ بزعمه عن فضل الله، وجعل دنياه الفانية، مغنية له في ظنه الفاسد عن أُخراه.

وَكَذَّبَ بالكلمة الحسنى، فلم يقل (لا إلٰه إلا الله) ولم يعتقدها، وكذّب بالعاقبة الحسنى، وهي الجنة، فأنكر أن يُبعث، وكذّب بموعود الله، ومنه أن يخلف عليه ما أنفق.

فسنيسره ونسهل له العسرى؛ أي سلوكها، وإلا هي عسرى لا تصبح سهلة، فيكون عمله في الدنيا فيما يشقيه، لا في دين الله الذي هو يُسُر، ويجعل الله فقره بين عينيه، فلا يرى إلا فقرًا ويعمل الذنوب فوق الذنوب، فيقوده ذلك إلى النار، وقد يجمع المال في الدنيا ولا ينفقه؛ يكنزه، يبخل به، وقد ينفقه في الصد عن دين الله، وفي المحرمات فلا يغن عنه ذلك المال شيئًا.

﴿إذا تَرَدّى﴾ فمات وهلك وعُذِّب في قبره، وتردى، التردي الأعظم في النار، فإنه لا ينفعه شيئًا، فلو كان يملك مال الدنيا وأضعاف أضعافه، وأراد أن يفتدي به ما تُقبِّل منه.

ثم بين الله عزوجل لبني آدم، أن عليه سبحانه الهُدَى؛ أي الهداية إلى النجدين؛ هداية البيان إلى طريق الخير مع الأمر به، وإلى طريق الشر مع النهي عنه، وأن الملك كله لله؛ فالله يملك الآخرة ويملك الأولى التي هي الدنيا، ويعطي الدنيا لمن أحب ومن لا يحب، لكن شتّان بين إعطائه الدنيا لمن أحب، ليزداد بها خيرًا، وبين إعطائه الدنيا لمن لا يحب، ليملي له ويزداد بها إثمًا.

ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب، وفي هذا تهديد ووعيد لأولئك الكفار، ولذلك قال الله:

﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى**﴾ خوفتكم، وحذرتكم نارًا كبرى، تتَلَظّى: تتسعَّر وتتوهج، ويشتد حرُّها، ويعظم لهيبها، لا يحترق بحرِّها ولا يعاني عذابها إلا الأشقى. فأشقى الناس من دخل في النار، وأشقى الشقاء هو دخول النار، وكل شقاءٍ دون دخول النار كَلَا شقاء.

ولذلك الأشقى هنا على بابه أفعل تفضيل، فإن عذاب النار هو أشقى الشقاء، من هو هذا الأشقى؟

الذي كَذَّبَ ما جاء به الرسل، فلم يصدق الخبر ولم يؤمن، وتولى وأعرض عن العمل، فلا صدق ولا صلى؛ لا آمن وصدق الخبر وتبع ذلك أنه ما عمل؛ بل أعرض ولو عمل مع تكذيبه ما نفعه ذلك، لكنه لم يعمل فيؤاخذ بتكذيبه وبعدم عمله يوم القيامة.

﴿**وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى**﴾ والأتقى هنا بمعنى الذي يعمل العمل الصالح بعد العمل الصالح، فإن العمل الصالح تقى، فإذا عمل عملا صالح بعد العمل الصالح، صار أتقى، هذا لا يعني يا إخوة أن التقي لا يجنبها، وإنما الأتقى هنا ليس تفضيلا بين الناس، وإنما تفضيل عند الإنسان نفسه، فإنه يعمل الصالح اليوم، فيكون تقيا فيعمل عملا صالحا فيكون أتقى منه بالأمس؛ والمقصود هنا: الإشارة إلى ديمومة العمل الصالح، واجتناب المحرمات.

من هو هذا الأتقى؟ ﴿**الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ**﴾ في سبيل الله، وينفق ماله في سبيل الله.

﴿**يَتَزَكَّىٰ**﴾ يطلب تزكية ماله، وتزكية نفسه من ربه سبحانه وتعالى، فهو ينفق المال لله رجاء أن يزكِّي الله ماله، وأن يزكيَ نفسه.

﴿**وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ**﴾ صغيرة أو كبيرة.

﴿**تُجْزَىٰ**﴾ أي ما تقدمت لأحد عنده نعمة يكافئ صاحبها عليها بالإنفاق، ولا يرجو نعمة بعد

إنفاقه من الناس؛ يعني لا يجازي على نعمة سابقة، ولا ينفق للحصول على نعمة لاحقة من الناس، لا من المنفَق عليه ولا من غيره، لكن ينفق ابتغاء وجه ربه الأعلى، فهو مخلص لله، ينفق لله مع قطع النظر عن الناس وما في أيدي الناس.

وهذا هو الإخلاص أحسن تعريف للإخلاص هو: (أن يعمل العامل العمل لله، مع قطع النظر عن الناس، وعما في أيدي الناس).

مع قطع النظر عن الناس: يعني مدحهم، لا ينظر إليهم، كأنهم غير موجودين، إذا قام يصلي، يصلي كأنه لوحده ما يلتفت لأحد من الناس، يقطع النظر عن مدحهم.

وما في أيدي الناس: أي من الدنيا، فهو لا يعمل العمل الصالح أو ينفق في سبيل الله، وهو يريد شيئا من الدنيا إلا ما أذن الله به، كما هو معلوم فيما فصلناه في كتاب التوحيد، ومن كان كذلك، يوحد الله ويطيع الله ويخلص لله لسوف يرضى عند لقاء الله، يرضى عن عمله، ويرضى عن ثوابه، ويرضى عن ربه، ومن أُرْضِيَ في الآخرة رُضِيَ عنه، فهو يرضى، والله عزوجل يرضى عنه سبحانه وتعالى.

فسرنا سورة الليل كاملة تفسيرا إجماليا موضوعيا وبقي علينا التفسير التفصيلي:

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي رحمه الله تعالى في تفسير سورة الليل :هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه أفعال العباد على تفاوت أحوالهم.

قال العلماء: هذا قسم بهذه الأزمان التي تقع فيها عبادات فاضلة، وتضمن هذا القسم بتلك العبادات فكأن الأقسام هنا بالزمن وما يقع فيه من العبادات.

فقال: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ أي يعم الخلق بظلامه فيسكن كل إلى مأواه ومسكنه ويستريح العباد من الكد والتعب.

﴿وَاللَّيْلِ﴾ الواو للقسم، والليل معروف جزء من اليوم.

﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ يغشى يعني: يغطي، فيغطي الأرض بظلامه، فتسكن المخلوقات على الأرض، ويأوي كل إلى مأواه، ويرتاح الناس والمخلوقات من الكد والتعب في النهار. ولك أن تتصور يا عبد الله؛ لو لم ينعم الله علينا بهذا الليل، كيف تكون حياتنا؟ لو شاء الله عزوجل لجعل الوقت كله نهارا، ولضاقت الأرض بالعباد، فإنه لا سكن ولا راحة إلا في الليل على وجه

الكمال والحقيقة.

والليل تقع فيه عبادات واجبة، وتقع فيه عبادات مستحبة من أفضل العبادات؛ ففي أوله صلاة المغرب، وفي ثلثه إلى نصفه صلاة العشاء، وفي آخره عندما يدبر صلاة الفجر، وفيه قيام الليل الذي هو أفضل صلوات النافلة، فيكون القسم بالليل متضمنا ذلك. وفي هذا إشارة أيضا إلى أن العبادة في الليل أقرب إلى الإخلاص؛ لأنها مغطاة، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فالعبادة في الليل في وقت التغطية، فيكون ذلك أقرب إلى الإخلاص، كما أن فيها تعبا، والأجر يزداد بزيادة التعب. تقدم معنا مرارا أن العبد يؤجر على التعب في العبادة إذا حصل له، لكن لا يشرع له أن يتقرب إلى الله بالتعب ابتداءً.

ولذلك يا إخوة كانت أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء، وكذلك صلاة الفجر، فهي فيها مزيد إخلاص، ومزيد أجر عن عبادة النهار وفي كل خير.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ للخلق فاستضاؤوا بنوره، وانتشروا في مصالحهم.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ فتجلى النهار وظهر وانكشف للناس، بظهور الضوء، فالنهار كما قلنا يجلي ويتجلى: يتجلى بنفسه فيظهر للناس بضوئه.

ويجلي الأرض وما على الأرض، وتخرج فيه الحيوانات التي استترت في مخابئها. فهو يتجلى ويجلي، ويجلي الشمس كذلك كما تقدم معنا.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ إن كانت)ما(موصولة، كان إقساما بنفسه الكريمة الموصوفة، خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية كان قسما بخلقه للذكر والأنثى، وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد إبقاءها ذكرا وأنثى، ليبقى النوع ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا منهما مناسبا للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

(ما) هنا إن كانت موصولة: فهي بمعنى (الذي) أو بمعنى (من) (والذي خلق الذكر والأنثى) فيكون ربنا سبحانه وتعالى يقسم بنفسه، وإن كانت مصدرية فإنها تقدر هي وما بعدها مصدرا، فيكون ﴿وَما خَلَقَ﴾ أي: وخلقِ الذكر والأنثى، وكما ذكر الشيخ في خلق الذكر

والأنثى آية عجيبة من جهة تمييز هذا عن هذا من الماء والرحم، ومن جهة إكساب هذا صفات خاصة وهذا صفات خاصة، ودلالتهما على ما يكون به التناسل.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعيَكُم لَشَتّى﴾ هذا هو المقسم عليه أي: إن سعيكم أيها المكلفون لمتفاوت تفاوتا كثيرا، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى العمل له ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل العمل ببطلانها، ويضمحل باضمحلالها؟ وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف.

﴿**إِنَّ سَعيَكُم**﴾ هذا جواب القسم، والسعي: هو العمل باهتمام، وتضمن هذا أن الإنسان لابد له من عمل، فإن لم يشغل نفسه بالطاعة أشغلته نفسه بالمعصية، ما يمكن أن يبقى الإنسان بلا عمل، لابد من عمل.

﴿**إِنَّ سَعيَكُم لَشَتّى**﴾ أي لمختلف في ذاته، منكم من يعمل الخير، ومنكم من يعمل الشر.

وفي قصده؛ فمنكم من يقصد وجه الله، ومنكم من يريد الدنيا.

وفي جزائه؛ فمنكم من يجازى على عمله الطيب في الدنيا ثم لا يكون له منه نصيب في الآخرة، ومنكم من يخسر في الدنيا والآخرة، ومنكم من يؤتيه الله جزاءً حسنا في الدنيا ويؤتيه جزاءً أعظم في الآخرة.

قال رحمه الله: ولهذا فصل الله العاملين ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمّا مَنْ أَعْطَى﴾ أي ما أمر به من العبادات المالية، كالزكوات، والنفقات، والكفارات، والصدقات، والإنفاق في وجوه الخير، والعبادات البدنية؛ كالصلاة، والصوم وغيرهما، والمركبة من ذلك: كالحج، والعمرة، ونحوهما.

﴿**فَأَمّا مَن أَعطى**﴾ **قال بعض المفسرين**: أي أعطى الحقوق، أعطى حق الله وأعطى حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعطى حق الصحابة، وأعطى حق أولياء الله، وأعطى حق والديه، وأعطى حق أقاربه، وأعطى الحق في ماله، المهم أنه يعطي الحقوق، فهو حريص على إعطاء الحقوق.

وقال بعض المفسرين: أعطى المحاويج من ماله، وحمل الآية على المعنى الأعم أولى كما تقدم ذكره مرارا.

﴿وَاتَّقى﴾ ما نهي عنه من المحرمات والمعاصي على اختلاف أجناسها.

﴿وَاتَّقى﴾ **قال بعض العلماء**: أعطى في جانب العمل، واتقى في جانب الترك؛ **فأعطى** أي: عمل الصالحات، **واتقى** أي: ترك المحرمات.

وقال بعض العلماء: ﴿وَاتَّقى﴾ أي:ذ عمل بطاعة الله يريد ثواب الله، وترك معصية الله يخاف عذاب الله؛ فعلى هذا القول يكون أعطى خاصًّا، واتقى عامًّا فيكون ذلك من باب ذكر العام بعد الخاص. ولعل هذا أولى والله أعلم.

﴿وَصَدَّقَ بِالحُسنى﴾ أي: صدق بلا إله إلا الله، وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

بعض العلماء قال: ﴿وَصَدَّقَ بِالحُسنى﴾ هناك مقدَّر أي: وصدق بالكلمة الحسنى وهي (لا إله إلا الله) أحسن الكلام وأجمله وأكمله.أحسن ما يقوله إنسان: (لا إله إلا الله).

وقال بعض العلماء: ﴿وَصَدَّقَ بِالحُسنى﴾ أي: بالخَلَّةِ الحسنى؛ وهي موعود الله بأن يُخلف عليه ما أنفق.

وقال بعض العلماء: ﴿بِالْحُسْنَى﴾ أي: بالجنة.

وكل هذه المعاني صحيحة، فهو صدَّق بلا إله إلا الله، فكان موحدًا، وصدق بموعود الله، فكان عاملًا، وصدَّق بالجنة، فكان متقيًا يرجو ما عند الله سبحانه وتعالى.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أي: نيسِّر له أمره ونجعله مسهلًا عليه كل خير ميسرًا له ترك كل شر؛ لأنه أتى بأسباب التيسير فيسَّر الله له ذلك.

قال بعض العلماء: اليسرى هنا تعني تيسير أموره؛ فيُيسر الله له الأمور في الدنيا، ويجعل له من كل ضيقٍ مخرجًا؛ فما ضاقت به الدنيا ورجع إلى الله خاضعا داعيًا متوسلًا إلا فرج عنه ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجعَل لَهُ مَخرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

وقال بعض العلماء: ﴿لِلْيُسْرَى﴾ أي: للشريعة اليسرى التي هي دين محمد صلى الله عليه وسلم، يقول: (بعثت بالحنيفية السمحة)، فيكون من أهلها العاملين بها.

وقال بعض العلماء: اليسرى هي: الجنة؛ فيُسهِّل الله له الجنة بتسهيل طرقها؛ وهي الصالحات وكل هذا مقصودٌ بالآية؛ فمن كان حريصًا على إعطاء الحقوق وعلم الله منه أنه مجتهدٌ في ذلك، وكان مؤمنًا بالله مخلصًا لله متَّبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم محتسبًا ما عند الله؛ فإن الله ييسّره لكل يسرى، وييسر له كل يسرى، وما يصعب على غيره يسهل عليه حتى الصبر؛ ييسر الله له الصبر فقد تنزل به المصيبة فيتلقاها بالصبر، وقد يتلقاها بالرضا وهو أعظم؛ فتجده دائمًا مُيسر الأمور.

فيا -عبد الله- قد أبان الله لك والأمر كله لله؛ إن أردت أن تكون من أهل اليُسرى في كل أمورك فاحرص على أن يعلم الله منك حرصًا على أداء الحقوق، وإخلاصًا له، وإيمانًا به، واحتسابًا لما عنده، واتباعًا لرسوله صلّى الله عليه وسلّم.

﴿وَأَمّا مَن بَخِلَ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله.

بعض المفسرين قال: ﴿مَن بَخِلَ﴾: بكل حقٍ واجبٍ عليه أو مستحب؛ فلم يؤده أو قصر فيه، لم يؤدِ العبادات أو قصر فيها، لم يؤدِ حقوق الوالدين أو قصر فيها، لم ينفق من ماله النفقة الواجبة أو قصر في ذلك، أو لم ينفق النفقة المستحبة.

وقال بعض أهل العلم: البخل يتعلق بالمال عادةً، فالمقصود من بخل بماله فلم يعرف حق الله فيه، وإنَّما كان همه الكنز؛ يخاف أن ينفق منه لله فينقص؛ فلا ينفق في سبيل الله سبحانه وتعالى .

﴿وَاستَغنى﴾ عن الله، فترك عوديته جانبًا، ولم ير نفسه مفتقرا غاية الافتقار إلى ربها، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها الذي تقصده وتتوجه إليه،

اسْتَغْنَى عن الله أي: لم يعبد الله.

وقال بعض العلماء: استغنى عن الله في المال، فقال من حيث الاكتساب: أنا اكتسبت المال بعلمي ومهارتي وذكائي، ولم ينسب ذلك إلى فضل الله، واستغنى عن موعود الله في الانفاق.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَاسْتَغْنَى﴾ أي: استغنى بالدنيا عن الآخرة؛ فظن لجهله أنَّ الدنيا ومُتعها ولذاتها وشهواتها تغنيه عن الآخرة، والكل يدخل في هذه الجملة.

﴿وَكَذَّبَ بِالحُسنى﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

الحُسْنَى هنا هي الحسنى هناك، كذب بلا إله إلا الله فكذب بالتوحيد، أو كذب بموعود الله بأن يُخلف على من ينفق في سبيله، أو كذب بالجنة وأنكر البعث وما وراء البعث.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرى﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة؛ بأن يكون ميسرًا للشر أينما كان، ومقيضًا له أفعال المعاصي -نسأل الله العافية-.

والله عزّوجل قال: ﴿**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلعُسرى**﴾ والعسرى: فيها تعسير.

ولذلك قال بعض أهل العلم: قال الله ﴿**فَسَنُيَسِّرُهُ**﴾ تهكُّمًا به.

وقال بعض أهل العلم: هي على بابها، سنسهّل له العُسرى فيفعل المعاصي والشرور حتى يزداد إثمًا، حتى إذا أخذه الله عزوجل لم يفلته.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿**فَسَنُيَسِّرُهُ**﴾ يعني فسنهيئه ﴿**لِلعُسرى**﴾ أي لجهنم، بأن يكون من العاملين بما يؤدي إليها.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به، إذا هلك ومات فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح، وأما ماله الذي لم يخرج منه الواجب فإنه يكون وبالاً عليه إذ لم يقدم منه لآخرته شيئًا.

وقال بعض أهل العلم: معنى ﴿**تَرَدَّىٰ**﴾ هلك وسقط في جهنم، فإن ماله لا ينفعه ولو افتدى به وبأمثاله وأضعاف أضعافه، بل بمال الدنيا كله، ما نفعه وما تُقُبِّل منه.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إن الهدى المستقيم طريقه يوصل إلى الله ويدني من رضاه، وأما الضلال فطرقه مسدودة عن الله لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد .

﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ**﴾ **قال بعض أهل العلم:** الهدى هو الخير، هنا هو الخير.

ومعنى ذلك أن الموصل لنا هو الخير، ويقابل الخير، الشر والضلال، فالشر والضلال لا يوصل إلى الله ولا إلى رحمة الله، وإنما يوصل إلى غضبه وسخطه وانتقامه ودار انتقامه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ**﴾ يعني الهداية، والهداية تكون للخير وتكون

للشر، لأن الهداية هي الإرشاد، فإن علينا الإرشاد والبيان، فبينّا للإنسان طريق الخير وأمرناه به، وبينّا له طريق الشر وحذرناه منه.

وهذا أولى من الأول والله أعلم، لأن الله هنا إنما ذكر الهدى ولم يذكر الضلال فهذا يدل والله أعلم على أنه يعمُّ الاثنين، الدلالة على الخير والدلالة على الشر.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ ملكًا وتصرُّفا ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين .

مِلك الآخرة التي هي الحياة الآخرة، والأولى التي هي الدنيا لله سبحانه وتعالى، فلا يستطيع أحد أن يعطي منها شيئًا من دونه، ولو اجتمع الخلق كلهم، ولا يستطيع أحد أن يمنع منها شيئًا من دونه ولو اجتمع الخلق كلهم، فخاب وخسر من لم يجعل رجاءه في الله، وخوفه من الله سبحانه وتعالى، وتضمّن هذا أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الآخرة إلا لمن يحب، وقدّم الله الآخرة على الأولى مع أن الأولى متقدمة زمنًا لأن الآخرة هي الحياة الحقيقية وهي الحيوان، وأما الأولى فهي دار اختبارٍ وابتلاءٍ وعمل.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ أي تستعِر وتتوقّد.

﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ**﴾ أي:خوّفتكم وحذّرتكم نارًا تلظّى، وقد كان النبي ﷺ يخطب الناس ويقول: (أنذرتكم النار، أنذرتكم النار، أنذرتكم النار) ويعلو صوته حتى أن الرداء يسقط من فوق كتفيه من شدّة علو صوته وحركته ﷺ.

فمعنى ﴿**فَأَنذَرْتُكُمْ**﴾ خوّفتكم وحذّرتكم.

﴿**نَارًا تَلَظَّىٰ**﴾أي تتوهّج باللهب وتلتهب بالسعير، فيشتدّ حرّها، و﴿**تَلَظَّىٰ**﴾يدل على الاستمرار، فسعيرها ولهيبها مستمر دائم لا ينقطع ولا يخبو.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾عن الأمر.

﴿**لَا يَصْلَاهَا**﴾ أي لا يحترق بحرّها ويعاني سعيرها ﴿**إِلَّا الْأَشْقَى**﴾ وقلنا الأشقى هنا لأنه بلغ الغاية في الشقاء في جزائه، فمن دخل النار فهو الأشقى والعياذ بالله، ولأن كل شقاء دون ذلك فلا شقاء.

الإنسان قد يشقى بسبب الدنيا، قد يشقى لأنه فقير، قد يشقى لأنه مريض، قد يشقى بزوجة، وهو شقاء ولكن الأشقى من عصى الله، فأدخله الله النار.من هو؟ ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر، فلم يصدِّق قول الله ولا قول رسول الله ﷺ، ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر فلم يمتثل، لم يفعل الواجبات ويترك المحرمات.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه وتطهيرها من الذنوب والأدناس قاصدًا به وجه الله تعالى.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ يعني: سيُجنبها التّقي الذي وحّد وعمل بالطاعات راجيًا ثواب الله، وترك المحرمات خائفًا من عقاب الله، لكن لمّا كان مستمرًا فإنه أتقى لأنه اليوم يعمل فهو تقي، وغدًا يعمل تزيد تقواه، فهو أتقى، وبعد غد يعمل تزيد تقواه وهو ثابت مستمر على ذلك إلى أن يموت، فهو الأتقى.

والمقصود أن التّفضيل هنا ليس بين الناس يعني ليس بين التّقي والأتقى بل كل تقي يُجنّب النار، إما يُجنّب دخولها أصلاً إن كملت تقواه بحسب الإمكان وإما يجنب الخلود فيها ولكن التفضيل هنا في التُّقى نفسه فإنه بالاستمرار كلما استمر كان أتقى إلى أن يموت.

قال رحمه الله: فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين أو نفقة ونحوهما فإنه غير مشروع بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوّت عليه الواجب.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ قال بعض العلماء: يطلب تزكية نفسه، والتزكية كما قلنا يا إخوة تطهير وتنمية تطهير وتنمية.

وقال بعض المفسرين: يتزكى يطلب تزكية ماله، والتزكية كذلك تطهير وتنمية وأشار الشيخ هنا إلى الربط بين قول الله عز وجل: **﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾** أي يطلب التزكية بما يزكيه الربط بين هذا وبين في سبيل الله لمن عليه نفقة الإنفاق المستحب في سبيل الله لمن عليه نفقة واجبة فإن **جمعا من العلماء يقولون**: لا تقبل نفقته وإذا وجد الحاكم فإنه يبطلها ويردها ولا يرضيها؛ لأن النفقة المشروعة هي التي فيها تقى وتزكية،

وكون الإنسان يترك الواجب وينفق في المستحب الذي يضيع الواجب، أما إذا كان عليه نفقة واجبة وتيسر له، الآن أن ينفق نفقة مستحبة وعنده قدرة على النفقة الواجبة في وقتها فهذا لا يدخل معنا ولكن الذي يدخل معنا هو الذي عليه النفقة الواجبة فينفق نفقة مستحبة تمنعه من النفقة الواجبة من غير إذن صاحب النفقة الواجبة أما لو استأذنه فأذن له اشترك في الأجر؛ رجل تجب عليه النفقة لزوجته والمال الذي في يده بمقدار نفقتها الواجبة فجاء مسكين أو قريب أو نحو ذلك وسأله فقال لها: يا فلانة فلان سألني وهو محتاج وصالح وأنا ما عندي إلا مقدار نفقتك ما رأيك أن أعطيه بعض هذا المال؟ قالت: طيب. يجوز ويؤجران معا سواء كان رضاها مشاركة في النفقة فتسقط حقها الذي حصلت من النفقة يعني المقدار الذي أنفق في سبيل الله تسقطه أو أذنت على أن تستوفي حقها من بعد فإنها تؤجر لأنها هي التي سببت وقوع هذه النفقة المستحبة.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى من نعمة تجزى إلا وقد كافأه عليها وربما بقي له الفضل والمنة على الناس فتمحض عبدا لله لأنه رقيق إحسانه وحده.

هذا أحد المعاني يعني أن هذا المنفق ليس لأحد عليه نعمة بل له نعم على الناس، **قالوا** : وهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فإنه لم يكن لأحد من الناس عليه نعمة في أمر الدنيا؛ نعم النبي صلى الله عليه وسلم له عليه نعمة من جهة الهداية، والصحبة، والفضل، لكن من أمر الدنيا **قالوا**: لم يكن لأحد نعمة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه بل له أيادي بيضاء على غيره، فإنفاقه يتمحض لله وحده هذا أحد المعاني.

قال: وأما من بقيت عليه نعمة الناس فلم يجزها ويكافئها فإنه لابد أن يترك للناس ويفعل لهم ما ينقص إخلاصه.

وقال أهل العلم: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ﴾ ممن ينفق عليهم نعمة تجزى؛ يعني لا يريد أن تكون له على المنفَق عليه نعمة يجزاها فيما بعد، فيأتي فيما بعد يقول : أنا الذي أنفقت عليك في سنة كذا في وقت كذا أعطني كذا، فهو يدّخر ما ينفق ليكون نعمة له على غيره، لا هو ليس على هذا وإنما ينفق لله.

قال: وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه بل قيل إنها نزلت بسببه.

ذكر بعض المفسرين الإجماع على أن هذه الآية في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

فإنه رضي الله عنه ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ حتى ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

من جهة الدنيا من جهة أمور الدنيا.

إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها وهي نعمة الدعوة إلى دين الإسلام وتعليم الهدى ودين الحق، فإن لله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل.

فإنها: أي الآية ليس المنة فالكلام هكذا: (وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل).

قال: فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

﴿**إِلَّا**﴾ هذا استثناء مقابل، يعني: لكن ابتغاء وجه ربه الأعلى، لكن ينفق ابتغاء وجه ربه الأعلى، ولربنا وجه يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

﴿**وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ**﴾ (**اللام**): مؤكدة. (**سوف**): تدل على مهلة في الزمن.

﴿**يَرْضَىٰ**﴾ أي عند لقاء الله عز وجل يرضى عن عمله ويرضى عن ثواب عمله ويرضى عن ربه سبحانه وتعالى أي يزداد رضًا.

﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة الليل، وهذه السورة كسائر السور أودعت حكما عظمى، وفوائد كبرى، ولو أن المؤمن تدبر أيَّ سورة من سور القرآن، لوجد من الفوائد والحكم ما لا ينقضي، بل ربما كلما زاد تدبرا كلما وقف على حِكم وفوائد عظمى من تلك السورة.

هذه السورة **من فوائدها العظمى وحكمها الكلية**: بيان أن عمل الناس في الدنيا مختلف قِلة وكَثرة، تماما ونقصا، خيرا وشرا، وأن جزاءه في الآخرة مختلف باختلاف أعمالهم.

ومن حكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: بيان أن أصل كل خيرللإنسان السماحة بمعناها العام، وأن أصل كل شر البخل بمعناه العام ، ولذلك جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (هذه السورة في السماحة والبخل).

ومن حكم هذه السورة الكلية وفوائدها الكبرى: أنّ الآخرة والأولى ملك الله عزوجل وأنِ المعطي والمانع هو الله، فيعطي الله الدنيا لمن يحب إكراما وابتلاء بها، ولمن لا يحب استدراجا، ولا يعط الآخرة إلا لمن يحب.

ومن حكم السورة الكلية وفوائدها العظمى: أنّ الناس في الدنيا أتقياء وأشقياء، وفي الآخرة سعداء وأشقياء، أن الناس في الدنيا أتقياء وأشقياء إما تقي وإما شقي، وأنهم في الآخرة سعداء وأشقياء، فأتقياء الدنيا سعداء الآخرة، وأشقياء الدنيا أشقياء الآخرة، وبهذا نكون فرغنا من ما يتعلق بسورة الليل.

سورة الضحى.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (3) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (4) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (5) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (6) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (7) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (8) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (9) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (10) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)﴾.

في هذه السورة المكية يذكر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا له بالآية العظمى عليه، ويرد على مشركي قريش حيث انقطع الوحي زمنا يسيرا وفتر فترة قصيرة، فجاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت: إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، وقال المشركون فيما بينهم: قد وُدِّع محمد؛ أي: تُرك محمد وأهمل ولم يبالِ الله به، فأقسم الله عز وجل بأول النهار من شروق الشمس إلى قبيل الزوال، وبالليل إذا أقبل فسكنت المخلوقات فيه.

وجواب هذا القسم: ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾ فما فارقك ربك وما قطعك قطع المودِّع للمودَّع، ولا تركك بلا مبالاة بك، ولا أبغضك بل أنت خليله.

وللآخرة خير لك من الدنيا فما أعده الله لك فيها -أعني في الآخرة- من الكرامة والنعيم المقيم خير وأبقى.

ولسوف يعطيك ربك في دنياك لك ولأمتك من الكنوز والتمكين والفتوحات والخصائص عن سائر الأمم ما يرضيك، وما في الآخرة مما يعطيك ربك خير لك مما يعطيك إياه في الدنيا، فيعطيك المقام المحمود عند الحشر والقضاء بين الناس، ويعدّ لك من الكرامات في الجنة والنعيم في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فيرضيك في الدنيا، ويرضيك عند البعث، ويرضيك في دار المقامة في الجنة، ويرضيك يوم القيامة في مؤمني أمتك حيث يدخل منهم سبعينا ألفا الجنة بغير حساب ولا عذاب، ويعفو عن أعداد كبيرة منهم ويشفعك في أهل الكبائر منهم.

وقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (**عُرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو مفتوح على أمته كنزا كنزا، فسر بذلك**)، أي: عرض الملك على النبي صلى الله عليه وسلم ما سيفتح على الأمة من الكنوز كنزا كنزا فسُر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، قال: (**فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾**)، فأعطاه الله في الجنة

ألف ألف قصر، في كل قصر ما ينبغي له من الأزواج والخدم، فالله عرض على نبيه صلى الله عليه وسلم ما يرضيه لأمته في الدنيا، وما يفتح عليها من الخيرات، فدخل السرور على حبيبنا ونبينا صلى الله عليه وسلم بذلك، فوعده الله بما هو أعظم، فجعل له في الجنة ما يرضيه، فجعل له في الجنة مليون قصر، وفي كل قصر ما يحتاج إليه من خدم وغيرهم، ومثل هذا لا يقال بالرأي، فله حكم الرفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم ذكّر الله عزوجل نبيه صلى الله عليه وسلم بنعمه الماضية ليزداد يقينا بالنعم اللاحقة، فإن الذي أنعم بما مضى قادر على أن ينعم بما يأتي، فذكّره ربه بأنه قد وجده يتيما قد مات أبوه وهو في بطن أمه، ثم ماتت أمه، فرباه وآواه وهيأ له من يرعاه، فرعاه جده، ولما مات جده رعاه عمه أبو طالب، فوجده يتيما فآواه، وآوى به، فآوى الأيتام ورعى الأيتام به صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في شرعه فضل رعاية اليتيم، وآوى أمته به صلى الله عليه وسلم فجعل لها النصر والتمكين، فالله عزوجل آواه، وآوى الأيتام به، وآوى الضعفاء به، وآوى الأمة به.

ووجده ضالا عن الكتاب والإيمان، لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فلم يكن له علم بهما، فأنزل عليه الكتاب وهداه للإيمان والشرع القويم والخلق الكريم، وهدى به أمته إلى ذلك.

وذكّره سبحانه بأنه قد وجده فقيرا فأغناه وأغنى به، فأعطاه الغنى الظاهر والغنى الباطن، فأعطاه الغنى الظاهر بما جعل له ولأمته من الفتوح والكنوز، وأعطاه الغنى الباطن فجعل قلبه شاكرا قانعا، فجعل غناه في قلبه، وأغنى أمته بذلك.

والمراد أن من أنعم عليك بتلك النعم قادر على أن ينعم عليك بغيرها فكن عبدا شكورا تستجلب نعم الله، وقابل كل نعمة بما ينبغي لها، فلا تنهر اليتيم، ولا تكسر قلبه، ولا تُضع حقه، ولا يضق صدرك به، فإنك كنت يتيما فآواك الله، فقابل هذه النعمة بما ينبغي حتى تكون شاكرا لله عزوجل، وإذا جاءك سائل يسألك علما أو دنيا فلا تنهره ولا تزجره ولا تغلظ عليه، بل إذا جاءك السائل يسألك علما فعلمه، وإذا جاءك السائل يسألك دنيا فإن كانت عندك فأعطه، وإن لم تكن عندك فقل له قولا كريما، وقل له قولا ميسورا، وَعِده خيرا.

واشكر نعم ربك عليك بالتحدث بها والثناء على الله عزوجل بها، ومن ذكر نعم ربه مثنيا بها على الله مضيفا إياها إلى الله فقد شكرها، ومن كتمها فقد كفرها.

وادع إلى ربك المنعم عليك بكل هذه النعم، الذي أنعم عليك بالكتاب فأنزله عليك، وأنعم عليك بالإيمان فهداك إليه، وأوحى إليك الشرع القويم وجعلك على خلق عظيم، أُدع إليه لتكون عبدا شكورا، وقد كان صلى الله عليه وسلم عبدا شكورا، فشكر الله عز وجل على هذه النعم وعلى غيرها، فكان أرحم الناس باليتيم، وأرفق الناس بالسائل، وأكثر الناس تحدثا بنعم الله سبحانه وتعالى.

وفي كل هذا تعليم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لتكون على هذا الصراط المستقيم، ولتتخلق بالخلق القويم لتكون شاكرة لربها على هذه النعم، فإن كل نعمة أنعم الله بها على نبيها صلى الله عليه وسلم فإنها نعمة على كل واحد من الأمة، فينبغي على كل واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقابل هذه النعم بالشكر، فيكون رحيما بالأيتام، رفيقا بالسائلين، معتنيا بضعفاء الأمة، متحدثا بنعم الله عليه خاصة وعلى الأمة عامة، وشاكرا لربه أنعُمَه، وداعيا إلى ربه بحسب استطاعته، مقتديا بنبيه صلى الله عليه وسلم الذي امتثل ما أمره به ربه.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة، ونعود إلى التفسير التفصيلي.

وقبل أن نقرأ هذا التفسير نذكر ما جاء في ما يتعلق بأسباب النزول المتعلقة بهذه السورة، فقد روى الشيخان البخاري ومسلم عن جندبة بن سفيان قال: اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم -أي: مرض-، فلم يقم ليلتين أو ثلاثا، فجاءت امرأة فقالت، يا محمد إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، ولم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله عز وجل:

﴿وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (2)﴾.

وروى الترمذي أن جبريل عليه السلام أبطأ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال المشركون: قد وُدع محمد، فأنزل الله عز وجل ﴿**مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾، قال الألباني: صحيح، فهذا ما يتعلق بأسباب النزول المتعلقة بهذه السورة.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين:

أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياءه بالضحى.

الضحى قال بعض المفسرين: هنا هو النهار كله؛ لأنه يستنير بضحى الشمس، أي بنور الشمس.

فالمقصود بالضحى هنا النور -نور الشمس-، وليس المقصود الضحى الذي هو الزمن الذي هو جزء من النهار، وإنما كل النهار، هكذا قال بعض المفسرين، قال: ويدل لذلك أن الله قابله بالليل ﴿وَالضُّحَىٰ (1) وَاللَّيْلِ﴾، قالوا: فهذا يدل على أن الضحى هنا هو النهار.

﴿وَالضُّحَىٰ﴾: هنا هو الاستنارة بنور الشمس، يعني والنهار المستنير بضوء الشمس.

وقال بعض المفسرين: الضحى هو الزمن المعروف، وهو جزء من النهار يبدأ بطلوع الشمس وارتفاعها قيد رمح إلى قبيل الزوال.

والكل محتمِل أن يكون المراد بالضحى النهار أو يكون المراد بالنهار هو الوقت المعروف بالضحى، وإن كان هذا أقرب لأنه ظاهر اللفظ.

وبالليل إذا سجى وادلهمت ظلمته.

﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ **قيل**: إذا أظلم.

وقيل: إذا أقبل،

وقيل: إذا غطى المخلوقات فسكنت المخلوقات.

وقيل: إذا أقبل.

وقيل: إذا أدبر.

وكل المعاني صالحة أن تجتمع إلا المعنيين الأخيرين: إذا أقبل وإذا أدبر، فبعض أهل العلم رجح إذا أقبل، قال المقصود إذا أقبل، بعض أهل العلم رجح إذا أدبر قال: المقصود إذا أدبر.

وبالليل إذا سجى وادلهمت ظلمته على اعتناء الله برسوله صلى الله عليه وسلم فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي: ما قاطعك قطع المودِع للمودَع، وما فارقك فراق المودع للمودع.

وفي قراءة: ﴿مَا وَدَعَكَ﴾ بفتح الدال، ومعناها: ما تركك تركا لا يبالي بك فيه.

وما قلاك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

كما تقدم معنا في العقيدة الواسطية.

قال: فهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها محبة الله له واستمرارها وترقيه في درجات الكمال ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة فقال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾.

﴿وَلَلْآخِرَةُ﴾ قيل: الواو هنا للقسم، واللام موطئة للقسم، والقسم مقدر تقديره: والله للآخرة خير لك من الأولى.

وقيل: الواو للاستئناف، واللام ابتدائية، فهذا ابتداء كلام جديد

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة، فلم يزل صلى الله عليه وسلم يصعد في درجات المعالي ويمكن الله له دينه وينصره على أعدائه ويسدده في أحواله حتى مات وقد وصل إلى حال ما وصل إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقرة العين وسرور القلب.

ثم بعد هذا لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام.

وعلى هذا المعنى يكون المراد بالآخرة هنا الحالة الآخرة؛ يعني: المتأخرة، فالحالة المتأخرة خير لك من الحالة التي سبقتها.

وذهب جمع من المفسرين إلى أن الآخرة هنا هي اليوم الآخر، وأن الأولى هنا هي الدنيا، وهذا هو الأظهر والله أعلم، أن المقصود بالآخرة هي اليوم الآخر ما يكون في يوم البعث وما بعده، والأولى ما يكون في الدنيا من الإكرام.

فإكرام الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ولأمته في الآخرة خير من الإكرام الذي يقع في الدنيا، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يزهد في الدنيا ويقول: ((**مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**)) رواه الترمذي وصححه الألباني، ولما خُيِّر صلى الله عليه وسلم بين الدنيا والانتقال إلى الرفيق الأعلى اختار الرفيق الأعلى، فإن الآخرة خير له من الأولى وخير وأبقى.

ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة.

فهي شاملة، فيرضيه الله عز وجل في نفسه، ويرضيه الله عز وجل في أمته، ويرضيه الله عز وجل في مؤمني أمته.

في الدنيا والآخرة فإن قال قائل: هل تعني هذه الآية أن الله لا يعذب أحدا من أمته؛ لأن الله قال له: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ فوعده بإرضائه؟ والنبي صلى الله عليه وسلم لا يرضى أن يعذب أحد من أمته -هكذا يقولون-؟

قلنا: لا؛ لا تدل على هذا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يرضى بحكم الله ولا شك، فإذا حكم الله بحكم رضيه محمد صلى الله عليه وسلم، رضيه نبيه صلى الله عليه وسلم، فإذا حكم الله على مستحقي التعذيب بالعذاب رضي النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وحاشى النبي صلى الله عليه وسلم ألا يرضى بحكم الله سبحانه وتعالى، فمن كفر من أهله أو من أمته فإن الله يدخله النار ويكون خالدا مخلدا في النار، ويرضى صلى الله عليه وسلم بهذا؛ لأنه يرضى بحكم الله.

ولذلك الذين يستدلون بهذه الآية على أن والدي محمد صلى الله عليه وسلم في الجنة استدلالهم باطل؛ لأنه إذا حكم الله على والدي النبي صلى الله عليه وسلم أو أعمام النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم في النار فإن النبي صلى الله عليه وسلم سيرضى؛ لأنه يرضى بحكم الله سبحانه وتعالى، فهذه الآية لا تدل على ما يقولون.

وذكرنا أن النبي صلى الله عليه وسلم سيرضيه الله في الدنيا، ويرضيه الله يوم البعث، ويرضيه الله في الجنة، وقد سمعنا ما ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه وعن أبيه وذاك الأثر قد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم بإسناد صحيح، ومثله لا يقال بالرأي، وقد وعد الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يرضيه في أمته فقد روى مسلم في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر دعاء إبراهيم عليه السلام لأمته وذريته، ودعاء موسى عليه السلام لأتباعه فبكى صلى الله عليه وسلم، فقال الله عز وجل لجبريل: ((**يا جبريل؛ اذهب إلى محمد وربك أعلم به فسله ما يبكيك، فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره بما كان، وقال: اللهم أمتي، اللهم أمتي، اللهم أمتي، فقال الله: يا جبريل؛ اذهب إلى محمد وقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك**)). فالله عز وجل وعد محمدا صلى الله عليه وسلم بإرضائه عموما، ومن ذلك العموم إرضاؤه في أمته، لكن هذا يفهم في السياق الصحيح له، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم يرضى بحكم الله عز وجل.

قال رحمه الله: ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فآواه الله، وكّفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفّله الله عمه أبا طالب، حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

وقال الله: ﴿**فَآوَى**﴾ وحذف المتعلَق، فلم يقل: (فآواك) ليعم، فآواه وآوى ضعفاء أمته

بشرعه، وآوى أمته به صلى الله عليه وسلم، فهذا سر حذف المتعلق هنا، لماذا لم يقل ربنا (فآواك)؟

ليعم، فتعظم النعمة، فليس الإيواء خاصا به صلى الله عليه وسلم، بل آواه الله وآوى الضعفاء بشرعه وآوى أمته به.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

وجدك ضالا أي: غير عالم بالكتاب والإيمان وتفاصيل الخير.

وقال بعض أهل العلم: معنى ضالا غافلا عن الخير وعن الكتاب والإيمان، حتى علمك الله سبحانه وتعالى.

وذكر بعض المفسرين تأويلات لا داعي لها، فإن القرآن يفسر بعضه بعضا، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان حتى علمه الله سبحانه وتعالى.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي: فقيرا، فأغناك الله بما فتح عليك من البلدان التي جبيت لك أموالها وخراجها.

قال: ﴿**وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ**﴾، وكذلك هنا حذف المتعلَّق، فلم يقل: (فأغناك)، فيصير المعنى: فأغناك وأغنى بك فأغناك، وأغنى أمتك، ورزق من كان يريد الآخرة من أمتك الغنى الظاهر والغنى الباطن، فمن كانت الآخرة نيته جمع الله عليه أمره، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة.

قال رحمه الله: فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وآواك ونصرك وهداك قابل نعمته بالشكران.

ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ أي: لا تسئ معاملة اليتيم، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

ولا تحتقره لضعفه، وهذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأمته من بعده، فهو خطاب لكل واحد من الأمة، ومن أراد إرضاء ربه وإلانة قلبه فليلن قلبه للأيتام، وليحسن للأيتام، وكذا سائر الضعفة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يصدر منك كلام للسائل يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك، أو رده بمعروف وإحسان، ويدخل في هذا السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأمورا بحسن الخلق مع المتعلم.

ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراما لمن كان يسعى في نفع البلاد والعباد.

فالسائل عن العلم يرد ولو بعلم قليل وقول حسن جميل.

الذي يأتي إليك وأنت عندك علم ويسألك ينبغي أن يعود منك بأمرين:

- بعلم بمقدار ما عندك ولو كان قليلا.
- وبقول جميل.

فأولى الناس بالإكرام طلاب العلم، ينبغي أن يبسط لهم الوجه، وأن يلان لهم القلب، وأن يعانوا على مطلوبهم بما يستطاع، وأن يحسن خطابهم، وهذا خلق ينبغي أن يتحلى به كل معلم، سواء كان معلما في المدارس النظامية أو معلما في حلقات العلم أو غير ذلك ينبغي أن يعامل طالب العلم بالإكرام، وأعظم ما يكرم به طالب العلم العلم.

ولا ينبغي لمن رزقه الله علما أن يبخل بعلمه، فإنه إن بخل إما واقع في الإثم إن كان التعليم واجبا عليه، وإما حارما نفسه من الحسنات والفضل إن لم يكن التعليم واجبا عليه.

وأن يلين قلبه لطلاب العلم الطلاب في الابتدائي في المتوسط في الثانوي في الجامعة في الدراسات العليا في الحلق، ينبغي على المعلم أن يلين قلبه لطلاب العلم، وأن يبسط وجهه ويبتسم لهم، وأن يحسن خلقه في التعامل معهم، وأن يحرص على القول الطيب في مخاطبتهم، وإذا غلبته نفسه البشرية فغضب وأغلظ ينبغي أن يكون محسنا لخلق الاعتذار، فيعتذر لمن أساء إليه منهم -أعني من أساء إليه من طلاب العلم، من أساء الشيخ إليه من طلاب العلم-، فهذا خلق ينبغي أن نتخلق به نحن المعلمين جميعا، وأن نعالج أنفسنا عليه.

وأما السائل للدنيا فينبغي أن يرجع منك ببذل ولو قليل، أو بقول جميل، طالب العلم سائل العلم يجمع له بين العلم ولو قليل والقول الجميل، وسائل الدنيا ينبغي أن يرجع منك إما ببذل ولو قليل إن كان عندك، أو بقول جميل، تعتذر له بقول جميل كأن تدعو له أو نحو هذا.

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية، أي: أثني على الله بها وخصه بالذكر إن كانت هناك مصلحة، وإلا فحدّث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن

القلوب مجبولة على محبة المحسن.

والناس مع النعم ثلاثة أقسام:

1. القسم الأول: منعَم عليه شاكر، فيشكر المنعم، ويعمل بالنعم فيما يرضي المنعم.
2. وقسم: منعَم عليه كاتم للنعم أو ناسب النعم لغير المنعم بها، كالذين يُنعم الله عليهم بالنعم وينسبونها إلى الأولياء، أو ينسبونها إلى القبور، يرزقه الله ولدا فلا ينسب النعمة إلى الله، وإنما يقول: أنا زرت قبر سيدي فلان فرزقني الولد نعوذ بالله من الشرك.
3. وقِسم: غير منعَم عليه ومتزين بما لم يعطه الله، ويزعم أن عنده نعما وهي ليست عنده، كمن يزعم أنه طالب علم وليس بطالب علم، أو يزعم أنه عالم وليس بعالم، فالذي عنده ليس من العلوم وإنما هو جهل ونحو ذلك.

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((**من أعطي عطاء فوجد فليجْزِ به، ومن لم يجد فليثنِ، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر، ومن تحلى بما لم يعط كلابس ثوبي زور**)) رواه الترمذي وحسنه الألباني.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة الضحى، ونقف مع آخر ما اعتدنا عليه في التفسير وهو الحكم العظمى والفوائد الكبرى من السورة، فمن ذلك:

- أن في السورة تصديق النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يوحى إليه، وأنه خليل الله سبحانه وتعالى.

- وفي السورة عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، فله منزلة عظمى صلى الله عليه وسلم.

- وفي السورة أن نور الوحي كنور النهار يحتاجه كل أحد، وسيعم الأرض كلها، السورة فيها إشارة إلى أن الإسلام سيعم الأرض، فنور الوحي كنور النهار، فكما أن نور النهار يعم الأرض كلها فإن نور الوحي سيعم الأرض كلها، وكما أن نور النهار يحتاجه كل أحد فإن نور الوحي يحتاجه كل أحد.

- وفي السورة بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن الله سيفصل بين المؤمنين والمشركين كما يفصل بين الليل والنهار، في السورة بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أنه لن يدعهم على ما هم عليه بل سيفصل بين المؤمنين والمشركين كما يفصل

بين النهار والليل، وهذا من أسرار القسم بالضحى والليل في صدر السورة، تضمنت هذه البشارة.

ولاحظوا أن السورة مكية، فهي بشارة للمؤمنين وهم في حال ضعفهم أن هذه الظلمة سيعقبها الضوء ولابد.

- وفي السورة أيضا بشارة للمؤمنين بأن الله سيعطيهم خيرا في الدنيا، ومع ذلك فخير الآخرة أعظم لهم وأبقى.

- وفي السورة أن من المكارم ومن أسباب جلب النعم الإحسان إلى اليتامى والضعفاء، فمن رحم الضعفاء رحمه الله، حتى الشاة عند ذبحها إن رحمتها رحمك الله كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أكرم الأيتام أكرمه الله، ومن أكرم الضعفاء أكرمه الله وهكذا.

- وفي السورة أن النعم تقيد بالشكر.

أسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن يقرؤون القرآن فينتفعون، ويتدبرون فيفهمون، ويفهمون فيعملون، وأن يجعل القرآن حجة لنا لا علينا، فكل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها، والقرآن حجة للعبد أو حجة عليه، فاللهم اجعل كلامك حجة لنا ولا تجعله حجة علينا.

سورة الشرح.

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب (8)﴾.

في هذه السورة المكية يذكّر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا له في ذلك بأنه سبحانه وتعالى قد أنعم عليه بالنعم العظمى، حيث نَور له صدره وجعله صدرا واسعا فسيحا متسعا لكل معروف، وسليما من كل منكر، وقابلا لفهم كل ما يوحى إليه، فلا يعجز عن فهم شيء مما يوحى إليه، وجعله واسعا بما أوحى إليه، فصدر نبينا صلى الله عليه وسلم الشريف متسع للوحي فلا يضيق عن شيء من الوحي لا حفظا ولا فهما، ومتسع بالوحي، وكما شرح الله صدره فإنه قد شرح دينه، فجعل دينه حنيفيا سمحا سهلا ميسرا لا ضيق فيه ولا حرج، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**إن هذا الدين يسر**))، فلا تَكَلُّف في دين محمد صلى الله عليه وسلم ولا غلو فيه ولا إعنات فيه.

ومع هذه النعمة العظمى على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته فقد قرنها الله عز وجل بنعمة كبرى أخرى حيث أسقط عنه الوزر، فخصه صلى الله عليه وسلم من سائر المكلَفين بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فلا يحمل صلى الله عليه وسلم وزرا وهو في الحياة الدنيا، وهذا خاص بمحمد صلى الله عليه وسلم لم ينله أحد من المكلفين، كما أنه حط عنه ثقل الجاهلية، وأذهب من قلبه حظ الشيطان منذ أن كان صغيرا، حيث شق جبريل عليه السلام صدره وهو صغير وأخرج منه حظ الشيطان، وغسل قلبه بماء زمزم، الله أكبرا! ما أعظم هذه النعم على النبي صلى الله عليه وسلم، وكل نعمة على النبي صلى الله عليه وسلم فهي في الجملة نعمة على الأمة.

الله عز وجل حط عن نبينا صلى الله عليه وسلم الوزر فلا يحمل وزرا، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وهو حي في الدنيا، وحط عنه أثقال الجاهلية، وأخرج من قلبه حظ الشيطان وهو صغير، فشق صدره وأخرج قلبه وغسل بماء زمزم، ثم أعيد إلى مكانه، فجمع الله عز وجل لنبينا صلى الله عليه وسلم بين كل هذا الخير: مغفرة الذنب المتقدم والمتأخر وليس هذا إلا له صلى الله عليه وسلم، وتعلمون معاشر الأحبة أن أهل السنة والجماعة يقولون إن الأنبياء قد تصدر منه الصغيرة غير الرذيلة، ولكنهم لا يقرُّون عليها،

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد حط الله عنه الوزر أصلا، وأذهب عنه أثقال الجاهلية، وطهر قلبه من حظ الشيطان وهو صغير، وجعل صدره متسعا منشرحا.

فوضع الله عنه الوزر الذي يثقل الظهر حتى كأنه يُسْمَع له صوت من ثقل ما يحمل، العبد إذا أذنب فإنما يحمل وزرا على ظهره، ولو كان يعقل لسمع صوت عظامه من ثقل ما يحمل من الذنوب، والله طهر نبيه صلى الله عليه وسلم من ذلك.

ومع كل هذه النعم أنعم الله عليه بنعمة عظمى أخرى بأن جعل ذكره مرفوعا في الدنيا والآخرة، في الدنيا وفي السماء وفي الآخرة، فهو صلى الله عليه وسلم مرفوع الذكر في الأرض، مرفوع الذكر في السماء، مرفوع الذكر يوم القيامة صلى الله عليه وسلم.

أما في الأرض فإن الله قرن اسمه باسمه، وينادى باسمه مع اسم الله عزوجل في الأذان الذي يرفع في أنحاء الأرض، ومن الحكمة أنك لا تكاد تجد وقتا في الأرض إلا وينادى فيه بالأذان، فأوقات الصلاة بالنسبة للأرض متفاوتة، فيؤذن هنا وبعد قليل يؤذن في مكان آخر، وبعد قليل يؤذن في مكان آخر، فيرفع اسم النبي صلى الله عليه وسلم في الأرض في كل أجزاء اليوم والليلة مقرونا باسم الله سبحانه وتعالى، وكذلك في الصلاة يذكر العبد اسم النبي صلى الله عليه وسلم وجوبا في صلاته، وكذلك في الخطب يذكر النبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك في الدروس الشرعية التي يقيمها العلماء فلا يوجد درس شرعي على وجه الحقيقة إلا ويذكر فيه اسم النبي صلى الله عليه وسلم، فهو مرفوع الذكر في الأرض.

ومرفوع الذكر في السماء، فإن الله عزوجل يثني عليه في الملإ الأعلى، وإن الملائكة لتصلي عليه صلى الله عليه وسلم في السماء.

وهو مرفوع الذكر يوم القيامة حيث يتنحى الأنبياء عليهم السلام جميعا عن الشفاعة للناس، حتى يأتي الناس للنبي صلى الله عليه وسلم فيطلبون منه الشفاعة، فيستأذن على ربه سبحانه وتعالى فيؤذن له، حتى إذا رأى ربه خر ساجدا، وحمد الله وأثنى عليه، ويقال له: ارفع، واشفع تشفع، وسل تعطى، فيشفع صلى الله عليه وسلم الشفاعات العظيمة التي فيها المقام المحمود له صلى الله عليه وسلم فقد رفع الله ذكره، ومن رفع ذكره صلى الله عليه وسلم أنه مذكور في كتب الأنبياء قبله، وأنه يجب على كل نبي إن أدركه أن يتبعه وأن يؤمن به صلى الله عليه وسلم.

فهو صلى الله عليه وسلم مرفوع الذكر مع ما جعله الله له من رفعة في قلوب أمته، فهو صلى الله عليه وسلم تجب محبته على كل مؤمن أكثر من محبة النفس والولد والوالد

والناس أجمعين، فهو مقدم صلى الله عليه وسلم في المحبة على كل مخلوق صلى الله عليه وسلم، فله الرفعة حكما وواقعا.

وجعل تعظيمه واقعا في قلوب الأمة، فما من مسلم يسمع اسم النبي صلى الله عليه وسلم حتى يعظم هذا الاسم، ويفرح بسماعه، ويصلي عليه صلى الله عليه وسلم.

ومن رفعته صلى الله عليه وسلم التي جعلها الله له أن ربنا سبحانه وتعالى جعل طاعته صلى الله عليه وسلم من طاعة الله، ولذلك قال نبينا صلى الله عليه وسلم: ((**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله**)).

ثم لما ذكّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته بهذه النعم العظمى التي تنشرح لها الصدور ويفرح المؤمن إذا سمعها بشّر الله نبيه صلى الله عليه وسلم وكل من انشرح صدره للإيمان وانشرح بالإيمان بأن مع الضيق والحرج والعسر يسرا واتساعا، وأن مع الشدة رخاء، وأن مع الكرب فرجا لمن اتقى الله سبحانه وتعالى، فقد جعل الله للمتقين اليسر والمخارج من كل ضيق ومن كل عسر: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا﴾، يقول ابن عباس رضي الله عنه: (ومن كل ضيق)، في الدنيا والآخرة يجعل الله له مخرجا ويسرا من كل ضيق وعسر في الدنيا والآخرة.

وأكد الله هذه الحقيقة للمؤمنين بتكرار ذلك، فاليسر في السورة يسران والعسر واحد، ولن يغلب عسر يسرين.

ثم أرشد الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا لذلك إلى كيفية شكر هذه النعم، وإلى ما يجلب به هذا اليسر، ذكَر الله عز وجل في صدر السورة النعم ثم بشر باليسر، ثم أرشد النبي صلى الله عليه وسلم وسائر الأمة إلى كيفية شكر تلك النعم وغيرها، وإلى كيفية جلب ذلك اليسر، وكيف يتحقق للمؤمن أن يُجعل له اليسر بعد العسر، وأن يُجلب له المخرج من الضيق، بين أن هذا إنما يكون بطاعة الله وإقبال القلب على عبادة الله سبحانه وتعالى، فإنه ما شكر الله عز وجل على النعم بأعظم من طاعته سبحانه وتعالى.

فخاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وتدخل الأمة في الخطاب تبعا له صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿**فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ**﴾ أي: إذا فرغت من شغلك وأمور الدنيا، وصفا قلبك، وفرغ بالك فانصب للعبادة، وأقبل عليها بقلب صاف وببدن نشيط.

ومن هنا يعلم المؤمن أنه ينبغي أن يختار لنوافله الوقت الذي يكون فيه فارغا من الشواغل، ويكون قلبه مقبلا على الطاعة، ولذا كان خير نوافل الصلاة صلاة الليل؛ لأن الإنسان يكون في الليل فارغا، وإذا نام ثم استيقظ يكون نشيط البدن.

ولا تنقطع عن العبادة فكلما فرغت من عبادة مفروضة فأتبعها بنافلة منها، فإذا صليت الفرض فأتبعه بنافلة، وإذا صمت رمضان فأتبع صيامك بالنوافل وصم النوافل، وهكذا.

وكما تنصب لله فافزع لله واجعل حوائجك بباب الله سبحانه وتعالى، ولا تَدْعُ مع الله أحدا، فإن ذلك شكره وحقه، حق الله أن تدعوه سبحانه وألا تدعو معه أحدا، وشكره أن تدعوه سبحانه وألا تدعو معه أحدا، ومن دعا غير الله لم يكن عبدا شكورا بل كان مشركا كفورا.

فهذا هو المعنى الإجمالي الإيماني الموضوعي لهذه الآيات ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه الآيات.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى رحمة واسعة::

يقول تعالى ممتنا على رسوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

والمنة على الرسول منة على الأمة، فالله يمتن علينا بهذه النعم.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والاتصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقا حرجا لا يكاد ينقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطا.

والآية دليل على أن محل الفهم هو الصدر وهو القلب، وليس الدماغ، وإنما للدماغ صلة بالقلب، وإلا محل الفهم الأصلي هو القلب مع صلة بالدماغ، وهذه الآية دليل على ذلك؛ لأن الله قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾.

ومن معاني هذه الآية أن صدرك صار متسعا لفهم الوحي.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: ذنبك.

وقد **قال بعض المفسرين**: هذا هو الذنب الذي كان في الجاهلية قبل أن يوحى إليه صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض المفسرين: بل هذا مطلقا، وضع الله الوزر عن النبي صلى الله عليه وسلم مطلقا، وذلك كقول الله عز وجل: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

والآية عامة فإن الوزر كله وضع عن النبي صلى الله عليه وسلم، بل إن النبي صلى الله عليه وسلم خص من بين البشر أنه حفظ من شيطانه، وذلك بأمرين:

الأمر الأول: ما ذكرناه أن الله أمر جبريل عليه السلام فشق صدره وهو صغير، وأخرج علقة من صدره هي حظ الشيطان من صدره صلى الله عليه وسلم، وغسله بالماء المبارك ماء زمزم ثم رده مكانه.

والأمر الثاني: أن الله أعانه على شيطانه فسلم منه، ما من إنسان إلا ومعه شيطان حتى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعانه الله على شيطانه فيسلم.

يعني هو قال صلى الله عليه وسلم: ((**أعانني الله عليه فأسلم**))، بعض العلماء قال: (**فأسلم**) يعني أن الشيطان أسلم لكن هذا غير صحيح، وإنما أسلم من السلامة، فالنبي صلى الله عليه وسلم يسلم منه.

﴿الَّذِي أَنقَضَ﴾ أي: أثقل، ﴿ظَهْرَكَ﴾.

يعني أنقض الذي يثقل ظهرك.

والإنقاض أصله هو الصوت الذي يخرج من البعير إذا حمل بالأثقال فقام، فإنه يسمع لظهره صوت، والذنوب إذا حملها العبد كأنه يحملها على ظهره، كلما قام تئن عظامه وتشتكي من ثقل ذنبه، والموقف من أزال هذا الثقل بتوبة فتاب إلى الله عز وجل، فيوضع عنه الوزر.

ربنا رحيم رحمن نذنب ويغفر، ويدعونا إلى التوبة، ويعدنا بأن يفرح إذا تبنا، وأن يغفر إذا تبنا، وأن يبدل سيئاتنا حسنات إذا تبنا، ويسر لنا أمر التوبة، فلم يطلب منا شططا بعيدا، وإنما طلب منا لنتوب أمرا يسيرا، ومن تاب تاب الله عليه وأسقط ذنبه بالكلية.

فيا أيها العبد؛ يا من أذنبت وأكثرت -وكلنا كذلك- إلجأ إلى باب الله لترحم نفسك في الدنيا والآخرة، لترحم جسدك الضعيف من حمل هذه الذنوب التي تؤثر في عظامه، بل ذكر بعض السلف أن الذنوب تؤثر في الصحة وتضعف البدن في آخر الحياة، أحد السلف قفز وهو في الستين كما يقفز الشاب، فقيل له في هذا، فقال: (حفظناها في الصغر فحفظها لله لنا في الكبر)، حفظناها في الصغر فلم نعص الله بها فحفظها الله لنا في الكبر.

التخلص من الذنوب سبب للصحة وسبب لانشراح الصدر وسبب لبياض الوجه، وأهم من ذلك كله سبب لرضى الله سبحانه وتعالى، فليت شعري ما الذي يؤخرنا؟ ما الذي يجعلنا نتوانى عن وضع هذا الثقل عن ظهورنا؟ لماذا لا نعزم ونجزم ونتوكل بحزم فنتوب فورا من

ذنوبنا ونقبل على طاعة ربنا سبحانه وتعالى؟ فالشاهد أن المذنب يكون كالبعير الذي يحمل الأثقال فإذا قام بها سمع لعظامه صوت، فكذلك المذنب إذا كان يحمل الذنوب فإنه إذا قام تشتكي عظامه وتئن عظامه من هذا الثقل.

كما قال تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

كما ذكرنا في الأرض وفي السماء ويوم القيامة، وكذلك في الجنة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أول من يجوز على الصراط، وأول من يفتح له باب الجنة؛ لن يفتح باب الجنة إلا لمحمد صلى الله عليه وسلم ثم الناس من ورائه صلى الله عليه وسلم، وهناك أناس يدخلون مع النبي صلى الله عليه وسلم، هناك أناس يدخلهم النبي صلى الله عليه وسلم بيده الجنة صلى الله عليه وسلم، ومن أولئك الناس من واظب على أن يقول في كل صباح: رضيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا، فإنه إذا واظب على هذا في كل صباح يأتي النبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ويأخذ بيده إلى الجنة، ومعنى هذا أنه يدخل الجنة مع النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة هو أعلى من في الجنة صلى الله عليه وسلم، فرفعه الله صلى الله عليه وسلم.

قال رحمه الله: فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله صلى الله عليه وسلم.

يعني في الشهادتين.

كما في الدخول في الإسلام وفي الأذان والإقامة والخطب وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى، فجزاه الله عن أمته أفضل ما جزى نبيا عن أمته.

وذكرنا أوجه رفع ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير الإجمالي.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6)﴾.

﴿فَإِنَّ﴾ الفاء هنا للتفريع، تفريع ما بعدها على ما قبلها؛ أي: مع تلك النعم فإن مع العسر يسرا، لمن؟ للمتقين، لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ومن اتقى الله من هذه الأمة.

قال رحمه الله: بشارة عظيمة أنه كلما وجد عسر وصعوبة فإن اليسر يقارنه ويصاحبه،

حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: 7]، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا)).

يعني أما الأول حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر؛ روي هذا المعنى عن ابن مسعود رضي الله عنه ورجاله ثقات، عن ابن مسعود غير أن فيه رجلا لم يسم، هذا بالنسبة للموقوف، وروي مرفوعا ولا يصح، قال الألباني: ضعيف جدا، أعني ((حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر))، روي مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يصح، بل هو ضعيف جدا كما قرره الإمام الألباني، وروي موقوفا على ابن مسعود من قول ابن مسعود رضي الله عنه ورجاله ثقات غير أن فيه علة وهو أن فيه رجلا لم يسمى.

وأما قوله: (وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((وإن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسرا)))، فهذه قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: ((**احفظ الله يحفظك**))، وقد روى الحديث بهذه الزيادة الإمام أحمد رحمه الله

قال رحمه الله: وتعريف العسر في الآيتين يدل على أنه واحد، وتنكير اليسر يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

يعني كون العسر هنا معرفا فهذا يدل على أن الثاني هو الأول، وكون اليسر منكرا فهذا يدل على أن الثاني غير الأول، ولن يغلب عسر يسرين، وقد كتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: أما بعد: (فإنه مهما نزل بعبد مؤمن من منزل شدة يجعل الله له بعده فرجا، وإنه لن يغلب عسر يسرين) رواه مالك، يشير عمر رضي الله عنه إلى هاتين الآيتين.

وقال الحاكم صحت الرواية عن عمر رضي الله عنه أنه لن يغلب عسر يسرين، وقد روي ذلك مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم من مراسيل الحسن، وبعض العلماء يقبلون مراسيل الحسن، وهو من كبار التابعين إلا أن الصواب أن المرسل كله ضعيف، فلم يثبت مرفوعا لكنه صح عن عمر رضي الله عنه وأرضاه أنه لن يغلب عسر يسرين.

قال رحمه الله: وفي تعريفه بالألف واللام الدال على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ فإن في آخره التيسير ملازم له.

يعني أن هذا الوعد عام، وأن العسر لابد أن يعقب للمؤمن بيسر، وهذا اليسر إما رفع للعسر وإما صبر عليه.

يعني:

-إما أن يرفع الله العسر عن المؤمن.

- وإما أن يرزقه صبرا عليه فتتضاعف له الحسنات.

لأن بعض الناس يقول: نرى بعض المؤمنين يبتلى إلى أن يموت، نقول: نعم؛ لكن ستجد في الغالب أن الله يرزقه الصبر، بل قد يرزقه الرضى، بل قد يرزقه الشكر، تجد أن بعض من يبتلون بالمصائب والبلاء أرضى ممن حولهم، تجد أن حولهم من الأصحاء يئنون، ومسكين مسكين، أما هو تجده شاكرا راضيا صابرا، تجده يقول الحمد لله أنا في خير من الله، أنا في نعمة من الله، حبسني الله عن كثير من الشرور في خارج البيت، أقل الدرجات أن يرزق الصبر، وقد يعلو الأمر حتى يرزق الرضا، وقد يعلو الأمر حتى يرزق الشكر، وهذا من أعظم اليسر إذا رزق الله عبده المؤمن الصبر على البلاء وعلى العسر أو رزقه الرضا به أو رزقه الشكر عليه فهذا من أعظم اليسر؛ لأن البلاء لا يزال بالمؤمن حتى يجعله يسير على الأرض وليست عليه خطيئة، ويوم القيامة يود أهل العافية لو أنهم نشروا في الدنيا بالمناشير لما يرون من ثواب أهل البلاء، ولكن هذا لا يطلب بل المشروع أن يطلب الإنسان العافية، ويسأل الله العافية، لكن إذا ابتلي المؤمن فإما أن يرفع الله عنه البلاء ولو بعد حين، وإما أن يرزقه الصبر أو الرضا أو الشكر فتنقلب المحنة منحة، وينقلب البلاء حسنات لا تنقطع، حتى ربما رفع في أعلى درجات الجنة بسبب ذلك.

وقد جاء في الحديث ((**أن الله إذا أراد بعبده منزلة في الجنة ثم لم يبلغها بعمله قال لملائكته: صبوا عليه البلاء صبا، وصبره عليه**)).

فهذا ما ينبغي أن نفقهه: اليسر لا يعني أن يرفع العسر فقط، بل قد يكون برفع العسر، وقد يكون بتيسيره على المبتلى به أن يصبر عليه أو يرضى أو يشكر.

قال رحمه الله: ثم أمر الله رسوله أصلا والمؤمنين تبعا بشكره، والقيام بواجب نعمه فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا تفرغت من أشغالك ولم يبق في قلبك ما يعوقه فاجتهد في العبادة والدعاء.

وقيل: إذا فرغت من عبادة مفروضة فأتبعها بنافلة من جنسها.

وقال بعض أهل العلم: إذا فرغت من يومك من نهارك الذي هو وقت الشغل فانصب لربك في الليل الذي هو وقت التفرغ.

وكل هذه المعاني صحيحة، فهذا من باب اختلاف التنوع وليس من باب اختلاف التضاد.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وحده، ﴿فَارْغَب﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعاءك وقبول دعواتك

لماذا قال الشيخ: (وإلى ربك وحده)؟

لأن تقديم المعمول يدل على الحصر، تقديم الجار والمجرور يدل على الحصر، الأصل فارغب إلى ربك، لكن قدم الجار والمجرور على متعلقه، وتقديم الجار والمجرور يدل على الحصر، فأصبح معنى الآية: وإلى ربك وحده فارغب وضع حوائجك، واجعل دعاءك لربك فقط ولا تدع من دون الله أحدا.

قال: ولا تكن ممن إذا فرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره فتكون من الخاسرين، وقد قيل إن معنى هذا: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب في الدعاء.

هذا قاله بعض أهل العلم لكن فيه نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعو بعد المفروضة، وإنما كان يذكر.

والظاهر عندي والله أعلم وهو الظاهر عند جمع من أهل العلم ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أن كل دعاء نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم في دبر الصلاة المقصود به في آخرها، وليس في خارجها: اللهم آجرني من النار على ما ورد وعلى ما في الرواية، اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، أن كل هذا إنما هو في آخر الصلاة من الأدعية المشروعة في آخر الصلاة وليس في خارجها.

ولذلك هذا المعنى الذي ذكره بعض أهل العلم: إذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب للدعاء محل نظر؛ لأن المخاطب بالآية وهو صلى الله عليه وسلم لم يفعل ذلك في كل صلاة، وما كان ينصب للدعاء ويكثر من الدعاء بعد الصلوات عموما، ولم يكن يدعو أصلا بعد الفرائض مباشرة، بل كان يذكر الله سبحانه وتعالى، وإنما كان يدعو دعاء واحدا مناسبا للمقام وهو أن يقول فور السلام: أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله؛ لأن هذا متعلق بما كان في الصلاة، يستغفر العبد من تقصيره في بعض الصلاة، من شرود ذهنه في بعض الصلاة ونحو هذا.

قال: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ في سؤال مطالبك.

واستدل من قال هذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات والله أعلم.

أما الذكر فلا شك أنه مشروع وهو سنة، أما الدعاء فلا يشرع منه إلا أن يقول: أستغفر

الله أستغفر الله أستغفر الله عقب السلام مباشرة.

هذه السورة العظيمة فيها حكم كبرى وفوائد عظمى، فمن حكمها الكبرى وفوائدها العظمى:

- عظم منزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه وعند المؤمنين، وكثرة نعم الله عز وجل على محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي على أمته.

47

- الحكمة الثانية والفائدة الثانية: أن انشغال الصدر يمنع الفهم، انشغال القلب يمنع الفهم، ولاسيما انشغال القلب بالهموم، فإنه يمنع الفهم، ولذلك ينبغي على طالب العلم أن يجتهد في تفريغ قلبه من الهموم ما استطاع، وألا يحضر للدرس مهموما مشغول القلب، وهذا جزء من معنى قول الله عز وجل: ﴿**إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾ [ق: 37]؛ لأن المشغول المهموم لا يحضر قلبه ولا يكون شهيدا، حتى إذا كان يستمع هو مع همه مشتغل ومع أشغاله مشتغل، ولذلك ينبغي على طالب العلم أن يجتهد في انشراح الصدر، ولا أعظم لانشراح الصدر من قراءة القرآن، اجعل لنفسك وردا ونصيبا من قراءة القرآن.

أنا أعجب من طلاب العلم الذين لا يكون لهم نصيب كبير من القرآن ويريدون أن يحصلوا كثيرا من العلم! قراءة القرآن:

1. أولا تجعل في الوقت بركة، من جعل له وردا عظيما كسبع القرآن مثلا في يومه يجعل الله في يومه بركة ما يجدها غيره.
2. وثانيا علاج للهموم والغموم والشواغل، فيقبل طالب العلم ومن يريد أن يفهم على المسموعات والعلوم بقلب منشرح، فيفهم ويستفيد ويحصل خيرا كثيرا وعلما كبيرا.

- من فوائد هذه السورة الكبرى وحكمها العظمى: أن أعظم أسباب تفريج الهموم الإقبال على الله، والله إن الإقبال على الله علاج حتى للأمراض النفسية، أن يقبل الإنسان على طاعة الله، يقرأ القرآن، يذكر الله يحضر في حلق العلم، يصلي، يصوم، والصلاة لها خاصية عجيبة في هذا الباب، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: ((**أرحنا بها يا**

بلال))، فالصلاة علاج للهموم والغموم وعلاج لأمراض النفوس، وعلاج للغضب، الغضبان لو قام يتنفل لله بركعتين يذهب غضبه.

فالإقبال على الله سر السعادة، من أراد علاج همومه وغمومه وإسعاد قلبه فليقبل على ربه، والسعادة هبة من الله يهبها لمن يشاء، والله يهب السعادة لمن أقبل عليه،

السعادة في الدين والتدين والطاعة والإقبال على الله سبحانه وتعالى، والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

والله قد تدخل الصلاة وأنت في غاية الهم تسلم وأنت ما كأنه قد أصابك هم، القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء سبحانه وتعالى، فإذا أردت الأنس فانس بالله وانس بكتاب الله ونس بذكر الله ونس بطاعة الله ونس بالعلم، وعليك بالتوحيد.

- الحكمة الكبرى الرابعة والفائدة العظمى الرابعة: أن الذنوب تثقل ظهر الإنسان حسا ومعنى، فالعبد كلما أذنب ذنبا رمى حملا على ظهره، فتئن العظام وتشتكي من الذنوب حسا، ويثقل عن الطاعات وعن طلب العلم خصوصا بسبب الذنوب، وكلما رمى ذنبا كلما أبعد عن الطاعة، كلما حمل ذنبا كلما أبعد عن الطاعة، فالذنوب مبعدة للقلوب.

وقد جاء في الحديث ((**أن العبد إذا أذنب ذنبا نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن نزع منها سقل منها**)) لاحظوا: سقل السقل يكون للزجاج، وسقل الزجاج يذهب الشيء بالكلية، وإن زاد زادت حتى ترين على قلبه، فالذنوب تثقل ظهر الإنسان حسا ومعنى، حسا تثقل عظامه، ومعنى تثقله عن الطاعات.

ولذلك الذي لا يقوم الليل في الغالب كثير الذنوب، تقيده ذنوبه عن هذه الطاعة التي هي لذة وجنة ورحمة للعالمين.

- ومن حكم هذه السورة الكبرى وفوائدها العظمى: أن من أعظم أسباب العزة والرفعة للإنسان التوحيد والطاعة، ولذلك قلنا ونقول: من أراد العزة للأمة فليدعو للتوحيد وليعلم التوحيد ولينشر التوحيد، وليحذر من الشرك، ومن أراد العزة لنفسه فليحرص على تحقيق التوحيد، وليكن من الموحدين، ومن وحد الله وأطاع الله رفع الله ذكره في الآخرة يقينا، وفي الدنيا بحسب مصلحته، فقد تكون مصلحتك في الدنيا أن تعرف فيرفع الله ذكرك ويعرفك الناس، وقد تكون مصلحتك أن لا تعرف وأن تكون كما يقولون نكرة؛ لأنك لو عرفت لفتنت، أما في الآخرة فالموحد مرفوع الذكر، وكذا عند الله في الملإ الأعلى الموحد مرفوع الذكر، وأما في الأرض فهو مرفوع ولكن بحسب مصلحته، فقد يرفع ذكره ويعرف في

الآفاق؛ لأن مصلحته كذلك ومصلحة الأمة مرتبطة بذلك، وقد لا يعرف، ولذلك ارضى بما اختار الله لك وإياك والتطلع للشهرة، لا تطلب الشهرة أبدا، بل السلف الصالح رضوان الله عليهم كانوا لا يريدون الشهرة وإنما يريدون شهرة الحق وظهور الحق، فإن كتب الله لك شهرة فزد تواضعا لعباد الله، ومن قبل ذلك ليعظم تذللك لله سبحانه وتعالى، وإن لم تشهر فاحمد الله على السلامة، وقل: الحمد لله الذي سلمني، والحمد لله الذي نجاني.

الحكمة السادسة الكبرى والفائدة العظمى: بشارة أهل البلاء والشدة والكروب من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الفرج قريب، وهذا يقتضي عدم الأنين والشكوى وعدم التسخط، فإن الفرج قريب وإن مع العسر يسرا.

- الحكمة السابعة والأخيرة والفائدة الكبرى السابعة: أن شأن المؤمن الاستفادة من الفراغ في طاعة الله، والفراغ نعمة مغبون فيها كثير من الناس، ما عرفوا الطريق الصحيح فيها، بعض الناس يأتي يقول: يا أخي أنا طفشان، لماذا؟ قال: ما عندي شيء، سبحان الله! عندك القرآن اقرأ، عندك ذكر الله اذكر، عندك الصلاة صلي، عندك السعي في مصالح المسلمين، يقولون العمل التطوعي، عندك وقت اجتهد في مصالح المسلمين مصالح جيرانك.

ولذلك الفراغ بالنسبة للمؤمن نعمة؛ لأنه إذا فرغ نصب، وجعل الوقت طاعة لله عز وجل، فشأن المؤمن كشأن نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يستفيد من الفراغ في زيادة الحسنات.

ولذلك يا عبد الله أقول: إذا وجدت أيها المؤمن فراغا فاحمد الله على هذه النعمة، واغتنم هذه النعمة فيما يقربك إلى الله سبحانه وتعالى، اغرس شجرك في الجنة بذكر الله، قل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله، زد حسناتك بكثرة الطاعة لله سبحانه وتعالى.

وبهذا نكون ختمنا تفسير سورة الشرح أسأل الله عز وجل أن يشرح صدورنا للهدى، وأن يشرح صدورنا بالهدى، وأن يفهمنا معاني كتابه سبحانه وتعالى.

سورة التين.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (1) وَطُورِ سِينِينَ (2) وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (3) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (5) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (6) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ(8) ﴾.

هذه السورة المكية يقسم الله عز وجل فيها بالتين المعروف والزيتون المعروف، وفي هذا بيان فضل هاتين الثمرتين وما فيهما من الفوائد للإنسان، وإشارة إلى أحسن موطن لهما وهو فلسطين أرض نبوة عيسى عليه السلام، ثم يقسم الله عز وجل بطور سيناء وهي الأرض التي أوحي فيها إلى موسى عليه السلام، ثم يقسم الله عز وجل بمكة التي بعث فيها محمد صلى الله عليه وسلم، فجمع الله عز وجل في أول هذه السورة القسم بأراض بعث فيها هؤلاء الأنبياء الثلاثة وهم من أولي العزم الذين هم أشرف الرسل عليهم السلام.

أقسم الله عز وجل بهذه الأمور العظيمة على أمر عظيم، وجواب القسم: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ**﴾، أيها الإنسان الله عز وجل خلقك ولا خالق لك إلا الله سبحانه وتعالى، وخلقك حسن الخلقة مكرما في صورتك وهيأتك.

ثم رد الله عز وجل هذا الإنسان أسفل سافلين في نار جهنم، وذلك لأن الإنسان يطغى ويتجبر ويتكبر ولا يشكر نعم الله عز وجل عليه، وإنما قد يشرك بالله عز وجل وقد يكثر من المعاصي العظيمة.

ولا ينجو من هذا السُفل إلا الذين آمنوا بالله ربا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا، وبالإسلام دينا، وآمنوا بالرسل والملائكة والكتب واليوم الآخر والقدر خيره وشره من الله عز وجل، ومن إيمانهم أنهم عملوا الصالحات، فاجتهدوا في العمل بالصالحات، فأخلصوا لله فيها، واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها.

ومن كان هذا شأنهم فإنهم في أعلى عليين، على عكس غيرهم الذين هم في أسفل سافلين، مقامهم بين الخلائق عالي ومقامهم يوم الدين عالي في جنة رب العالمين، فهم في الدنيا أكرم الخلق وإن كانوا مستضعفين، وهم في الآخرة في أعلى عليين في جنة رب العالمين، ونعيمهم

فيها عظيم كثير كبير ممتد لا ينقص، ولا يفقدون منه شيئا، ولا ينقطع ولا لحظة، فهو نعيم محفوظ من النقصان، محفوظ من العدم، محفوظ من الانقطاع، فلا منغص فيه أبدا، فإن الذي ينغص على الإنسان النعيم أن يعلم أنه ينقص كلما أخذ منه، وهذا لا يكون في نعيم الجنة، وأن يعلم أنه قد ينقطع فينقلب النعيم إلى ابتلاء، وهذا لا يكون في نعيم الجنة، وأن يعلم أنه قد يذهب عنه بالكلية وهذا لا يكون في نعيم الجنة.

وهذا العلو للمؤمنين والسفل لغير المؤمنين الذي يكون يوم القيامة هو يقين لا شك فيه، ولهذا قال ربنا: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ**﴾ فأي شيء أيها العبد العاقل يجعلك تكذب بالبعث والجزاء؟! وقد قامت على ذلك البراهين القطعية، فلا عذر لك في ذلك، فالآيات المتلوة والآيات المشاهدة وما تراه من ذهاب الأجيال، وما تراه من الصلاة على الأموات ومن قبر المقبورين يدلك دلالة بينة على أنك لست مخلدا في الدنيا، ولست باقيا في الدنيا، وأنك ميت ولا شك، وقد دلت الأدلة القطعية على أن الميت يبعث ويجازى.

ومن ذلك أن حكمة الحكيم سبحانه وتعالى تدل دلالة بينة على أنه لا يمكن أن يخلق الجن والإنس ويكلفهم بالأعمال، وينهاهم عن بعض الأعمال ولا يحاسبهم عليها ولا يجازيهم عليها، فإن الله عز وجل خلق الجن والإنس ولم يتركهم هملا بل أرسل لهم رسلا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولا شك أن العالم بحكمة الله عز وجل يدرك أنه لابد من جزاء ولابد من حساب، إذن لابد من بعث، ولذلك قال الله عز وجل بعد قوله: ﴿**فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (7) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (8)**﴾.

بلى وربي؛ وما دام أن حكمة الله تامة وهو أحكم الحاكمين فإن العاقل يدرك إدراكا يقينيا أن من كلف العباد في الدنيا لابد أن يبعثهم وأن يجازيهم وأن يحاسبهم.

فهذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه الآيات العظيمة، ثم ننتقل إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما سطره الإمام المفسر الفقيه الأصولي المتفنن الذي رزقه الله علما عجيبا بديعا الشيخ الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي السعدي رحمه الله عز وجل في تفسيره.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين:

قوله: ﴿وَالتِّينِ﴾ هو التين المعروف وكذلك الزيتون.

وهذا أظهر ما قاله المفسرون وما قاله السلف الصالح رضوان الله عليهم.

وإذا اختلف المفسرون فالأقرب في التفسير هو ما يتطابق مع الظاهر، ولذلك الذي عليه الأكثر وهو الصواب أن التين هنا هو التين المعروف، وكذلك الزيتون.

والتين فائدته في أكله والزيتون فائدته العظمى في عصره، فهذا مأكول وهذا مشروب، وكلاهما نعمة عظيمة وفيه فوائد كثيرة للإنسان.

ولذلك من الخير للإنسان أن يحافظ على هاتين الثمرتين فإن في أكلهما وشرب زيت الزيتون الصحة والعافية والبركة، فيحسن بالمؤمن أن يدرك هذا، فإن الله لا يقسم إلا بعظيم من خلقه، فهاتان الثمرتان من أعظم الثمار فائدة للإنسان.

قال رحمه الله: أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما؛ ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى بن مريم عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: طور سيناء.

طور سيناء هو الجبل المعروف في سيناء من أرض مصر، فمعنى ﴿سِينِينَ﴾ على هذا سيناء.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿سِينِينَ﴾ أنه الحسن، فهو جبلٌ حسنٌ.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿سِينِينَ﴾ مبارك فهو جبل مبارك.

وقال بعض العلماء: معنى ﴿سِينِينَ﴾ أنه ذو شجر فهو جبل ذو شجر.

وقال بعض المفسرين: ﴿سِينِينَ﴾ هو الشجر المثمر فهو جبل ذو شجر مثمر.

وهذا من باب اختلاف التنوع في التفسير وليس من باب اختلاف التضاد، فهو جبل مبارك حسن كثير الأشجار المثمرة، وهو الجبل المعروف، وشذ من ذكر أنه جبل في الشام هذا قول شاذ ضعيف، وإنما هو جبل في أرض سيناء من مصر وهو المكان الذي نُبِّئَ فيه موسى عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: طور سيناء محل نبوة موسى عليه السلام.

﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو مكة المكرمة محل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

وهذا اسم إشارة للقريب؛ لأن الآيات مكية، فالذين يخاطبون بها في ذلك الزمن هم قاطنوا مكة، ولذلك قال: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

والأمين فعيل، وكما تدركون فعيل تأتي بمعنى فاعل وتأتي بمعنى مفعول، فهو بلد آمن ومؤمَّن ومؤمِّن، ففيه الأمن كله، بلد آمن ومؤمَّن ومؤمِّن ومأمون، ففيه الأمن من جميع جوانبه وهذا الأمن ما جعله إنسان لهذا المكان وإنما جعله الله عز وجل لهذا البلد، وهو محل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال: فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: تام الخلق متناسب الأعضاء منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرا وباطنا شيئا.

هذا قول الأكثر أن معنى ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ هو في الخلقة الظاهرة، أن الله عز وجل جعل الإنسان في أحسن قامة من بين جميع المخلوقات، وفي أحسن صورة وفي أكرم هيئة.

وقال بعض المفسرين: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يعني على الفطرة وهي الإسلام، فكل مولود يولد على الفطرة يعني على الإسلام، كل مولود يولد على أحسن تقويم على الفطرة وهي الإسلام.

فهؤلاء حملوا حسن التقويم على الأمر الباطن، والأولون حملوه على الأمر الظاهر، والقاعدة أنه إذا ذكر المفسرون قولين أو أكثر لا تنافي بينها فسرت الآية بجميعها، فأحسن التقويم هنا يشمل الخلقة الظاهرة ويشمل باطن الإنسان، فإن الإنسان يولد على أحسن تقويم ظاهرا وباطنا.

قال رحمه الله: ومع هذه النعم العظيمة التي ينبغي منه القيام بشكرها فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفساف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم إلا من منّ الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة

العالية.

﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ من قال: إن حسن التقويم في الهيأة الظاهرة قال: المعنى ثم رددنا هذا الإنسان إلى النار إلى جهنم لعدم شكره، بل كان مشركا أو كثير العصيان، فيرد إلى النار بحسبه.

ومن قال: إن حسن التقويم هنا هو الفطرة وهي الإسلام قال: معنى ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ أن أهله يردونه إلى أسفل سافلين، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.

وكما قلنا إنه لا مانع من حمل حسن التقويم على الحالين، فإنه لا مانع من حمل الرد إلى أسفل سافلين على الحالين، فيرد في الدنيا إلى الشرك وكثرة العصيان والطغيان، ويرد يوم القيامة إلى النار التي هي أسفل سافلين.

وقال بعض المفسرين: ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ يعني رددناه إلى أرذل العمر فيصبح شيخا كبيرا تذهب قوته وتتحول إلى ضعف، وتتغير هيأته فبعد أن كان بهي البشرة يذهب بهاء تلك البشرة.

إذا قلنا بهذا التفسير هنا إشكال؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾، والمعلوم أن المؤمن قد يرد إلى أرذل العمر ويصبح شيخا كبيرا، **فبعضهم قال**: إن الاستثناء هنا منقطع، والمعنى لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع ردهم إلى أرذل العمر لهم أجر غير ممنون في الجنة.

وبعضهم قال: إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإن أجرهم لا ينقطع بضعفهم أو ذهاب عقلهم، بل يكتب لهم في حال ضعفهم وحال أرذل العمر ما كانوا يعملونه في حال الصحة والقوة، فلو كان أحدهم مثلا يصوم الاثنين والخميس لكن لما كبر سنه أصبح لا يستطيع الصوم يجري الله عليه أجر صيام الاثنين والخميس وإن بقي عشرين سنة ضعيفا، كان يصلي من الليل فأصبح من ضعفه لا يستطيع أن يصلي من الليل يجري الله عليه أجر قيام الليل وإن بقي سنين طويلة، فقالوا هذا معنى الآية، ليس استثناء من الرد إلى أرذل العمر، وإنما هو استثناء من انقطاع الأجر عند الرد إلى أرذل العمر، فإن أجرهم يعني مستمر.

وبعضهم قالوا: إن الآية على ظاهرها ﴿**ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**﴾ يعني رددناه إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علم شيئا إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإن الله يحفظهم من هذا، والمقصود خاصة المؤمنين وليس كل المؤمنين على هذا التفسير، خاصة المؤمنين الذين حفظوا أعضاءهم في الصغر يحفظها الله لهم في الكبر، فلا يردون إلى أرذل العمر.

ولذلك قال بعض السلف الذين فسروا هذا التفسير: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ يعني: إلا الذين حفظوا القرآن وكانوا من أهل القرآن وليس عموم المؤمنين، فإنهم يحفظون من الرد إلى أرذل العمر، ولذلك قال بعضهم: لا يعرف رجل من أهل القرآن رد إلى أرذل العمر، يعني: لا يعرف رجل من أهل القرآن على وجه الحقيقة وليس مجرد ترداد الألفاظ رد إلى أرذل العمر.

لكن ما قدمناه أولى من هذا التفسير؛ لأنه هو الظاهر والله أعلم، وشيخنا الشيخ ابن عثيمين يرى أن الآية تدل على المعنيين، ويرى أن هذا من اختلاف التنوع وليس من اختلاف التضاد، لكن يعني الأظهر والله أعلم هو الأول لأن السياق يدل عليه.

في أسفل سافلين أي: أسفل النار موضع العصاة المتمردين على ربهم.

إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة العالية فلهم بذلك المنازل العالية وأجر غير ممنون؛ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

﴿**غَيْرُ مَمْنُونٍ**﴾ **قال بعض المفسرين**: غير مقطوع كما قال الشيخ.

وقال بعض المفسرين: غير منقوص، يعني لا ينقص.

وكلا المعنيين صحيح، فنعيم الجنة لا يفنى ولا يعدم ولا ينقطع ولا لحظة ولا ينقص أبدا، لا من جهة ذاته ولا من جهة التنعم به.

الإنسان في الدنيا إذا أوتي نعيما هذا النعيم سينقص، إما بذاته فينقص ويقل، وإما بالتنعم به، فإن الإنسان إذا طال تنعمه بهذا النعيم يألفه حتى لا يشعر بالنعيم ولا يشعر بلذته، وهذا لا يكون في الجنة، بل أهل الجنة -نسأل الله أن يجعلنا منهم- في كل لحظة كأن النعيم جديد، لا يملونه أبدا ولا يفقدونه أبدا ولا يفقدون منه شيئا، وفوق هذا هم

آمنون من هذا كله، يعني قلوبهم مطمئنة بهذا لا يخافون ذهابا له ولا نقصا ولا انقطاعا وهذا من تمام نعيمهم.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال؟! قد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين ومن نعمه ما يوجب عليك ألا تكفر بشيء منها

هذا قول الأكثر أن الدين هو الجزاء على الأعمال يوم القيامة.

وقال بعض المفسرين: الدين هنا هو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والمعنى ما الذي يجعلك أيها الإنسان تكذب بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وقد أقمنا لك البراهين الساطعة والأدلة القاطعة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم وعلى صحة ما جاء به والآية تحمل على الأمرين:

- تحمل على الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

- وعلى الدين الذي هو الجزاء بالأعمال وهو مما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم.

فإن محمدا صلى الله عليه وسلم تلا علينا في كتاب ربنا هذا وأخبرنا بالسنة تفاصيل كثيرة عن هذا الأمر.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون

﴿أَلَيْسَ﴾ هذا استفهام، وهو استفهام تقريري، والاستفهام التقريري يرد على الأمر القطعي الذي لا يمكن أن ينكر، فهذا تقرير لهذه القضية الكلية القطعية وهي أن الله عز وجل أحكم الحاكمين.

و(أحكم) عند الأكثر من الحكمة، والحكمة هي الإتقان ووضع كل شيء في موضعه، والله عز وجل أحكم الحاكمين، وكل من أوتي حكمة فحكمته ناقصة وهي هبة من الله، وحكمة الله تامة كاملة.

فالله أحكم الحاكمين، هو سبحانه الأحكم، وهو الواهب للحكمة، فالحكمة رزق من الله عز وجل.

وقال بعض المفسرين: (أحكم) هنا من الحكم، ﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾ أي: أن حكم الله محيط بالجميع، وهو الحكم القدري، أن حكم الله القدري لا يخرج عنه شيء، وهذا يتضمن التهديد والوعيد للكفار.

وقال بعض أهل العلم: أحكم من الحكم ولكنه الحكم الشرعي، فشريعة الله تامة لا نقص فيها، والأدلة عليها براهين ساطعة وأدلة قاطعة.

قال: فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون ولا يثابون ولا يعاقبون، أم الذي خلق الإنسان أطوارا بعد أطوار وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه ورباهم التربية الحسنة.

وكلفهم؛ أهم قضية أنه كلفهم وأمرهم ونهاهم.

لابد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم التي إليها يقصدون ونحوها يؤمون.

من فوائد هذه السورة الكبرى وحكمها العظمى:

- بيان أن المخلوقات تتفاضل، فمنها ما يتفاضل في فضل ونقص كسائر الناس والثمار، فهنا التين والزيتون من أفضل الثمار دلنا على ذلك أن الله أقسم بها، والله لا يقسم إلا بعظيم فاضل، ومنها ما يتفاضل في كمال لا نقص فيه كالأنبياء عليهم السلام، وكلا الأمرين موجود في الآيات؛ لأن الله عز وجل أقسم بالتين والزيتون وهذه مخلوقات تتفاضل بين كمال ونقص، وأقسم بهذه الأراضي؛ والأراضي تتفاضل بين كمال ونقص، وتضمن هذا القسم بالأنبياء الثلاثة عيسى عليه السلام وموسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم، والأنبياء يتفاضلون في الكمال بلا نقص، فلا نقص في نبي من الأنبياء، ولكنهم يتفاضلون في الكمال.

ولذلك التفضيل بين الأنبياء إن كان على وجه التفاضل في الكمال جائز ومشروع، فنقول: أفضل الأنبياء أولوا العزم، وأفضل أولوا العزم محمد صلى الله عليه وسلم، أما إذا كان على وجه التنقص لنبي من الأنبياء فإنه لا يجوز، لا يجوز أن تقول: محمد صلى الله عليه وسلم أفضل من موسى عليه السلام إذا كان قصدك أن تتنقص موسى عليه السلام، أما إذا كان قصدك أن تذكر كمال محمد صلى الله عليه وسلم فإنه يجوز.

- ومن فوائد هذه السورة بيان أن الأرض إنما تفضل بوجود الصالحين فيها، فمكة شرفت بوجود محمد صلى الله عليه وسلم فيها، وبوجود بيت الله فيها الذي يؤمه الصالحون، وبوجود إسماعيل فيها من قبل عليه السلام، وفلسطين شرفت بوجود عدد كبير من الأنبياء فيها عليهم السلام، ومنهم عيسى عليه السلام، وطور سيناء شرف بوجود موسى عليه السلام عنده عندما نبئ عليه السلام.

- ومن فوائد هذه السورة أن شرف الإنسان وعزه وعلو مقامه إنما يكون بقربه من الله، فليس العز السلطة والجاه، وليس العز القوة والبطش، وليس العز المال والغنى، وإنما العز حقا وصدقا القرب من الله، فمن اقترب من الله عز وجل فإن الله يرفعه في الدنيا والآخرة، ويكون كريما في الدنيا ولو ابتلي هو أكرم من غيره، ويكون مكرما في الآخرة عند البعث يكون مؤمنا، وعند الجزاء يكون من أهل الجنة، وعلى المؤمن أن يدرك هذه الحقيقة فيسعى في قربه من الله عز وجل.

كثير من الناس يقيمون الناس خطأ ويظهر هذا تماما عندما يتقدم رجل لخطبة امرأة، فإن بعض الناس ينظرون إلى الجاه، وبعض الناس ينظرون إلى المال والوظيفة، وهذا ليس هو التقييم الصحيح وإنما التقييم الصحيح هو الميزان الشرعي ((**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه**))، كلما كان العبد أقرب إلى الله وأقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحسن الخلق كان أعز وأكرم وأشرف، ويشرف الإنسان بالقرب منه، ولذلك ينبغي على العبد أن يحرص على أن يكون من الصالحين وعلى أن يكون مع الصالحين، أن يكون من الصالحين فيحرص على أن يكون قريبا من الله متقربا إلى الله، لكي يكون عزيزا رفيع المقام، وليكون مع الصالحين فإنهم أهل العزة والرفعة وعلو المقام.

سورة العلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5) ﴾.

هذه السورة التي هذا الجزء منها -وهو أولها- أول ما نزل من القرآن، نزل في غار حراء أول، ما نزل من القرآن هي هذه الآيات الخمس في أول هذه السورة، فيها يأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا لذلك بأن يقرأ مستعينا بربه ومتبركا باسمه: أن يقرأ باسم ربه، وربه سبحانه هو الذي خلقه ورباه بالنعم ويدله على القيم، وهو سبحانه الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ومِن أكرم خلقه الإنسان الذي خلقه ربه من علق: من دم غليظ يعلق في الرحم.

ثم كرر الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالقراءة، وذكر له أن ربه الذي رباه بالنعم ودبر أجساد بني آدم يدلهم على تربية أرواحهم، وعلى إصلاح قلوبهم وأنفسهم بإنزال الكتب على الرسل، وخيرُها ما ابتدأ نزوله عند هذه الآيات وهو القرآن، فهو سبحانه الرب الأكرم المتصف بكمال الكرم، ومن كمال كرمه أنه كرّم الإنسان بأن جعله قابلا للعلم، من كرمه وعظيم كرمه سبحانه أنه كرم الإنسان فجعله قابلا للعلم، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وعلمه القراءة والكتابة التي هي طريق ضبط العلم وتحصيل العلم، ومن كرمه سبحانه أنه أنعم على الإنسان بالقلم الذي يكتب به العلم، والقلم نعمة عظمى على الإنسان لولا أن الله أكرم الناس بأن أنعم عليهم بالقلم لضاع علمهم، فتلك نعمة عظمى.

فهذا هو التفسير الإجمالي لهذا القسم الأول لهذه السورة ثم نعود لما كتبه الشيخ عبد الرحمن بن سعدي فنقرأ ونعلق عليه.

قال رحمة الله عليه: هذه السورة أول السور القرآنية نزولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ فامتنع وقال: ما أنا بقارئ، فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

في حديث عائشة رضي الله عنها ((أن **الحق جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو متعبد في غار حراء، فجاءه الملك وهو جبريل عليه السلام فقال: اقرأ. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارئ**))، ليس رفضا وإنما يخبر عن حاله أنه لا يقرأ، النبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب، قال: ((**ما أنا بقارئ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: فأخذني وغطني حتى بلغ مني الجهد**))، ضمه ضما شديدا، ((**ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (5)﴾**، وهذا الحديث متفق عليه، فكان أول ما سمعه النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي هذه الآيات الخمس.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ عموم الخلق.

عموم الخلق، من أين أخذنا هذا العموم؟

من حذف المتعلق، فإن الله عز وجل قال: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** خلق ماذا ما ذكره، وهذا يدل على العموم، فالله سبحانه خالق كل شيء سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: ثم خص الإنسان وذكر ابتداء خلقه من علق.

فهذا من أعظم ما خلقه الله، وفي خلقه آيات عجيبة تقدمت في تفسير السور السابقة، ومن تلك الآيات أنه يُخلق في الرحم بأن يكون علقة، والعلقة هي الدم الغليظ الذي يعلق بالرحم.

ولذلك قال العلماء: الإنسان خلق من دم، ويحيى بالدم، لا حياة له إلا بالدم، وهذا جزء من خلق الإنسان، الإنسان خلق من نطفة هذا الجزء الأول، وخلق من علق وهذا جزء من خلق الإنسان، وفي هذا آيات عجيبة عظيمة.

قال رحمه الله فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره لابد أن يدبره بالأمر والنهي وذلك بإرسال الرسل وإنزال الكتب، ولهذا أتى بعد الأمر بالقراءة بخلقه للإنسان.

ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان واسع الجود الذي من كرمه أن علم أنواع العلوم.

(اقرأ) الثانية **قال بعض العلماء**: هي تكرار لـ **(اقرأ)** الأولى تأكيدا، والمقصود: اقرأ القرآن أصلا والعلوم فرعا.

والقراءة لا يشترط أن تكون بمعرفة الحروف، ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ولكنه لا يعرف الحروف صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء: **(اقرأ)** الثانية غير الأولى، فـ **(اقرأ)** الأولى: أي: أنظر في آيات الله الكونية وأموره القدرية، فهي أقرب إلى العلم قراءة أقرب إلى العلم، واقرأ الثانية؛ أي: اقرأ القرآن.

والظاهر والله أعلم أنهما بمعنى واحد.

وعلم بالقلم، ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئا، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم، علمه القرآن وعلمه الحكمة وعلمه بالقلم الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلا للناس تنوب مناب خطابهم، فلله الحمد والمنة الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (7) إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ(8)﴾.

يخبر الله عز وجل في هذه الآيات أنه ما كان يليق بالإنسان بعد أن خلقه الله عز وجل في أحسن تقويم وأنعم عليه بالنعم أن يتجاوز الحد الذي وضعه له ربه والذي ينبغي أن يكون عليه، فإن جنس الإنسان يطغى ويتجاوز الحد بأن يكفر بربه، بل حق الإنسان العاقل أن يكون شاكرا لنعم ربه، ولكن هذا لا يكون من كثير من الناس، فإن كثيرا من الناس إذا رأوا أن الله أغناهم وأنعم عليهم يطغون ويتجاوزون الحد، ويظنون أنهم إنما حصلوا هذا بذكائهم وقدرتهم وعملهم.

ثم هدد الله عز وجل الطغاة بالكفر والعصيان أنهم راجعون إلى الله ومحاسبون على ما يعملون.

فهذا هو المعنى الإجمالي الإيماني الموضوعي لهذه الآيات.

قال رحمه الله: ولكن الإنسان لجهله وظلمه إذا رأى نفسه غنيا طغى وبغى وتجبر عن الهدى، ونسي أن لربه الرجعى ولم يخف الجزاء .

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ كلا هنا **قال بعض العلماء** معناها حقا ويقينا إن الإنسان ليطغى.

وقال بعض أهل العلم: معناها ما كان ينبغي للإنسان أن يطغى.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ﴾ الإنسان؛ أي: جنس الإنسان هذا حاله أنه يطغى إذا أُنعم عليه إلا من أكرمه الله بالإيمان، فإنه يعلم أنه أفقر الخلق إلى الله، وأنه لولا الله ما حصّل نعمة، ولولا الله ما تنعم بنعمة، فيزداد ذلا لله، ويزداد عبادة لله سبحانه وتعالى.

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (6) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ أن رأى ربه أغناه وجعله يستغني عن غيره بما أوتي من النعم، لكنه يطغى ولا يفكر في هذا، ويظن المسكين أنه إنما استغنى لنسبه أو لانتسابه لدولة ما، أو لشرفه أو نحو ذلك، فلا يشكر الله، فلا يقر بأن النعمة من الله، ولا يتحدث بهذا، ولا يعمل بالنعمة في إرضاء الله سبحانه وتعالى.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ هذا تهديد لمن طغى بأنه سيرجع إلى الله، وهناك لا طغيان ولكنه الجزاء والندم حيث لا ينفع الندم.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ (9) عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ (10) أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ (11) أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ (12)أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (13) أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ (14) كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ (15) نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ (16) فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18) كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ (19)﴾.

في هذه الآيات يخاطب الله عزوجل المخاطب: أرأيت أيها المخاطب ذلكم الكافر الذي طغى فكان فاسدا في نفسه وهو أبو جهل؛ لا يرضى بأن يهتدي غيره، فمع فساده في ذاته هو رافض أن يهتدي غيره، بل يتهدد نبينا العبد الصالح صلى الله عليه وسلم؛ لأنه عبد الله وحده وصلى لربه، ويزعم منتفخا متكبرا أنه سيطأ على رقبته عندما يجده ساجدا في

صلاته في المسجد الحرام.

ألم يعلم ذلك الطاغي المتجاوز الحد بأن الله يراه وقادر على أخذه فيخاف عاقبة ما يفعل؟!

أرأيت أيها المخاطب إن كان محمد صلى الله عليه وسلم على الهدى والاستقامة في ذاته، فهو صالح في ذاته صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر من حاله، أو كان آمرا الناس بالتقوى، كان آمرا الناس بالهدى والدين فهو صالح في نفسه، داع عباد الله إلى الصلاح، أيليق بعاقل أن ينهاه عن ذلك؟!

لكن هذا الكافر الطاغي المتكبر الفاسد مطموس البصيرة، مختوم على قلبه، أرأيت أيها المخاطب أن هذا الكافر الذي يتوعد رسولنا الصالح صلى الله عليه وسلم مكذب لرسولنا ولوحينا، معرض عن الحق كما هو حاله، ألم يوقن بما دلت عليه الأدلة المتلوة والأدلة المشاهدة من أن الله خلق الخلق ويراهم ويطلع عليهم ويقدر على أخذ الظلمة منهم.

كلا: ليس الأمر كما زعم ذلك الكافر الطاغية أنه قوي قادر على فعل ما يريد برسولنا صلى الله عليه وسلم، فإنه ليس كذلك بل هو من أضعف الخلق وإن لم ينته عن هذا لنأخذنه مجذوبا من مقدمة رأسه في الدنيا ويوم القيامة.

لئن لم ينته ذلك الكافر الباغي الفاسد المفسد عما يفعل لنأخذنه مجذوبا بشدة وإهانة من مقدمة رأسه في الدنيا بأن تختطفه الملائكة، ويوم القيامة بأن يجذب بمقدمة رأسه إلى النار، فإنه كذاب ومن كذبه زعمه أنه قادر على إهانة محمد صلى الله عليه وسلم، خاطئ يفعل القبائح عامدا، وقد كان يزعم أنه أقوى أهل مكة وأكثر أهل مكة أتباعا، وأن قومه أقوياء كثيرون، وأنه سيدعوهم للنيل من محمد صلى الله عليه وسلم، فتوعده الله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ (17) سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ (18)﴾ ملائكة النار لتأخذه وتختطفه قبل أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

وليس الأمر كما زعم، فإنه غير قادر على منع النبي صلى الله عليه وسلم، فلا تخف منه أيها النبي الكريم، ولا تلتفت لكلامه ولا تسمع منه، بل استمر مكثرا من الصلاة مكثرا من السجود متقربا إلى الله عز وجل، وأقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد فاستمر في صلاتك وسجودك ولا تلتفت إلى هذا الكافر الطاغي الباغي المهين.

هذا المعنى الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذا الجزء الأخير، ثم نرجع إلى ما ذكره الشيخ في التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: يقول الله لهذا المتمرد العاتي: أرأيت أيها الناهي للعبد إذا صلى، إن كان العبد المصلي على الهدى العلم بالحق والعمل به، أو أمر غيره بالتقوى.

روى مسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قالوا: نعم، قال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه فقيل له: مالك، فقال إن بيني وبينه لخندقا من نار وهولا وأجنحة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**لو دنى مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا**)). قال: ﴿**أَرَأَيْتَ إِن كَانَ**﴾ العبد المصلي الذي هو النبي صلى الله عليه وسلم.

﴿**عَلَى الْهُدَىٰ**﴾ فكان صالحا في نفسه.

﴿**أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ**﴾ (أو) هنا على بابها للتنويع، يعني أنه صالح في نفسه ومصلح لغيره بالدعوة إلى الحق صلى الله عليه وسلم.

قال: فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

أرأيت أيها المخاطب الصالح لسماع الخطاب.

أرأيت إن كذب الناهي بالحق وتولى عن الأمر.

فأعرض عن الحق.

أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ألم يعلم بأن الله يرى ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾.

(كلا) **هنا قال بعض أهل العلم**: بمعنى حقا ويقينا أنه إن لم ينته سيكون هذا.

وقال بعض أهل العلم: هي للردع والزجر، كلا هنا للردع والزجر.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما يقول ويفعل، ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾؛ أي: لنأخذن بناصيته أخذا عنيفا، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾؛ أي: كاذبة في قولها خاطئة في فعلها.

كاذبة كثيرة الكذب، والمقصود صاحبها، ومن كذبه ما قاله هنا.

خاطئة؛ أي: فاعلة للقبائح عن عمد، وفرق بين الخاطئ والمخطيء، المخطيء هو الذي يفعل الشيء بدون قصد، والخاطئ هو الذي يفعل الشيء عمدا، فهذا خاطئ وليس مخطئا يفعل القبائح عن عمد.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى: قوله: ﴿فَلْيَدْعُ﴾ هذا الذي حق عليه العذاب.

﴿نَادِيَهُ﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله ليعينوه على ما نزل به.

فليدع ناديه؛ أي: ليدع مجالسيه ومناصريه وقومه ليعينوه على ما نزل به من وعيد الله سبحانه وتعالى.

﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾؛ أي: خزنة جهنم لأخذه وعقوبته.

إن دعا ناديه متقويا بهم فإنا سندع الزبانية وهم خزنة جهنم ليأخذوه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ((**فوالله لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله**)) رواه الترمذي وصححه الألباني.

فلو أنه كما زعم دعا ناديه ليتقوى على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر الله الزبانية أن تتخطفه، ولكان قطعا في أيدي أولئك الملائكة.

فلينظر أي الفريقين أقوى وأقدر، فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

وأما حالة المنهي فأمره الله ألا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنهيه فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾؛ أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار.

﴿وَاسْجُدْ﴾ لربك، ﴿وَاقْتَرِب﴾) منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تدني من رضاه وتقرب منه، وهذا عام لكل ناه عن الخير ولكل منهي عنه، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة

وعذبه وآذاه

وبهذا يتم تفسير هذه السورة، ننبه على بعض فوائد هذه السورة العظمى وحكمها الكلية:

- فمن تلك الفوائد أن العلم والقراءة والكتابة من أعظم النعم على الناس، وأن الناس يشرفون بحسب منازلهم من العلم، وأن كتابة العلم من أعظم ما ينبغي أن يعتني به طالب العلم حتى يضبط العلم وحتى لا يتفلت عليه العلم.

- **والأمر الثاني**: أن الأصل في الإنسان الظلم والطغيان، لاسيما إذا كان في حال الرخاء وكان في نعم، ولا يسلم من هذا الحال الرديء إلا أهل الإيمان فإنهم يسلمون من حال الطغيان.

- **والأمر الثالث**: أن من أعظم الفساد نهي العبد الصالح عن عمل الصالحات بمختلف الحجج، فينبغي على المؤمن أن يربأ بنفسه من أن ينهى عبدا صالحا عن عمل صالح ثابت يعمله، ومن ذلك مثلا ما يقع من بعض الآباء من نهيهم أبناءهم عن إعفاء اللحى، فإذا رأى الوالد ابنه أعفى لحيته زجره عن هذا العمل ونهاه عن هذا العمل، وقال: لماذا تكون من المتشددين؟ وإن هذا تشدد، وهذا ما لا يليق بالمؤمن، فإن المعلوم المتيقن أن هذا من فعل النبي صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب ومن فعل الصحابة أجمعين رضوان الله عليهم، فكون الشاب يعفي لحيته فإن هذا من الخير والعمل الصالح، لو لم يكن ذلك واجبا، فكيف وقد علمنا بالأدلة الشرعية أن إعفاء اللحية واجب على الرجل، فينبغي على المؤمن أن يربأ بنفسه من أن ينهى عبدا صالحا يعمل بهذا العمل الصالح، إن كان قد ترك هذا الواجب بنفسه فلا ينبغي أن يضيف إلى هذا سوءا بأن ينهى عبدا صالحا عن هذا العمل الصالح.

ومن ذلك أيضا أن بعض الآباء إذا رأوا أبناءهم الذكور يحرصون على الصلاة في المسجد نهوهم عن ذلك، وقالوا: لا حاجة للمسجد، لماذا هذا التشدد؟ صلي كما نصلي في البيت ولا تذهب إلى المسجد، فينهون عبدا صالحا عن عمل صالح لا شك فيه بإجماع العلماء، وإن كان العلماء قد اختلفوا هل هو مستحب أو واجب والراجح أنه واجب، لكن العلماء مجمعون على أنه عمل صالح.

فينبغي على كل مؤمن أن يربأ بنفسه من هذا الإفساد العظيم، وهو نهي العبد الصالح عن العمل الصالح الثابت الذي يزيده قربا من الله عز وجل بمختلف الحجج.

- **الأمر الرابع:** أن من أعظم صلاح العبد في نفسه أن يكون من المصلين، فمن أعظم أمارات صلاح العبد أن تجده من المصلين، معهم من الراكعين ومنهم، تجده حريصا على صلاته، فهذا من أعظم الصلاح ومن أعظم أمارات وعلامات صلاح العبد.

- **والأمر الخامس**: أن الخير للعبد المؤمن أن يكون صالحا في نفسه حريصا على إصلاح غيره ما أمكنه، فيحرص على الصلاح، ويحرص على أن يأمر غيره بالتقوى فإن هذا من أعظم المنازل وأشرفها وأكرمها وأعلاها وأحلاها وأجلاها، فما أحلى من أن يقوم المؤمن بالصلاح في نفسه، وأن يحرص على إصلاح غيره، ولاسيما الأقارب ممن يكونون حوله من أصوله وفروعه وحواشيه، فإن هذا من أعظم صلة الرحم، من أعظم صلة الرحم أن تحرص على إهداء رحمك الإرشاد إلى الأعمال الصالحة والنهي عن المخالفات الشرعية بأسلوب لين رقيق وبأسلوب يناسب من تخاطبه.

الأمر الأخير: أن الله عز وجل ينصر أولياءه ويحفظ عباده الصالحين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، فإن مكر بهم أعداؤهم مكر الله بأعدائهم، والله خير الماكرين، وإن سعى جهال في الطعن فيهم وإسقاطهم عن منازلهم الشرعية حسدا من عند أنفسهم أو حرصا على إبقاء ما يعتقدون في الساحة؛ لأن ذلك الخيّر يفسد عليهم مآربهم، فإن الله عز وجل يدافع عن الذين آمنوا ويحفظ الذين آمنوا، فلا ينبغي للعبد الخير الصالح إن علم أن الذي هو عليه خير أن يخاف من أحد أو يخشى من مكر أحد، فإن الله عز وجل يحفظ أولياءه، وإذا كان الذي بينك وبين الله عامرا وكنت على طريق صحيحة فاطمئن وتوكل على الله، والزم الحق الذي أنت عليه، ولا تلتفتن إلى خوف من أحد.

إن من المصائب أن يترك المسلم خيرا يعلمه لإرهاب أحد له أو لخوف من مكر أحد أن يمكر به هنا أو هناك، فكن على يقين وتوكل على الله واعلم أن الله يحفظ أولياءه، وأن الله يحفظ عباده الصالحين من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون.

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (1) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (2) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (3) تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ (4) سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ (5)﴾.

هذه السورة المدنية عند أكثر المفسرين -والتي قال بعض العلماء إنها أول سورة نزلت بالمدينة- يخبر الله فيها بأمور عظيمة وبشارات كريمة، يخبر الله فيها أنه سبحانه وتعالى أنزل القرآن في ليلة القدر، فابتدأ نزوله في تلك الليلة المباركة في شهر رمضان المبارك الذي أنزل فيه القرآن، وهي في ثلثه الأخير، تلك الليلة الشريفة التي هي ليلة الحكم والتفصيل والتقدير، ففيها يفرق كل أمر حكيم، فيها يقدر الله عز وجل مقادير السنة التي تليها، ويُعلم الملائكة بذلك، فشأنها شأن عظيم، وهي ليلة ذات قدر وشرف عظيم وفضل كريم.

وهي ليلة قليلة الزمن فإنها ليلة في العام، وإن ساعاتها سريعة الانصرام، وعظم الله شأنها بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ فما أشعرك وما أعلمك ما ليلة القدر، إن شأنها عظيم، ومنزلتها جليلة، وثمارها مباركة، ومن عظم شأنها أنها خير للمؤمن من ألف شهر، فهي تساوي في فضلها وأجورها وخيراتها وبركاتها للمؤمن ثلاثا وثمانين سنة وثلثا، فمن أكرمه الله عز وجل بإحسان العمل فيها كان كأنه قد عمل في ثلاث وثمانين سنة وثلث السنة من حيث ما يحصل له من الأجور ومن حيث ما يحصل له من الخيرات والبركات، ففيها خير كثير للمؤمن لا يوجد مثله في ألف شهر بل تزيد، ليس منهن أو ليس فيهن ليلة القدر.

فعمل المؤمن إيمانا واحتسابا خير له من العمل في ألف شهر ليس فيهن ليلة القدر.

ومن فضلها وشرفها ولفضلها وشرفها تهبط الملائكة من السماء إلى الأرض أفواجا أفواجا في تلك الليلة، ويؤمّنون على دعاء الناس، ويحفظون العباد في تلك الليلة، ومعهم أفضلهم وأشرفهم جبريل عليه السلام، ونزولهم بأمر ربهم سبحانه وتعالى، ينزلون بكل أمر فيه خير للمؤمنين، وقد أبهم هذا الخير فهو مطلق عام يشمل أنواع الخيرات.

تلكم الله الليلة المباركة سالمة للمؤمن من الأذى، فلا يصيبه فيها إلا خير، حتى إن كتب الله عليه بلاء في تلك الليلة فهو خير لا مصيبة، فهي سالمة من كل خير، والمسلم يسلم فيها من وسوسة الشياطين كبارهم وصغارهم، وهي سلام فيكثر فيها السلام، يسلم الملائكة على المؤمنين، ويسلم الملائكة بعضهم على بعض.

تلكم الليلة من أول دخول الليل بدخول المغرب حتى يطلع الفجر كلها خير وبركة وسلام للمؤمنين.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه الآيات العظيمات المليئة بالبشارات للمؤمنين والمؤمنات.

قال رحمه الله تعالى: يقول تعالى مبينا لفضل القرآن وعلو قدره: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.

يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ فالله عز وجل يعظم نفسه وهو العظيم سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ الضمير هنا يعود إلى القرآن مع أنه لم يسبق له ذكر في السورة، وذلك جائز؛ لأنه معلوم، فإنه لا يمتري أحد ولا يرتاب مسلم عندما يسمع هذه الآيات في أن المقصود هو القرآن، فلما كان معلوما بلا مرية ولا ريب ولا شك جاز أن يعبر عنه بالضمير مع عدم سبقه.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ﴾ مباركة، وذلك أن الله ابتدأ بإنزال القرآن في رمضان في ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة لا يقدر العباد لها شكرا.

هذا القول الأظهر والله أعلم في معنى قول الله عز وجل ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، فإن المعلوم أن القرآن نزل على محمد صلى الله عليه وسلم منجما في ثلاث وعشرين سنة، فما معنى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾؟

للعلماء قولان:

القول الأول: إن المعنى إنا ابتدأنا إنزاله على نبينا صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر، ثم توالى إنزاله على محمد صلى الله عليه وسلم.

والقول الثاني: إن المراد أنه أنزل من اللوح المحفوظ جملة إلى السماء الدنيا وذلك في ليلة القدر، وقد جاءت رواية صحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما بهذا أن القرآن أنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة واحدة في ليلة القدر، ثم نزل به جبريل عليه السلام منجما.

ويمكن أن يكون المراد من الآية الأمرين، فيكون القرآن أُنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا جملة في ليلة القدر، ثم تكلم ربنا بالقرآن وسمعه جبريل من ربنا ونزل به منجما بأمر الله سبحانه وتعالى، وابتدأ نزول جبريل على نبينا صلى الله عليه وسلم بكلام الله الذي تكلم الله به حقيقة وسمعه منه جبريل عليه السلام في ليلة القدر، فنزل بما أمر به في تلك الليلة على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو الذي قدمنا في المجلس السابق أنه الآيات الخمسة الأول من سورة العلق، فنزل بها جبريل عليه السلام في ليلة القدر، فلا تنافي بين المعنيين والله أعلم.

قال رحمه الله: وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله.

كما يقال لفلان قدر؛ أي: له فضل ومنزلة عالية.

قال: ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

فهي من التقدير، وهو الحكم والتفصيل.

وقال بعض العلماء: سميت بذلك لأن للطاعات فيها قدرا كبيرا وأجرا كثيرا، فسميت ليلة القدر من أجل ذلك.

وقال بعض المفسرين: سميت بذلك لأنه أنزل فيها القرآن فصارت ذات قدر من أجل ذلك، يعني: أنها صارت ذات شرف من أجل أنه أنزل فيها القرآن.

وقال بعض المفسرين: سميت بليلة القدر من القدر وهو التضييق؛ لأنها ليلة ضيقة في وقتها، فهي ليلة من ليالي العام، وساعاتها تمر سريعا على المؤمنين، فهي ليلة ضيقة من هذا الوجه.

وقال بعض المفسرين: إنها سميت بذلك من القدر الذي هو التضييق، ولكن لأن الأرض تضيق بساكنيها في تلك الليلة؛ لأن الملائكة يتنزلون في تلك الليلة إلى الأرض، فتمتلئ الأرض بالملائكة، فتضيق الأرض في تلك الليلة.

ولا مانع من الجميع، فإن القرآن حمال أوجه، وما دام أن الأوجه المذكورة محتملة ولا تدافع بينها فإن الآية تحمل على جميعها، فليلة القدر من القدر بمعنى الشرف على الأوجه التي ذكرناها، ومن القدر بمعنى التقدير، ومن القدر بمعنى التضييق، كلها مرادة في هذه الآية.

قال رحمه الله: ثم فخم شأنها وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾؛ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.

قال العلماء: هذا التكرار والذي يبدأ بقوله تعالى: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** إنما هو للتعظيم والتفخيم، فحيثما وجدت في القرآن **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** فهذا تعظيم وتفخيم، فعظم الله شأنها بقوله سبحانه: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾**.

ومعنى **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** ما أعلمك وما أشعرك بفضل ليلة القدر؟ وذلك يدل على أن فضل ليلة القدر كان مخبوءا، فلم يكن يعلم به أحد، ثم أعلم الله به نبينا صلى الله عليه وسلم تكريما لهذه الأمة وتشريفا لهذه الأمة. فتلك الليلة كانت مخبوءة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، كما أن يوم الجمعة كان مخبوءا لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فقول ربنا: **﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾** مشعر بهذا.

وقد قال العلماء: كل ما قال الله فيه وما أدراك لم يكن معلوما ثم صار معلوما وبينه الله سبحانه وتعالى.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾؛ أي: تعادل من فضلها ألف شهر فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر خالية منها، وهذا مما تتحير فيه الألباب وتندهش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر عمر رجل معمر عمرا طويلا نيفا وثمانين سنة.

لما كانت أعمار هذه الأمة قصيرة بالنسبة للأمم فكانت أعمار أمة محمد صلى الله عليه

وسلم ما بين الستين إلى السبعين وقل من يجوز منهم ذلك، أنعم الله على الأمة بأعمار إلى أعمارها، فكانت ليلة القدر تساوي ما يزيد على عمر المسلم في الغالب، وهي ليلة واحدة في كل سنة، فإذا كان الإنسان منذ أن بلغ في الخامسة عشر مثلا وعاش إلى خمس وثمانين سنة فإنه يكون في سبعين سنة في كل سنة يجد ليلة تساوي ما يقرب من عمره خمس وثمانين سنة، اضرب هذا في سبعين على المثال الذي ذكرناه، فكم يكون كأنه قد عاش؟ عاش طويلا من جهة البركة والأجور والخيرات.

أنتم يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم أمة مرحومة، قد وسع الله لكم أبواب الجنة وأبواب الخيرات والحسنات، ولذلك لا يهلك على الله إلا هالك، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى**))؛ لأن الله عزوجل قد وسع أبواب الخير لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، في كل سنة لك ليلة لو اجتهدت في عشر ليال اجتهادا طيبا فإنك تفوز بتلك الليلة، هذه الليلة التي هي في العشر الأواخر من رمضان إذا اجتهدت كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يجتهد من أول دخول العشر إلى أن تخرج العشر فقد أصبت ليلة القدر علمت أو لم تعلم، وإذا أصبت ليلة القدر فقد فزت بأجور ثلاث وثمانين سنة وثلث، فإذا أصبت ذلك في سنة وسنة وسنة كم من الحسنات العظيمة تحصل، لكن التقصير يحصل من العباد، وإلا ففضل الله على هذه الأمة عظيم، ورحمة الله لهذه الأمة عظيمة.

وقال بعض المفسرين: المراد بالألف شهر الدهر كله، وليس المراد الألف شهر بخصوصها، قالوا: وهذه عادة العرب إذا أرادت أن تعبر عن الدهر عبرت بالألف، ﴿**يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [البقرة: 96] ليس المقصود أنه يريد أن يعمر ألف سنة، ؛ يريد أن يعمر الدهر كله، يريد أن يخلد، فقالوا عادة العرب إذا أرادوا أن يعبروا عن الدهر عبروا بالألف، فهنا المراد باللأف هو الدهر، فهذه الليلة خير للعبد من أن يعيش الدهر كله بليلة هي لية من رمضان، وهذا عظيم فضل الله على الأمة.

وإن كان الظاهر من اللفظ هو الأول، وهو أن تلك الليلة تساوي ما يزيد على ثلاث وثمانين سنة وثلث في الخيرات والبركات ليس فيهن ليلة القدر.

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾: أي: يكثر نزولهم فيها.

﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾: أي: تهبط الملائكة من السماء شيئا فشيئا، هذا الذي يدل عليه التنزل، فإنها تتنزل؛ أي: تهبط فوجا فوجا، وذلك لكثرة الملائكة عليهم السلام.

﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ هو جبريل عليه السلام أفضل الملائكة، كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل البشر وسيد ولد آدم أجمعين، فإن جبريل عليه السلام أفضل الملائكة، وقد كان سيد البشر يحب لقاء سيد الملائكة، كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو سيد ولد آدم أجمعين يحب لقاء جبريل عليه السلام وهو أشرف الملائكة.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَالرُّوحُ﴾ صنف من الملائكة هم أفضل الملائكة وأشرف الملائكة وأقربهم إلى الله، يعني قالوا: الروح هنا ليس المراد به جبريل عليه السلام، وإنما هم صنف من الملائكة هم أشرف الملائكة، وهم أقرب الملائكة إلى الله، فمن شرف تلك الليلة أن أشرف الملائكة وأقرب الملائكة إلى الله ينزلون إلى الأرض في تلك الليلة.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَالرُّوحُ﴾ هم جنود الملائكة الذين ينصر الله بهم أولياءه، فهم الجنود من الملائكة.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَالرُّوحُ﴾ هنا هي الرحمة؛ أي: تنزل الملائكة بالرحمة على عباد الله، ولا شك أن الملائكة في ليلة القدر تتنزل بالرحمة على عباد الله.

لكن الأظهر والله أعلم أن المراد بالروح هنا جبريل عليه السلام، فقد سمي جبريل عليه السلام بالروح في عدد من الآيات، فهذا هو الأظهر، فيكون جبريل عليه السلام ذكر في الآية مرتين، كيف؟

ذكر أولا في قول الله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فإن جبريل عليه السلام من الملائكة، ثم ذكر خصوصا في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾: أي: بأمر ربهم سبحانه وتعالى.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قال العلماء: (من) هنا بمعنى الباء؛ أي: بكل أمر أمر الله به لعباده في تلك الليلة من الخيرات والبركات مما لا يقدر قدره إلا الله سبحانه وتعالى، وهو هنا مبهم، فهو قدر زائد على ما علمناه من فضل ليلة القدر.

﴿سَلَامٌ هِيَ﴾: أي: سالمة من كل آفة وشر وذلك لكثرة خيرها.

وقال بعض العلماء: **﴿سَلَامٌ هِيَ﴾**: أي: أنها سالمة من كيد الشياطين، فلا كيد للشياطين في تلك الليلة.

وقال بعض المفسرين: أي: سلام من الملائكة على الناس، فهي ليلة السلام يكثر فيها التسليم من الملائكة على عباد الله المؤمنين.

وقال بعض المفسرين: **﴿سَلَامٌ﴾**: أي: سلام الملائكة على بعضهم حيث يلتقون عند نزولهم، فيسلم بعضهم على بعض، وهم من الكثرة بمكان في تلك الليلة فلا تخلو لحظة من لحظات تلك الليلة من سلام.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾: أي: مبتداها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر.

فبركاتها وخيراتها من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

قال: وقد تواترت الأحاديث في فضلها وأنها في رمضان وفي العشر الأواخر منه خصوصا في أوتاره، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر والله أعلم.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**من قام ليلة القدر إيماناً و احتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**)) متفق عليه، فمن قام ليلة القدر إيمانا بالله وإيمانا بفضل تلك الليلة، واحتساباً لذلك الأجر موقنا بذلك فإن الله يغفر له ما تقدم من ذنبه.

وقد جاء عن أبي سعيد الخدري أنه قال: ((**اعتكف النبي صلى الله عليه وسلم العشر الأول من رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إن الذي تطلب أمامك**))؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطلب بالاعتكاف ليلة القدر، ((**فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأواسط واعتكفنا معه، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: إن الذي تطلب أمامك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنها في العشر الأواخر في وتر**)) رواه البخاري في الصحيح.

فدل ذلك دلالة بينة على أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، فالله من رحمته بهذه الأمة دلها على أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان؛ لأنها لو أبهمت في العام

لقل طلابها وقل المجتهدون فيها، فلما علمنا أنها ليلة من عشر ليال سهل على الناس أن يجتهدوا في هذه العشر وأن يطلبوها.

ثم إن الله أبهم في أي ليلة من العشر وأطمع في كل ليلة، فإذا نظرت إلى الأدلة تجد أن هناك أدلة تطمعك في كل ليلة من ليال العشر أنها هي ليلة القدر، فإذا خلفت ليلتين من العشر الأواخر جاءك ما يطمعك أنها في ليلة ثلاث وعشرين، فإذا خلفت أربع ليال من العشر الأواخر جاءك ما يطمعك أنها في ليلة خمس وعشرين، فإذا خلفت ست ليال من العشر الأواخر جاءك ما يطمعك أنها في ليلة سبع وعشرين، فإذا خلفت ثمان ليال من العشر الأواخر جاءك ما يطمعك أنها في ليلة تسع وعشرين أو في آخر ليلة من رمضان، فلا تزال تترقى في طمع ما دمت في العشر الأواخر، لماذا أبهم الله هذه الليلة ولم يعينها لنا؟

قالوا رحمة بنا:

أولا: ليتميز الصادق في طلبها، فإنها إذا كانت في عشر ليال تبين الصادق المجد الذي يحرص على طلبها باجتهاده في العشر.

والأمر الثاني: لتزداد أجور المؤمنين، فإنا إذا عملنا في العشر كلها أصبنا ليلة القدر ونلنا ثواب الاجتهاد في بقية الليالي، أصبنا أجر فضل ليلة القدر وأجور ليلة القدر، وزادنا الله خيرا فوق هذا وهو أجور الاجتهاد في بقية الليالي.

وبهذا يدرك المؤمن عظم رحمة الله بهذه الأمة، وعظم فضل الله عليه، فينبغي علينا أيها الإخوة أن نحمد الله حمدا كثيرا أن جعلنا مسلمين من أتباع محمد صلّى الله عليه وسلم، أن جعلنا من هذه الأمة المرحومة، وأن نغتنم الأوقات الفاضلة في ما يقربنا إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الإنسان يا إخوة إذا جلس مجلسا لم يذكر الله فيه يندم يوم القيامة، ويكون هذا المجلس ترة عليه يوم القيامة، وإذا كان يندم على سجدة تركها لم يسجدها لله مع قدرته، فكيف بالتفريط في الأوقات الفاضلة؟! كيف بمن يفرط في ليلة القدر ولا يجتهد في العشر الأواخر ليصيبها؟! لا شك أنه سيندم ندما عظيما على هذا التفريط، فلا ينبغي للمؤمن أن يعرض نفسه للندم.

وبهذا نختم تفسير هذه السورة القصيرة العظيمة التي فيها البشارات الكريمة، وأما الحكم الكبرى والفوائد الكلية فهي في هذه السورة ظاهرة أهمها:

- أن هذه الأمة أمة مرحومة فتح الله لها السبل إلى الجنة، فينبغي على المؤمنين أن يحمدوا الله على هذا الفضل، وأن يغتنموا الأوقات الفاضلة.

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ (1) رَسُولٌ مَنَّ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ (3)﴾ [البينة: 1-3].

هذه السورة التي بين أيدينا لها عدة أسماء، فتسمى سورة البينة، وتسمى سورة لم يكن، وتسمى سورة القيمة، وتسمى سورة البرية، وتسمى سورة أهل الكتاب، وتسمى سورة الانفكاك، بكل هذه الأسماء سمى العلماء هذه السورة.

وهذه السورة عند جمهور العلماء مدنية، نزلت في هذه المدينة -في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم-، وفي الحديث ما يدل على ذلك ويؤكد أنها مدنية، فعند الشيخين البخاري ومسلم من حديث أنسٍ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بن كعب: ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فقال أبي: وسماني؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((نعم))، فبكى أبيٌّ رضي الله عنه، وعند أحمد من حديث أبي حبة البدري أنه لما نزلت: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إلى آخرها قال جبريل عليه السلام: ((يا رسول الله: إن الله يأمرك أن تقرئها أبيًّا)) الحديث، والحديث صحيحٌ لغيره.

فهذا الحديث عند الإمام أحمد يبين أن إقراء النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب هذه السورة كان عند نزولها بأمر الله عزوجل، والمعلوم أن أبي بن كعب من الأنصار فهو مدني؛ فيدل ذلك على أن هذه السورة مدنية.

وفي هذه الآيات التي سمعناها بيّن الله عزوجل أن الذين كفروا من اليهود والنصارى حيث حرفوا التوراة والإنجيل وأشركوا بالله، والمشركين من غيرهم بشتى مللهم من عبّاد الأصنام وعبّاد الكواكب وعباد النيران وغير ذلك لم يكونوا منتهين عن كفرهم وضلالهم حتى تأتيهم البينة التي تبين أن ما هم عليه باطل، وذلك بزعمهم.

حيث كانوا يقولون قبل بعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم: إذا بعث الله الرسول الخاتم فإنا نتبعه، ونترك ما نحن عليه، فأما اليهود والنصارى فإنهم كانوا يعلمون ذلك من كتبهم، وأما غيرهم فإنهم كانوا يعلمون ذلك من أخبار اليهود والنصارى، فكانوا يزعمون أنهم إذا جاءتهم البينة سيتركون الكفر وما هم عليه ويتبعون الرسول، أو أنهم لم يكونوا منتهين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة.

فلما أتتهم البينة تفرقوا في ذلك، فمنهم من انتهى عن الكفر وآمن، ومنهم من كفر عنادا وجحودا بعد أن تبين له الحق بالبينة واستيقنت نفسه الحق.

كما أنهم لم يكونوا متفرقين في شأن محمدٍ صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، بل كانوا يصفونه بالصادق الأمين، فلما بُعث صلى الله عليه وسلم تفرقوا فيه، فصدقه قومٌ وقالوا: إنه صادق صلى الله عليه وسلم وآمنوا به، وكذبه قوم منهم وكفروا به، ووصفوه بعكس ما كانوا يصفونه قبل بعثته.

وتلكم البينة الموضحة للحق المظهرة للحق الدامغة للباطل هي محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يتلو على الناس والجن القرآن من حفظه، فلم يكن صلى الله عليه وسلم قارئا ولا كاتبا.

والقرآن كلام الله كان في صحفٍ مكرمة مرفوعةٍ مطهرة بأيدي سفرة كرامٍ بررة، وذلك قبل نزوله إلى محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ثم سيصير مجموعا في صحفٍ مطهرة من كل تبديلٍ ومن كل نقصٍ ومن كل باطل.

تلك الصحف مكتوبٌ فيها الحق العادل، والطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ومن التزمه وصل إلى المطلوب ونجا من المرغوب؛ فالقرآن كلام الله عز وجل فيه بيان كل شيء، ما من خيرٍ إلا وهو مركوزٌ في كتاب ربنا سبحانه وتعالى، وما من شرٍّ إلا وحذّرنا منه في كتاب ربنا سبحانه وتعالى على سبيل التفصيل أو على سبيل الإجمال.

هذا هو المعنى الموضوعي الإجمالي لهذه الآيات، ونعود إلى المعنى التفصيلي لها فنقرأ من كتاب تفسير الشيخ السعدي رحمه الله ونعلق على ما يحتاج إلى تعليق.

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: يقول تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، أي: من اليهود والنصارى.

اليهود والنصارى من حيث الإيمان والكفر على ثلاثة أقسام:

1. قسمٌ آمنوا برسولهم الذي بعث إليهم وآمنوا بكتابه، فهؤلاء مسلمون على دينٍ صحيح.
2. وقسمٌ حرَّفوا التوراة والإنجيل، وزعموا أن لله ابنًا، وأشركوا بالله ما لم ينزِّل به سلطانًا، فبدَّلوا وغيروا وأشركوا، وهؤلاء كفَّار.
3. والقسم الثالث: كل يهوديٍّ أو نصراني سمع بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم فلم يؤمن به، فهذا كافرٌ من أهل النار.

والمقصودون بِ ﴿**الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**﴾ هم أهل القسم الثاني والثالث فهم كفارٌ من أهل النار.

﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

المشركون من سائر أصناف الأمم غير أهل الكتاب؛ سواء من كانوا يعبدون النيران، أو يعبدون الكواكب، أو يعبدون الأصنام، أو يعبدون الأحجار، أو يعبدون البقر، أو غير ذلك فكلهم مشركون بالله سبحانه وتعالى.

﴿مُنْفَكِّينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه؛ أي: لا يزالون في غيِّهم وضلالهم لا يزيدهم مرور الأوقات إلا كفرًا.

﴿**مُنْفَكِّينَ**﴾ **قال بعض المفسرين**: أي: منتهين عن كفرهم وضلالهم بحسب زعمهم هم، حيث كانوا يقولون: لن نترك ما نحن عليه حتى يُبعث لنا الرسول الخاتم، فإذا بعث اتبعناه.

فمعنى ﴿**مُنْفَكِّينَ**﴾: أي: منتهين عن الكفر والضلال بحسب زعمهم.

وقال بعض أهل العلم: بل المعنى منتهين عن الكفر والضلال بحسب حقيقة حالهم، لكن منهم من سلَّم للبيِّنة وأسلم، ومنهم من بان له الحق لكنه عاند وكابر وجحد، فتفرَّقوا من بعد ما جاءتهم البينة.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾؛ أي: منتهين عن الاجتماع على الكفر، فهم كانوا قبل بعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم مجتمعين على الكفر والشرك، فلمَّا بعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم تفرقوا، فمنهم من آمن ومنهم من كفر.

وقال بعض المفسرين: معنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾ متروكين من غير إقامة الحجة عليهم، فلم يكن الله عز وجل ليتركهم سدى، بل يرسل إليهم رسولًا ويقيم عليهم الحجة.

وقال بعض المفسرين: هذه الآية المراد منها توبيخهم، والتعجب من حالهم كيف أنه قد جاءتهم البينة التي تقتضي منهم ترك الكفر، ومع ذلك أبى أكثرهم إلا كفورا، فهذا توبيخ لهم؛ لأنهم تركوا الحق المبين، ولزموا الكفر، والذي يقتضيه المقام والحجة والعقل والفطرة أن يتركوا ذلك الكفر إلى الإسلام بتلك البينة العظيمة المظهرة للحق والدامغة للباطل.

وقال بعض المفسرين: معنى الآية: ﴿**لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ**﴾ وإن أتتهم البينة، فـ (حتى) هنا بمعنى (وإن)، وإن أتتهم البينة فإن أكثرهم يصر على الكفر ولا يترك الكفر.

وكل هذه المعاني تصلح لها الآية ولا تنافر بينها، فتحمل الآية على جميع هذه المعاني.

﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة والبرهان الساطع.

البينة: هي المظهرة للحق، كل ما يظهر الحق يسمى بينة، ولذلك في الحديث: ((**البينة على المدعي**))؛ فسمى الشهادة بينة؛ لأنها تظهر الحق، فالبينة هي المظهرة للحق، وهي هنا واضحة دامغة قاطعة تظهر الحق وتعليه، وتدمغ الباطل وتكشفه وتعريه.

قال: ثم فسر تلك البينة فقال: ﴿رَسُولٌ مَنَّ اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاب يتلوه ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وهذا الرسول هو محمد صلى الله عليه وسلم أشرف الأنبياء والمرسلين وخاتم الأنبياء والمرسلين.

وُنكَّر هنا ﴿رَسُولٌ﴾ مع أنه معين للتعظيم -لتعظيم شأنه صلى الله عليه وسلم-؛ والتنكير يأتي للتعظيم.

وأيضًا فيه فائدة أخرى من التنكير هنا وهي عموم رسالته صلى الله عليه وسلم للجن والإنس، فهو صلى الله عليه وسلم رسول للناس جميعًا كما أنه رسول للجن، وهو صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، رحمة للجن ورحمة للإنس صلى الله عليه وسلم.

ولهذا قال: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ ؛ أي: محفوظة من قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون لأنها أعلى ما يكون من الكلام.

﴿**يَتْلُواْ**﴾ أي: يسمعهم ما فيها من حفظه صلى الله عليه وسلم.

﴿**صُحُفًا**﴾ ، طيب القرآن لم ينزل صحفا؛ نزل على النبي صلى الله عليه وسلم أنزله جبريل عليه السلام، جبريل سمعه من ربنا سبحانه وتعالى وأسمعه لنبينا صلى الله عليه وسلم، فقال المفسرون: المعنى أنه كان في صحف قبل نزوله، وسيصير إلى صحف بعد نزوله؛ فهو قبل نزوله كان في تلك الصحف التي بأيدي الملائكة، وبعد نزوله سيجمع في صحف وهو اليوم بين أيدينا في صحف، نقرأه كأنما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

فالمقصود بالصحف هنا الصحف قبل النزول وهي التي في أيدي الملائكة، والصحف بعد نزوله حيث جمع فيها في زمن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

وهذه الصحف ﴿**مُطَهَّرَة**﴾ ؛ فلا يقربها شياطين الجن ولا شياطين الإنس، فلا تبديل لما فيها ولا نقص، ولا يأتيها الباطل أبدا، بل هي محفوظة بحفظ الله سبحانه وتعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ**

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ؛ فهي مطهرة من كل دنس، مطهرة من التغيير والتبديل، ومطهرة من الباطل فليس فيها إلا الخير.

قال: ولهذا قال عنها ﴿فِيهَا﴾ أي: في تلك الصحف ﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم.

فإذا جاءتهن هذه البينة فحين إذن يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه. فيهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ؛ **قال العلماء**: **كتب** هنا بمعنى مكتوب؛ المكتوب فيها قيمة.

وقال بعض أهل العلم: معنى كتب هنا الأحكام من الكتْب وهو القضاء والحكم، فليس المراد بالكتب هنا الصحف؛ لأنه إذ ذاك يكون تكرارا ﴿**يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً (2) فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾: فلو كانت الكتب هنا بمعنى الصحف لكان ذلك تكرارا، والتأسيس أولى من التأكيد، والمعنى الجديد أولى من التكرار، **ولهذا قال العلماء**: المكتوب فيها قيم مستقيم عادل لا اعوجاج فيه.

وقال بعض أهل العلم: الذي فيها أحكام كتبها الله على بني آدم قيمة لا عوج فيها بل هي صراط مستقيم.

﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ (4) وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (5)﴾ [البينة: 4-5].

في هذه الآيات يبين الله عزوجل أن أهل الكتاب ومن كان تابعا لهم من المشركين إنما تفرقوا لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالبينة، فآمن به بعضهم، وكفر به آخرون، وخالفوا ما كانوا يزعمون من أنهم إذا بعث الرسول الخاتم سيتبعونه.

وكفرهم هذا إنما هو بعد بيان الحق، وتبيُّنِ الحق لهم، فهو كفر وجحود بعد أن تيقنوا الحق وعلموا الحق؛ بعد ما جاءتهم البينة الواضحة الظاهرة المظهرة للحق والقاسمة للباطل، وليس هذا بغريب على أهل الكتاب، فإنهم تفرقوا في دينهم الذي جاء به أنبياءهم

السابقون، وحرَّفوا وبدلوا واختلفوا وأشركوا بالله عز وجل، فتفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي: وما أمر الناس جميعا من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها على لسان جميع الأنبياء عليهم السلام إلا بالتوحيد الخالص المتفق مع الفطرة السوية؛ فما أرسل الله رسولا إلا أوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون، وكل أمة مأمورة بأن تعبد الله وحده وأن تجتنب الطاغوت، وما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم إلا بذلك، فما أمروا إلا بعبادة ربهم مخلصين له الدين ومائلين عن سائر الأديان إلى دين الإسلام وعن الشرك إلى التوحيد، وبإقامة الصلاة، فأمروا أن يعبدوا الله بأبدانهم، وأشرف عبادات البدن هي الصلاة، وبإيتاء الزكاة فأمروا أن يعبدوا الله بأموالهم، وأشرف عبادات المال هي الزكاة؛ ومن آمن وأقام الصلاة وآتى الزكاة فقد حافظ على دينه، وكان على بقية شرائع الدين أحرص.

وذلك الدين الذي أمروا به هو الدين القيم المستقيم، والملة العادلة القائمة، وهو دين الأمة الوسط المعتدلة المستقيمة على صراط الله سبحانه وتعالى، وهي بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم أمة محمد صلى الله عليه وسلم التي جعلها الله عز وجل أمة وسطا.

نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه الآيات.

قال رحمه الله: وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول وينقادوا له فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزابا إلا من بعد ما جاءتهم البينة التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق، ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالا ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد.

فإن قال قائل: لماذا قال الله عز وجل هنا: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ولم يذكر المشركين مع أنه سبحانه وتعالى قال في مفتتح السورة قال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ ؟

قال العلماء: لأن المشركين تبعٌ لأهل الكتاب في هذا؛ فإن أهل الكتاب كانوا يعرفون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم من كتبهم، وأما المشركون فكانوا يعرفون ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم من خلال أهل الكتاب؛ من خلال أخبار أهل الكتاب، فهم تبعٌ لهم، كما أن أهل الكتاب قد قامت عليهم الحُجَّة؛ ولذلك خُصُّوا بالذّكر هنا.

هنا بعض أهل العلم يقولون: هذه الآية مرتبطة بالآية الأولى، فيكون المعنى: لم يكن الّذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منتهين عن كفرهم حتّى تأتيهم البيّنة؛ وقد جاءتهم البَيِّنَة فهل انفكُّوا عن كفرهم؟ كان الجواب: لا؛ وإنما تفرّقوا؛ فمنهم مَن انفكّ عن الكفر، ومنهم مَن أصرّ على الكفر؛ فتكون هذه الآية مرتبطةً بالآية الأولى.

فما أمروا في سائر الشرائع.

﴿**وَمَا أُمِرُوا**﴾؛ أي: الناس جميعًا.

فما أُمِروا في سائر الشرائع ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه.

وهذا قد اتّفق عليه الأنبياء، وبدأ به الأنبياء جميعًا؛ الأنبياء عليهم السلام جميعًا في دعوتهم يبدأون بالدعوة إلى التوحيد؛ ولذلك كل دعوةٍ تخلو من تعظيم التوحيد والدعوة إلى التوحيد فهي ليست على سَنَن الأنبياء، وليست دعوةً شرعية، وليست دعوةً نافعةً ناجعة، مهما دعا الناس إلى الأخلاق وأغفلوا التوحيد؛ فإنهم لا يصنعون شيئًا، كل خيرٍ مفتاحه التوحيد؛ فإذا فُقِد المفتاح فلن يُفتح الخير.

دعوة الأنبياء جميعًا متّفقة على الدعوة إلى التوحيد، ومُفتتح دعوة الرسل جميعًا الدعوة إلى التوحيد، وحبيبنا ونبيّنا وإمامنا صلى الله عليه وسلم جاء إلى قومٍ مشركين؛ فدعاهم إلى التوحيد، وبدأ بدعوة التوحيد؛ فنفر أكثرهم، فلم يثنه ذلك عن الدعوة إلى التوحيد.

وكان يستطيع صلى الله عليه وسلم -لو كان هذا مشروعًا- أن يدعوهم إلى محاسن الأخلاق، وأن يؤخرّ الدعوة إلى التوحيد، والنبي صلى الله عليه وسلم هو الذي على الخُلُق

العظيم الكريم، ولو دعاهم إلى حُسن الأخلاق لأجابوا جميعًا، ولكنه صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى التوحيد.

فلما نفروا ثبت على الدعوة إلى التوحيد صلى الله عليه وسلم، ومَن يقتدي بالنبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ينبغي عليه أن يُعظّم شأن التوحيد، وأن يجعل دعوته مُفتتحةً بالتوحيد، وقائمةً على التوحيد مُقتديًا بنبيّه صلى الله عليه وسلم وبسائر الأنبياء عليهم السلام.

﴿حُنفاءَ﴾: أي: مُعرضين مائلين عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد.

إلى دين الإسلام، ومائلين عن الشرك إلى التوحيد؛ وهذا شأن أهل الاستقامة يميلون عن الشرك، وحيثما علم أحدهم أن الأمر شركٌ لم تدعه عادةٌ قديمة، ولا فعل الآباء والأمهات إلى التّمسّك بذلك الشرك؛ بل يبادر إلى التخلص من الشرك، والميل إلى توحيد رب العالمين سواءً كان ذلك من الشرك الأكبر أو كان من الشرك الأصغر.

وأضرب لكم مثالًا: إن بعض المسلمين نشأوا في بيئةٍ يُدعى فيها غير الله عزَّ وجلّ، ويُعبد أصحاب القبور، ويُنذر لهم، وتقدم إليهم القرابين؛ فإذا جاءت الحجّة، وبيّن أهل الحق أن هذا من الشرك الأكبر، وأن هذا يُغضب الله سبحانه وتعالى وبُيّن التوحيد؛ تجد المؤمن الراغب في الاستقامة يترك ما نشأ عليه ويهجره ويباعده إلى توحيد رب العالمين، وأما في الشرك الأصغر فهناك من المسلمين من نشأ على الحلف بغير الله كالحلف بالنبي، والحلف بالأمانة، والحلف برأس الأب، وبرأس الأم، فإذا بُيّن له أن هذا من الشرك والكفر وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**)) وإن كان هذا من الشرك الأصغر الذي لا يخرج من الملّة؛ فإنك تجده يترك هذا وينفر منه، ويلزم ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من التوحيد بالحلف بالله عزَّ وجلّ خاصّة، وعدم الحلف بغير الله سبحانه وتعالى.

قال رحمه الله: وخصّ الصّلاة والزّكاة بالذّكر مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعبُدُوا اللَّهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ﴾: لفضلهما وشرفهما وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

كما أشرنا خُصّت إقامة الصلاة بالذّكر مع أنها من عبادة الله؛ لأنها أشرف العبادات البدنية وخُصّت الزكاة بالذّكر مع أنها من عبادة الله؛ لأنها أشرف العبادات المالية.

والمعلوم أن ذكر الخاص بعد العام دليلٌ على الشرف، ﴿**تَنَزَّلُ الملائِكَةُ والرُّوحُ فيها**﴾ ؛ الروح: هو جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة، فذُكر بعد العام؛ وهذا دليلٌ على شرفه حيث ذُكر مرتين: ذُكر في العموم، ثم ذُكر بخصوصه.

وهنا إقامة الصلاة ذُكرت بعد ذكر عبادة الله؛ فذُكرت مرتين: ذُكرت في عبادة الله، وذُكرت في خصوصها، وكذلك إيتاء الزكاة.

والناس أعظم ما يُبتلون به هو في الصلاة وفي الزكاة؛ ففي العبادات البدنية يُبتلى الإنسان بالصلاة، وفي العبادات المالية يُبتلى الإنسان بالزكاة، ومَن قام بهما كان مقيمًا لدينه محافظًا على بقية الشرائع.

ومَن ضيّع الصلاة ضيّع دينه، ومَن ضيّع الزكاة لم يكن عابدًا الله في المال أبدًا من باب أولى.

﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: التوحيد هو الإخلاص في الدين، هو ﴿دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾؛ أي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرقٌ موصلةٌ إلى الجحيم.

﴿**دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ إذا فسّرناه على الظاهر هكذا: أن هذا من إضافة الدين إلى القيّمة تجد أن الهاء هنا زيدت؛ لأن الدين يُقال: الدين القيّم، دينٌ قيّم، الدِّين القيِّم، فلماذا زيدت الهاء هنا؟

قال العلماء: للمبالغة والمدح؛ الهاء زيادة للمدح والمبالغة فيه.

وبعض أهل العلم قال: هنا محذوف مُقدَّر تقديره (الأمة)؛ يعني دين الأمة القيِّمة المعتدلة الوسط القائمة بالحق.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ (٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) جَزَاؤُهُمْ عِندَ

رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (٨)﴾.

في هذه الآيات لما ذكر الله عز وجل تفرق الناس في الدين فيما تقدم من الآيات؛ حيث جاءت البينة الواضحة المظهرة للحق والدامغة للباطل، فتفرق الناس فيها، فمنهم من هدى الله فآمن واستقام، ومنهم من أعرض وكفر جحودًا وعنادًا، فانقسم الناس إلى مؤمنين وكفار، بين الله عز وجل في هذه الآيات حال أولئك الكفار وحال هؤلاء المؤمنين.

فالذين كفروا بمختلف مللهم في نار جهنم، في نار شديدة الحر، بعيدة القعر، سوداء مظلمة، ماكثين فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون، ولا يموتون فيرتاحون، فهم في عذاب دائم لا يزولون عنه، ولا يرجون الزوال عنه، ولا يخفف عنهم، ولا يألفونه فيخف عليهم، ولا يرجون موتا يرتاحون به من ذلك العذاب، وأولئك هم شر من خلق الله، فهم شر الخليقة حالا في الدنيا ومآلا في الآخرة، فهم في الحال في الدنيا بكفرهم أشر من الدواب، وكيف لا يكونون كذلك وقد ظلموا أشد الظلم، فالله عز وجل خلقهم ورباهم، وأقام لهم الآيات والبراهيم الساطعة على توحيده سبحانه وتعالى، وأرسل لهم الرسل، ومع ذلك أعرضوا وظلموا أعظم الظلم، وجعلوا لله ندا وهو خلقهم سبحانه وتعالى، وهم في مآلهم في الآخرة في أشر حالٍ، في ذلكم العذاب الذي بينه الله عز وجل.

وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم خير الخليقة في حالهم ومآلهم، المؤمن خير من خلق الله في حاله حيث عبد الله سبحانه وتعالى، ومهما كان حاله في الدنيا من فقرٍ أو مرضٍ أو نحو ذلك فهو من خير الخليقة، وأما في المآل في الآخرة فإن المؤمنين خير الخليقة حيث أن جزاءهم عند ربهم جنات عدن؛ جنات إقامة دائمة، تجري من تحتها الأنهار فتجري من تحت قصورها ومن تحت بساتينها الأنهار من ماء غير آسن، ومن لبنٍ ومن خمرٍ ومن عسل، وتجري أيضًا حيث شاء أهل الجنة؛ فتنتقل من مكان إلى مكان بحسب مشيئة أهل الجنة ورغبتهم، حيث لا أخاديد لها تخُدها، وذاك من تمام نعيم أهل الجنة، وهم في هذا النعيم خالدون أبدا فلا يحول عنهم النعيم ولا يحولون عنه، ولا يزول عنهم النعيم ولا يزولون عنه، ولا يملونه أبدا، بل كلما رزقوا نعيما كأنه جديدٌ عليهم مع مشابهته للنعيم الذي

قبله، فيرضون بجزائهم من ربهم، ويزداد رضاهم عن ربهم سبحانه وتعالى، ويزيدهم الله عز وجل نعيما، فيُحل عليهم رضوانه حيث يقول سبحانه وتعالى لأهل الجنة: يا أهل الجنة؛ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول سبحانه وتعالى: هل رضيتم؟ ما أرحم الله! وما أكرم الله سبحانه وتعالى! يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحدًا من خلقك، فيقول سبحانه: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، فيقولون مشتاقين لا منكرين: يا ربنا أي شيء أفضل من ذلك؟ هم مصدقون ما أخبرهم به ربهم، لكنهم اشتاقوا إلى معرفة ما هو أفضل من ذلك النعيم الذي هم فيه، فيقول سبحانه وتعالى: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا، فيعظم نعيمهم، ويتم نعيمهم حيث أنهم أمنوا من زوال ذلك النعيم، وأمنوا من زوالهم عن ذلك النعيم، فلا موت ولا فوت ولا ملل ولا خروج من الجنة، وأمنوا سخط المالك لذلك النعيم، فأعطوا رضوانه سبحانه وتعالى، فلا منغص لهم في نعيمهم، بل نعيمهم في الجنة نعيم تام.

وتلك الخيرية العظيمة والجزاء العظيم إنما هي لمن خشي ربه الذي خلقه ورباه بالنعم، وبعث له الرسل، فعلم شأن ربه وخاف خوفًا مقترنًا بالتعظيم والرهبة من الله عزوجل، فكان عالما خائفًا معظمًا راهبًا لربه سبحانه وتعالى، فكانت تلك الخشية دافعةً له إلى المسارعة في الخيرات، وكانت حصنًا منيعًا في قلبه عن الشهوات المحرمة والوقوع فيما حرم الله، وإذا زلّت القدم ووقع صاحبها فيما حرم الله دعته خشيته لربه إلى الرجوع إلى ربه والإنابة إلى ربه، والتوبة من ذنبه؛ فمن رزق الخشية رزق الجنّة.

وطريق هذه الخشية أن يتعلم المسلم وأن يتعرّف إلى ربه، وأن يعرف الله عزّوجل بأسمائه وصفاته وبآياته؛ فيثمر ذلك في قلبه خوفًا مقترنًا بتعظيم ربه سبحانه وتعالى، وبالرهبة من ربه سبحانه وتعالى.

فنسأل الله عزّوجل أن يرزقنا خشيته، وأن يكرمنا جميعًا بجنته، وأن يجعلنا ووالدينا وأحبابنا ممن أعتق رقابهم من النّار، وكتبهم من أهل الجنّان.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه الآيات، ونرجع إلى التفسير التفصيلي، ونقرأ ما سطره الإمام الفقيه المفسر الأصولي المتفنن ابن سعدي رحمه الله عزّوجل ونعلق على ما يحتاج إلى تعليق.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا وللسامعين:

ثمّ ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾.

(إنّ) هنا للتأكيد: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾**: **(من)** هنا بيانية لهؤلاء الكفار سواء كانوا من أهل الكتاب أو من غيرهم.

﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾: وجهنّم سميت بذلك لبعد قعرها واشتداد سوادها؛ فهي بعيدة القعر، شديدة السواد مظلمة، وذلك لشدة النَّار والعياذ بالله.

فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ قد أحاط بهم عذابها واشتد عليهم عقابها، ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها مبلسون.

ولا رجاء عندهم للموت، بل يُئِسوا من الموت، فلا يرجون تخفيف العذاب، ولا يرجون الانتقال عنه، ولا يرجون نهايته، بل هم خالدون مخلدون فيه والعياذ بالله، وهذا في شأن الكفار.

أما من يدخلون النار من المؤمنين لاستحقاقهم دخول النار وعدم عفو الله عزوجل عنهم فإنهم يعذبون فيها ما شاء الله عزوجل، ثم يخرجون منها، أما الكفار فلا.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾: لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿الْبَرِيَّةِ﴾ هي الخليقة، من البرء وهو: الخلق والإيجاد.

وذهب بعض العلماء إلى أن البرية من البراء، والبراء هو: التراب، فيكون المعنى على هذا: هم شر الناس؛ لأن الناس هم الذين خلقوا من التراب.

لكن الأول أقرب والله أعلم؛ أن هذا من البرء وهو الخلق فهم شر الخليقة، وهم شر الخليقة في الدنيا وفي الآخرة في الحال والمآل، فمهما كان عند الكفار من دنيا، ومهما كان

عندهم من قوة دنيوية، فهم لكفرهم أشر من البهائم وأشر الخليقة، وكذا في الآخرة فإنهم أشر الخليقة لما تقدم من جزائهم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة.

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات هم خير الخليقة.

ومن هنا ذهب جمع من العلماء إلى أن المؤمن من البشر خير من المَلَك، والمسألة لا يترتب عليها شيء، ومعروفة عند أهل العلم، لكن من أدلة القائلين إن المؤمن الصالح خير من المَلَك هذه الآية، فالمؤمن الصالح خير الخليقة.

وتلحظ هنا أن الله في شأن المؤمنين قدم الثناء على الجزاء، وفي شأن الكافرين قدم الجزاء على الذم، وسبب ذلك **قال العلماء**: إن ثناء الله على المؤمنين أعظم من جزائهم ولذلك قُدم الثناء على الجزاء.

ومن وجهٍ آخر أن الثناء على المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم خير الخليقة في الدنيا وفي الآخرة، وأما الجزاء فإنه في الآخرة، ومن هنا قدم الله عز وجل الثناء على المؤمنين على جزاءهم.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامةٍ لا ظعن فيها ولا رحيل ولا طلب لغايةٍ فوقها.

﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ﴾ فهي ليس جنة واحدة، بل هي جنات كثيرة الأشجار، عظيمة الظلال.

﴿عَدْنٍ﴾ العدن هي الإقامة الدائمة، فهي جنات إقامة دائمة.

وقد تضمن هذا أن المؤمن في الجنة يرضى بالنعيم الذي هو فيه، ولا يطلب الانتقال عنه، فمع أن أهل الجنة درجات إلا أن كل مؤمن في الجنة يقنع بالدرجة التي هو فيها، ولا يطلب الانتقال عنها.

ولذلك يقول العلماء: التفاضل في درجات الجنة تفاضل في كمال النعيم لا يستلزم نقصًا، وهذا كثير مثل التفاضل في كلام الله عز وجل، فإنه تفاضل في الكمال لا يستلزم نقصًا، فالمؤمن إذا دخل الجنة ورزق الدرجة التي قسمت له في الجنة يقنع بالنعيم الذي أُعطيه، ويُقيم في تلك الدرجة ولا يطلب تحولًا عنها.

﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مراضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات.

المؤمنون في الجنة يرضون بجزاء أعمالهم، بل يعلمون أنهم إنما دخلوا الجنة بفضل الله لا بأعمالهم، ونالوا درجاتهم في الجنة بحسب أعمالهم، فيرضون بجزائهم في الجنة، ويزداد رضاهم عن ربهم، فإن المؤمن يرضى عن ربه ويكتمل رضاه عن ربه في الجنة -أسأل الله أن يجعلنا ووالدينا وأحبابنا جميعًا من أهلها-، ويرضى عنهم الله ويُحل عليهم رضوانه فيأمنون سخط اللّه سبحانه وتعالى، وهذا أفضل لهم من كُل نعيم الجنّة الذي ينالونه، ويُكرمهم اللّه عز وجل بالأعظم والأفضل، وهو النظر إلى وجهه الكريم سبحانه وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف اللّه فأحجم عن معاصيه وقام بما أوجب عليه.

الخشية خوف خاص: فهي خوف مع هيبةٍ وتعظيم مَبنيٌّ على العلم، ومن رُزق الخشية رُزق الجنَّة لهذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّه﴾.

وينبغي على المؤمن أن يسعى في تحصيل هذه الخَشية بِبذل أسبابها، ومن أعظم أسبابها العلم باللَّه عز وجل بمعرفة أسمائه وصفاته، ومن أسبابها أن يُربيَ الإنسان نفسه على المُراقبة فيُراقبَ اللَّهَ دائمًا، وكلما أراد طاعةً اشتدَّ إخلاصه، وذكَّر نفسه بأنَّ اللَّهَ يراه ويسمعه، وإذا همَّت نفسه بالمعصية اشتدَّت مُراقبته لربِّه وذكَّر نفسه أنّ اللّه يراه ويسمعه؛ فهذه المُراقبة تُنتج الخَشية في القلب وتُقوّي الخَشية في القلب.

ومِن أسبابها أن يَحرص العبد على الإحسان بأن يَعبد اللّه كأنَّه يرى اللّه، فإن لم يكُن كذلك فإنّه يعبد اللّه وهو على يقينٍ من أنَّ اللّه عز وجل سبحانه يَراه.

وبهذا نكون ختمنا تفسير هذه السورة، ونختم كلامنا عنها ببعض الفوائد العُظمى والحِكم الكُبرى مِن هذه السورة:

فمن تلك الفوائد الكبرى والحِكم العُظمى: أن التمسُّك بالكتاب والسنَّة يُؤدي إلى الِاجتماع، ويَدفع التفرُّق المذموم، فالتمسُّكُ بالبيّنة التّي هي الوحيُّ، والوحيُّ كتاب اللّه وسنَّة رسول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فالنبي صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أُوتي القرآن ومِثلَه معه، فالتمسك بالبيِّنة هو سبب الِاجتماع الحقيقي، فلا اجتماع مشروع، ولا اجتماع نافع، ولا اجتماع على وجه حقيقة إلاَّ بالتمسُّك بحبل اللَّهِ، بالبيِّنة، بالكتاب والسنَّة، والتمسّك بالكتاب والسنَّة يَدفع التفرُّق المذموم.

ومِن فوائد هذه السورة الكُبرى: أنَّ الاجتماع على الحق هو الاجتماع الشرعي، وأنَّ ما عداه تفرُّق، فالاجتماع المحمود والاجتماع المطلوب هو الاجتماع على الحق.

ومن فوائد هذه السورة الكُبرى: أنَّ سبب الافتراق في الأمة مع وُجود الكتاب والسنَّة والطائفة المنصورة إنَّما هو الأهواء وعدم الاهتداء الصادق بالكتاب والسنَّة.

سبب هذا التفرُّق الذي يُوجد في أمة محمد صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلِّمْ مع أنَّ أسباب الاجتماع موجودة، فالكتاب موجود، والسنَّة موجودة، والقائمون بالكتاب والسنَّة موجودون وهُم الطائفة المنصورة، ومع ذلك نرى تفرُّقًا في الدِّين في هذه الأمة سببُه الأهواء، وعدم الاهتداء الصادق بالكتاب والسنَّة، كلُّ الفِرَق تزعُم أنَّها تهتدي بالكتاب والسنَّة، ولكنّ الشأن كلَّه في الصدق في هذا الاهتداء، فعدم الصدق في الاهتداء بالكتاب والسنَّة سبب لهذا التفرّق المذموم.

من فوائد هذه السورة الكبرى: أنَّ الكفر ينحط بصاحبه عن درجة حُسن الإِنسان حتى يصير أسوأ من البهائم؛ أنَّ الكفر ينحط بصاحبه عن درجة حُسن الإنسان، اللَّهُ عزّ وجلّ خلق الإنسان في أحسن تقويم، ولكنَّ الكفر ينحط بصاحبه عن هذه الدرجة حتى يُصبح أشرَّ من البهائم، وتُصبح البهائم خيرًا منه.

فمهما رأيتَ في أيدي الكافرين من نعيم الدنيا وزخارفها وتنظيمها والقوة فلا تغترّ بذلك؛ بل اعلم يقينًا أنَّهم شرُّ الخليقة، وأنَّهم أشرُّ من البهائم.

من فوائد هذه السورة العظمى: أنَّ الرِّفعة الحقيقية وأصلَ المدح إنّما هو بالإيمان، أنَّ الرِّفعة الحقيقية في الدنيا والآخرة وأنَّ أصلَ مدح الإنسان إنّما هو بالإيمان، ولذلك يخطئ خطأً شنيعًا مَن يمدح الكفَّار مِن أجل الدنيا ويذُّمَ المؤمنين من أجل الدنيا؛ فأصلُ المدح وشرطه هو الإيمان، ثم يحصُل للإنسان من المدح والذَّم بحسب القُرب والبُعد.

من فوائد هذه السورة العظمى: أنَّ التفاوُت في الخيرية بين المؤمنين في الدنيا والآخرة مبنيٌّ على التفاوُت في الإيمان والعمل الصالح، فإذا أردت يا عبد اللّه الرّفعة في الدرجة في الدنيا والآخرة فعليك بالاجتهاد في إيمانك وأعمالك الصالحة، ومن أجلِّ أعمالك الصالحة الأخلاق الحسنة الصالحة، اجتهد في هذا، وكلَّما ازددت قوّة في الإيمان وصلاحًا في الأعمال وحُسنًا في الأخلاق كلما ازددت رفعة عند الله وعند المؤمنين.

فاحرص رعاك الله على إكرام نفسك بهذا الأمر، وإياك والتوقف، فمهما بلغت من خير فسارع إلى خير أعظم، واجتهد في تحصيل ذلك لتكون من أهل المراتب العليا في الدنيا والآخرة.

وبهذا نختم الكلام عن سورة البينة

سورة الزلزلة:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (1) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (2) وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (5) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (6) فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾.

هذه السورة اختلف العلماء من السلف والخلف هل هي مكية أو مدنية؛ والأقرب والله أعلم أنها مكية.

وفي هذه السورة يخبر ربنا سبحانه وتعالى عما يكون عند قيام الساعة، وذلك إذا تحركت الأرض من باطنها حركة شديدة واضطربت اضطرابا شديدا، وذلك عند النفخة الأولى في الصور، وأخرجت الأرض ما في باطنها من المقبورين والكنوز وغيرها، فخرج الناس من قبورهم يتمايلون كأنهم سكارى وما هم بسكارى.

وعند ذاك يقول الناس: مال للأرض تغيرت أحوالها فاضطربت بعد أن كانت مستقرة، وأخرجت ما في باطنها وكشفته بعد أن كانت ساترة له؟

وفي يوم الحساب تحدث الأرض بأخبارها، وتشهد على أهلها بما صنعوا عليها من خير أو شر، فويحك أيها الإنسان؛ كيف تجرؤ على معاصي الله سبحانه وتعالى إذا خلوت بها والله عز وجل يراك ويسمعك ويشهد عليك وكفى بالله شهيدا؟! والملائكة تكتب عليك وتشهد عليك، وجوارحك تشهد عليك، والأرض التي أنت عليها تشهد عليك.

وتحديث الأرض بأخبارها وشهادتها على أهلها إنما هو بإذن الله عز وجل لها، وأمره لها بذلك، فعند ذاك تتكلم وتشهد على أهلها وعند ذلك يكون الناس أصنافا في الحساب ليروا أعمالهم.

فمن الناس من يكرمه الله عز وجل فلا يحاسب؛ فيدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب، أولئك خُلَّص المؤمنين الذين عظُم توكلهم على الله عز وجل، وخلُص توكلهم على ربهم سبحانه وتعالى.

ومن الناس من يُدني عليه ربه كنفه، ويعرِض عليه أعماله عرضًا، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال الرحيم سبحانه وتعالى: ((**سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم**))؛ فلا يفضح بين الخلائق ولا يعذب وإنما يقرر بأعماله تقريرًا .

ومن الناس من يناقش الحساب ويناقش أعماله، ويقال له: قد أنعم الله عليك بكذا فما عملت؟ ولماذا عملت؟ وقد عملت في اليوم الفلاني كذا فلماذا عملت؟ وهذا والعياذ بالله يعذب؛ فمن نوقش الحساب عُذِّب.

ومن الناس من يُفضح يوم القيامة فضحًاعلى رؤوس الخلائق، وأولئك هم الكفار والمنافقون وبعض العصاة من المؤمنين، كالغدرة الذين يغدرون بالناس، فيُجعل لكل غادر منهم لواء عند إسته ويقال: هذه غدرة فلان، وكالمرائين الذين يفضحون يوم القيامة، وكالرجل المعدد المتزوج بأكثر من زوجة ولا يعدل بين زوجاته فيما يملك، وكمن يغتصب الأرض، أولئك يُفضحون على رؤوس الخلائق عند الحساب.

وبعد الحساب يصدرون من موقف الحساب أصنافًا ليُرَوا جزاء أعمالهم؛ فمنهم سعيد ينقلب إلى أهله مسرورا ويقول: ﴿**هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (19) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (20)**﴾ [الحاقة: 19-20]، فيساق إلى الجنة في غاية الإكرام، ومنهم شقيٌّ يدعو ثبورًا؛ ويقول: ﴿**يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (25) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (26)**﴾ [الحاقة: 25-26]، ويُساق إلى النار في غاية الإهانة.

وفي ذلك اليوم لا يفقد الإنسان من عمله شيئًا ولو أقل القليل؛ فمن يعمل وزن ذرةٍ وهي النملة الصغيرة أو أقل من ذلك أو أكبر سيراه، ومن يعمل من الخير وزن ذرة وهي النملة الصغيرة أو أقل من ذلك أو أكبر سيراه ويوزن في ميزانه، ومن يعمل وزن ذرةٍ أو أقل من ذلك أو أكبر من شر سيراه ويوضع في ميزانه إن لم يكفِّره الله سبحانه وتعالى.

والكافر ليس له خيرٌ يوم القيامة، بل عمله كله هباءٌ منثور ولا يجد إلا شرًّا؛ لأن الكافر لا يعمل العمل لله عز وجل، ولو فُرض جدلًا أنه عمل العمل لله عز وجل فإنه لا يكون متبعًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يكون شيءٌ في ميزان يوم القيامة من أعماله خيرًا أبدًا؛ لأن الخير يوم القيامة هو ما كان لله عز وجل على سنة رسول الله صلى الله عليه

وسلم، وأما في الدنيا فقد يؤتيه الله عز وجل من الدنيا جزاء لعمله على ظاهره من الخير وقد لا يؤتيه ذلك، وأما الشر فإنه يراه كله يوم القيامة.

وأما المؤمن فإن كل عمل صالح يعمله سيراه يوم القيامة أعظم وأفضل وأكبر مما عمله في الدنيا، وأما الشر فإن الله عز وجل فتح للمؤمن أبواب تكفير الذنوب وأعظمها وأكبرها وأوسعها عفو الله عز وجل ورحمته ومغفرته سبحانه وتعالى، ومنها الاستغفار والتوبة بالرجوع إلى الله عز وجل، فإن بقي عليه شر لم يغفر يجده يوم القيامة ويكون في ميزانه يوم القيامة.

والإنسان لا يأمن أن يؤاخذ بشره، فعلى الإنسان أن يتعظ ويعتبر، وأن يحرص على ألا يرى أمامه يوم القيامة إلا خيرا يسره، تثقل به ميزان حسناته، وليتفقد نفسه في المعاصي، فإن وجد أنه على معصية مقيم فليرجع عنها وليتب إلى الله عز وجل توبة صادقة، وإن وجد أنه سبقت منه ذنوب فليكثر الاستغفار وليتب منها ليتخلص منها وهو في هذه الدنيا، وإن كان الذنب يتعلق بعباد الله عز وجل وبحقوق عباد الله عز وجل؛ فإن كانت من الأمور التي ترد فليبادر بردها إلى أهلها، وليتلطف في ردها إلى أهلها، ولو كان ذلك قد وقع منه قبل سنين كثيرة فإنه يبادر بردها إلى أهلها، ولا يلزم أن يخبرهم أنه مذنب أو أنه الفاعل، وإنما الواجب أن يردها إلى أهلها، وإذا كانت مما لا يرد كما يتعلق بالكلام في العرض والغيبة ونحو ذلك، فإن كان المجني عليه قد علم بذنب الإنسان وأنه قد اغتابه أو تكلم في عرضه فليذهب إليه وليتحلله وليحاول أن يرضيه بما استطاع لعله أن يسلم من ذلك الشر، وإن كان المجني عليه لم يعلم بذلك الذنب، فإن كان يعلم منه أنه تطيب نفسه ويعفو ويسامح، فليتحلله وإن لم يأمن ذلك وخشي أن يقع بينه وبين أخيه شر وألا يترتب على إخباره خير، فإنه يكفيه أن يذكره بخير هو فيه وأن يدعو له، وأن يكثر من الدعاء له.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي لهذه السورة، ونقرأ من تفسير الإمام ابن سعدي رحمه الله عز وجل.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتج حتى

يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوى تلالها وتكون قاعا صفصفا لا عوج فيه ولا أمتا.

والزلزلة: هي الحركة والاضطراب، **وزلزلت** أي: تحركت من أصلها، واضطربت اضطرابًا شديدا.

{إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا} المصدر هنا للتأكيد، وبيان أن الزلزلة على وجه الحقيقة وليست زلزلة معنوية، بل هي زلزلة حقيقية، والفعل إذا أُكِّد بمصدره دل ذلك على أن معناه على وجه الحقيقة لا على الوجه المعنوي.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾؛ أي: ما في بطنها من الأموات والكنوز.

والإنسان وهو في باطن الأرض ثقل للأرض، وهو حي على الأرض ثقل على الأرض.

العلماء يقولون: الإنسان إذا كان حيا فهو ثقل على الأرض، وإذا كان ميتا مقبورا في الأرض فهو ثقل للأرض.

وبعض العلماء فسر الأثقال هنا فقط بالمقبورين، ولكن الصحيح أن هذا عام يشمل المقبورين والكنوز وغيرها مما في هو جوف الأرض.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا﴾.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ﴾ قيل: الإنسان هنا هو جنس الإنسان، فكل إنسان يقول ذلك.

وقيل: هو الكافر، أما المؤمن فهو يعلم بإيمانه لماذا حدث هذا، وإنما الذي يقول هذا هو الكافر الذي كان منكرا لقيام الساعة وللبعث.

وقيل: إنه إنسان بعينه يقول هذا الكلام.

لكن الذي عليه الأكثر وهو الأظهر أنه جنس الإنسان، فالإنسان يقول ذلك من هول ما يرى في ذلك الوقت.

﴿وَقَالَ الْإِنسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظما لذلك.

﴿مَا لَهَا﴾. ؛ أي: أي شيء عرض لها؟

فجعلها تضطرب بعد استقرار، وتخرج ما في جوفها بعد أن كانت تستره.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الأرض، ﴿أَخْبَارَهَا﴾.

﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ أي: يوم القيامة يوم الجزاء يوم الحساب.

﴿**تُحَدِّثُ**﴾؛ أي: تخبر وتتكلم على وجه الحقيقة بأمر الله سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾؛ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.

وقال بعض المفسرين: تحديث الأرض بأخبارها هو إخراجها للمقبورين من قبورهم.

وقال بعض المفسرين: إنّ تحديث الأرض بأخبارها أنها تحدث الناس إذ ذاك أن القيامة قامت، فإذا خرج الناس من قبورهم تحدثهم الأرض أن القيامة قامت.

لكن الأظهر والله أعلم أن تحديثها بأخبارها هو شهادتها على أهلها بما صنعوا عليها من خير أو شر، وهذا من كلام ربنا سبحانه وتعالى.

وقال بعض المفسرين: هذا تتمة كلام الإنسان: ﴿**وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا (3) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (4)**﴾، فيكون كأن الإنسان قال: ما لها في ذلك اليوم تحدث أخبارها؟

ولكن الأول أرجح وأن كلام الإنسان ينتهي عند قوله: ﴿**مَا لَهَا**﴾، ثم يخبر الله عز وجل بهذا الخبر العظيم ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾.

ذلك ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾.

(**الباء**) هنا سببية؛ أي: بسبب أن ربك أوحى لها.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾؛ أي: أمرها أن تخبر بما عمل عليها فلا تعصي أمره.

فمعنى أوحى **لها** أذن لها وأمرها، فتطيع ربها وتتكلم على وجه الحقيقة، هذا الصحيح من كلام العلماء

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة حين يقضي الله بينهم، ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أي: فرقا متفاوتين.

وقيل: يصدرون أشتاتا إلى فرقتين: كافرين ومنافقين هذه فرقة، ومؤمنين هذه فرقة أخرى.

وقال بعض المفسرين: ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾؛ أي: عند قيام الساعة، يصدر الناس من قبورهم أشتاتا وفرقا يساقون إلى أرض المحشر.

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾: أي: ليريهم الله ما عملوا من السيئات والحسنات، ويريهم جزاءه مُوفرا. ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)﴾.

الذرة معروفة عند العرب ولازالت إلى اليوم وهي النملة الصغيرة.

وقد ذكر بعض العلماء أن النمل الصغير لا وزن له، وذكروا أن أحد السلف أخذ قطعة قد اجتمع عليها النمل الصغير وزنها قبل ذلك، ثم وضعها فاجتمع عليها النمل فوزنها بعد ذلك، فوجد وزنها واحدا، فقالوأ: إن هذا الذر الصغير -النمل الصغي-رلا يكاد أن يكون له وزن، وإذا كان هذا بهذا الحجم سيوجد في الميزان فمن باب أولى ما كان أكبر منه مما يكون له وزن وثقل.

وقال بعض المفسرين: الذرة هي واحدة الغبار، فأنت إذا ضربت الأرض يثور الغبار ذرات، فالذرة هي واحدة الغبار، وهي لا وزن لها، والعرب تضرب المثل للقلة الشديدة بالذر.

فالمقصود أنه مهما قل العمل من الخير فإنه سيجده الإنسان.

بعض المعاصرين الذين أغرقوا في التفسير العلمي للقرآن قالوا: الذرة هي الذرة التي يتحدث عنها العلماء اليوم في الأمور النووية، وهذا في الحقيقة إسراف في حمل القرآن على معان لا يليق أن يحمل عليها القرآن، فإن القرآن أنزل ليفهم في جميع الأزمان، فلا يليق حمله على مثل هذه الأمور.

وقد أشرت في التفسير الإيماني إلى أن العلماء قالوا إن الإنسان إما أن يكون كافرا وإما أن يكون مؤمنا، فإن كان كافرا فإنه يوم القيامة لا يجد إلا شرا، لا يحضر له إلا شر، لن يكون له خير يوم القيامة، بل كل ما عمله مما ظاهره أنه خير يكون هباء منثورا يوم القيامة؛ لأنه ليس خيرا، فهو ليس لله ولا على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما في الدنيا فقد يجازَى من الدنيا على الدنيا على ظاهر ما عمله من ظاهر أنه خير، وأما الشر فيجده يوم القيامة لا يفقد منه شيئا.

وأما المؤمن فخيره محفوظ له يجده يوم القيامة أوفر مما عمل، وأما الشر فالله جعل له مكفرات عدها بعض العلماء عشرة يكفَّر بها الشر الذي يعمله المؤمن، فإن وافى بشره ولم يعف الله عنه فإنه يجد ذلك في ميزان حسناته، والعاقل يعلم أنه إذا عمل الشر فإنه كُتب

عليه، فلا ينبغي أن يغتر بالمكفرات، فقد لا يوفق إليها أصلا، وقد يكون اغتراره سببا لمنعه من التكفير -من تكفير ذنبه-.

قال رحمه الله: وهذا شامل عام للشر والخير كله؛ لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وما عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30]، ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ [الكهف: 49] وهذا فيه الترغيب في فعل الخير ولو قليلا، والترهيب من فعل الشر ولو حقيرا.

وهذه الآية عامة كما ذكر الشيخ، ولذلك لما سأل الصحابة رضوان الله عليهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الحمير؛ يعني: علموا فضل الخيل في الجهاد، فسألوا عن الحمير ماذا فيها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ((**ما أنزل علي فيها شيء إلا هذه الآية العامة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾**))، فهذه الآية عامة في كل خير يعمله الإنسان بالشرطين المعروفين: الإخلاص لله عز وجل، والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبهذا نكون أنهينا تفسير سورة الزلزلة، والفائدة الكبرى من هذه السورة:

تحذير المؤمنين من فعل المحرمات، وتنمية المراقبة لله عز وجل بالمسارعة إلى الخيرات واجتناب المحرمات.

والمؤمن يحرص على أن يبتعد عن كل ذنب؛ لأنه لا ينظر إلي وزن الذنب ولكن ينظر إلى أنه يعصي الله به.

خل الذنـــوب صغيرها وكبيرها فهو التقى

واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صغيرة إن الجبـــال من الحصى

كما أن المعلوم أن الذنوب ظلمة على القلب، فكلما أذنب العبد ذنبا ولو صغيرا أظلم جزء من قلبه، فإن زاد زادت الظلمة، ولربما زادت على القلب حتى انغلق تماما ورانت عليه والعياذ بالله، أما إذا تاب ونزع ورجع عن ذنبه فإن تلك الظلمة تزال من القلب.

ولذلك المؤمن يخاف خوفا شديدا من الذنوب مهما صغرت؛ لأنها ظلمة في قلبه ويخاف أن تزداد عليه حتى يظلم القلب بالكلية، وكما هو معلوم عند العلماء أن من شؤم المعاصي أنها قيود عن الخير، من شؤم المعاصي أنها حبال تقيد الإنسان عن الخير، فقد يمنع الإنسان من قيام الليل لذنوب النهار، قد يمنع من قيام الليل بالكلية ولا يقوم الليل لكثرة ذنوبه، وقد يمنع من قيام الليل في ليلة بسبب ذنوب نهاره، فالمؤمن لا يتساهل في الذنوب أبدا، ولا ينظر هل هذه كبيرة أو صغيرة وإنما ينظر إلى عاقبة الذنب، فيراقب الله عز وجل، وتعظم تقواه لربه سبحانه وتعالى، فيكون متقيا لله حيث كان مبتعدا عن المحرمات، فإذا وقعت السيئة عمل على تكفيرها بتوبة أو بأن يتبعها حسنة إن كانت من الصغائر حتى يمحوها بتلك الحسنة.

هذا من أعظم مقاصد هذه السورة وفوائدها العظمى وحكمها الكبرى.

سورة العاديات

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ (7) وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (8) أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (9) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (10) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (11)﴾ [العديات: 1-11].

هذه السورة مكية عند جمهور العلماء، وهو الأقرب والله أعلم، يقسم الله عزوجل فيها بالخيل التي تعدو بسرعة، ومن شدة عدوها يخرج لها صوت، وتضرب بحدواتها الحديدية الأحجار والصخور فيتطاير منها الشرر كأنما توقد النار، كأنها تقدح لتشعل النار، وهي يغير بها فرسانها على أعدائهم بسرعة مصبحين لهم، وهي في سرعة عدوها تثير الغبار إثارة شديدة، وتتوسط بفرسانها المكان المراد بسرعة مجتمعة فيه.

وجواب القسم أن جنس الإنسان كفور لربه عمومًا ولنعم ربه خصوصا، فطبع الإنسان أنه يعد النقم وينسى النعم إلا من تهذب بدين الله عزوجل.

والله سبحانه وتعالى شهيد على الإنسان بهذا، والإنسان نفسه تشهد حاله عليه في الدنيا بهذا، فحاله تدل على أنه كفور إلا إذا تهذب بدين الله عزوجل، وهو يشهد يوم القيامة على نفسه بهذا، حيث يندم أشد الندم على أنه لم يشكر نعم الله عليه في الدنيا إذا رأى الجزاء.

وهذا الإنسان الكنود الكفور لربه شديد المحبة للمال، ولشدة حبه للمال يمنع الخير في هذا المال، فلا يعرف لله فيه حقا، ولا يصل به رحما، ولا يصل به ضعيفا، ولا يحسن به إلى محتاج، ولا ينفقه فيما يحب الله سبحانه وتعالى كأن المال باقٍ له لا يزول، وكأنه لو بقي المال لا يزول هو عن ذلك المال.

عجيب أمر هذا الإنسان! ألا يعلم علم اليقين أنه ميت؛ وأنه إن بقي المال لابد أن يفارقه هو ويتركه للناس؟!

ألا يعلم هذا الإنسان أنه ميت مقبور ثم مبعوث من قبره، وأنه ملاق ربه سبحانه وتعالى، وأن ربه سيسأله عن هذه النعم وعن هذا المال خصوصا من أين اكتسبه؟ أَمن حلال حصله أم من حرام جمعه؟ وماذا عمل فيه أفي حلال أنفقه وفي خير فرقه؟ أم استعان به على ما يغضب الله سبحان وتعالى؟!

إن هذا الإنسان يعلم أنه ميت، لكن هل يعلم ما وراء الموت؟ هل يعلم ما يكون في قبره؟ هل يعلم ما يكون عند البعث؟ هل يعلم ما يكون عند السؤال؟ إذا نُثر ما في القبور وخَرج المقبورون من قبورهم وأخرجت الأرض المقبورين فيها من لدن آدم عليه السلام إلى آخر إنسان يخرجون جميعًا في وقتٍ واحد حيارى مذهولين، ﴿**وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾ فكشف ما يخفيه الإنسان في نفسه وحوسب عنه، ألا يعلم هذ؟

بلى ورب الكعبة؛ قد أقام الله عزوجل البراهين القاطعة والحجج الساطعة على البعث وعلى الجزاء.

ومن جواب القسم إن رب الناس بهم يومئذ لخبير، عالم بأعمالهم وأحوالهم وشأنهم لا تخفى عليه منهم خافية، هو سبحانه خبير بالناس في ذلك اليوم وقبل ذلك اليوم، لكن خص ذلك اليوم هنا بالذكر؛ لأنه يوم الجزاء -يوم الحساب- حيث يُحاسب الناس على أعمالهم، وربهم سبحانه وتعالى خبير بهم وخبير بأعمالهم وشهيد عليهم وكفى بالله شهيدا. وفيما ذكر ربنا سبحانه وتعالى أعظمَ الزاجر للإنسان عن الطغيان، أنت أيها الإنسان مهما كنت قويا فإلى قبرٍ صائر، أنت أيها الإنسان مهما كنت صحيحا فإلى قبرٍ صائر، أنت أيها الإنسان مهما ملكت ومهما حكمت فإلى قبرٍ صائر، وفي قبرك تُسأل وتفتن وتختبر: فإما منعم وإما معذب، ثم إنك أيها الإنسان مبعوثٌ من قبرك ومسؤول بين يدي ربك عن هذه النعم، فكيف لا تصونها؟ وكيف لا تشكرها؟ وكيف لا تُعملها في طاعة الله سبحانه وتعالى؟ لو تدبرنا ما ذكره ربنا في هذه السورة لرقت قلوبنا، وعظم اجتهادنا في الخير، وانزجرنا عن إسرافنا على أنفسنا وعن إسرافنا في مالنا.

أنت أيها الإنسان تحب المال وهذا مركوزٌ في طبع الإنسان ولا عيب فيه، ولكن العيب أن تحب المال حبًا شديدًا يجعلك تعصي الله من أجل المال ولا تنفق المال فيما يحب الله.

فتكون شحيحًا. فعجبا لحالك أيها الإنسان!!! كيف تقول مالي مالي، وتعصي الله من أجل هذا المال، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس.

ألا ترى أيها الإنسان أن هذا المال الذي يجعلك تعصي الله لتحصله لابد من فراقه؟ فهو إما مفارِق وإما مفارَق:

- إما مفارِق يذهب عنك وأنت حي، وكم من إنسان لَهَا بجمع المال عن الخير وعن الطاعة فافتقر وصار إلى الفقر وهو حي وذهب عنه المال.

- وهَبْ أن المال لم يذهب عنك؛ ألا ترى التجار والملوك وغيرهم يذهبون ويتركون المال؟ ولا ينفعهم المال عند موتهم شيئا ولا في قبورهم شيئا.

معاشر المؤمنين؛ إن تدبرنا للقرآن شفاء لصدورنا، هدى لقلوبنا، جلاء لأمراض القلوب، فياليتنا نقرأ كلام ربنا بتدبر، ونعرف معاني الآيات لنكون بها من المنتفعين.

هذا هو المعنى الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ كلام الإمام السعدي رحمه الله عز وجل ونعلق على ما يحتاج إلى تعليق.

قال الإمام عبد الرحمان ابن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا وللسامعين: أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل.

هذا قول جمهور المفسرين أن القسم هنا بالخيل.

والله عز وجل العظيم يقسم بما شاء، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله، الله يقسم بما شاء، وإذا أقسم الله بشيء دل ذلك على فضله وعلى عظيم ما يذكر في ذلك القسم، وجمهور المفسرين على أن القسم هنا بالخيل.

أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل لما فيها من آياته الباهرة ونعمه الظاهرة ما هو معلوم للخلق، وأقسم الله تعالى بها في الحال التي يشاركه فيه غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أي: العاديات عدوا شديدا بليغا يصدر عنه الضبح.

العاديات جمع عادية، من العدوِ، والعدوُ: هو الجري بسرعة؛ أي: أنها تجري بسرعة شديدة.

قال: أي: العاديات عدوا بليغا قويا يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد عدوها.

هذا قول الأكثر في تفسير الضبح، وهو أنه الصوت الذي يصدر من الخيل عند اشتداد عدوها.

وقال بعض المفسرين: الضبح: نوع من الجري السريع، وهو محمود في الخيل.

وقال بعض أهل العلم: الضبح: هو صوت الحوافر عند العدو، الضبح هو صوت الحوافر عندما تصطك بالأرض، ولكن الذي عليه الأكثر هو الأول وهو الأقرب والله أعلم.

﴿فَالْمُورِيَاتِ﴾ بحوافرهن ما يطأن عليه من الأحجار، ﴿قَدْحًا﴾: أي: تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن إذا عدون.

والمقصود أن الحوافر إذا اصطكت بالأحجار والصخر تنتج شررا كما يفعل من يريد أن يشعل النار فإنه كان يضرب حجرا بحجر لينتج شررا تورى وتشعل به النار.

وقال بعض المفسرين: إن المعنى أن الخيل تشعل في نفوس الفرسان الرغبة في القتال والحرب.

وقال بعض المفسرين: المقصود والمعنى أن الفرسان يشعلون الحرب.

فالمقصود بالموريات هنا الفرسان الذين يركبون الخيول أنهم يشعلون الحرب.

وقال بعض العلماء: إن الموريات هنا هي الألسن، ليست الخيل، الألسن التي تشعل الفتن، والفتن كالنار المحرقة، ولا شك أن الألسن تشعل الفتن إن لم يتق أصحابها ربهم، وقد يغر الشيطان الإنسان فيظهر له أن إشعال الفتنة خير وقربة، فيشعل فتنة بين الأحبة، ويفرق الصف المجتمع على الحق بفتنة وباطل وشر، لكن لا شك أن الألسن ليست هي المراد هنا، وإنما المراد هنا الخيول، وأنها لشدة عدوها واصطكاك حذواتها بالحصى ينتج من ذلك شرر كأنها تشعل النار.

﴿فَالْمُغِيرَاتِ﴾ على الأعداء، ﴿صُبْحًا﴾ وهذا أمر أغلبي أن الغارة تكون صباحا.

والصبح هو أشرف اليوم، والبكور في أول الصبح شأن أهل الجد والهمة، أهل الجد والهمة عملهم يكون في أول النهار، أما أهل الكسل فإنهم أهل نوم لا يبكرون، فلما كان

الصبح وقت نشاط أهل الهمم وأهل الجد ذكر هنا، وإن كانت الإغارة ليست خاصة بالصبح، فقد تكون الإغارة في الليل، وقد تكون في وسط النهار لكن ذُكر الأشرف، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يغير صبحا بعد الفجر.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾.

﴿فَأَثَرْنَ﴾؛ أي: حركن معنى أثرن حركن.

﴿بِهِ﴾ أي: بعدوهن وغارتهن.

هذا على قول أن الضمير هنا يعود إلى العدو؛ فأثرن بعدوهن وسرعتهن نقعا.

وقيل: إن الضمير يرجع إلى المكان الذي تجري فيه الخيل؛ يعني: فأثرن في المكان الذي تجرين فيه غبارا.

وقال بعض المفسرين: **به يعني بالصبح**؛ يعني: فأثرن وحركن في الصبح غبارا.

ولا مانع من إرادة الكل، فالخيل تثير الغبار بعدوها، وتثير الغبار في المكان الذي تعدو فيه، وتثير الغبار إذا أغير بها صبحا، فلا مانع من حمل الآية على الجميع.

﴿نَقْعًا﴾: أي: غبارا، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾: أي: براكبهن.

﴿فَوَسَطْنَ﴾؛ أي: توسطن.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾؛ أي: براكبهن، ﴿جَمْعًا﴾؛ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

هذا في حال الحرب، توسطن بالفرسان جموع الأعداء، فالخيل تغير على الأعداء حتى تجتمع في وسط الأعداء بفرسانها.

وقال بعض المفسرين: توسطن بفرسانهن المكان المراد جميعا، وهذا المعنى أعم من الأول؛ لأن الأول خاص بالحرب، أما هذا فهو عام، يعني: لو كانوا في سباق يتسابقون إلى مكان فإن الخيول في الغالب تصل معا في وقت متقارب إلى المكان المراد وتتوسط المكان المراد.

وقال بعض أهل العلم: معنى الآية فوسطن بالغبار الجمع؛ أي: جعلن الغبار فوق الجمع -فوق الجماعة المجتمعة-، فيكون الضمير راجعا إلى الغبار، هذا قول الجمهور كما قلنا.

وذهب بعض المفسرين إلى أن القسم هنا بالإبل، ﴿**وَالْعَادِيَاتِ**﴾ يعني: الإبل لأنها أكثر ما يركبه العرب، ﴿**ضَبْحًا**﴾ يعني بصوت الإبل، ولبعض المفسرين كلام بعيد.

﴿**فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا**﴾ يعني: المشعلات الحرب.

﴿**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا**﴾ قالوا؛ أي: المغيرات من مزدلفة صبحا في الحج.

﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ فوسطن به منى، وسطن براكبهن منى، فـ (جمع) هنا منى أو (جمع) هي مزدلفة، فيكون ﴿**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا**﴾ المغيرات إلى منى صبحا، ﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا**﴾ فوسطن به مزدلفة.

لكن هذا القول ضعيف، والراجح هو الأول أنها الخيل

قال: **والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.**

﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ**﴾ الأكثر على أنه جنس الإنسان.

وقال بعض المفسرين: هو الكافر، لكن الأول أقرب أنه جنس الإنسان.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾.

﴿**لَكَنُودٌ**﴾ الأكثر على أن ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ لكفور.

وقال بعض المفسرين: لكفور بالنعم يَعدُّ المصائب وينسى النعم.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ لجاحد للحق.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ يعني لحسود.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ يعني لعاصٍ لربه.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ يعني أنه يستعمل نعم الله في معاصي الله.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ يعني لبخيل، وهذه هو المعنى الذي ذكره الشيخ حيث قال:

أي: لمنوع للخير الذي لله عليه، فطبيعة الإنسان وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق فتؤديها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليها من الحقوق المالية والبدنية إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

وكل المعاني التي ذكرتها صالحة لكلمة (**لكنود**)، وهي تعود إلى معنى لكفور، فالإنسان من

طبعه أنه كفور ولا سيما لنعم الله إلا من تهذب بدين الله، ولذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: ((**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**)).

﴿وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ﴾: أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره؛ لأن ذلك أمر بين واضح.

﴿وَإِنَّهُ﴾ الضمير هنا قيل إنه الإنسان؛ لأن الكلام عنه -الكلام عن الإنسان-، وإن الإنسان على ذلك لشهيد، فهو شهيد على نفسه بأنه كفور:

- أما في الدنيا فهو شاهد بحاله، فإن حاله يشهد عليه أنه كفور.

- وأما في الآخرة فإنه يشهد على نفسه يوم القيامة بهذا، ولا يستطيع أن يجحد هذا، بل سيندم كل إنسان يوم القيامة على أنه لم يشكر نعم الله سبحانه وتعالى عليها إلا من رحم ربي.

قال: ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى؛ أي: إن العبد لربه لكنود.

وهذا قول الأكثر أن الضمير عائد إلى الله عز وجل، وأن الله شهيد على الإنسان بأنه كنود، وذلك لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الرب **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ (6) وَإِنَّهُ﴾** الضمير يعود إلى أقرب مذكور، وأقرب مذكور هو الرب؛ ولأنه جاء في قراءة شاذة: (وإنّ الله على ذلك لشهيد)، والقراءة الشاذة يفسر بها القرآن، فيكون الضمير هنا عائدا إلى الله.

وذهب جمع من المحققين إلى صحة الأمرين، فالإنسان على نفسه شهيد والله عليه شهيد، الله شهيد على الإنسان بأنه كنود، والإنسان على نفسه شهيد بأنه كنود، ولعل هذا أقرب والله أعلم.

والله شهيد على ذلك ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لربه كنود بأن الله عليه شهيد.

﴿وَإِنَّهُ﴾: أي: الإنسان، ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾: أي: المال، ﴿لَشَدِيدٌ﴾: أي: كثير الحب للمال، وحبه لذلك هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، فقدم شهوة نفسه على رضا ربه، وكل هذا لأنه قَصَرَ نظره على هذه الدار وغفل عن الآخرة.

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ **قال بعض العلماء**: المعنى وإنه لحب المال لشديد؛ أي: أن حبه للمال شديد.

وقال بعض أهل العلم: وإنه بسبب حبه للمال لشديد؛ أي: بخيل، شديد الإمساك للمال.

وكلا المعنيين صحيح، فالإنسان بطبعه شديد الحب للمال، ولشدة حبه للمال يكون شحيحا بخيلا، ولذلك كلما اشتد حب الإنسان للمال كلما كان بخيلا؛ لأن شدة حبه للمال تدعوه إلى البخل.

قال رحمه الله: ولهذا قال حاثا له على خوف يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾: أي: هل لا يعلم هذا المغتر، ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾.

﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: أي: إذا نثر ما في القبور وأخرج ما في القبور.

أي: هل لا يعلم هذا المغتر إذا بعثر ما في القبور؛ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: أي: ظهر وبان ما فيها وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطل ظاهرا، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

وانظر رعاك الله إلى التناسب بين بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور، كلاهما فيه إخراج مستتر، فالقبور تستر الموتى فبعثرة القبور إخراج المقبور المستور في القبر، والصدور تستر ما فيها، فتحصيل ما في الصدور كشف لهذا المخفي في الصدر، فهنا تناسب عظيم بين بعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور إذ في كل كشف مستور.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

هذا من جواب القسم، ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ هذا من جواب القسم، ﴿وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ هذا من جواب القسم، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ هذا من جواب القسم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾: أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة الخفية والجلية ومجازيهم عليها، وخص خبرهم بذلك اليوم مع أنه خبير بهم كل وقت؛ لأن المراد به الجزاء على الأعمال الناشئ عن علم الله واطلاعه.

وبهذا نتم تفسير سورة العاديات، ومقصود السورة ظاهر والحكمة العظمى منها ظاهرة: وهي أن المؤمن ينبغي أن يكون شكورا لنعم الله صبورا على بلاء الله.

أن المؤمن ينبغي أن يكون شكورا لنعم الله؛ والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح:

- **يكون بالقلب**: بأن يعتقد أن كل خير هو فيه إنما الفضل فيه لله، لا ينسب ذلك إلى قوة ولا إلى ذكاء ولا إلى مهارة، وإنما يعتقد اعتقادا جازما أن هذا الخير الذي هو فيه إنما هو بفضل الله، وأن الذي أنعم به عليه هو الله سبحانه وتعالى
- **وباللسان**: بأن يثني على الله بهذه النعم، فيحمد الله الذي رزقه السمع، الذي رزقه البصر، الذي رزقه الكلام، الذي رزقه الصحة، يثني على الله، ولذلك شأن المؤمن أن يكون كثير الثناء ممسكا عن الشكوى، لا يشكو الله إلى أحد، ويكثر الثناء على الله سبحانه وتعالى.
- **ويكون بالجوارح**: بأن يستعمل نعم الله في طاعة الله أو فيما أباح الله، هذا النظر نعمة عظمى من الله، والله لو اجتمع الخلق جميعا ما استطاعوا أن يوصلوا هذه النعمة للإنسان، ما شكرها؟ أن تستعملها في طاعة الله، تستعملها في النظر إلى القرآن، لتقرأ تستعملها في كتب العلم لتقرأ، أو أن تستعملها في المباح، فتنظر إلى الأشياء الطيبة، وتنظر إلى زوجتك وتنظر، كفرانها أن تستعملها في معصية الله، فتنظر بها إلى الحرام.

وأن يكون صبورا على بلاء الله، ويا عبد الله؛ إذا نزل بك البلاء فأولا اعلم أن الذي أنزل البلاء هو الله، وأنه هو مالكك، وأنه إن ابتلى بشيء فقد أنعم بأشياء، ومع ذلك لا يبتليك إلا لحكمة، هو المالك وأنت المملوك، وللمالك أن يتصرف في مملوكه كيف شاء، وهو إن ابتلاك في شيء فقد أنعم عليك بأشياء، ومع ذلك لا يبتليك إلا لحكمة:

- فإما أن ينبهك من غفلة؛ شردت عن بابه وابتعدت عن طاعته فيبتليك ببلاء لترجع إليه.
- وإما أن يكفر عنك سيئة.
- وإما أن يرفعك بهذا البلاء في الجنة درجة.

ولذلك يا إخوة يوم القيامة يتمنى أهل العافية لو أنهم في الدنيا نُشروا بالمناشير لما يرون من ثواب أهل البلاء، وهذا يعينك على الصبر على ما تُبتلى به إن أدركت هذه الحقائق.

فمقصود السورة الأعظم وحكمتها العظمى أن الإنسان يجب عليه أن يعالج نفسه ليكون شكورا للنعم، صبورا على البلاء.

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (4) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (5) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (6) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (7) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (8) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (9) وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ (10) نَارٌ حَامِيَةٌ (11)﴾ [القارعة: 1-11].

في هذه السورة المكية بإجماع العلماء يخبر الله عز وجل عن بعض أحوال يوم القيامة، والقارعة من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع القلوب وتفزع القلوب بأهوالها وما يكون فيها من الأمور العظام، وتقرع أعداء الله بالعذاب والمصيبة العظمى.

وعظم الله عز وجل شأنها وفخمه بقوله: **﴿مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)﴾**، ففي هذا تفخيم وتعظيم لأهوالها وما يكون فيها.

فمن أحوالها وأهوالها العظام أن الناس ينشرون فيها ويتفرقون عند خروجهم من قبورهم، حيث يخرجون جميعا من لدن آدم عليه السلام إلى آخر إنسان يكون في الدنيا، يخرجون من قبورهم ويبعثون من قبورهم، ويذهبون ويرجعون عند ذلك من الهول والحيرة كأنهم فراش يطير ولا يهتدي في طيرانه، بل يكون مضطربا، وذلك لشدة الهول وشدة ما يرون من خروج الناس جميعا.

وتكون الجبال القوية الراسية كالصوف المنفوش الهش المتفرق الذي يتطاير مع الريح، حيث تدك تلك الجبال وتفتت تفتيتا وتصير كالصوف المفرق، إلى أن تصير لا شيء كالسراب.

وفي ذلك اليوم العظيم يكون الوزن الحق الذي لا ظلم فيه، فتوزن الأعمال ولا يفقد الإنسان من عمله شيئا، ويوزن العاملون، فيأتي الرجل الكافر السمين العظيم لا يزن في الميزان جناح بعوضة، ويأتي المؤمن دقيق الأعضاء وهو أثقل في الميزان من جبل أحد، وتوزن صحف الأعمال التي كتبت فيها الأعمال.

فمن ثقلت موازينه فأولئك المفلحون، فمن ثقل ميزانه عند ربه فإنه المفلح السعيد الفائز حقا وصدقا الذي يعيش عيشة مرضية يرضاها ويرضى بها ويهنأ بها على وجه الكمال من غير منغص لها أبدا، وهي حياة سهلة طيبة لأهلها منقادة لأهلها، يحصلون فيها اللذة والنعيم من غير تعب، بل تكون منقادة لهم سهلة، ولا يملون ذلك النعيم أبدا، بل كلما رزقوا النعيم كانوا كأنهم يرزقونه لأول مرة، ويحصل لهم فيها ما يشاؤون من النعيم.

وأما من خفت موازينه فلم تكن له حسنات أو رجحت سيئاته على حسناته فذاك هو الخاسر حقا، وهو في غاية الخسران والذلة في ذلك اليوم، وهو ساقط بإذلال في جهنم، حيث يُسقط فيها ويُطرح فيها منكوسا يهوي على رأسه في النار، وتكون مأواه النار شديدة العذاب الذي لا يجد عنها مصرفا، ويعلم وهو في ذلك الموقف أنه صائر إليها، وهي بعيدة القعر شديدة العذاب.

وما أدراك ما الذي يأوي إليه والذي يصير إليه؟ إنها نار حامية شديدة الحر قوية اللهب، وكل ما فيها من شراب وطعام وغير ذلك شديد الحرارة، عظيم الألم، وهي محيطة بأهلها، يحيط عذابها بأهلها، وإذا كان أهون الناس عذابا فيها من في أخمص قدميه جمرتان يغلي منهما دماغه فكيف بمن أحاطت به تلك النار وأحاط به لهيبها وأحاط به عذابها؟! لا شك أن الخاسر كل الخسارة من كان مآله إلى النار ومأواه تلك النار

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة، ثم نرجع إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله.

قال الإمام عبد الرحمان بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين:

قوله: ﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها.

فهي تقرع الأسماع عند النفخ في الصور، فيفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، وتفزع القلوب لأهوالها وما يكون فيها من تغير الأحوال وعظيم الأهوال.

وقال بعض العلماء: سميت بذلك لأنها تقرع أعداء الله بالعذاب.

ولا مانع من الأمرين فهي قارعة للناس جميعا بالفزع عند البعث لشدة ما فيها من أهوال، وقارعة للكفار وأعداء الله بالعذاب.

قال: **ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)﴾.**

﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2)﴾ استفهام للتفخيم والتعظيم.

والمعنى؛ أي: شيء هذه القارعة؛ إنها قارعة عظيمة الأهوال.

وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (3)﴾.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ لزيادة التفخيم والتعظيم، والمقصود: وما أعلمك ما القارعة؟ فما أشدها وما أعظم أحوالها، إنها عظيمة الأحوال شديدة الأهوال.

﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول.

حيث يخرجون جميعا من القبور ويبعثون من قبورهم فيهولهم الأمر، فيضطربون ويذهبون ويرجعون من شده الهول والفزع.

﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش هي الحيوانات التي تكون في الليل يموج بعضها في بعض، لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافتت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

يعني: يشبهون الفراش في حيرته واضطرابه عند تحركه مع أنهم أهل عقول.

والفَراش قال بعد العلماء: هو الجراد.

وقال بعض العلماء: بل هو كل هذه الحيوانات الطائرة التي تطير في اضطراب ولا تهتدي في طيرانها، فشبه الله عزوجل الناس عند خروجهم من قبورهم في حيرتهم واضطراهم وطريقة حركتهم بالفراش المبثوث المتطاير.

قال: **وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾؛ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفا جدا تطير به أدني ريح.**

وقال بعض أهل العلم: العهن هو الصوف الملون، وذلك أن الجبال ألوان فإذا نفشت تظهر كأنها صوف ملون.

قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾ [النمل: 88]، ثم بعد ذلك تكون بعد ذلك هباء منثورا، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ موازينه قال بعض العلماء: هي الموزونات، والموزون يوم القيامة ثلاثة:

- الأعمال من خير وشر.
- والعاملون.
- والصحف التي كتبت فيها الأعمال.

كلها توزن يوم القيامة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿**مَوَازِينُهُ**﴾. هي الموازين التي توزن بها الموزونات.

وهل هي ميزان واحد أو موازين؟ الذي يظهر والله أعلم أنها ميزان واحد، وإنما جمعت هنا باعتبار ما يوزن فيها، فالذي يوزن فيها متعدد فجمعت هنا.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾: أي: رجحت حسناته على سيئاته.

هذا معنى **من ثقلت** رجحت حسناته على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم.

﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ مرضيٌ عنها ومرضية، راضية بمعنى مرضي عنها ومرضية، فهي مرضية لأهلها؛ لأنها عيشة هينة لينة كلها نعيم، وأهلها راضون بها لا يقع في قلوبهم منغص لتلك العيشة التي يعيشونها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته.

إما: لم تكن له حسنات أصلا مثل الكافر، فإن الكافر لا يوافي بحسنة يوم القيامة.

وإما: أن تكون سيئاته راجحة على حسناته، ولم يغفر الله عز وجل له.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسمائها الهاوية.

﴿فَأُمُّهُ﴾: أي: مأواه ومسكنه هكذا قال بعض المفسرين، معنى فأمه: أي: مأواه ومسكنه الذي يأوي إليه كما يأوي الطفل إلى أمه، فلا مصير له ولا مأوى إلا النار.

﴿هَاوِيَةٌ﴾ هي النار، وسميت بالهاوية لأن قعرها بعيد.

﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾: أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسماءها الهاوية تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: 65].

وقيل: إن معنى ذلك فأم دماغه هاوية في النار؛ أي: يلقى في النار على رأسه.

وقيل: (أمه): أي: مقصوده الذي يقصده من الأَمِّ وهو القصد، فهو يتوجه إلى النار، ولا توجه له إلا إلى النار، فلا منجاة له من النار، فلا يجد عنها مصرفا.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾.

المعنى: أتدري وتعلم ما هي؟ إنها شديدة عظيمة.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾: أي: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفا فاستجيروا بالله منها.

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **((ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم))**، قيل: يا رسول الله إن كانت لكافية، فقال صلى الله عليه وسلم: **((فُضّلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها))** متفق عليه.

فنار الدنيا جميعا بنيران الأرض كلها إنما هي جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم، ولولا أن هذا الجزء أُطفِأ بالماء مرتين لما انتفعنا به، وفي الحديث أن النار اشتكت إلى ربها وقالت: (رب قد أكل بعضي بعضا) من شدة حرها وشدة بردها، فأذن الله لها بنفسين في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر، وفي الشتاء فهو أشد ما تجدون من الزمهرير، متفق عليه.

فالله عز وجل قد أرى الناس جزءا صغيرا جدا من النار وهي نارهم التي يرونها في الدنيا، وأذاقهم شيئا يسيرا جدا من حر النار وبردها، فأشد ما يجده الناس في الدنيا من الحر إنما هو نفس تتنفسه جهنم، وأشد ما يجدون من البرد الذي يقتل المئات إنما هو نفس من نفس جهنم، فكيف بجهنم والعياذ بالله.

ما أقسى القلوب يا إخوة؛ ما أقسى القلوب!! تسمع هذا الكلام، وتعلم هذا العلم، ومع ذلك تراها جامدة كأنها لا تسمع شيئا، كم من شخصٍ منا الآن هو صاحب ذنبٍ يعلمه ويعلم أنه مقيمٌ عليه، فهل حرك هذا الكلام قلبه؟ ليراجع نفسه في هذا الذنب وليعزم على التوبة، وليعزم على الإقلاع عنه والرجوع إليه، الرجوع إلى الله سبحانه وتعالى منه؟ أم أن قلوبنا أصبحت أقسى من الحديد وأقسى من الجبال؟ نسأل الله أن يلين قلوبنا لطاعته، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

هذه السورة مقصدها الأعظم: وعظ القلوب بما يكون من أهوال يوم القيامة لتُحسِن الأنفس الاستعداد لذلك اليوم، لكي يكون الإنسان فيه من المفلحين، وطريق الفلاح هو الإيمان والعمل الصالح، لينال العبد فضل الله سبحانه وتعالى.

سورة التكاثر.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (1) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (2) كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (3) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (4) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (5) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (6) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (7) ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (8)﴾ [التكاثر: 1-8].

هذه السورة تسمى سورة التكاثر، وتسمى سورة ألهاكم، وتسمى سورة المقبرة.

وهذه السورة مكية، يخاطب الله فيها الناس بأنه قد أشغل قلوبكم وأبدانكم عن طاعة ربكم وآخرتكم ما تطلبون كثرته من الأموال والأولاد وغيرها، فاشتغلتم بذلك عن دينكم وعن أمور آخرتكم، ولازلتم تنتقلون من طلبٍ للتكاثر إلى طلب حتى جاءكم الموت وأنتم غافلون، وتركتم ما ألهاكم فأنتم عنه راحلون.

حرص أحدكم على جمع المال ونسي الآخرة، ثم رحل عنه وتركه للناس، ولم يدخل معه من ماله شيء قبره، وحرص أحدكم على إكثار الأولاد ولها بذلك عن المقصود، ثم رحل وتركهم فساروا خلفه إلى قبره، ثم رجعوا وتركوه، وما هي إلا أيام ويكونون قد نسوه.

والقبور مع هولها وما فيها من فتنة ونعيم أو عذاب ما أنتم لها إلا زائرون، ثم إنكم بعد ذلك مبعوثون ومحاسبون ومجزيون، بعد أن كنتم في تكاثركم كأنكم في الدنيا مخلدون، وعما عملتم فيها لا تحاسبون.

كلا ليس الأمر كما تزعمون؛ بل إنكم ميتون يقينا، فإذا متم وصرتم إلى قبوركم ستعلمون علما لا شك فيه أن انشغالكم بأمور الدنيا عن الآخرة لا خير لكم فيه، بل هو شر عليكم، وستعلمون يقينا أن الآخرة خير وأبقى.

ثم كرر ذلك تغليظا وتهديدا وتخويفا، ولو علمتم هذا العلم الذي تعلمونه عند حضور الموت في دنياكم لكان ذلك زاجرا لكم عن اللهو بالتكاثر عن أخراكم، لكن ذلك العلم بعد الموت لا ينفعكم شيئا، فوالله لترون الجحيم يوم القيامة تقرب لأصحابها، يؤتى بها لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وعند ذلك سترونها عين اليقين، ويعلم أصحابها أنهم لا نجاة لهم منها، ولا يجد المجرمون عنها مصرفا.

ثم في ذلك اليوم العظيم الذي تدنو فيه الشمس من رؤوس الخلائق مقدار ميل، ويعرقون على قدر أعمالهم، فمنهم من يصل العرق إلى كعبيه، ومنهم من يصل العرق إلى ركبتيه، ومنهم من يصل العرق إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، في ذلك اليوم العظيم لتسألن عن نعم الله عز وجل ماذا عملتم فيها.

وأول ما يسأل عنه العبد من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسدك ونسقيك من الماء البارد؟ هذا أول ما يسأل عنه العبد من النعيم، وسيسأل عن نعم الله عز وجل ماذا عمل فيها.

فأما المحسن فيسأل عن النعيم تذكيرا وامتنانا عليه بالنعم، وأما المسيء فيسأل عن النعم تبكيتا وليجازى على إساءته فيها، وأنت يا عبد الله تتقلب في نعم الله، كل ما أنت فيه نعم من الله عز وجل وستسأل عن النعيم، ستسأل عن هذه النعم ماذا عملت فيها؟ فإياك ثم إياك أن تستعمل نعم الله فيما حرم الله، أن تستعمل نعم الله فيما يغضب الله.

أنعم الله عليك بنعم في جسدك فإياك أن تستعملها في معاصي الله، أنعم الله عليك بنعم فيما حولك من أجهزة وغيرها فإياك أن تستعملها فيما يغضب الله، فإنك يوم القيامة مسؤول عن ذلك النعيم.

هذا هو المعنى الإجمالي الإيماني الموضوعي لآيات هذه السورة العظيمة ونرجع إلى المعنى أو التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: **يقول تعالى موبخا عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له ومعرفته والإنابة إليه وتقديم محبته على كل شيء: ﴿أَلْهَاكُمُ﴾.**

﴿أَلْهَاكُمُ﴾ من المخاطبون؟ جنس الناس إلا من علم حقيقة الدنيا فقدم عليها الآخرة.

الأصل في الإنسان اللهو، **واللهو:** هو اشتغال القلب.

العلماء يقولون: اللعب بالبدن واللهو اشتغال القلب بما لا ينفع، فالمخاطبون هم الناس جميعا إلا من علم حقيقة الدنيا فقدم عليها الآخرة.

وقال بعض المفسرين: الخطاب للكفار.

وقال بعض المفسرين: الخطاب لكل من لها بالتكاثر.

والأرجح الأول أن الخطاب لجنس الإنسان إلا من علم حقيقة الدنيا فقدم الآخرة عليها **﴿أَلْهَاكُمُ﴾ عن ذلك المذكور، ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثَر به ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون من التكاثر في الأموال والأولاد والأنصار والجنود والخدم والجاه وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود منه وجه الله.**

حتى قال بعض أهل العلم: إن طلب العلم للمفاخرة والمباهاة يدخل في التكاثر المذموم هنا، كون الإنسان يكثر المسائل ويكثر طلب العلم لا يبتغي بذلك وجه الله وإنما يريد أن يفاخر الناس وأن يتباهى على الناس بالعلم، فإنه يدخل في ذلك.

فكل ما يطلب الناس التكاثر فيه والكثرة الكثيرة فيه ولا يريدون بذلك الخير ووجه الله سبحانه وتعالى يدخل في ذلك، وقد روى مسلم عن مطرف عن أبيه أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ فقال صلى الله عليه وسلم: ((**يقول ابن آدم: مالي مالي؛ وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت**))؛ أي: وما سوى ذلك فإنه ليس لك وإنما هو للورثة كما جاء في الرواية الأخرى: ((**وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**))، وهذا تفسير بنوع من التكاثر وليس هو كل التكاثر.

والمقصود أن الإنسان إذا لها بهذا التكاثر فإن هذا يغويه عن الحق، ثم إنه سيزول عن هذا أو يزول هو عنه ولابد، فلا تبقى إلا العاقبة السيئة لهذا التكاثر.

قال **فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فانكشف حينئذ لكم الغطاء ولكن بعدما تعذر عليكم استئنافه.**

هذا قول الأكثر، **وقال بعض أهل العلم**: معنى ﴿**حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾ أنكم أسرفتم في التكاثر حتى أصبحتم تتكاثرون بالقبور، فيأتي الرجل من القبيلة فيقول: نحن أكثر من قبيلتكم وإن أردتم تعالوا نذهب إلى القبور قبورنا أكثر من قبوركم، موتانا أكثر من موتاكم؛ لأنا أكثر منكم عددا، فأسرفتم في التكاثر حتى أصبحتم تتكاثرون بالقبور، ولكن الأول أولى وهو قول الأكثر من العلماء.

ودل قوله: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار المقصود منها النفوذ إلى الدار الآخرة؛ لأن الله سماهم زائرين ولم يسمهم مقيمين.

والإنسان في قبره يحيى حياةً برزخية يفتن في قبره ويسأل، وينعم أو يعذب، فإن كان منعماً قال: رب أقم الساعة، وإن كان معذباً مع أنه في عذاب يقول: رب لا تقم الساعة؛ لأنه يعلم أن ما أمامه من عذاب أعظم من هذا العذاب.

وهم للقبور زائرون، والزائر لا يقيم، ولذلك قول بعض الناس: انتقل إلى مثواه الأخير، غير صحيح لأن القبر إنما هو محل زيارة وليس المثوى الأخير، وإن كان بعضهم يقول المقصود مثواه الأخير في الأرض، فإنه بعدها يبعث، لكن هذا لا ينبغي، فلا ينبغي أن يقال انتقل إلى مثواه الأخير، وإنما هو زائر للقبر ومحصل في القبر ما يحصل، ثم مبعوثٌ من قبره.

فدل ذلك على البعث والجزاء على الأعمال في دارٍ باقيةٍ غير فانية. ولهذا توعدهم: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿كَلَّا﴾ كلمة للردع؛ أي: ارتدعوا عن هذا اللهو بالتكاثر.

وقال بعض المفسرين: معناها حقاً ويقيناً سوف تعلمون.

و **﴿تَعْلَمُونَ﴾** يعني: تعلمون عاقبة أمركم، وأن الآخرة خير وأبقى وذلك عند حضور الموت.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

تكرار للتأكيد والتهديد والتخويف.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي: لو تعلمون ما أمامكم علم يصل إلى القلوب لما ألهاكم التكاثر، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة. ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون. ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا جواب قسم مقدر تقديره: فوالله لترون الجحيم، فهذه جملة جديدة وهي جواب قسم مقدر.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾؛ أي: لتردن القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

في عرصات القيامة حيث تقرب لأصحابها، وتأتي لها سبعون ألف زمام، ومع كل زمام سبعون ألف ملك مع قوتهم وعظم خِلقتهم، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وهذا

دليل على كبرها وشدة ما فيها وثقل ما فيها، نعوذ بالله منها، نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار، نعوذ بالله من النار.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾؛ أي: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: 53].

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا، هل قمتم بشكره وأدّيتم حقّ اللّه فيه ولم تستعينوا به على معاصيه؟ فينعمكم نعيمًا أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره بل ربّما استعنتم به على المعاصي؟ فيعاقبكم على ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأحقاف: 20].

هذه الآية مقصودها الأعظم أن يعلم المسلم حقيقة حاله ومآله، وأن اليقين أنه ميت، فيُحسن الاستعداد للآخرة، ويقدم الآخرة على الدنيا، وهذا هو حال السلف الصالح رضوان الله عليهم ومن قبلهم حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكون مع أهله فإذا نودي للصلاة كان كأنه لا يعرفهم، وكان بعض السلف ربما رفع المطرقة فأذن المؤذن فأسقطها من يده ولم يرجعها، من شدة استجابتهم وتقديمهم للآخرة على هذه الدنيا.

هذا مقصود هذه السورة: أن تعلم أيها المسلم حقيقة حالك في الدنيا، وأن الدنيا دار الغرور ودار التعب والعمل، وأن اليقين وإن تناسيته أنك ستموت، وإذا مت فإنك ستبعث، وإذا بعثت فإنك ستُجازى على عملك، وهذا يجعل المؤمن يُحسن الاستعداد للآخرة بفعل الطاعات واجتناب المحرمات.

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ (1) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (2) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (3)﴾.

هذه السورة مكية عند جمهور العلماء، يقسم الله عز وجل فيها بالزمان الذي تقع فيه أقوال وأفعال العباد، وتحدث فيه آيات عظام في الكون يقع بها الاعتبار لمن تأمل وتدبر ونظر وتفكر.

والعظيم سبحانه وتعالى إذا أقسم بشيء دل على عظمته وعظمة ما فيه، فالعظيم سبحانه يقسم بهذا الزمان على أمر عظيم يهم كل إنسان ألا وهو أن جنس الإنسان في خسر وضياع وحسرة وعقوبة إلا من استثنى الرحمن سبحانه وتعالى، وهم الذين آمنوا، فآمنوا بربهم سبحانه وتعالى، وآمنو برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ومع إيمانهم ومن إيمانهم عملوا الصالحات، فاجتهدوا في إرضاء الله عز وجل بعمل الصالحات التي فيها الإخلاص لله عز وجل والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، لا يكسلون عن العمل الصالح، ولا يملون من العمل الصالح، يتعبون أنفسهم في ظاهر الأمر، وهم يريحونها حقيقة في الدنيا ويسعون إلى الراحة العظمى في الآخرة عندما يحطون رحالهم في جنة رب العالمين.

ولن يكون الإيمان والعمل الصالح إلا ثمرة العلم، فالعلم يثمر الإيمان، والإيمان يدعو إلى العلم ويثمر العمل الصالح، فهم يجمعون بين الفضيلتين العظيمتين: العلم والعمل، فلم يعملوا بلا علم فيكونوا ضالين، ولم يعلموا بلا علم فيكون من مغضوبا عليهم، بل جمعوا بين العلم والعمل.

ومع ذلك فهم يوصي بعضهم بعضا بالحق، يوصي بعضهم بعضا بالقرآن وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم وبالعمل الصالح الذي دل عليه القرآن والسنة، ويوصي بعضهم بعضا بالصبر ويُصَبر بعضهم بعضا، يتواصون بالصبر على طاعة الله، ويتواصون بالصبر

عن معصية الله، ويتواصون بالصبر على أقدار الله عز وجل، فهم عالمون بالحق وعاملون بالحق، وداعون ومعلمون للحق، وصابرون على الحق، وموصون بالحق والصبر على الحق، ومن جمع هذا فهو أهل للفلاح الكامل، وينقص فلاحه بحسب ما ينقص من ذلك.

وأما من لم يكن من أهل الاستثناء فإنه باق على الأصل وهو أنه في خسارة وفي ضياع وأن مآله إلى حسرة وإلى عقوبة من الله عز وجل.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة القليلة في العدد العظيمة في المعنى، ثم نرجع إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله عز وجل، ونعلق ما يحتاج إلى تعليق ونتمم ما يحتاج إلى إتمام.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين:

أقسم تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار محل أفعال العباد وأعمالهم.

نعم هذا قول الأكثر، **وقيل**: إن العصر هو السنة، فالسنة الواحدة تسمى عصرا.

وقيل: إن العصر هنا هو الوقت المعروف المسمى بالعصر، وهو جزء من اليوم في آخر النهار.

ولكن الأكثر على الأول الذي ذكره الإمام السعدي رحمه الله.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ قال بعض المفسرين: يعني في هلاك.

وقال بعض المفسرين: يعني في ضياع.

وقال بعض المفسرين: يعني في عقوبة.

وقال بعض المفسرين: يعني في حسرة.

وهذا اختلاف تنوع فالكل صحيح.

وما المراد بالإنسان هنا؟ **قال بعض المفسرين**: هو جنس الإنسان إلا من استثنى الله.

وقال بعض المفسرين: هو الكافر، فيكون الاستثناء هنا منقطعا إن الإنسان الكافر لفي خسر لكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات في فلاح.

ولكن الأقرب والله أعلم أن الإنسان هنا هو جنس الإنسان، فالإنسان الأصل فيه أنه في هلاك وخسارة وضياع إلا إذا اتصف بما ذكره الله عز وجل.

أقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح، والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خسارا مطلقا كحال من خسر الدنيا والآخرة وفاته النعيم واستحق الجحيم.

وهذا حال الكفار والمنافقين فإنهم في خسارة مطلقا، وإياك أن تغتر ببهرجة الدنيا وزخارف الدنيا التي يكون فيها الكفار، فإنهم والله لفي خسر خسارة تامة مطبقة ما لم يخرجوا من كفرهم وما لم يخرجوا من نفاقهم.

قال: قد يكون خاسرا من بعض الوجوه دون بعض.

وهذا في حق المؤمن العاصي، فإنه يكون خاسرا من جهة عصيانه.

ولهذا عمم الله الخسارة لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به.

فيؤمن بالأركان الستة وبكل غيب ذكره الله عز وجل، فيؤمن بالقبر وعذاب القبر وفتنة القبر وغير ذلك مما ذكره الله عز وجل، يؤمن بذلك إيمانا لا شك فيه ولا يتطرق إليه احتمال.

قال: ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

فتضمن ذكر العلم؛ ذكر الإيمان والعمل الصالح تضمن ذكر العلم؛ لأن العلم قنطرة الإيمان والعمل الصالح.

قال: والعمل الصالح وهذا شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

ولا يكون العمل صالحا إلا بشرطين:

1. الإخلاص لله.
2. والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكل عمل فقد الشرطين أو أحدهما فهو عمل فاسد صاحبه مستحق للعقوبة وليس عاملا عملا صالحا.

قال: والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي:: يوصي بعضهم بعضا بذلك ويحثه عليه ويرغبه فيه.

وقيل: الحق هو القرآن وما دل عليه القرآن، فهم يتواصون بالقرآن تلاوة ومعرفة للمعاني وعملا بما فيه، ويتواصون بالسنة؛ لأن لازم التواصي بالقرآن التواصي بالسنة، فهما مقترنان، والسنة وحي الحق: ((**ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه**))، والمؤمن لا يفرق بين الوحي، فالكل حق من الله سبحانه وتعالى.

ويتواصون أيضا فيما بينهم بالعمل الصالح، وإذا رأى أحدهم من أخيه نقصا أو كسلا أوصاه فيما بينهُ وبينه، وحرص على أن يدعوه إلى الخير؛ لأنه يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذه صفات أهل الأخلاق، يوصون من يرون فيه تقصيرا خاصا في نفسه ولا ينشرون ذلك بين الناس، ولا يعيبونه من وراء ظهره، ولا يوصونه إذا التقوا به، بل ما دام أن الأمر خاص، فإنهم لا ينشرونه بين الناس، ومع ذلك لا يتركون صاحبه، بل ينصحونه ويوصونه بالحق وبالخير.

قال: والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله وعلى أقدار الله المؤلمة وهذه أنواع الصبر الثلاثة:

1. **الصبر على الطاعة**: ولا شك أن الإنسان يحتاج إلى الصبر على الطاعة ولاسيما في زمن الفتن الذي يكثر فيه المخذِّلون عن الطاعة: وأنت معقد، وأنت متشدد، وأنت تأتينا بالإسلام السعودي، وأنت وأنت ....، فالإنسان يحتاج إلى صبر على هذه الطاعة، ومن صبر حيث يخذَّل عن الطاعة عظم أجره حتى قد يبلغ به الحال أن يثاب ثواب خمسين من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالطاعة تحتاج إلى صبر.
2. **والصبر أيضا عن المعصية**: والمعصية يزخرفها شياطين الإنس والجن وتزخرفها النفس الأمارة بالسوء، فيحتاج الإنسان أن يصبر عنها ولاسيما في الخلوات حيث لا يراه أحد من الناس، فيحتاج أن يصبِّر نفسه وأن يذكرها بأن الله يراه.
3. والصبر على أقدار الله عز وجل: ويحتاج المؤمن أن يصبر نفسه عن المصائب، ونزول المصيبة دليل على المحبة إن لم يكن ذلك استدراجا، فإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، ويبتلى الناس بقدر محبة الله لهم وبقدر دينهم.

ولذلك بعض السلف إذا مرت عليه أيام لم يُبْتَلَ بمصيبة يتفقد نفسه، وإذا نزلت المصيبة بالإنسان والبلاء بالإنسان فإنه يصبر نفسه أن الذي أنزلها هو الله المالك له، فالله مالك وهو عبد، وللمالك أن يفعل بعبده ما يشاء، وهذا المالك سبحانه لا يظلم الناس شيئا، وإنما يفعل عن حكمة، فلا يسأل عما يفعل سبحانه وتعالى، وهذا المالك الحكيم إن ابتلى بشيء فقد أنعم بأشياء، ثم هذا الابتلاء لمصلحة المبتلى:

- لتذكيره ليعبد الله.
- لتكفير سيئاته.
- لتعلو درجته في الجنة.

فكيف لا يصبر إذا علم المؤمن هذا؟!

ثم إن البلاء مار وليس قارا، البلاء يمر وكل عسر يعقبه يسر فيصبر المؤمن على هذا الأمر.

قال: فبالأمرين الأولين يكمل العبد نفسه.

يعني: بالإيمان والعمل الصالح.

وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره.

يعني بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، والحق أنه بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر يكمل نفسه ويكمل غيره، فالتواصي هذا عمل صالح في ذاته، ومن وصى غيره فإن في هذا موعظة لنفسه، ولذلك العاقل لا يمكن أن يوصي غيره بشيء ويترك ذلك الشيء إلا ألا يكون مطلوبا منه هو، فبالتواصي بالحق والتواصي بالصبر يكمل الإنسان نفسه وغيره.

قال: وبتكميل الأمور الأربعة يكون العبد قد سلم من الخسار وفاز بالربح العظيم. وبهذا يتم تفسير سورة العصر، ومقصود هذه السورة: أن الناس في الدنيا ينقسمون إلى قسمين: أهل ربح وأهل خسارة، وأن أهل الربح هم أهل الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأن أهل الخسارة هم من عدا ذلك.

سورة الهمزة

بسم الله الرحمن

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ (1) الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ (2) يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ (3) كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ (4) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (5) نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ (6) الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (7) إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ (8) فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ (9)﴾.

في هذه السورة المكية باتفاق العلماء يتوعد الله عزو جل بالنار وشديد العذاب المغتابَ الطعان الذي يطعن في الناس ويعيب الناس بقوله أو فعله أو إشارته بغير حق، ويتنقصهم ويتتبع عيوبهم.

ومع ذلك فهو بخيل جماع للمال، لا يخرج منه حقه، ويعده دائما ويحسبه دائما خوف نقصانه، مع أنه يعلم أنه لم ينفق منه شيئا، فيعده صباحا ثم يعده مساء، وهو يعلم أنه لم ينفق منه شيئا.

وهو لجهله يظن أن ماله سيخلده في الدنيا، ويحميه من الموت، ويبقى ذكره بين الناس إذا مات، فهو يظن أن هذا المال يجلب له الصحة والعافية والقوة والبقاء في الدنيا، وأنه إذا جاءه الموت سيبقى ذكره بين الناس؛ لأنه صاحب أموال.

وليس الأمر كما يظن بل والله سيموت ويبعث ويجازى ويطرح في النار طرحا بإهانة، وتحطمه النار وتطحنه طحنا.

وما أدراك ما الحطمة؟ إن شأنها عظيم وعذابها شديد، تطحن أهلها وأهلها في عذاب شديد، إنها النار التي أعدها الله عز وجل لعذاب المستحقين للعذاب، التي أوقد عليها فهي سوداء مظلمة، ومن وقودها الناس والحجارة، وعذابها شديد، فهي تحرق أهلها حتى تبلغ قلوبهم، فكل الأعضاء في ظاهرها وباطنها تحرق بنارها ويصل لهبها إلى القلوب التي في الصدور، وهي على أهلها مطبقة مغلقة محكمة الأبواب، قد جعل الله على أبوابها أعمدة لإحكام إغلاقها، ولييأس أهلها من فتح أبوابها، وفيها أعمدة يُربط فيها أهل النار وأعمدة من نار يعذب بها أهل النار، فهم في ألوان من العذاب لا يألفون العذاب أبدا بل يجدد عليهم، وهم يائسون من الخروج من هذا العذاب، فقد يئسوا من الموت، ويئسوا من سؤال

إخراجهم منها، ويئسوا من فتح أبوابها، وهذا من أشد عذابها على أهلها، ومع ذلك فلهبها شديد يحرق الإنسان من ظاهره وباطنه، نعوذ بالله من عذاب النار، نعوذ بالله من عذاب النار، نعوذ بالله من عذاب النار.

هذا هو المعنى الإجمالي الإيمان الموضوعي لآيات هذه السورة، ونرجع إلى التفسير التفصيلي فنقرأ ما ذكره الإمام السعدي رحمه الله.

﴿وَيْلٌ﴾: أي: وعيد ووبال وشدة عذاب.

هذا عند أكثر العلماء أن ﴿وَيْلٌ﴾ كلمة وعيد؛ أي: أن لهم وعيدا وشدة عذاب.

وقال بعض العلماء: بل ﴿وَيْلٌ﴾ جهنم، ويل من أسماء جهنم.

وقال بعض العلماء: ﴿وَيْلٌ﴾ واد من أودية جهنم.

والذي عليه الأكثر أنها كلمة وعيد بالعذاب الشديد.

﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾: أي: الذي يهمز الناس بفعله ويلمزهم بقوله، فالهماز الذي يعيب الناس ويطعن ويعيب عليهم بالإشارة والفعل.

كأن يلوي وجهه إذا رأى إنسانا أو يغمز بعينه أو يشير برأسه إليه أو نحو ذلك. **واللماز الذي يعيبهم بقوله.**

فيعيب بالقول: وفلان كذا وفلان كذا وفلانة كذا.

وقال بعض العلماء: هما بمعنى واحد فالهماز اللماز هو المغتاب، فالمغتاب يقال: له هماز لماز.

وقال بعض العلماء: الهماز المغتاب، واللماز السباب، ما الفرق بينهما؟

المغتاب يذكر الإنسان بما يكره من وراء ظهره في غيبته، والسباب يذكر الإنسان بما يكره في وجهه فيسبه وهو حاضر، فالهماز هو المغتاب واللماز هو السباب الطعان.

وعكس **بعض أهل العلم** وقالوا: الهماز هو السباب واللماز هو المغتاب.

وقيل: الهماز هو الذي يطعن في الأنساب خاصة، نسب القبيلة الفلانية وأنساب فلان يطعن فيها، واللماز هو الذي يسب في غير ذلك.

وكلمة المفسرين جميعا على أن الهماز اللماز الأصل فيه أنه المغتاب الذي يغتاب الناس ويعيبهم، وكذلك على الراجح السباب الذي يسب الناس ويطعن فيهم بحضورهم.

قال: ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به.

﴿وَعَدَّدَهُ﴾ قيل: إنه من بخله يكثر عده، فدائما يعد المال ولا ينفق منه شيئا، ولكنه من شدة بخله يعده دائما.

وقيل: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾؛ أي: جعله عدة لنوائب الدهر معتمدا عليه، يقول: أنا ما عندي الحمد لله ما أخاف من المستقبل، أنا عندي أموال، فيعتمد على ماله، ويعد المال أمانا للمستقبل، ولا يتوكل على الله، وإنما يعتمد على هذا المال، فهو يجعله ويعده لنوائب الدهر معتمدا عليه.

وقال بعض المفسرين: ﴿وَعَدَّدَهُ﴾؛ أي: كنزه ولم ينفق منه لا الإنفاق الواجب ولا الإنفاق المستحب.

وقال بعض المفسرين: وعدده؛ أي: أعده للورثة، ليس بقصد منه لكنه جمعه جمعه جمعه ثم مات وتركه، فهو للورثة.

وكل هذه المعاني صحيحة، فهو يعده عدا، ويكثر عده، ويعتمد عليه في الأمان من مصائب الدهر، ولا ينفق منه لا النفقة الواجبة ولا النفقة المستحبة، ومع ذلك فإنه ميت عنه وتاركه للناس إن لم يبتل في حياته بذهاب المال من بين يديه.

قال: وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ونحو ذلك. ﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله.

﴿يَحْسَبُ﴾ يعني يظن.

﴿يَحْسَبُ﴾ بجهله: ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ في الدنيا.

بجسده أو بذكره، بجسده حيث يحسب أن المال سيبقيه قويا صحيحا سليما؛ لأن عنده أموال، ويحسب لجهله أنه إذا مات سيبقى ذكره بين الناس لأنه شريف والناس يأتون إليه وعند بابه لأنه صاحب مال؛ لأن الناس في الغالب يميلون إلى صاحب المال، ولا يتنبه المسكين إلى ما قاله ذاك القائل:

رأيت الناس قد مالوا   إلى من عنده مال

ومن لا عنده مال   فعنه الناس قد مالوا

فهو إن كان عنده مال وينفق يأتيه الناس، أما إذا كان لا ينفق فإن الناس لا يأتونه، وإذا ذهب ماله فإنه لا قيمة له عند الناس، وإذا ذهب هو عن المال فإنه لا ذكر له حسن عند الناس.

قال: فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره، ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كَلَّاۖ لَيُنبَذَنَّ﴾.

﴿كَلَّاۖ﴾ كما تقدم مرارا كلمة للردع والزجر؛ أي: ارتدع عن هذا، وقيل: معناها حقا.

﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ جواب قسم مقدر؛ أي: والله لينبذن.

أي: ليطرحن في الحطمة.

الحطمة التي تحطم الأشياء وتفتتها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ تعظيم لها وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾.

فالحطمة من أسماء النار، ونار الله أضيفت إلى الله؛ لأنها عذاب الله ومحل انتقامه وغضبه سبحانه وتعالى.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة.

وجاء في حديث عند الترمذي وفيه ضعف ضعفه الألباني وغيره أنها أوقد عليها ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، والحديث فيه ضعف، وثبت عن جمع من السلف أن نار جهنم سوداء مظلمة.

﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾: أي: تنفذ من الأجسام إلى القلوب.

فهي لا تحرق ظاهر الجلد، بل تحرق ظاهر الجلد وباطن اللحم وباطن الجوف حتى تحرق القلب، فعذابها شديد محيط عام، نعوذ بالله من النار.

قال: ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها قد أيسوا من الخروج منها ولهذا

قال: ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ﴾؛ أي: مغلقة، ﴿فِي عَمَدٖ﴾ من خلف الأبواب، ﴿مُّمَدَّدَةِۭ﴾ لئلا يخرجوا منها.

أي: دون الأبواب من جهة جهنم أعمدة مدت، وهذا معروف أن فيه شدة الإحكام وأن الباب الذي تمد عليه الأعمدة لا يمكن فتحه وأنه شديد الإغلاق، وأنهم لو راموا فتح الأبواب لحالت بينهم وبينها الأعمدة.

وقال بعض المفسرين: يعني في عمدٍ من الحديد في النار يربط فيها أهل النار، حديد في نار مشتعلة سيكون نارًا يربط فيه أهل النار.

وقيل: أعمدة يعذب فيها أهل النار ويضرب بها أهل النار.

والكل صحيح.

كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها، نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية.

ومقصود هذه السورة والحكمة الكبرى منها:

- بيان خطر الذنوب ولاسيما الغيبة والشح المطاع، فإنها من أقبح الذنوب صفةً وأثرًا، الغيبة والطعن في الناس بغير حق، وأعظمه الطعن في الدين بغير حقٍ، وللأسف أن بعض طلاب العلم أصيبوا بموت قلوبهم في هذا الباب، فلا يرتاحون إلا بالطعن في دين الناس من غير حق ولا علم ولا بصيرة، وهذا خطر عظيم، وفرق بين من يتكلم ليحمي دين الناس وبين من يتكلم ليطعن في دين الناس، شتان بين من وصل الدرجات الكبرى في الفضل وبين من انحدر إلى الدركات السفلى في السفالة ثم الطعن في أعراض الناس بغير حق ولا برهان.

فهذا من أقبح الذنوب وأعظمها أثرا على المغتاب في أعراض الناس، وكذلك الشح المطاع الذي يطيعه الإنسان فلا ينفق من المال، فإنه من أقبح الذنوب وأعظمها أثرا.

والحكمة العظمى من السورة: بيان شؤم المعاصي والذنوب ولاسيما ما ذكر وهو الغيبة والشح المطاع.

سورة الفيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (3) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (5)﴾.

في هذه السورة المكية بالاتفاق يخاطب الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم ومن يصلح للخطاب: ألم تعلم علم اليقين كأنك ترى بعينيك وإن كنت لم تر؛ لكن الخبر صحيح.

كيف فعل ربك بأصحاب الفيل وهم أبرهة الأشرم وجيشه، حيث بنى أبرهة في اليمن كنيسة كبرى وأراد أن يصرف حج العرب من الكعبة إليها، فغضب العرب جميعا وغضبت قريش من جملتهم، فذهب شاب من قريش ودخل تلك الكنيسة وقضى حاجته فيها، ثم عاد.

وقيل: إن فتية من قريش ذهبوا إليها فأوقدوا النار فيها فأصبحت هشيما، فقيل إن هذا من فعل قريش، فجهز أبرهة جيشا عظيما، وأخذ معه فيلا ضخما جدا جاءه من الحبشة، يقال: له محمود قيل ليرعب العرب؛ لأنهم لا يعرفون هذه الأفيال، وقيل: ليهدم به الكعبة، وقيل: ليحمل عليه وعلى بعض الفيلة حجر الكعبة ليبني به الكنيسة، فسار من اليمن في جيشه، فقاومه بعض العرب فهزمهم، حتى إذا بلغ مكة برك الفيل ولزم الأرض، فنخزوه بالحراب فلم يتحرك، فوجهوه إلى اليمن فقام وهرول، وأعادوه إلى مكة فبرك في نفس المكان، وهكذا؛ فجعل الله كيدهم حيث جيشوا هذا الجيش وأحضروا الفيلة في ضياع وخسار وعاقبهم عقوبة عظمى، فأرسل عليهم طيرا الله أعلم بصفتها لكنها كثيرة العدد، تأتي تباعا وتأتيهم من كل مكان، هذه الطير ترميهم من فوقهم بحجارة من طين قد أحرقت في نار جهنم، فتنفض في أجسادهم فتتفتت أجسادهم، فمنهم من مات في موضعه، ومنهم من بدأ الموت فيه في ذلك الموضع، ثم سار يتساقط جسده ويخبر عن هذه القضية فمات في الطريق، ومنهم من عاد إلى اليمن ومات هناك، فجعلهم الله يتساقطون وتتساقط أعضاءهم جزءا جزءا كالورق الضعيف والقشرة الضعيفة على الثمار التي تتساقط ولا قيمة لها.

وفي هذا منة عظمى من الله على قريش أهل البيت وجيرانه وعلى المسلمين أهل الكعبة، فهذه منة عظمى، والأكثر أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد في ذلك العام، وأن في هذا إرهاصا لدعوته صلى الله عليه وسلم.

هذا هو المعنى الموضوعي الإيماني الإجمالي لهذه السورة، ثم نرجع إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه ورحمته بعباده وأدلة توحيده وصدق رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ما فعله الله بأصحاب الفيل.

النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا؛ ولد في ذلك العام، فكيف يقال: ألم تر؟ وهو لم ير، **قال العلماء**: يعني ألم تعلم علما يقينيا كأنك ترى بعينك، علم لا شك فيه، فإن الخبر متواتر صحيح.

ونحن اليوم والله نعلم ما فعله الله بأصحاب الفيل كأنا قد رأيناه بأعيننا.

والخطاب لمن هنا؟

قيل: للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة، وتدخل أمته تبعا له.

وقيل: خطاب لكل من يصلح لهذا الخطاب، فيدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم وكفار قريش والمؤمنون إلى قيام الساعة، وهذا أظهر والله أعلم.

ما فعله الله بأصحاب الفيل الذين كادوا بيته الحرام، وأرادوا إخرابه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه.

قيل: فيل واحد، وقيل: فيل كبير ومعه عدد من الفيلة.

ويكون الفيل هنا إما المقصود به الفيل الكبير الذي اسمه محمود، وإما الفيل هنا جنس الفيلة.

قال: وجاؤوا بجمع لا قبل للعرب به من الحبشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة.

وإن كان بعض العرب قد قاوموا الجيش وواجهوه بالسلاح ولكنهم هزموا.

وخرج أهل مكة من مكة خوفا على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل

﴿**أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ**﴾: أي: جمعهم وتجهيزهم الجيش.

﴿**فِي تَضْلِيلٍ**﴾ يعني في ضياع وخسران.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ أي: متفرقة.

قيل: معنى أبابيل متفرقة، **وقيل**: جماعات كثيرة، **وقيل**: تأتي من جهات كثيرة وتأتي متتابعة.

وهذا اختلاف تنوع، فكلها من صفاتها، فهي كثيرة مجتمعة على إهلاك هؤلاء القوم تأتي متابعة، فكل هذه الصفات متحققة فيها.

قال: تحمل أحجارا مُحَماة من سجيل.

﴿**مِّن سِجِّيلٍ**﴾؛ أي: من طين، السجيل هو الطين، فهي تحمل أحجارا من طين قد أحرق في نار جهنم فهو صلب؛ لأنه طين محروق، وهو حامٍ؛ لأنه أحمي في نار جهنم.

قال: فرمتهم بها، وتتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهمدوا وصاروا كعصف مأكول.

﴿**كَعَصْفٍ**﴾ **قال بعض العلماء**: العصف هو الورق الضعيف الذي يتساقط، ورق الشجرة الضعيف الذي يتساقط .

وقال بعض العلماء: هو القشرة الخفيفة التي تكون على الحبوب وعند الحصاد تطير.

وقال بعض أهل العلم: هو التبن الذي تأكله البهائم.

والمقصود أنه نبات ضعيف خفيف يتساقط ولا قيمة له، فجعلهم الله كهذا، وذلك أن الحجارة إذا أصابت أجسادهم تتفتت أجسادهم وتتساقط شيئا فشيئا، فصاروا كهذا العصف المأكول.

﴿**مَّأْكُولٍ**﴾ يعني: أكلته البهائم مع خفته فلا قيمة له.

وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحورهم، وقصتهم معروفة مشهورة، وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصارت من جملة إرهاصات دعوته وأدلة رسالته فلله الحمد والشكر.

ومن حكم هذه السورة العظمى:

- بيان عظيم قدرة الله عزوجل وبيان حماية الله عزوجل لبيته، ويفهم من ذلك حماية الله لأوليائه إن توكلوا عليه وأخلصوا له وكانوا أولياء حقا وصدقا.

- ومن حكمها العظمى بيان أن الله هو المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، فهو الذي حمى بيته سبحانه وتعالى.

سورة قريش

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (1) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (2) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (3) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (4)﴾ [قريش: 1-4].

في هذه السورة المكية يمتن الله عزوجل على قريش أهل الحرم بما أنعم به عليهم من النعم العظيمة ومنها ما ألفوه واعتادوه واجتمعوا عليه من رحلة الشتاء إلى اليمن، وذلك لطيب هواءها في الشتاء وطيب ثمارها في الشتاء، ورحلة الصيف إلى الشام وذلك لطيب هواءها في الصيف ولطيب ثمارها في الصيف.

وهم مع ذلك في بلدهم آمنون، فهم في أمن من الخوف؛ لأنهم جيران الحرم الذي جعله الله عزوجل آمنا، فأمنوا بأمنه، وآمنهم الله فيه من كل خوف عام، فلا يخافون عدوا يستأصلهم، ولا مرضا يستأصلهم جميعا.

وأطعمهم من جوع فأمنوا من الجوع أيضا، فهم يُرزقون من الثمرات، وتُجبى لهم الثمرات من كل مكان.

وهذه النعم العظمى توجب عليهم أن يعبدوا المنعِم سبحانه وتعالى، فيوحدوا الله ويتركوا عبادة الطاغوت والشرك بالله سبحانه وتعالى، ويتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذا هو المعنى الموضوعي الإجمالي الإيماني لهذه السورة، وأما التفسير التفصيلي فنقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله ونعلق عليه.

قال الإمام السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: **قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور.**

الجار والمجرور يعني في ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾: لِإِيلَافِ: الجار والمجرور لابد له من متعلَّق، ومتعلَّقه هنا اختلف فيه:

-منه ما ذكره الشيخ، وهو أن هذه السورة مرتبطة بالسورة التي قبلها، فالذي فعله الله عز وجل بأصحاب الفيل من أجل قريش -سكان الحرم- وحفظ ما هم فيه من النعم.

وقال بعض المفسرين: بل الجار والمجرور متعلِّق بقوله سبحانه وتعالى في السورة: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾؛ يعني: بسبب ما أنعم الله به عليهم من هذه النعم.

وقال بعض المفسرين: هو متعلق بفعل محذوف تقديره: اِعجبوا؛ اِعجبوا من قريش كيف ينعم الله عليهم ويعبدون غيره؟!

قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها؛ أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم واستقامة مصالحهم وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب، فأهلك الله من أرادهم بسوء وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا.

﴿لِإِيلَافِ﴾ ما معنى إيلاف؟ **قال بعض أهل العلم**: ما اعتادوه وألفوه من هاتين الرحلتين.

وقال بعض أهل العلم: يعني ما اجتمعوا عليه من الائتلاف وهو الاجتماع.

وكلا المعنيين صحيح، فإيلاف قريش هو اعتيادهم هاتين الرحلتين، واجتماعهم على هاتين الرحلتين.

وقريش هي القبيلة المعروفة.

﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ﴾ إلى اليمن، ﴿وَالصَّيْفِ﴾ إلى الشام.

قال: **ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾.**

الفاء هنا سببية، أي: بسبب هذه النعم أو بسبب أن الله أنعم عليهم بهذه النعم ليعبدوا رب هذا البيت.

أي: ليوحدوه ويخلصوا له العبادة.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من الخوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى، فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾: فالله عز وجل جعل البيت وأهله في أمن من الخوف وأمن من الجوع، فآمنهم من كل خوف، وأطعمهم من الجوع، فهم يرزقون من الثمرات، وتُجبى لهم الثمرات من كل مكان.

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾: خوف هنا عام من كل أمر يخاف منه خوفا عاما؛ من عدو مستأصل أو مرض مستأصل، بل وحتى الدجال؛ فإنه لا يدخل مكة.

وقال العلماء: لا يوجد مكان في الأرض آمنَ من مكة؛ آمنُ مكان على وجه الأرض على الإطلاق هو مكة، فأمنها متين قوي؛ لأن الله هو الذي أمنها سبحانه وتعالى، فآمن بقعة على وجه الأرض هي مكة.

وخص الله الربوبية بالبيت لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ الله رب كل شيء ومليكه، فلماذا خص البيت هنا؟ قالوا: تشريفا للبيت؛ ولأنه سبب أمنهم ورغد عيشهم.

فهذا تذكير بأن جوارهم للبيت هو سبب أمنهم وسبب رغد عيشهم، لم ينالوا هذا بشرف نسبهم، ولا بكثرة عددهم، ولا بقوتهم، وإنما بمجاورتهم لبيت الله، وهم جميعا يعلمون أن البيت -أعني الكعبة- بيت الله سبحانه وتعالى.

ومن مقاصد هذه السورة العظمى وحكمها الكبرى:

- أن أعظم شكر على النعمة هو عبادة الله عز وجل بها.

-وأن النعم تقتضي من العبد أن يعبد الله سبحانه وتعالى.

سورة الماعون.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ (1) فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ
(2) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ
سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)﴾ [الماعون: 1-7].

هذه السورة تسمى: سورة الماعون، وتسمى: سورة الدين، وتسمى: سورة اليتيم، وتسمى: سورة التكذيب، وتسمى: سورة أرءيت.

وهي سورة مكية عند الجمهور، بعض أهل العلم قالوا مدنية، وبعض أهل العلم قال: بعضها مكي وبعضها مدني، ولكن الذي عليه الجمهور أنها مكية.

وفيها يخاطب الله عز وجل من يصلح للخطاب، ﴿أَرَأَيْتَ﴾ فشاهدت وعلمت حال من يكذب بيوم البعث والجزاء والحساب والثواب والعقاب؛ فإنه يكون مضيِّعا لحقوق الله، ومضيعا لحقوق خلق الله، وقاسي القلب، وبخيلا بالمال؛ لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب.

فإنه يدفع اليتيم الذي مات أبوه وهو دون سن البلوغ؛ يدفعه بشدة إذا جاء يطلب حقه أو يطلب فضله، فإذا جاءه يطلب ميراثه أو ماله من أبيه دفعه بشدة وكهره ونهره، وإذا جاءه يطلب منه شيئا ليعينه دفعه بشدة وكهره ونهره، فهو يظلمه حقه، ولا يكرمه.

ولا يأمر غيره بإطعام المسكين الذي لا يجد القوت، ومن باب أولى أنه لا يطعمه بنفسه، فإذا كان لا يأمر غيره بإطعامه وهو لا يكلفه، شيئا فمن باب أولى أنه لا يطعمه بنفسه، فهو قاسي القلب، شحيح بالمال.

ثم توعد الله عز وجل طائفة من المصلين بالعذاب الشديد وهم الساهون اللاهون المعرضون عن صلاتهم، إما:

- بعدم المحافظة على أدائها؛ فهم يصلون ويتركون.
- وإما بعدم المحافظة على وقتها؛ فهم يخرجون الصلاة عن وقتها.
- وإما بجعلها في آخر الوقت ونقرها نقرا، وصلاتها بسرعة.
- وإما بالسرقة من ركوعها وسجودها وخشوعها بعدم إحسان أفعالها.

ومع سوء صلاتهم فإنهم غير مخلصين فيها ولا في غيرها، فلا يصلون لله، ولا يذكرون الله إلا قليلا، وإنما هم يظهرون العبادة أمام الناس من أجل أن يمدحهم الناس، فهم يصلون مع المصلين لا لإرضاء رب العالمين، وإنما ليقال: إنهم من المصلين، ولا يذكرون الله إلا قليلا، وهذا شأن أهل النفاق.

وهم مع كل هذا القبح لا يحسنون إلى الخلق، بل يمنعون ما يجب عليهم أن يبذلوه للناس أو يستحب لهم أن يبذلوه للناس ولو كان شيئا قليلا، ولوكان بذله للناس لا يضرهم شيئا، فهم لا يحسنون العبادة ولا يحسنون إلى العباد.

وهذا شأن أهل الكفر وشأن أهل النفاق الذي يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن اتصف بصفه من هذه الصفات مع الإيمان فهو مشابه لهم وفاعل لكبيرة من كبائر الذنوب.

ومقتضى هذه السورة ومفهومها أن الإيمان باليوم الآخر -بيوم الدين- يقتضي من العبد أن يكون رحيم القلب، رفيقا باليتامى، مؤديا حقوقهم، مطعما للمساكين، مهتما بصلاته، صاحب عناية بها يؤديها دائما في وقتها، ويحرص على إتمام وضوئها وركوعها وسجودها وخشوعها وجميع أقوالها وأفعالها، ويكون في ذلك مخلصا لله عز وجل، ويحسن إلى خلق الناس ببذل ما يحتاجون إليه من المنافع ولاسيما إذا كان البذل لا يضره شيئا.

هذا هو التفسير الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة، وأما التفسير التفصيلي فنقرأ ما سطره الإمام السعدي ونعلق عليه.

قال رحمه الله: **يقول تعالى ذامًا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.**

﴿أَرَأَيْتَ﴾ قال بعض المفسرين: معناها: أشاهدت بعينك حالهم؟

وقال بعض المفسرين: أعلمت؟

وقال بعض المفسرين: معناها أخبرني عن حالهم.

﴿الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ قيل: بالبعث والجزاء، وقيل: بالحساب، وقيل: بالثواب والعقاب، وقيل: يكذب بحكم الله؛ والكل داخل في التكذيب بيوم الدين.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه لقساوة قلبه

فيمنعه حقه ولا يعطيه من فضله، لا يمكنه من حقه، ولا يعطيه من ماله هو، بل يكون ظالما له وغير مكرم له؛ لأنه لا يؤمن بالثواب والعقاب.

واليتيم: الذي مات أبوه وهو دون سن البلوغ ضعيف مسكين، فلا يخاف سطوة أحد، ولا يؤمن بالثواب والعقاب، فتجده آكَّالا لمال اليتيم، نَهَّارا له ظالما له.

قال: ولأنه لا يرجو ثوابًا ولا يخاف عقابًا.

﴿وَلا يَحُضُّ﴾ غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾: ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾.

﴿فَوَيْلٌ﴾ كما تقدم وعيد بالعذاب الشديد، وقيل: هي جهنم، وقيل: واد من أودية جهنم، لكن الذي عليه الأكثر أنها وعيد: كلمة وعيد بالعذاب الشديد.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمين لإقامة الصلاة.

الملتزمين لإقامة الصلاة أي: أنهم التزموا الإسلام ولو ظاهرا كحال المنافقين، ولكنهم ساهون عن صلاتهم:

- فإما أنهن يتركونها بالكلية، هم مصلون باعتبار أنهم التزموا الصلاة؛ باعتبار أنهم التزموا الإسلام، ولكنهم في الحقيقة لا يصلون.
- وإما بعدم المحافظة على أدائها، فهم يصلون ويخلون.
- وإما بإخراجها عن وقتها بالكلية.
- وإما بتأخيرها حتى يضيق الوقت ضيقا شديدا فينقرونها نقرا.
- وإما بأدائها من غير إحسان.

فهم لاهون عن صلاتهم.

ولكنهم ﴿عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ﴾.

﴿سَاهُونَ﴾ قيل: لاهون، وقيل: معرضون، والمعنى قريب.

أي: مضيعون لها تاركون لوقتها مخلون بأركانها، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة التي هي أهم الطاعات.

ومن ضيع الصلاة كان لسواها أضيع، من لم يعتن بالصلاة فإنه لا يعتني بسائر الأعمال.

قال: والسهو عن الصلاة هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم.

وأما السهو في الصلاة فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي صلى الله عليه وسلم.

والسهو عن الصلاة قد يكون كما قلنا:

- -بتركها بالكلية.
- وقد يكون بعدم المحافظة عليها.
- وقد يكون بتأخيرها عن وقتها.
- وقد يكون بصلاتها في آخر الوقت بسرعة.

وهذا كله خارج الصلاة.

وقد يكون السهو عن الصلاة في داخل الصلاة، بحيث يصلي وهو غافل غير مهتم، فلا يهتم بركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، فإنه يدخل في هذا الوعيد.

أما السهو في الصلاة الذي يغلب على الإنسان فينسى فهذا لا يسلم منه أحد، ولا يذم به أحد مادام أنه ليس بتفريط من الإنسان، ولذلك النبي صلى الله عليه وسلم سها في صلاته وهو رسول صلى الله عليه وسلم، ولم يقع ذلك منه مرة واحدة بل تكرر منه صلى الله عليه وسلم.

ومن حكم وقوع السهو من النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة أن يُعلم أن السهو الغالب على الإنسان لا يذم به الإنسان، ولذلك الإمام إذا سها لا يذم بأنه سها، بل هذا من الأمور التي تغلب على الإنسان ولا يؤاخذ بها.

قال رحمه الله: **ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رئاء الناس.**

فيظهرون الأعمال أمام الناس ويزينونها من أجل مدح الناس، من أجل حمد الناس، يظهر الواحد منهم الخشوع ولربما بكى في صلاته لا خوفا من الله؛ وإنما ليقول الناس: بكاء، فلان بكاء، ربما لازموا المسجد، لا خوفا من الله ولا التماسا لرضا الله؛ وإنما ليقول الناس: حمامة مسجد لا يغيب عن المسجد، وهكذا ولا يذكرون الله إلا قليلا، وهذا شأن أهل النفاق.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة كالإناء والدلو والفأس ونحو ذلك مما جرت العادة ببذله والسماح به.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: **((كنا نعد الماعون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم عَوَرَ الدلو والقدر))** رواه أبو داوود وحسنه الألباني.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه كنا نعتبر الماعون ونعده أنه إعطاء الدلو على سبيل العارية، يأتي جاره ويريد دلوا يعيره الدلو، يريد قدرا يعيره القدر.

فهؤلاء يمنعون من هذا مع أنه لا يضرهم.

وقال بعض المفسرين: الماعون كل ما فيه منفعة كبيرا كان أو صغيرا، فيأتيه جاره محتاجا للسيارة وهو يحسن القيادة ولا يحتاج الآن للسيارة، ويقول: أريد السيارة أوصل زوجتي للمستشفى، يقول: لا؛ ما أعطيك، ولاسيما عند الاضطرار فإنه يصبح واجبا، مثل: رجل امرأته على وشك الولادة، وليس عنده سيارة، ويقول لجاره: أعطني السيارة، الولادة متعسرة أعطنا السيارة نوصل المرأة أو أوصلنا يقول: لا؛ أو قليل يقول له: أعطني الملعقة لأشرب بها الدواء، يقول: لا؛ يقول: أعطني السكين لأقطعن، يقول: لا؛ فهو منع كل ما فيه منفعة مما لا يضر إعطاؤه سواء كان كبيرا أو صغيرا.

وقال بعض المفسرين: الماعون هو المال، فهم يمنعون المال فلا يخرجون من المال شيئا لا واجبا ولا مستحبا.

وقال بعض المفسرين: الماعون هو الماء -آخره همز- يمنعون الماء ولا يبذلونه للناس.

وقال بعض المفسرين: الماعون هو الزكاة؛ يمنعون الزكاة ولا يؤدونها ولا يوصلونها إلى أهلها.

فهؤلاء لشدة حرصهم يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

قال رحمه الله: **وفي هذه السورة الحث على إطعام اليتيم والمساكين والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها وعلى الإخلاص فيها وفي سائر الأعمال، والحث على فعل المعروف وبذل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذلك؛ لأن الله ذم من لم يفعل ذلك والله سبحانه أعلم.**

من فوائد هذه السورة الكبرى:

- أن التكذيب بيوم الدين سبب لكل شر.

- ومن فوائدها الكبرى: أن الاتصاف بصفة من الصفات المذكورة فيها من كبائر الذنوب، فزجر اليتيم ومنعه حقه من كبائر الذنوب، وعدم إطعام المسكين عند الضرورة من كبائر الذنوب.

المسكين يا إخوة هو الذي لا يجد ما يقيته، إنسان عنده فضل من مال ورأى مسكينا يكاد يموت ولا يعطيه من فضل المال هذا كبيرة من كبائر الذنوب.

والرياء كبيرة من كبائر الذنوب، هذا إذا لم يغلب على جميع الأعمال؛ وأما غلبته على جميع أعمال الإنسان بحيث لا يذكر الله إلا قليلا فهذا لا يكون من مؤمن، هذا من أهل النفاق فقط.

وكذلك منع ما يجب بذله ولاسيما عند الضرورة من كبائر الذنوب.

وكما قلنا في التفسير من فوائد السورة أن من شأن المؤمنين عكس ما ذكر في هذه السورة، من شأن المؤمنين في البعث والجزاء عكس ما ذكر في هذه السورة.

سورة الكوثر.

بسم الله الرحمن الرحيم:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (1) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (2) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (3)﴾ [الكوثر: 1-3].

هذه السورة كما يقول العلماء أقصر سورة في القرآن، وهي يشترك معها في عدد آياتها سورة العصر وسورة النصر، ولكنها أقصر سورة في القرآن من جهة عدد الكلمات والحروف، فهي أقصر سورة في القرآن.

وهي مكية عند الجمهور، وذهب جماعة من السلف والخلف إلى أنها مدنية، وهذا أقرب والله أعلم أنها مدنية، وذلك لحديث أنس رضي الله عنه أنه قال: ((بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفا إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أنزلت علي آنفا سورة، ثم قرأ: بسم الله الرحمان الرحيم ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ السورة)) رواه مسلم في الصحيح.

ومعلوم أن أنس رضي الله عنه مدني، وهو يقول: ((بين أظهرنا)) وفي بعض الروايات: ((في ناحية المسجد)) فدل ذلك على أن السورة مدنية.

وفي هذه السورة يمتن الله عز وجل على رسوله محمد صلى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى أمته تبعا له بأنه سبحانه وتعالى قد أعطاه الخير الكثير، ومن ذلك الخير الكثير نهر الكوثر الذي أصله في الجنة، ومنه حوض يكون في المحشر تَرِدُه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، آنيته عدد نجوم السماء، وهو أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، حافَّتاه قباب اللؤلؤ المجوف.

فالله أعطى النبي صلى الله عليه وسلم وأمته تبعا له الخير الكثير، ومنه هذا النهر العظيم.

ومادام ذلك كذلك فصلِ لربك واجعل صلاتك لربك، والصلاة أشرف عبادات البدن فكن مخلصا فيها؛ في فرضها، وفي نفلها، وانحر لربك لا شريك له، فاجمع بين العبادة البدنية والعبادة المالية مخلصا لله عز وجل في جميع أعمالك، إن مبغضك ومبغض دينك وعدوك وعدو دينك هو الأذل الحقير المقطوع من كل خير، فليس في خير ولا يصل إلى خير.

هذا هو المعنى الإيماني والإجمالي الموضوعي لهذه الآيات، ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله تعالى: **يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم ممتنا عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾.**

ممتنا عليه، والمنة على النبي صلى الله عليه وسلم منة على أمته؛ منة عليكم أنتم.

الكوثر من الكثرة، فهو الخير الكثير، إنا أعطيناك الخير الكثير؛ ومن الخير الكثير الذي أُعطِيَه النبي صلى الله عليه وسلم نهر الكوثر، حيث فسره النبي صلى الله عليه وسلم بذلك.

ففي حديث أنس المتقدم بعد أن قرأ النبي صلى الله عليه وسلم السورة، **((قال: أتدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: فإنه نهر وعدنيه ربي فيه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، وآنيته عدد النجوم، فيُختلج العبد منهم، فأقول: ربي إنه من أمتي، فيقال أو فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك))**، والحديث كما قلنا في صحيح مسلم.

فهذا الحوض العظيم في المحشر ترد عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتشرب منه، فمنهم من يناوله النبي صلى الله عليه وسلم بيده؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم يُهوي ليناول بعض الناس بيده فيحال بينه وبينهم، فدل ذلك على أن من الناس من يناوله النبي صلى الله عليه وسلم بيده، ومن الناس من يشرب بنفسه، ومن الناس والعياذ بالله من يمنع من الشرب، وتحول الملائكة بينه وبين هذا الحوض، لماذا؟

لأنه أحدث في الدين؛ لأنه ابتدع في دين الله؛ لأنه عبد الله بالبدعة وترك سنة النبي صلى الله عليه وسلم، فأهل الإحداث وأهل الابتداع لا يكونون أهلا لورود حوض النبي صلى الله عليه وسلم، فكما أنهم لم يشربوا من سنته في الدنيا فإنهم لا يشربون من حوضه في المحشر، كما أنهم لم يردوا سنته في الدنيا بل أعرضوا عنها وطلبوا غيرها فإنهم لا يريدون حوضه صلى الله عليه وسلم في المحشر.

وأصل هذا الحوض نهر في الجنة واسمه الكوثر أيضا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **((رأيت نهرا في الجنة حافتاه قباب اللؤلؤ، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا الكوثر الذي أعطاكه الله))** رواه الترمذي وصححه الألباني.

إذن الكوثر هو الخير الكثير، ومنه ومن أشرفه نهر الكوثر.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: أي: الخير الكثير والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة من النهر الذي يقال له: الكوثر، ومن الحوض طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، آنيته عدد نجوم السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا.

ولما ذكر منته عليه أمره بشكرها فقال: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

نعم الفاء هنا لترتيب ما بعدها على ما قبلها، مادام أنَّا أعطيناك الكوثر فصلِ.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر؛ لأنهما أفضل العبادات وأجل القربات.

إحداهما بدنية والأخرى مالية.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقُّله في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

وقيل المعنى: فصلِّ صلاة العيد وانحر الأضاحي، فهي صلاة خاصة، يعني:

- على المعنى الأول: الصلاة عامة تشمل كل صلاة، والنحر عام يشمل كل نحر لله.
- على القول الثاني: فصل صلاة العيد -عيد الأضحى- وانحر الأضاحي.

وقال بعض العلماء: فصلِ صلاتك **﴿وَانْحَرْ﴾**؛ أي: اجعل يديك عند نحرك في الصلاة، فضع اليمنى على اليسرى على الصدر.

وقال بعض المفسرين: **﴿وَانْحَرْ﴾** أي: اتجه بنحرك إلى القبلة، أي: استقبل القبلة.

وقال بعض المفسرين: معنى **﴿وَانْحَرْ﴾** أي: ارفع يديك عند الدخول في الصلاة إلى جهة نحرك.

والأول أشهر وأظهر أن الصلاة جميع الصلوات، وأن النحر هو الذبح تقربا إلى الله عز وجل.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك.

وقيل عدوك، **﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾** يعني: إن عدوك، وقيل إن مبغضك وذامك ومنتقصك.

﴿هُوَ الأَبْتَرُ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر.

وقد قيل: إنه شخص بعينه، فقيل إنه العاص بن وائل، وكان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال: دعوكم من هذا الأبتر فإنه لا عقب له.

وقيل: إنه أبو لهب، وقيل غير ذلك، وقيل: إنه كعب بن الأشرف الذي قدم على أهل مكة وقال لهم: أنتم خير من محمد، فنزل ذلك فيه، وهذا رواه البزار بإسناد صالح، هذا أصح ما قيل أنها بسبب قول الكعب بن أشرف لأهل مكة: أنتم خير من محمد.

والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من أبغض النبي صلى الله عليه وسلم أو كذب النبي صلى الله عليه وسلم أو ذم النبي صلى الله عليه وسلم أو عادى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه الأذل الأحقر المقطوع من كل خير، ويدخل في ذم النبي صلى الله عليه وسلم وبغض النبي صلى الله عليه وسلم ذم دينه وبغض دينه، فمن أبغض دين محمد صلى الله عليه وسلم أو بعضه فهو الأبتر الأذل الأحقر؛ الذليل الحقير المقطوع من كل خير.

وأما محمد صلى الله عليه وسلم فهو الكامل حقًا الذي له الكمال الممكن للمخلوق من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع صلى الله عليه وسلم.

سورة الكافرون

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُل يا أَيُّهَا الكافِرونَ (1) لا أَعبُدُ ما تَعبُدونَ (2) وَلا أَنتُم عابِدونَ ما أَعبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدتُم (4) وَلا أَنتُم عابِدونَ ما أَعبُدُ (5) لَكُم دينُكُم وَلِيَ دينِ (6)﴾ [الكافرون: ١-٦].

هذه سورة مكية عند أكثر العلماء، وحكاه بعضهم كابن كثير اتفاقا، ولكن الخلاف موجود وهي سورة الكافرون وسورة الإخلاص الكبرى وسورة العبادة وسورة الدين، كل هذه أسماء لهذه السورة.

وهذه السورة تعدل ربع القرآن كما جاء عندي الترمذي وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي وقال في السلسلة الصحيحة إنه حسن بمجموع طرقه، فهي تعدل ربع القرآن، فمن قرأها في ليلة أربع مرات فكأنما ختم القرآن ويثاب ثواب ختم القرءان كله، وإن كان الذي يقرأ القرآن كله أعظم أجرا لكثرة الحروف، لكن من فضل الله على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن من قرأ هذه السورة سورة الإخلاص الكبرى أربع مرات في ليلة كان كأنه قرأ القرآن في ليلة، كما أن من قرأ سورة الإخلاص الصغرى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاث مرات في ليلة كان كأنه قرأ القرآن في ليلة، وهذا من فضل ربنا على أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه السورة تقرير توحيد العبادة والبراءة من الشرك كله حيث أمر الله عزوجل فيها كل مؤمن أن ييئِّس الكفار من موافقته لهم في دينهم أو الالتقاء معهم في نقطة في الدين بأن يقول للكافرين حال كفرهم لا أعبد ما تعبدون؛ فإنكم تعبدون آلهة من دون الله وأنا لا أعبدها، ولا أنتم عابدون ما أعبد فإني أعبد الله مخلصا له الدين وأنتم إن عبدتم الله فما تعبدونه إلا وأنتم به مشركون، ولا أنتم عابدون ما أعبد فأنتم ثابتون على كفركم إن لم تخرجوا منه إلى الإسلام، وكما أني لا أعبد ما تعبدون في الحاضر فإني لست عابدا ما تعبدون في المستقبل، وأنا بريء من دينكم الذي هو الكفر، كما أنكم بريئون من ديني الذي هو الإسلام، وأنا لي جزائي يوم الدين على إسلامي، وأنتم لكم جزاؤكم على كفركم.

وهذا فيه البراءة من دين الكافرين وفيه الوعيد الشديد للكفار، وليس هذا من حرية الأديان في شيء كما فهمه من لا يفهم، وإنما هو ضد ذلك، فهو وعيد للكفار وبراءة من دين الكفار، فالمسلم بريء من دين الكافرين، والإسلام بريء من الكافرين.

هذا معنى وتفسير هذه السورة الإجمالي الموضوعي الإيماني، ونعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله.

قال الإمام عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين: ﴿قُل يا أَيُّهَا الكافِرونَ﴾: أي: قل للكافرين معلنا ومصرحًا.

أي: قل، قيل أن هذا الخطاب لكل مؤمن ورأس المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالمعنى: قل أيها المؤمن، قل أيها المسلم.

وقال بعض المفسرين: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتدخل أمته تبعا، فالمعنى: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم، وتدخل الأمة تبعا للنبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خطاب للأمة.

قل للكافرين، ﴿**قُل يا أَيُّهَا الكافِرونَ**﴾ من هم الكافرون هنا؟

الكافرون هنا هم جنس الكفار فيشمل الكفار بجميع مللهم، ولكن المواجهين به عند الخطاب هم كفار قريش؛ لأنهم هم الذين يخاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد قيل: إن كفار قريش قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: لنصطلح، نعبد إلٰهك سنة وتعبد آلهتنا سنة، فأنزل الله عزوجل هذه السورة.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله ظاهرًا وباطنًا.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم في عبادتكم لله.

﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ **(ما)** هنا بمعنى (من)، و(ما) إذا ذكرت في حق الله فإنها بمعنى (من) دائما.

﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ وهو الله، فإن قيل: إن المشركين يعبدون الله، قيل: إنهم لا يعبدون الله إلا وهم مشركون، إن عبدوا الله فإنهم لا يعبدون الله إلا وهم مشركون، وهذا لا ينفعهم فلا إسلام إلا بعبادة الله عزوجل عبادة خالصة ليس معها شرك.

قال: فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، وكرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفًا لازمًا.

بمعنى قول الله عزوجل: ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ أي: قل لا أعبد ما تعبدون هذا لنفس الفعل فأنا لن أعبد ما تعبدون، وقول الله عزوجل في قول المؤمن ﴿**وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدتُم**﴾ معناه: أن هذا صار وصفا ملازما لي فلا أنفك عنه لا اليوم ولا في المستقبل، فلا تطمعوا أن أعبد ما تعبدون يوما.

وقول الله عزوجل: ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ يعني: في الفعل.

﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ الثانية؛ أي: أن هذا صار وصفا لازمًا لكم، فأنتم ماكثون على كفركم إلا أن يرحمكم الله بالإسلام.

وقال بعض العلماء: التكرار بالنسبة للكفار للتأكيد وأنهم مستمرون على كفرهم، وبالنسبة إلى المؤمنين اختلفت الصيغة؛ لاحظوا ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾، الصيغة الثانية ﴿**وَلا أَنتُم عابِدونَ ما أَعبُدُ (3) وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدتُم (4)**﴾ فصيغة جديدة، قالوا فالمعنى جديد، إذن ما المعنى؟

﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ فكما أني لا أعبد ما تعبدون اليوم فإني لن أعبد ما تعبدون في المستقبل ما دمتم على كفركم.

وقال بعض العلماء: الجملتان الأوليان باعتبار الفعل، والجملتان الثانيتان باعتبار القبول، ﴿**لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾ يعني: لا أفعل هذه العبادة، ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ يعنى لا تفعلون هذه العبادة، ﴿**وَلا أَنا عابِدٌ ما عَبَدتُم**﴾ يعني: ولا أنا قابل أن أعبد ما تعبدون، ﴿**وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ يعني ولا أنتم قابلون أن تعبدوا ما أعبد، وهذا المقصود به حال كونهم على كفرهم.

قال: ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين:

فقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: 84]، ﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 41].

﴿**لَكُم دِينُكُم**﴾ **قال بعض المفسرين**: يعني لكم ملتكم وهي الكفر، ﴿**وَلِيَ دِينِ**﴾ لي ملتي وهي الإسلام، فلا التقاء بيننا، فأنتم لكم ملتكم الكفر وأنا لي ملتي الإسلام، فلا يمكن أن تلتقي الملتان كالثريا وسهيل.

وقال بعض المفسرين: ﴿**لَكُم دِينُكُم**﴾ يعني: لكم جزاؤكم يوم الدين، ﴿**وَلِيَ دِينِ**﴾ لي جزائي يوم الدين، وشتان بين جزاء المسلم وجزاء الكافر.

فتضمنت الآية الوعيد للكافرين.

والحكمة الكبرى من السورة ظاهرة جدا وهي تحقيق التوحيد والبراءة من الشرك، وهما متلازمان، لا يمكن أنه يوجد التوحيد بدون البراءة من الشرك، لابد من تحقيق التوحيد من البراءة من الشرك.

وهذا هو مقصود هذه السورة.

سورة النصر.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إذا جاءَ نَصرُ اللَّهِ وَالفَتحُ (1) وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلونَ في دينِ اللَّهِ أَفواجًا (2) فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَاستَغفِرهُ إِنَّهُ كانَ تَوّابًا (3)﴾ [المسد: 1-3].

هذه سورة النصر، وسورة إذا جاء نصر الله والفتح، وسورة الفتح، وسورة التوديع هذه أسماء لهذه السورة.

وهي سورة مدنية بالاتفاق، وهي آخر سورة نزلت كاملة، قال ابن عباس رضي الله عنهما لعبيد الله: ((تَعْلَمُ آخِرَ سُورَةٍ نَزَلَتْ جَمِيعًا؟)) يعني: تعلم آخر سورة نزلت كاملة، فقال: ((نَعَمْ؛ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ، فقَالَ ابن عباس: صَدَقْتَ)) رواه مسلم في الصحيح، فهي آخر سورة من القرآن نزلت كاملة.

وهي ناعية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومبينة قربة أجله صلى الله عليه وسلم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كَانَ عُمَرُ يُدْخِلُنِي مَعَ أَشْيَاخِ بَدْرٍ، فَقَالَ بعضهم: لِمَ تُدْخِلُ هَذَا مَعَنَا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُهُ؟)) يعني: الاعتراض من وجهين:

- لماذا تدخله معنا وهو شاب صغير ونحن شيوخ.
- والوجه الثاني لماذا تدخله ولا تدخل أبنائنا فنحن لنا أبناء مثله.

قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، على ظاهر الكلام، وقال بعضهم: لا ندري، فقال لي عمر: أتقول مثلما قالوا؟ قلت: لا، قَالَ فَمَا تَقُولُ؟ قُلْتُ: هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمَهُ الله لَهُ، إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ فذَاكَ عَلَامَةُ أَجَلِكَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: لا أَعْلَمُ مِنْهَا إِلا مَا تعلم)) رواه البخاري في الصحيح.

ومعنى هذه السورة: أنه إذا جاء عون الله لك على الكافرين ونُصرت عليهم فذاك تمهيد لفتح مكة، فإذا جاء الفتح بعد النصر فإن الناس سيدخلون في دين الله أفواجا، فالانتصارات للمسلمين على الكفار مقدمة لفتح مكة، وفتح مكة مقدمة لإسلام الناس

جماعات جماعات، وهذا ما وقع، فإن فتح مكة كان في السنة الثامنة وفي السنة التاسعة كثرت الوفود على رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام حتى سميَّ العام بعام الوفود، فإذا رأيت ذلك فإن أجلك قد اقترب، فاستعد لذلك بتنزيه ربك عما لا يليق بجلاله، وبحمده شكرًا على آلائه، وباستغفاره استعدادًا للقائه، فسبح باسم ربك واستغفره إنه كان توابا.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لهذه السورة، وأما التفسير التفصيلي، فقبل أن نقرأ كلام الشيخ أذكر تفسيرا تفصيليا لأن الشيخ أجمل الكلام.

﴿**إذا جاءَ نَصرُ اللَّهِ**﴾ النصر: هو معونة الله على الكفار لهزمهم.

﴿**وَالفَتحُ**﴾ هو فتح مكة.

وقال بعض العلماء: ﴿**إذا جاءَ نَصرُ اللَّهِ**﴾ أي: نصر الله للمؤمنين مطلقا، ﴿**وَالفَتحُ**﴾ فتح البلاد مطلقا.

لكن الأول أقوى، أنه نصر الله للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على كفار قريش وفتح مكة.

﴿**وَرَأَيتَ النّاسَ يَدخُلونَ في دينِ اللَّهِ أَفواجًا**﴾ أي: جماعات جماعات، وهذه بشارة للنبي صلى الله عليه وسلم أنه بعد فتح مكة سيدخل الناس في دين الله أفواجا، وأنه صلى الله عليه وسلم لن يموت حتى يرى ظهور الإسلام ودخول الناس في دين الله أفواجا.

﴿**فَسَبِّح**﴾ أي: نزه ربك عما لا يليق بجلاله.

﴿**بِحَمدِ رَبِّكَ**﴾ أي: احمد ربك واشكره على نعمه وآلائه.

﴿**واستَغفِرهُ**﴾ أي: أكثر من الاستغفار واطلب مغفرته استعدادا للقائه.

وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك عند رؤية العلامة، فكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول قبل موته: ((**سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك**))، فلاحظت أمنا عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أحدث هذا الكلام وصار يكرره كثيرا، فقالت: يا رسول الله؛ ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها وتقولها، فقال صلى الله عليه وسلم: ((**جعلت لها علامة في أمتي إذا رأيتها قلتها: ﴿إذا جاءَ نَصرُ اللَّهِ وَالفَتحُ﴾**)) إلى آخر السورة، يعني وقد رأيتها رواه مسلم في الصحيح.

قال رحمه الله تعالى: في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند حصولها وإشارة وتنبيه على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجًا بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة فإن في ذلك إشارتين:

-إشارة أن يستمر النصر لهذا الدين، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرًا حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه من لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلوا بتفرق الكلمة وتشتت الأمر، فحصل ما حصل ومع هذا فلهذه الأمة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

-وأما الإشارة الثانية: فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به، وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك.

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه.

فكان صلى الله عليه وسلم يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي)).

ومن فوائد هذه السورة الكبرى:

- أن النصر والتمكين مبني على القيام بحق رب العالمين والبعد عن الذنوب، فهذه الأمة منصورة ممكنة ما قامت بحق ربها وابتعدت عن الذنوب فعلا أو بالتوبة عند الوقوع، (فعلا) يعني: بأن ابتعدت فعلا عن الذنوب فلَم تفعلها، أو بالتوبة منها إذا فعلتها.
- والفائدة الثانية الكبرى: أن تسبيح الله وحمده واستغفاره خير ما تختم به الأعمار، فيتأكد الإكثار من ذلك للكبير في سنه، من بلغ الستين، الإكثار مطلوب من الجميع لكن يتأكد الإكثار لمن كبر في سنه كأن بلغ الستين، ولمن مرض مرضا مخوفا يتأكد في حقه أن يكثر من تسبيح الله وحمد الله واستغفار الله سبحانه وتعالى.

سورة المسد.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّت يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) ما أَغنى عَنهُ مالُهُ وَما كَسَبَ (2) سَيَصلى نارًا ذاتَ لَهَبٍ (3) وَامرَأَتُهُ حَمّالَةَ الحَطَبِ (4) في جيدِها حَبلٌ مِن مَسَدٍ (5)﴾ [المسد: ١-٥].

هذه السورة سورة المسد، وسورة تبت، وسورة أبي لهب، وسورة اللهب، هذه أسماؤها.

وهذه السورة نزلت لما جمع النبي صلى الله عليه وسلم قومه وأمرهم بالتوحيد، فقال أبو لهب وهو عمّ النبي صلى الله عليه وسلم: تبا لك ألهذا جمعتنا؟! ونفض يديه، فأنزل الله عز وجل: ﴿تَبَّت يَدا أَبي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخر السورة، رواه البخاري في الصحيح.

فدعا الله عز وجل على أبي لهب بالخسارة والهلاك، وأخبر أنه خاسر هالك وأنه لم ينفعه ولن يدفع عنه ماله ولا جاهه ولا ولده الخسران والضياع والهلاك، وسيموت على الكفر، ويدخل جهنم ويحترق بنارها ويصيبه لهبها من كل جانب هو وامرأته التي كانت تحثه على أذية النبي صلى الله عليه وسلم وتعينه على ذلك، وتحمل الأشواك على عاتقها لتضعها في طريق النبي صلى الله عليه وسلم، وتحمل على ظهرها الذنوب العظيمة بسبب أذيتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان من جزائها في جهنم أنها تحمل الحطب وتلقيه على زوجها، كما كانت تلقي الحقد على محمد صلى الله عليه وسلم في قلب زوجها فإنها في جهنم تحمل الحطب وتلقيه على زوجها، وفِي عنقها حبل من نار، فكما كانت تحمل الشوك بالحبل على كتفها لتؤذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من جزائها في النار أن صيِّر في عنقها حبل من النار تعذب به.

هذا المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لآيات هذه السورة ونعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله: أبو لهب هو عم النبي صلى الله عليه وسلم.

واسمه عبد العزى، وكنيته أبو عتيبة، لم يكن يكنى بأبي لهب، لكن لقب بأبي لهب قيل: لاحمرار وجهه، كان وجهه أحمر فلقب بأبي لهب كأن اللهب يخرج من وجهه، وكان كثير الأذى والتكذيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يتبع النبي صلى الله عليه وسلم ويأمر الناس بتكذيبه، وكانت امرأته تعينه على ذلك.

قال: وكان شديد العداوة والأذية له، فلا فيه دين، ولا حمية للقرابة -قبحه الله-.

لم يكن ذَا دين ولا حمية ومروءة، لم يكن مثلا مثل أبي طالب، نعم لم يكن ذَا دين لكنه كان ذَا حمية ومروءة، فحمى النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول: أعلم أن دين محمد خير الأديان، أما هذا فلم يكن عنده دين ولا مروءة ولا حمية.

قال: فذمه الله بهذا الذم العظيم الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة فقال: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أي: خسرت يداه وشقي.

أي: خسرت يداه وضلت، وشقي وهلك وهذا دعاء عليه.

﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح.

وهذا خبر، ﴿تَبَّت يَدا أبي لَهَبٍ﴾ هذا دعاء، ﴿وَتَبَّ﴾ هذا خبر أي أنه هلك وخسر، بالفعل هلك وخسر.

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي كان عنده وأطغاه.

﴿مَا أَغْنَى﴾ يعني ما دفع عنه ولا نفعه، و(ما) هنا نافية؛ يعني: ما نفعه ولا دفع عنه.

وقيل: (ما) استفهامية، طيب إذا كانت استفهامية ما المعنى؟

أي: ماذا أغنى عنه ماله وما كسب.

قال: ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله.

﴿مَا كَسَبَ﴾ (ما) هنا موصولة؛ يعني: الذي كسب، ما هو؟

قال بعض العلماء: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي ورثه، ﴿مَا كَسَبَ﴾ المال الذي اكتسبه.

وقال بعض أهل العلم: ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ﴾ هذا واضح، ﴿مَا كَسَبَ﴾ أي: ما اكتسب من الجاه والرئاسة.

وقال بعض أهل العلم: ﴿مَا كَسَبَ﴾، يعني: الولد، فما أغنى عنه ماله ولا ولده ولا جاهه شيئا.

فلم يرد عنه شيئًا من عذاب الله إذ نزل به.

﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

﴿سَيَصْلَى﴾ دائما يصلى معناها يدخل ويحترق، الصِّلِيّ هو الدخول والاحتراق.

﴿**سَيَصْلَى نَارًا**﴾ أي: سيدخل نارا ويحترق فيها.

أي: ستحيط به النار من كل جانب.

﴿**ذَاتَ لَهَبٍ**﴾ أي: أن لها لهبا شديدا محرقا محيطا.

أي: ستحيط به النار من كل جانب، هو ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

الواو هنا عاطفة على الضمير: سيصلى هو وامرأته حمالة الحطب، واسمها أروى وكنيتها أم جميل، ولقبت بالعوراء.

﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ قيل: معنى ﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ أنها في الدنيا كانت تحث أبا لهب على أذية رسول الله فتشعل النار في قلبه، إذن الحطب هنا معنوي تشعل النار في قلب أبي لهب.

وقيل: حمالة الحطب في النار ليس في الدنيا، تحمل الحطب وتلقيه على أبي لهب.

وكلا المعنيان صحيح، فهي في الدنيا كانت تشعل الحقد في قلب زوجها على الرسول صلى الله عليه وسلم، وجزاء ذلك أنها يوم القيامة تحمل الحطب وتلقيه في جهنم.

قال: **وكانت أيضًا شديدة الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول صلى الله عليه وسلم، وتجمع على ظهرها الأوزار.**

يعني: على هذا القول ﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ يعني: التي تحمل الأوزار على ظهرها وستقودها إلى النار، فكأنها تحمل حطبا لتشعل النار في نفسها، هي تحمل الأوزار بسبب أذيتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فكأنها تحمل حطبا لتحرق نفسها؛ لأنها بحملها الأوزار ستدخل النار.

قال: **بمنزلة من يجمع حطبًا، قد أعد له في عنقه حبلًا، ﴿مِنْ مَسَدٍ﴾ أي: من ليف.**

﴿**فِي جِيدِهَا**﴾ في عنقها.

﴿**حَبلٌ مِن مَسَدٍ**﴾ **قال بعض العلماء**: أي في عنقها حبل من ليف لحمل الشوك لتضعه في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيل: في عنقها حبل من صوف لتحمل به الشوك.

وقيل: في عنقها حبل من شجر في اليمن يقال له المسد.

المهم أنه في كل هذه الأقوال أنه هذا في الدنيا، في عنقها حبل تحمل به الأشواك لأذية رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال بعض العلماء: ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِن مَسَدٍ**﴾ أي: في عنقها وهي في النار حبل من نار.

وقيل: في عنقها طوق من حديد في جهنم تعذب به.

وكلا الأمرين صحيح، ففي الدنيا كان في عنقها حبل من صوف أو من جلد أو من شجر يقال له المسد أو من ليف، المهم أنه حبل تحمل به الشوك، وفِي جهنم من جزائها أن يكون في عنقها حبل من نار أو طوق من حديد تعذب به.

قال: **أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلًا من مسد.**

قال: وعلى كل ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

ومقصود السورة ظاهر جدا وهو نصر الله عزوجل لرسوله صلى الله عليه وسلم وإذلال أعدائه.

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)﴾ [الإخلاص: 1-4].

هذه السورة سورة الإخلاص، ويسميها بعض أهل العلم بسورة الإخلاص الصغرى، وسورة الإخلاص الكبرى كما تقدم معنا هي سورة الكافرون، وهي سورة قل هو الله أحد، وسورة التوحيد، وسورة الصمد، وسورة الأساس، هذه أسماء هذه السورة.

وهذه السورة تعدل ثلث القرآن، فمن قرأها في ليلة فقد قرأ ثلث القرآن في ليلة، ومن قام بها فقد قام بثلث القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات في ليلة فكأنما قرأ القرآن كله، وهي كما تقدم معنا في سورة الكافرون لا تغني عن قراءة القرآن، ولكنه فضل الله عز وجل على أمة محمد صلى الله عليه وسلم من جهة الأجر والثواب.

وقد روى الترمذي أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: انسب لنا ربك، فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ السورة، وحسنه الألباني.

وهذه السورة في التوحيد الاعتقادي، ففيها وصف ربنا سبحانه وتعالى، وقد كان أحد الصحابة رضوان الله عليهم يختم بها قراءته في الصلاة، فذكر أصحابه ذلك للنّبي صلّى اللّه عليه وسلّم فقال: **((سلوه لأي شيء يفعل ذلك؟)). فقال: لأنّها صِفة الرّحمن وأنا أُحب أن أقرأ بها، فقال النبّي صلّى اللّه عليه وسلّم: ((أخبروه أن اللّه يحبه))** متفق عليه.

والشاهد أن الرجل قال: إنّها صِفة الرّحمن، وأقرّه النبّي صلّى اللّه عليه وسلّم.

وسمع النبّي صلّى اللّه عليه وسلّم رجلا يدعو وهو يقول: اللّهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت اللّه لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فقال النبّي صلّى اللّه عليه وسلّم: **((والذي نفسي بيده لقد سأل اللّه باسمه الأعظم الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئل به أُعطِي))** رواه الترمذي وغيره وصححه الألباني.

ففي هذه السورة يُخاطب اللّه عز وجل نبيّه صلى اللّه عليه وسلّم وكُلَّ مؤمن تبعًا له صلى الله عليه وسلّم، فقُل يا محمد قولا تعرف معناه وتعتقده بقلبك: ربّي هو المألوه المعبود

المُنفرد بالكمال في جميع الوجوه؛ فهو الأحد المُتوحِّد في أسمائه، والمُتوحِّد في صفاته، والمُتوحِّد في أفعاله، والمُتوحِّد في ألوهيته؛ فلا مثل له في أسمائه وصفاته وأفعاله، ولا شريك له في ألوهيته.

وهو الصمد الكامل في أسمائه وصفاته وأفعاله، والغَنِيُّ الغِنَى المُطلَق لا يحتاج إلى شيء ويحتاج إليه كل شيء؛ غَنِيٌّ غِنًى مطلقا ومفتَقَرٌ إليه افتقارًا مُطلقا، وهو المقصود في كلِّ الحوائج سبحانه وتعالى.

ولكمال غِناه فهو الذِّي لم يكُن فكان؛ بل هو الأول الذّي ليس قبله شيء؛ فلم يُولَد سبحانه وتعالى، ولا يَفتقِر إلى شيء؛ فلم يَلد سبحانه وتعالى، وكل من نسب إليه الولد فهو كذّاب أشِر وكافر، كقول المشركين: إنّ الملائكة بنات اللّه، وقول اليهود: عُزيْر ابن اللّه، وقول النصارى: المسيح ابن اللّه، وهو سبحانه لم يكُن له مثيلٌ يُكافِئه في أسمائه، أو صفاته، أو أفعاله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وما دام أنّ ربَّنا كذلك فهو المعبود المُستحِق للعبادة، ولا يَستحِق العبادة سواه، هو الغَنِيُّ الغِنى المُطلق وكلُّ من سِواه مُفتقِر إليه، فكيف يُعبَد غيرُه معه فضلا أن يُعبَد غيره من دونه؟!

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لآيات هذه السورة، ونعود إلى التفسير التفصيلي ونقرأ ما سطره الإمام السعدي رحمه الله وسائر علماء المسلمين.

قال الإمام عبد الرحمان بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى وغفر له ولشيخنا والسامعين:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قل قولا جازما به معتقدا له عارفا بمعناه.

ومن المخاطب؟ المخاطب محمد صلى الله عليه وسلم ثم تتبعه أمته، فأنت مخاطب بهذه السورة تبعا لنبيك صلى الله عليه وسلم.

والقول هنا قول إعلام وبلاغ؛ أي: قل قولا عارفا بمعناه معتقدا له بقلبك معلما إياه الناس ومبلغا الناس به، فالقول هنا قول إبلاغ وتعليم مع الاعتقاد والعلم.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي: قد انحصر فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العليا والأفعال المقدسة الذي لا نظير له ولا مثيل.

وهو أيضا المتوحد بالألوهية فلا شريك له في ألوهيته، ولا أحد إلا الله سبحانه وتعالى، يعني: المنفرد بالأحدية المطلقة، المنفرد بالأحدية المطلقة هو الله سبحانه وتعالى.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ أي: المقصود في جميع الحوائج، فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم؛ لأنه الكامل في أوصافه العليم الذي قد كمل في علمه الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي قد كمل في رحمته الذي وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه.

فذكر الشيخ معنيين للصمد:

1. **المعنى الأول**: أنه المقصود في كل شيء.
2. **والمعنى الثاني**: أنه الكامل في كل شيء، كامل في جميع أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه.

وقيل: إن الصمد هو السيد الكامل في سؤدده والغني الكامل في غناه.

وقيل: إن الصمد هو الذي لا جوف له.

وقيل: إن الصمد الذي لا يخرج منه شيء.

وقيل: الصمد هو الباقي الذي لا يفنى.

ويجمع كل هذه المعاني أنه الكامل الكمال المطلق، فهذه أنواع لكماله، المعاني التي ذكرها المفسرون أنواع لكماله سبحانه وتعالى، فهو ذو الكمال المطلق سبحانه وتعالى هذا معنى الصمد.

قال: **ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لكمال غناه.**

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فهو الغني الغنى المطلق، ولا يفتقر إلى غيره، والولد يُفتقَر إليه، ولذلك يستكمل الوالد حاله بأولاده، والله عزوجل الغني الغنى المطلق والكامل الكمال المطلق فلم يلد، وهو الأول الذي ليس قبله شيء، لم يكن فكان، فهو لم يولد سبحانه وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لا في أسمائه؛ ولا في صفاته؛ ولا في أفعاله تبارك وتعالى.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا﴾ يعني: لم يكن له مثيلا ، فليس له مثيل سبحانه وتعالى: **﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌۖوَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** [الشورى: 11].

قال: فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

مقصود هذه السورة الأعظم والحكمة الكبرى منها: بيان كمال الله عز وجل المطلق، وأنه المستحق للعبادة، وبطلان عبادة من سواه؛ بيان كمال ربنا سبحانه وتعالى المطلق من جميع الوجوه، وأنه المستحق للعبادة، وبطلان عبادة ما سواه.

سورة الفلق.

بسم الله الرحمن الرحيم.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (1) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (2) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (3) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (4) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (5)﴾ [الفلق: 1-5].

هذه السورة عند جمهور العلماء مدنية، وقد نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم عندما سحر؛ فكان يخيل إليه أنه أتى أهله وهو لم يفعل صلى الله عليه وسلم، وآياتها عظام جدا.

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **((ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾))** رواه مسلم في الصحيح، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لجابر رضي الله عنه: **((﴿اقرأ يا جابر. فقال جابر رضي الله عنه: وماذا أقرأ بأبي وأمي أنت يا رسول الله؟ فقال صلى الله عليه وسلم: اقرأ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ولن تقرأ بمثلهما))** رواه النسائي وصححه الألباني، وقال لعقبة رضي الله عنه: **((إنك لن تقرأ شيئا أبلغ عند الله من ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾))** رواه النسائي وصححه الألباني، وقال لابن عباس رضي الله عنهما: **((ألا أخبرك بأفضل ما يتعوذ به المتعوذون؟ قال: بلى يا رسول الله. قال: قل:﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾))** رواه النسائي وصححه الألباني.

والمؤمن إذا تعوذ بهاتين السورتين فإنه يحفظ بهما من الشر بإذن الله، ويعافى من الشر بإذن الله، فهي حرز وشفاء وما تعوذ متعوذ بأفضل من هاتين السورتين: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.**

فيها: قل يا محمد ممتثلا ومتعوذًا: ألجأ وألوذ وأعتصم وأستجير برب الصبح فالق الإصباح والحب والنوى من شر جميع المخلوقات، فأستعيذُ بخالقها من شرها، هذا على وجه العموم.

ثم خص الله بعضها: ومن شر الليل إذا دخل، فإنه تنتشر الشياطين عند دخوله وتكثر فيه الهوام والحيوانات الضارة، ومن شر القمر إذا غاب، فإنه إذا غاب أظلمت الدنيا وخرجت

الدواب والهوام التي تضر الإنسان، ومن شر الساحرات اللاتي يسحرن في الخيوط، ويعقدن العقد مع النفث، ويذكرن الطلاسم التي فيها الاستعانة بالشياطين، ومن شر الحاسد الذي يكره نِعَم الله على العباد إذا حسد فتمنى زوال النعمة وسعى في ذلك بعينٍ أو سحرٍ أو مكرٍ أو غير ذلك.

ويجمع الليل والنفاثات والحسدة أن شرهم خفي وضررهم خفي، فخُصوا بالذكر في هذه الاستعاذة؛ لأن شرهم وضررهم يصل إلى الإنسان خفية.

هذا هو المعنى الإجمالي الموضوعي الإيماني لآيات هذه السورة، ثم نعود إلى التفسير التفصيلي.

قال رحمه الله: **أي: ﴿قُلْ﴾ متعوذًا.**

قُل والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وتتبعه أمته في هذا.

قُل قول امتثال وتعوذ، في ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قلنا: قول إعلام وإبلاغ، في المعوذات هو قول امتثال وتعوذ، قُل ممتثلا ومتعوذًا بهذه المعوذات.

﴿أَعُوذُ﴾ أي: ألجأ وألوذ وأعتصم.

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ أي: فالق الحب والنوى وفالق الإصباح.

الفلق: أصله الشق؛ أي: شاق الحب والنوى والإصباح.

وقال بعض المفسرين: الفلق: هو الصبح خاصة، يعني برب الصبح؛ لأن الصبح ينجلي به الليل والليل مظنة حصول الضرر، يعني مناسبة ذكر الصبح هنا أن الصبح ينجلي به الليل، والليل مظنة حصول الضرر، فهنا تفاؤل بزوال الضرر.

وقال بعض المفسرين: الفلق جهنم، هذا من أسماء جهنم.

وقال بعض أهل العلم: الفلق: بيت في جهنم إذا فُتح بابه استعاذ أهل النار مع ما هم فيه من حر من حره.

وقال بعض المفسرين: الفلق هو: الخلق، والأقوى هو ما ذكره الإمام السعدي أنه رب الفلق يعني: رب الشق للحب والنوى والإصباح.

﴿مِن شَرِّ ما خَلَقَ﴾: وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنسٍ وجنٍ وحيوانات فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها.

ويدخل في ذلك نفس الإنسان؛ فإنّه بهذا يتعوذ بالله من شر نفسه، والنفس لها شرٌ. **وقال بعض أهل العلم**: معنى ﴿**مِن شَرِّ ما خَلَقَ**﴾: يعني من شر الشيطان، فيكون المعنى من أشر ما خلق؛ أستعيذ بالله من أشر ما خلق وهو الشيطان.

ولكن الذي ذكره الشيخ هو الأرجح والأصح في تفسير الآية.

قال رحمه الله: ثمّ خصّ بعدما عم فقال: ﴿وَمِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ﴾.

قال بعض المفسرين: ﴿**وَمِن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ**﴾: يعني: ومن شر الليل إذا دخل، والمقصود من شر ما فيه؛ الليل نفسه ليس شرًا لكن فيه شر، تنتشر الشياطين في أوله، ولذلك المشروع أن يُحفظ الصبيان عند الغروب؛ لأنّ الشياطين تنتشر عند أول دخول الليل، وتخرج الدواب والهوام الضارة في الليل.

وقال بعض أهل العلم: معناه: ومن شر الليل إذا ظهر قمره، فالغاسق هو الليل، ووقب يعني ظهر قمره.

وعكس بعض أهل العلم فقالوا: ومن شر الليل إذا غاب قمره؛ لأنّه مظنة الأذى.

وقال بعض المفسرين: الغاسق هو القمر، ومعنى ﴿**إذا وَقَبَ**﴾ يعني إذا غاب.

وكلا المعنيين صحيح، فإنّ الليل غاسق وإن القمر غاسق، يقول الله عزّ وجل: ﴿**إلى غَسَقِ اللَّيلِ**﴾ [الإسراء: 78]

والنّبِيّ صلّى اللّه عليهِ وسلّم نظر مرّة إلى القمرِ وقال لِأمّنا عائِشة رضِي اللّه عنها: ((**استعيذي بِاللّهِ مِن شرِّ هذا فإنّ هذا هو الغاسق إذا وقب**)) رواه التِّرمِذِيّ، وقال حسن صحِيح، وكذا قال الألبانِيّ: حسن صحِيح؛ فهذا تفسِير من الرّسولِ صلّى اللّه عليهِ وسلّم.

إذن الغاسق هو اللّيل يكون فِيهِ القمر ثمّ يغِيب فيظلِم.

وقال بعض أهلِ العِلمِ: الغاسق هو الثّريّا إذا ظهرت، فإنّها إذا ظهرت تظهر فِي الأرضِ أوجاع وأمراض.

ولكِن التّفسِير بِأنّه اللّيل والقمر هو الصّواب؛ لِأنّه تفسِير من القرآنِ ومن سنّةِ سيّدِ ولدِ عدنان صلّى اللّه عليهِ وسلّم.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أيْ: منْ شر ما يكون في الليْل حين يغْشى الناس وتنْتشر فيه كثير منْ الْأرْواح الشريرة والْحيوانات الْمؤْذية ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ قَال: الغاسق هُنَا هِيَ الْحَيَّة **﴿وَإِذَا وَقَبَ﴾**: يَعْنِي إِذَا أَدْخَلَتْ أَنْيَابَهَا فِي اللَّدِيغ، لَكِن التَّفْسِير بالَيْل وَالْقَمَر هُوَ الصَّوَابُ

﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾؛ أي: ومنْ شرِّ السواحر اللّاتِي يَسْتَعِنْ على سحرهن بِالنَّفْث فِي الْعَقْدِ الَّتِي يعقدنها عَلَى السِّحْرِ.

وَالرِّجَال السَّحَرَة أَلَّا يُسْتَعَاذ مِنْ شَرِّهِمْ؟

قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: خَصَّ النِّسَاءُ هنا لأنهن أكثر من يسحر بهذه الطريقة؛ ولأن سحرهن أقوى، فهذا من باب ذكر الغالب، وذكر الغالب لا يقتضي التخصيص فيدخل الرجال أيضا.

وقال بعض أهل العلم ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ﴾ يعني ومن شر الأنفس النفاثات، فيدخل في ذلك الرجال والنساء.

وعلى كل حال فالرجال كالنساء يُستعاذ بالله من شرهم إذا سَحروا.

والحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ الحسد: هو كره النعمة على العباد وتمني زوالها.

لماذا قال الله **﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾**؟ لِمَ لَمْ يقل الله: ومن شر حاسد؟

قالوا: لأن الحاسد قد يكره النعمة على غيره لكن لا يسعى في زوالها، فمعنى **﴿إِذَا حَسَدَ﴾** يعني إذا سعى في زوال تلك النعمة إما بعين، والعين حق وتُورد الجمل القدر وتجر شرورا كثيرة، والعين كما تدل عليه النصوص نوعان:

- **عين حاسدة**: وهذه أخبث العيون.

- **وعين معجبة**: لا يلزم أن تكون حاسدة، ولكن يعجبها شيء فتصيبه بالضرر، وهذه أخطر من الأولى من جهة أن الإنسان لا يتنبه لها.

الأولى أخبث والثانية أخطر على الإنسان؛ لأن الإنسان قد يعجب بحفظه فيصيب نفسه بالعين، قد يعجب بتجارته فيصيب تجارته بالعين إذا لم يُبَرِّك، قد يعجب بابنه فيصيب ابنه بالعين، ولذلك المشروع للإنسان إذا رأى ما يعجبه من نفسه أو ماله أو ولده أو غيره أن يُبَرِّك، فيقول: تبارك الله، اللهم بارك، وإن قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله اللهم بارك فحسن، لكن لا يقتصر على قوله: ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ لابد من التبريك.

وبعض الناس إذا قلت له: بَرِّك يا أخي، قال: وهل أنا حاسد؟ إذا قال: فلان كذا، قلت: يا أخي قل تبارك الله، قال: وهل أنا حاسد، لا؛ ما يلزم من إصابة العين أن تكون عن حسد، بل قد تكون عن إعجاب.

ومن عجيب أني مرة في درسي هنا تكلمت عن هذه المسألة، وأن العين قد تكون عين حسد وقد تكون عين إعجاب، وأن الإنسان قد يصيب نفسه بالعين وهو لا يشعر، فأرسل لي أحد الإخوة من بلد أوروبي رسالة، وقال: يا شيخ أنا ابتليت بالخسارات في تجارتي بعد أن كنت ناجحا، وكنت مستغربًا حتى سمعت كلامك عن المسألة، فتنبهت أني أصيب نفسي بالعين، فأصبحت أقول: تبارك الله، فرجعت تجارتي إلى الربح والحمد لله وزال هذا الأمر.

فهذا ينبغي أن يُتنبه له إذا رأيت من نفسك من مالك من زوجتك من أبنائك من جيرانك ما يعجبك فبرك، فإنك قد تصيب بالعين وأنت لا تشعر، ولكن عين الحاسد أخبث من عين المعجب.

قال رحمه الله: **فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العائن؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس.**

وهذا غير صحيح، فالعين قد تصدر من غير الحاسد، ولكن الحاسد خبيث العين مظنة الإصابة بالعين.

قال رحمه الله: **فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور عموما وخصوصا، ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه ومن أهله.**

-من فوائد هذه السورة الكبرى: أن الاستعاذة عبادة؛ فلا يستعاذ إلا بالله عز وجل.

- ومن فوائد هذه السورة أن المؤمن يتعوذ بها تحصينا وشفاء، فيتعوذ بها تحصينا من الشر، ويتعوذ بها شفاءً من الأدواء الحسية والمعنوية.

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَٰهِ النَّاسِ (٣) مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (٦)﴾ [الناس :١-٦].

ما ذكرناه من فضل في سورة الفلق نذكره هنا، فهما مقترنتان.

يقول الله عز وجل: قل يا محمد ممتثلا ومتعوذًا ألجأ وأعتصم وأستجير برب الناس الذي يربيهم بالنعم ويدبر أمورهم، وهو سبحانه مالكهم الذي يتصرف فيهم، وهو إلههم الحق المستحق للعبادة من شر شياطين الإنس والجن الذين يوسوسون في الصدور بما يضر وبالشر خفية إذا غفل الإنسان عنهم، وعن ذكر الله عز وجل، فإذا ذكر الله اختفوا عنه وفروا منه وابتعدوا عنه.

هذا هو المعنى الموضوعي الإجمالي الإيماني لآيات هذه السورة ونعود إلى التفسير التفصيلي.

يقول الله عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ الله رب كل شيء، رب الناس، رب الملائكة، رب الجن، رب الحيوانات، فلماذا خص الله عز وجل الناس هنا؟

قالوا: للمناسبة؛ لأن الناس متعوذون ومستعاذٌ من شرهم.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ لماذا ذكر المِلك هنا؟

قال العلماء: لأن من الناس من يكون قويًا له ملك وله جاه وله سطوة، فهذا الله مالكه، فالله مالك الناس جميعا، فإذا استعذت بالله من شر الناس فإن الله يعيذك من شرهم جميعا، من شر الملك، ومن شر الخفي، من شر القوي، ومن شر الضعيف، فالله يملكهم جميعا سبحانه وتعالى.

﴿إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ ذكر الألوهية هنا ليُعلَم أن المستعاذ به هو الله الإله الحق، وأن الاستعاذة بغير الله فيما لا يقدر عليه المستعاذ كفر وشرك بالله عز وجل، فالمستعاذ به إله، فمن استعاذ بالمقبورين فقد جعلهم آلة من دون الله، ومن استعاذ بالحي فيما لا يقدر عليه فقد جعله إله من دون الله عز وجل.

﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ**﴾ **الوسواس:** هو ما يلقى في الصدر.

﴿**مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ**﴾ معناه: من شر ذي الوِسواس أو الوَسواس -بالفتح أو الكسر للواو-.

﴿**الْخَنَّاسِ**﴾: كثير الاختفاء الذي إذا ذكر الله اختفى.

﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ الصدور يعني القلوب التي في الصدور.

﴿**مِنَ الْجِنَّةِ**﴾ جمع جني.

﴿**وَالنَّاسِ**﴾ شياطين الإنس.

ومعنى هذه الآية: ﴿**مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾، **قال بعض العلماء**: أي: أن الموسوِس قد يكون من شياطين الإنس وقد يكون من شياطين الجن.

وقال بعض المفسرين: أي: أن المُوَسوس في صدره قد يكون من الجن وقد يكون من الإنس، فالشيطان يوسوس للجن ويوسوس للإنس.

وكلا المعنيين صحيح، فالمُوَسوِس قد يكون جنيًّا من الشياطين وقد يكون إنسيًا، الذي يأتي لأخيه وقد أعفى لحيته: أنت الآن متشدد، الآن المباحث ستبحث عنك، ستسجن، سيفعل بك، امرأتك لن تحبك، هذا موسوس يوسوس بالشر، يفعل ما يفعله الشيطان من الصد عن الخير بالوسوسة، وأيضا الوسوسة تكون للجن؛ لأنهم مكلفون وتكون للإنس، فالشيطان يوسوس للجن ويوسوس للإنس، ذكرت هذا لأن الشيخ لم يذكر هذا ونعود ونقرأ كلام الشيخ.

قال رحمه الله تعالى: **وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويثبطهم عن الخير ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ثم يخنس؛ أي: يتأخر عن الوسوسة إذا ذكر العبد ربه واستعاذ به على دفعه.**

فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم، وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابةٍ هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم

لأجلها فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير.

والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (6)﴾

والحمد لله رب العالمين أولًا وآخرا وظاهرًا وباطنا.